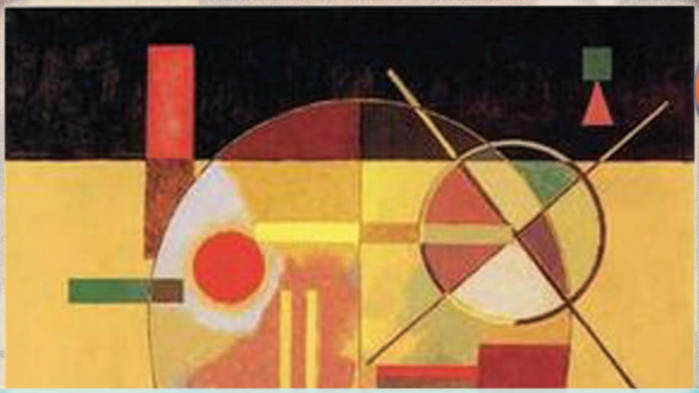

لمحات من علم النفس

صورة الحاضر وجذور الماضى

د. قدرى حفنى

لمحات من علم النفس

تأليف

قـدري حفنـي

المحتويات

هذا الكتاب

منذ سنوات بعيدة تلح علي فكرة هذا الكتاب. كتاب يعرض لعلم النفس، وعلمائه بشكل يقترب من اهتمامات المثقف غير المتخصص، بحيث يتيح له إطلالة على لمحات مما يدور وراء جدران علم النفس الأكاديمي، وعلى رؤى لتاريخ علم النفس ولسير بعض من رواده البارزين، وكذلك على نماذج مما يمكن أن يقدمه هذا العلم من الناحية التطبيقية.

وحين أتيحت لي مؤخرا فرصة للنظر في أوراق لي تراكمت عبر الأعوام، انتقيت منها ما توسمت أن يكون مناسبا لتحقيق الهدف. وأضفت إلى بعضها ما بدا لي مناسبا للتحديث. ولست أزعم بحال أنني بصدد تقديم صورة تقترب من الشمول لعلم النفس المعاصر، بل هي أقرب إلى التعبير عن أبرز ملامح تصوري لهذا العلم، ونماذج من محاولاتي للاقتراب به من نبض المجتمع. ولا أستطيع أن أزعم بحال أنها كل، أو حتى أفضل ما قدمه علم النفس لبلادنا. ولكنها اجتهادات قد تتيح للقارئ أن يتذوق إمكانيات الممارسة التطبيقية في هذا المجال.

الباب الأول : تأملات في المسيرة

الفصل الأول : محاولة لتقصي الجذور

الفصل الثاني : فونت بين العلم والفلسفة والسياسة

الفصل الثالث : فرويد بين العلم والصهيونية

الفصل الرابع : نظرة طائر

الفصل الأول :

محاولة لتقصي الجذور

محاولة لتقصي الجذور

ما الذي يحول دون الإنسان والمعرفة ؟

ليس من شك في أن الإنسان منذ وجد على هذه الأرض وسعى في مناكبها وقضية المستقبل تستحوذ على القدر الأكبر من اهتمامه، وإذا ما أمعنا النظر لا تضح لنا أن اهتمامه هذا بالمستقبل لم يكن ترفا ولا تزيدا، فظروف حياة الإنسان البدائي لم تكن لتسمح بترف ولا بتزيد. لقد كانت قضية " المستقبل " لديه قضية حياة أو موت ؛ أعني حياته أو موته. المستقبل أمامه مليء بالأخطار التي تتهدده من كل صوب وفي كل لحظة. كلها أخطار محتملة أي أنها قد تحدث وقد لا تحدث، فإذا ما حدثت فهو هالك لا محالة، وإذا لم تحدث فسوف تمضي به الحياة. ولكن، أية حياة تلك التي يسودها القلق والترقب ويملؤها الفزع والرعب. أيبقى في مكانه ؟ قد تنمهر عليه السيول فتجرفه، وقد تنفجر من تحته البراكين فتدمره، وقد لا يحدث شيء من ذلك على الإطلاق، أيخرج للصيد ؟ قد يكون ذلك الحيوان القادم نحوه وحشا مفترسا لا قبل له بمواجهته وقد يكون صيدا سهلا فيه غذاؤه.

أويأكل هذا النبات؟ قد يكون ساما فيقضي عليه، وقد يكون طيبا فيشبعه. قد يكون مرا حنظلا لا يستساغ، وقد يكون مقبولا شهيا فيه فائدة. ومئات من الأسئلة أو لنقل من المشاكل طرحت نفسها على الإنسان منذ وجد، آخذة بخناقه دافعة به إلى دوامة من القلق تهدد وجوده، وتكاد أن تقضي عليه.

ولم يكن من حل أمام الإنسان إلا أن يعرف، أن يعلن. لم يكن أمام الإنسان البدائي لكي يكفل أمنا لوجوده ولكي يصنع بالتالي نهاية لقلقه، إلا أن يعرف ما إذا كان معرضا لسيل جارف أو لبركان مدمر. أن يعلم أي الحيوانات تصلح لغذائه، وأيها يصلح هو لغذائها. أن يعلم أي النباتات سام وأيها طيب، أيها مر وأيها مستساغ. وبناء على معرفته تلك بالمستقبل يستطيع أن يتخذ قراراته. فإذا أدت به معرفته إلى أن مكانه سوف يتعرض لبركان أو لسيل أو لزلزال. اتخذ سبيله بعيدا عنه. وإذا أدى به علمه إلى أن ذلك النبات سام سوف يفضى إلى موته إذا ما أكله، أو أن طعمه سوف يكون مرا، اجتنبه ولم يقربه. وإذا أدت به معرفته إلى أن

ذلك الحيوان القادم نحوه سوف يتمكن من افتراسه اتخذ حذره منه.

كانت المعرفة لدى الإنسان البدائي تعني الأمن والحياة. وهي مازالت كذلك حتى يومنا هذا بصورة أو بأخرى. ولو تصورنا جوهر تلك "المعرفة" البدائية أو ذلك "العلم" البدائي، لما وجدناه يختلف، من حيث جوهر العمليات السيكلوجية التي تحكمه، ولا من حيث الدوافع الأصيلة التي تدفعه، ولا حتى من حيث الأهداف التي يسعى إليها عن المعرفة والعلم في أي عصر وفي أي مكان.

ولنتأمل كيف حصل ذلك الإنسان البدائي علمه، أو كيف حصل معرفته ولماذا حصلها، أو ما الذي فعله بها. لقد حقق الإنسان البدائي علمه بملاحظته لأحداث مضت. أحداث وقعت له أو لغيره ورآها ففسرها وتوصل إلى فهم لها ومعرفة بها. وتمكن بناء على تلك المعرفة وذلك الفهم من التوصل إلى التنبؤ بما سوف يحدث، وبالتالي أقدم على ما أقدم عليه وهو أكثر اطمئنانا، وتجنب ما تجنبه وهو أكثر أمنا. كانت تلك هي كيفيه المعرفة، وهدفها منذ وجد الإنسان. ومازالت تلك هي الكيفية حتى الآن وإن اختلفت الوسائل

وتعددت، ومازال ذلك هو الهدف وإن تباينت الصور واتسعت المجالات.

إذن فالعلوم جميعا مهما اختلفت، وتعددت، وتباينت صورها ومجالاتها، لا تعدو أن تكون في النهاية استقراء لوقائع حدثت وتنبؤا بوقائع سوف تحدث. قد يتعمد الإنسان أن يحدث تلك الوقائع ليستخلص منها ما يستخلصه من تنبؤات، كما يحدث مثلا في بعض تجارب الكيمياء والطبيعة وقد ينتظر حدوث تلك الوقائع ويقوم برصدها ليصل إلى تنبؤاته كما هو الحال في دراسات علم الفلك وبعض فروع الطب أيضا، وقد يرجع إلى وقائع حدثت فيما مضى وانتهت وسجلها آخرون ليعيد تفسيرها واصلا بذلك إلى تنبؤاته كما يحدث في علم التاريخ مثلا، وغير ذلك من السبل كثير يفوق الحصر. ولكن يبقى الخط العام واحدا. معرفة بما حدث وتفسير له، وتنبؤ بما سيحدث، واستعدادا له.

ولا تعني وحدة الخط العام الذي يتخذه الإنسان في سبيل وصوله إلى المعرفة واستفادته منها، إهدارا للتمايز بين مختلف العلوم. فالعلوم تختلف من حيث مجالات تلك المعرفة المتخصصة التي تستهدفها. وإذا كان مجال العلوم الطبيعية

هو دراسة ظواهر الطبيعة وهي بالتالي تنقسم إلى علوم تختص بالكيمياء والفلك وما إلى ذلك، فإن مجال العلوم الإنسانية هو دراسة الظواهر الإنسانية بهدف التنبؤ بمسارها. وهي بالتالى تنقسم إلى علوم تختص بالاقتصاد والاجتماع والتاريخ والسياسة، وما إلى ذلك. فعلم الاجتماع – مثلا – يأخذ على عاتقه محاولة الوصول إلى معرفة القوانين العامة التي تحكم حركة المجتمعات من حيث نشأتها وذبولها، تكتلها وتفككها، تمايزها واندماجها، وذلك بهدف التنبؤ بمستقبل أو بمسار تلك الحركة. والأمر شبيه بذلك أيضا بالنسبة لعلم الاقتصاد – مثلا – الذي يهدف إلى محاولة الوصول إلى معرفة القوانين التي تحكم العلاقات الاقتصادية المتبادلة بين الأفراد وبعضهم، وبين الجماعات وبعضها بهدف الوصول إلى تنبؤ بمستقبل أو بمسار تلك العلاقات. وعلى ذلك فإن مهمة علم النفس هي محاولة الوصول إلى القوانين العامة التي تحكم سلوك الأفراد بهدف التنبؤ بمستقبل أو بمسار ذلك السلوك.

ورغم ذلك الارتباط التوثيق بين المعرفة والحياة، فإن تقدم المعرفة العلمية لم يكن متناسبا مع ضرورتها لحياة

البشر. ترى هل ثمة ما يحول دون الإنسان وتحصيل تلك المعرفة الضرورية ؟ ما الذي يجعل إنسانا يسعى إلى المعرفة وآخر لا يقدم على ذلك السعي ؟ ما الذي يجعل إنسانا يحصل معرفة خاطئة بينة الخطأ ومع ذلك يطمئن إليها ويستكين، وآخر يحصل معرفة لا تخلو من صواب ومع ذلك لا يكف عن محاولة تطويرها وإعادة اختبارها وإنعام النظر فيها ؟

ليس ثمة ما يفسر ذلك إلا أن المعرفة في النهاية عملية صراع. صراع مع الجهل والتجهيل. صراع – شأنه شأن أي صراع آخر – تكتنفه نذر الإخفاق والفشل، وتلوح له بشائر النجاح والتوفيق. وإذا كان الجهل خطرا يهدد قوى التنوير بالإخفاق، فإن التجهيل – أعني فرض المجهلة – أشد خطورة وتهديدا. فالجهل بالشيء لا يعنى بالضرورة كفا لمحاولات معرفته، ولا يفرض قيدا على تلك المحاولات، بل لعله يكون دافعا – وغالبا ما يكون كذلك بالفعل – لبذل المزيد من محاولة المعرفة. أما التجهيل فتتمثل خطورته في كونه محاولة مقصودة للإيهام بالمعرفة أو لتوهم المعرفة. محاولة يتعرض لها الإنسان من قبل الآخرين ممن يحاولون

لسبب أو لآخر الحيلولة بينه وبين السعي للمعرفة وتحصيلها فلا يجدون أفضل من إيهامه بأنه يعرف، فينتفي قلقه، ويطمئن لذلك ويستكين. عازفا عن بذل محاولة جديدة للمعرفة تكلفه جهدا وقلقا. ويمضى متمسكا بما يعرفه، أو بما يتوهم أنه يعرفه رافضا التخلي عنه، مستخلصا منه ما شاء من تنبؤات، واضعا على أساسه ما شاء من خطط، ثم إذا بكل ذلك يتحكم على صخور الحقيقة.

التخصـــص العلمـــي بـــين العامـــة وأهـــل الاختصاص

للتخصص العلمي قدسية ورهبة تصد عنه العامة وتكاد تغلقه على أهل الاختصاص، ورغم ما تثيره تلك الواقعة من جدل حول مبررات ذلك السياج ومعقوليته، بل وشرعيته أيضا، إلا أن كل ذلك لا يقلل من كونه حقيقة واقعة بالفعل. فالعامة حيال كل علم متخصص يكاد ينتظمهم موقف موحد مؤداه أن القول الفصل في قضايا ذلك العلم قاصر على المتخصصين فيه، وأنه ليس أمامهم – أي العامة – سوى انتظار هذا القول من أصحابه، والأخذ به دون ما اجتراء على معارضته، أو حتى إقدام على مناقشته. ولا ينفي ذلك

حدوث خروج أحيانا على الانتظام في هذا الموقف من العامة، أو من يطلق عليهم أهل الاختصاص صفة "غير المتخصصين" غير أن ذلك لا يعدو أن يكون شذوذا لا ينفي القاعدة بل يؤكدها.

ومن الجانب المقابل فإن أهل الاختصاص بالنسبة لكل علم يكاد ينتظمهم نفس الموقف أيضا فهم يغلقون الباب على قضايا تخصصهم ولا يفتحونه إلا بمقدار، ولمن أوتي قدرا معلوما – يحددونه هم – من المعرفة والخبرة في مجال تخصصهم، ولقد ارتضى الجانبان – العامة وأهل الاختصاص – لأنفسهم هذا الموقف في العديد من مختلف مجالات التخصص العلمي، حتى أن صفة "عدم التخصص" كادت أن تصبح تهمة تحرم صاحبها حق المشاركة في تناول ما يسمى بالقضايا المتخصصة، بل إنها أصبحت تسقط عن تناوله – إذا ما كان قد جرؤ على ذلك بالفعل – كل ما قد يكون لذلك التناول من قيمة، بل ومن شرعية أيضا. ولا شك أن لهذا الموقف مبرر موضوعي وهو ازدياد التخصصات العلمية عددا وعمقا بحيث لم يعد في وسع أهل اختصاص معين إلا أن يكونوا ضمن العامة حيال التخصصات الأخرى.

ولكن لا شك كذلك في أن هذا الموقف المبرر موضوعيا قد استغل في كثير من الأحيان استغلالا لا يمت للموضوعية بصلة: استغله البعض لإبعاد الجماهير عن مناقشة ما يهمها ويمس حياتها من أمور العلم خاصة فيما يتعلق بتطبيقاته الاجتماعية، واستغله البعض الآخر في تشويه واجتزاء الكثير من القضايا المتخصصة بحجة تبسيطها لغير المتخصصين.

وعلى أية حال فإن مناقشة هذا الموقف بأبعاده المختلفة ليست – رغم أهميتها– موضوعنا في هذا المقام، فما يعنينا هو أن ذلك الاتساق والتكامل اللذين نلحظهما في العلاقة بين موقف العامة وأهل الاختصاص حيال الكثير من مجالات التخصص العلمى، نفتقدها بشكل يكاد يكون صارخا بالنسبة لعلوم الإنسان بعامة وبالنسبة لعلم النفس بوجه خاص. فموقف العامة حيال تلك العلوم يكاد – بدرجة أو بأخرى – أن يكون مناقضا تماما لموقف أهل الاختصاص فيها، ومناقضا أيضا لموقف أولئك العامة حيال مجالات التخصص الأخرى. وسوف نقصر حديثنا على علم النفس بالتحديد مكتفين بالإشارة إلى غيره من العلوم الإنسانية كلما دعت حاجة التمييز إلى ذلك.

علم النفس : من الاستهانة إلى الاستحالة

يتخذ العامة من علم النفس موقفا يمكن تلخيصه في أنهم يعتبرونه مجرد معارف يمكن لأي فرد أن يحصلها دون أن يستلزم ذلك إعدادا خاصا ولا خبرة متخصصة، بمعنى أن أي فرد يستطيع الإلمام بعلم النفس وحسم قضاياه من خلال وعيه لاتصالاته بالآخرين، بل حتى من خلال استبصاره بنفسه ومشاعره هو فحسب. ومؤدى ذلك الموقف من الناحية العملية أنه ليس ثمة تخصص في علم النفس، وبالتالي فليس ثمة متخصصين في علم النفس. الجميع على قدم المساواة حيال قضايا ذلك العلم، سواء في طرح تلك القضايا أو في التصدى لمناقشتها دون ما قيد سوى رغبة المرء نفسه في أن يشترك في الحوار أو يعزف عنه. وبالتالي فإن من نطلق عليهم صفة التخصص في علم النفس لا يتميزون سوى بأنهم أكثر اهتماما بذلك النوع من القضايا، وهم لذلك أكثر طرحا لها. ولا تعنى زيادة اهتمامهم بتلك القضايا أو بطرحهم لها وجودا لتخصص بالمعنى المتعارف عليه. ولكي لا يتبادر إلى الذهن أننا إنما نتعرض لموقف تاريخي عفى عليه الزمن

ولم تعد منه سوى الذكرى. ولكى لا نقع أيضا في منزلق الخلط بين ما نعنيه بمصطلح " العامة " وما قد يعنيه سوانا بذلك المصطلح من إشارة إلى " الأميين " أو " المتخلفين " أو غير ذوى الاختصاص بشكل مطلق وليس بالشكل النوعي المحدد الذي نعنيه والذى يعني أن العامة بالنسبة لمجال تخصص محدد قد يضمون بين صفوفهم – بل إنهم يضمون بالتأكيد – المتخصصين في مجالات أخرى متخصصة، ولكي نتلافى كل ذلك يكفي أن نشير إلى أن اصطلاح " العلوم " مازال قاصرا حتى يومنا هذا – في كثير من دول العالم – على العلوم الطبيعية دون كافة العلوم المتعلقة بالإنسان ومن بينها بطبيعة الحال علم النفس. ولسنا في حاجة إلى تفصيل انعكاسات تلك التفرقة على تصنيف الدراسات الأكاديمية وغيرها لدينا، فهى تفوق الحصر وغنية عن البيان.

وإذا كان العامة يتخذون من علم النفس موقف التبسيط المفرط إلى حد أنهم ينكرون عليه مجرد وجوده كعلم، فماذا عن موقفنا نحن المتخصصون في هذا العلم ؟. إن كثيرا منا نحن أهل الاختصاص في علم النفس يتخذون حيال مجال تخصصهم موقف التصعيب المفرط إلى حد أنهم

لا يعتبرونه علما فحسب بل يعتبرونه " أصعب " العلوم. ولا يكاد يدور نقاش بين متخصصي علم النفس على كثرة وتعدد اتجاهاتهم وبين غيرهم إلا ويطرح فيه أهل الاختصاص تلك القضية. قد يطرحها البعض من قبيل تقرير الواقع أحيانا، وقد يطرحها البعض كتبرير لنواقص يراها في مجال تخصصه أو يخشى أن يراها فيه الآخرون، وقد يطرحها غير هؤلاء كتفسير لما يمكن أن تسفر عنه نتائج البحوث النفسية المختلفة من تناقضات. ولكن هؤلاء جميعا على اختلاف مدارسهم وتنافرها يكادون يجمعون – وهم نادرا ما يجمعون على شيء– على اعتبار تلك القضية، أي قضية أن علم النفس "أصعب" من بقية العلوم، هي التفسير الوحيد لتأخر انفصال علم النفس عن الفلسفة، أو بعبارة أخرى لحداثة عهد علم النفس. ولقد يختلف علماء النفس في حصرهم لأوجه تلك الصعوبة، أو في تصنيفهم لتلك الأوجه، أو ترتيبهم لها حسب أهميتها، ولكنهم مهما مضت بهم اختلافاتهم لا يخرجون عن التسليم بأن ما أدى إلى تأخر استقلال علم النفس إنما هي صعوبته، وأن تلك الصعوبة أمر لصيق بذلك العلم.

وعلى أية حال فإنه ينبغي علينا قبل أن نتعرض لقضية ما إذا كان علم النفس " أصعب " من غيره من العلوم، أن نلقي بنظرة أكثر تفحصا على " صعوبات " علم النفس من خلال ما يقدمه لنا المتخصصون في هذا المجال. ويمكننا – لسهولة العرض فحسب – أن نقسم تلك الصعوبات إلى مجموعتين، تضم المجموعة الأولى أهم الصعوبات المتصلة بموضوع علم النفس، أي السلوك الإنساني، وتضم المجموعة الثانية أهم الصعوبات المتعلقة بمناهج البحث في علم النفس :

أولا : الصعوبات المتعلقة بالموضوع

١) التفـــــرد :

ويعني به أهل الاختصاص خاصية يرون أنها لا تواجه سوى المشتغل في مجال السلوك الإنساني، وهي عدم تشابه وحدات موضوع البحث. بدعوى أن الباحث في مجال العلوم الطبيعية مثلا إنما يتعامل مع مواد تتصف وحداتها بالتطابق والتكرار، وبالتالي فإنه يستطيع أن يسلم ابتداء بأن ما تخلص إليه دراسته لوحدة مفردة إنما يمكن أن يعمم ليشمل بقية المادة جميعا، وأن مثل ذلك التعميم يكون مستحيلا في مجال دراسة السلوك الإنساني.

٢) التغيـــــر

والمقصود به خاصية أخرى ينفرد بمواجهتها – على تلك الصورة – المشتغل في مجال علم النفس، وهي أن موضوع بحثه – أي السلوك الإنساني – موضوع يتغير. بل إنه يتخذ في تغيره مسارات متشعبة ومسالك شتى. فهو يتغير بتغير المكان أو بعبارة أدق باختلاف المواقع الحضارية، حيث يختلف سلوك الأوروبي عن سلوك الأفريقي، بل إن سلوك أبناء المدن يختلف عن سلوك القرويين وهكذا. وهو يتغير كذلك بتغير الزمان فسلوك إنسان العصر القديم يختلف عن سلوك الإنسان المعاصر، وسلوك المصريين في أوائل القرن التاسع عشر يختلف عن سلوكهم في مطلع هذا القرن، وسلوك الطفل يختلف عن سلوك الراشد، بل إن سلوك الفرد الواحد واستجابته لمؤثر محدد يتغير من لحظة إلى أخرى.

ثانيا : الصعوبات المتعلقة بمناهج البحث

١) التناول غير المباشر :

والمقصود به أن طبيعة موضوع البحث، أي السلوك الإنساني قد فرضت فيما يرى هؤلاء العلماء ضرورة تناول هذا السلوك في كثير من الأحيان بطرق غير مباشرة.

فالكراهية مثلا – فيما يرون – كخاصية تميز السلوك الإنساني، ليس لها وجود مادى مباشر، ولذلك فلابد عند دراستها من استنتاجها من خلال أنواع ملموسة من السلوك تشير إلى وجودها.

٢) التحيـــز :

ويعني به المتخصصون ما يتميز به موقف البحث في السلوك الإنساني من أن الباحث يعد جزءا من موضوع البحث بحكم كونه إنسانا، ولما كان هدف أي بحث هو الوصول إلى قوانين عامة تفسر سلوكه هو أيضا، ومن هنا فإن تحيزاته الذاتية، ورغباته، وآراؤه الشخصية، قد تتدخل جميعا في تفسيره للنتائج التي يصل إليها، بل قد يمتد تدخلها لتؤثر في اختياره للوقائع محل الدراسة وللمنهج الذي يختاره لتناولها.

٣) صعوبة التجريب :

وتعني لدى المتخصصين أن علم النفس يتميز ضمن ما يتميز به بأن تناول موضوعه– أي السلوك الإنساني – تناولا تجريبيا أمر تحول دون تحقيقه عقبات عديدة، وتثور في وجهه اعتراضات شتى منها ما يكتسب طبيعة أخلاقية، ومنها

ما يرجع إلى ما أشرنا إليه من صعوبات تكتنف الموضوع في حد ذاته. والخلاصة أن التجريب – وهو أحد الأساليب الأساسية للمنهج العلمي – أمر غير ميسور في مجال علم النفس.

لعل تلك هي أهم وأبرز الصعوبات التي يقدمها لنا المتخصصون في علم النفس كعوائق حالت دون ظهوره، ولعلها مازالت تحول – في رأيهم – دون تطوره. وهي التي يرتكنون إليها في إصدار حكمهم بأن علم النفس " أصعب " من غيره من العلوم موضوعا ومنهجا.

ولدينا اعتراض أولي على صيغة أفعل التفضيل المستخدمة في هذا المقام، واعتراضنا يرتكن على مجموعة من المسلمات الأساسية في علم النفس بعامة وفرع القياس النفسي على وجه الخصوص. ونعني بها تلك المجموعة من المسلمات التى قامت عليها نظرية القياس النفسي والتى تؤدي بنا في النهاية – دون خوض في تفصيلاتها – إلي أنه من المرفوض تماما أن يستخدم علم النفس صيغة أفعل التفضيل هذه في مقارنته لشخص بآخر، أو لسمة بأخرى، إلا إذا ما ارتكز ذلك الاستخدام على أساس التقدير الكمي الذي لا يتأتى

توفره إلا إذا كان لدى رجل العلم أداة موضوعية تمكنه من تلك المقارنة، وهي ما يعرف بالاختبارات النفسية. ولقد أفاض علماء النفس كثيرا – ويحق – في التحذير من خطورة إصدار الأحكام المقارنة دون استخدام الأوات الموضوعية المناسبة، بل لعلنا لا نجاوز الحقيقة كثيرا إذا ما قلنا إنه قد أصبح في حكم المرفوض حاليا لدى المتخصصين في مجال القياس النفسي استخدام مثل تلك الصيغة في المقارنة بين الأفراد أو السمات، فليس مألوفا في ذلك المجال القول مثلا بأن فلانا أذكى من فلان، أو أن ذاكرة البدو أكثر حدة من ذاكرة أبناء الحضر والوقوف عند هذا الحد، بل إن ذلك القول ينبغي أن تسبقه سلسلة من الوقائع الدقيقة التي تؤدى إليه في النهاية، والتي قد تمكننا حينئذ حتى من الاستغناء عنه أصلا، فلابد مثلا من القول أولا بأن فلانا هذا قد حصل على درجة كذا في اختبار كذا للذكاء، وأن لذلك الاختبار معاملا للصدق مقداره كذا وآخر للثبات مقداره كذا، وأنه سبقت تجربته على عينة عددها كذا وصفاتها كذا... إلى آخر تلك التفصيلات التي يصر المتخصصون – وبحق – على ضرورة ذكرها، وإلا أصبح حكمنا خلوا من المعنى. ترى ألا يحق لنا أن

نتساءل أي مقياس مقنن ذلك الذي مكن أصحاب وجهة النظر هذه من الحكم بأن علم النفس " أصعب " من بقية العلوم ؟ أم أن الأمر هنا يمكن أن يترك للأحكام التقديرية ؟. وإذا ما كان الأمر كذلك، ووجدنا أنفسنا – كما حدث بالفعل – حيال العديد من الأحكام التقديرية على " علم النفس ". أحكام تتراوح بين الاستهانة به إلى حد خلعه من بين العلوم، وأخرى تصل إلى التعقيد من شأنه إلى حد اعتباره " أصعب" العلوم، فأي تلك الأحكام أحق بأن يتبع، وكلها أحكام تقديرية؟

محاولة لإعادة النظر

وقبل أن نعيد النظر في تلك الصعوبات التي ذكرناها، والتي تواجه البحث في السلوك الإنساني، محاولين قدر ما نستطيع تبين ما إذا كانت " أصعب " مما يتعرض له البحث في أي مجال علمي آخر أم أنه لا وجه للمقارنة في هذا الصدد، ينبغي علينا قبل ذلك أن نؤكد أن لكل علم صعوباته الخاصة التي يواجهها، والتى سوف يظل يواجه صورا مختلفة منها طالما استمر في طريق التطور، بل إننا لا نتصور علما لا يواجه مصاعب ولا مشاكل تلح على المشتغلين به، اللهم إلا إذا لم يكن له من العلم إلا مجرد

الاسم فحسب، وأمثلة تلك العلوم الزائفة تفوق الحصر، ويكفي أن نشير إلى " علوم " اليازرجة والفراسة وقراءة الكف، ليتضح لنا أن خلو الطريق من المصاعب، وانتفاء المشكلات منه، لا يعني سوى أن ذلك العلم لم يعد بحال أو لم يكن أصلا طريق علم.

ولكن أليس ثمة علاقة بين المشكلات التي تواجهها العلوم جميعا ؟ أم أن المشكلات التي يواجهها كل علم تختلف كلية عن تلك التي يواجهها أي من العلوم الأخرى. لعلنا لو طرحنا من جديد قضية تمايز العلوم وتكورها بشكل أكثر تحديدا ليسر علينا ذلك أمر الإجابة على مثل تلك التساؤلات. إن تمايز علم محدد عن بقية العلوم إنما يعنى أن ذلك العلم يتناول مجموعة من الظواهر تختلف من حيث الطابع النوعي للتناقضات التي تحكم مسارها عن مجموعة الظواهر التي يتصدى لها أي علم آخر وهكذا. وبذلك فإن المشكلات التي يواجهها كل علم تختلف كلية عن تلك التي يواجهها غيره من العلوم طالما أننا بصدد علمين منفصلين تماما. ولكن علاقة الاختلاف تلك ليست بالعلاقة المطلقة، فنحن لا نستطيع أن ننكر قدرا من التشابه بين العلوم جميعا، ولكنه ليس تشابها

في الطابع النوعي للتناقضات التي تحكم مسار الظواهر التي تتصدى لها تلك العلوم، وإلا لما أصبح هناك مبرر على الإطلاق لتعددها، ولأصبح حتما أن تندرج في علم واحد. إذن ما مصدر ذلك التشابه الذي نشير إليه ؟ وما هي مظاهره ؟

إن كافة العلوم التي نعرفها إنما هي انجازات بشرية، أو بعبارة أخرى فإن الإنسان هو صانع كافة تلك العلوم، وبالتالي لابد وأن يسمها بميسمه. لابد وأن تحمل المخلوقات شيئا من خالقها. ولابد إذن من أن تحمل العلوم جميعا شيئا من الإنسان، ومن البديهي أن ذلك الشيء سوف يكون مشتركا بدرجة أو بأخرى بين كافة العلوم. أو بعبارة أخرى لابد وأن يكون هناك تشابه " إنساني " بين كافة تلك العلوم. ولقد سبق أن أشرنا إلى أنه لا يمكن قطعا أن يكون هناك أي تشابه في مجال الطابع النوعي للتناقضات المسيرة لما يتناوله كل علم من ظواهر. أين ترى إذن يمكننا التماس مثل ذلك التشابه ؟ ليس أمامنا سوى أن نلتمسه فيما يسمى بالمنهج العلمي أو مشكلات المنهج العلمي وقضاياه أو بعبارة أخرى في أسلوب الإنسان في التعامل مع تلك الظواهر. وعلى سبيل

المثال فإن دوران الأجرام السماوية، وتغيرات الحرارة، وتأثيرات الوراثة، ومستويات النضج العقلي، يمكن أن تعد نماذج لظواهر يتصدى لها علماء الفلك والفيزياء، والبيولوجيا، وعلم النفس كل على حدة. ومن الواضح أنه ليس هناك تشابه بين القوانين أو المتناقضات التي تحكم مسار كل من تلك الظواهر، ولكن تناول الإنسان لتلك الظواهر جميعا طرح مشكلة ما يسمى بإمكانية القياس وموضوعيته، وأصبح على كل من أولئك العلماء أن يبحث تلك الإمكانية في مجال تخصصه، وهي إمكانية يختلف تحقيقها – من حيث أدواته على الأقل – من مجال إلى آخر وإن كانت تعبيرات مثل " القياس " و" المقاييس " و" الموضوعية " و"التقديرات الكمية " و "التنبؤ الموضوعي " إلى آخر تلك التعبيرات، تظل مشتركة بدرجة تزيد أو تقل بين العلوم جميعا.

ولنعد من جديد إلى تناول صعوبات علم النفس محاولين استكشافها في ضوء ما ذكرنا بادئين بالصعوبتين المتعلقتين بالموضوع وهما التفرد والتغير. ولنا أن نتساءل فيما يتعلق بالصعوبة الأولى، هل صحيح أن عدم تشابه وحدات موضوع البحث يعد صعوبة لا تواجه سوى المشتغل

في مجال السلوك الإنساني ؟ فلنلق بنظرة إلى علم البيولوجيا، ألم يكن الجمع بين الأميبا والإنسان، وبين الديناصورات والنمل، وبين النسور والحيتان، باعتبارهما جميعا كائنات حية أمرا تعترضه صعوبات شتى على رأسها تعدد أوجه الخلاف " والتفرد " بين كل من تلك الكائنات ؟ لقد ظلت تلك الصعوبات قائمة بأشكال مختلفة إلى أن تمكن علماء البيولوجيا من وضع أيديهم على اكتشاف الخلية وتركيبها وقوانينها باعتبارها الوحدة الأساسية التي تتكون منها أو بواسطتها كافة الأنسجة والأعضاء، ولم يكن ممكنا التوصل إلى مثل ذلك الاكتشاف إلا إذا سلم العلماء منذ البداية بأن وراء تفرد تلك الكائنات وتعددها، تكمن خاصية مشتركة تجمعها، وأن التوصل إلى تحديد تلك الخاصية تحديدا موضوعيا، يعني إمكانية التوصل إلى فهم القوانين العامة التي تحكم ظواهر ذلك المجال.

ويبدو أن الموقف في علم النفس يحمل الكثير من أوجه الشبه مع ذلك الموقف، فعلماء النفس يسلمون حتما بإمكانية التوصل إلى القوانين العامة التي تحكم السلوك الإنساني، وتمكن من التنبؤ بمساره، وإلا فما كان هناك مبرر

أصلا لوجود ما يسمى بعلم النفس. وذلك يعني بداهة أن تفرد سلوك الأفراد ليس منفردا مطلقا لا ضابط له ولا رابط، وبالتالي فليس هناك مبرر قوي لافتراض أن ذلك التفرد يتميز عن نظيره في الظواهر المتعلقة بالعلوم الأخرى. والخلاصة أن تخطي الفروق والاختلافات بين الوحدات العديدة التي تدخل في مجال بحث علم محدد وصولا إلى القانون العام الذي يحكم كافة تلك الوحدات، بل ويفسر تنوعها، أو بعبارة أخرى تخطي " التفرد " وصولا إلى "الوحدة " التي تنتظم مجموعة من الظواهر في قانون واحد، يعد سمة تميز كل علم بل تكاد تكون مبررا لوجوده سواء في ذلك علم النفس أو علم الكيمياء أو غير ذلك من العلوم.

ولو انتقلنا إلى الصعوبة الثانية المتعلقة بالموضوع، أعني خاصية التغير، أي أن السلوك الإنساني يتغير بتغير الأزمنة والأمكنة، لوجدنا أن تلك الخاصية بدورها ليست قاصرة على السلوك الإنساني فحسب. صحيح أن التغير في السلوك الإنساني يتخذ صورة تختلف سرعة وعمقا وطبيعة عن صورته في غير ذلك من الظواهر. ولكن لا شك كذلك في أن التغير خاصية تكاد تشكل ظواهر الكون جميعا، بل

لعلنا لا نجاوز الحقيقة إذا ما قلنا إنها تشملها بالفعل، والموقف الذي يواجهه العلماء جميعا هو حصر صور هذا التغير، تمهيدا للبحث في مسبباته. والأمر يختلف من تخصص علمى الى آخر. فعالم النبات مثلا مطالب بملاحظة اختلافات النباتات نوعا وشكلا من مكان إلى آخر، ومطالب كذلك بملاحظة دورة حياة النبات الواحد أي تغيره من يوم إلى آخر، بل ومن عصر إلى آخر، أو بعبارة أخرى ملاحظة تغيره بتغير الأزمنة، إلى جانب تغيره بتغير الأمكنة. كل ذلك تمهيدا لتفسير تلك التغيرات، أي إظهار العوامل المسببة لها. وكذلك الحال بالنسبة لعالم النفس فهو مطالب بملاحظة اختلاف وتغير السلوك الإنساني بتغير الوسط الحضاري، ومطالب كذلك بملاحظة اختلافه وتغيره بتغير الأزمنة. وخلاصة القول أن التغير قانون شامل لظواهر الكون جميعا وليس خاصية تميز السلوك الإنساني بالتحديد، وإن كان ذلك لا ينفي أن الصور التي يتخذها ذلك التغير تختلف من مجال علمي إلى مجال علمي آخر.

ننتقل بعد ذلك إلى أولى الصعوبات المتعقلة بمناهج البحث في علم النفس، أعني اضطرار عالم النفس في كثير

من الأحيان إلى التناول غير المباشر لمادة بحثه، وفي الحقيقة فإن ذلك لم يعد بالأمر الغريب في مجال العلم عموما. فليس هناك ثمة شيء مادي ملموس يسمى بالجاذبية مثلا، ولذلك فحين يتصدى عالم الفيزياء لدراسة ظاهرة الجاذبية، يضطر إلي دراستها من خلال تأثيرها على المواد الملموسة أي التي يمكنه تناولها مباشرة. والأمر شبيه بذلك بالنسبة لعالم النفس الذي يتعرض لتناول ظاهرة كالضعف العقلي مثلا فلا يجد أمامه سوى أن يلتمس وجود تلك الظاهرة ومقدارها من خلال العديد من مظاهر السلوك الإنساني التي يستطيع تناولها وقياسها بشكل مباشر. والخلاصة أن تلك الصعوبة – وبصرف النظر عن تقييمها – تعد أمرا مألوفا في العديد من مجالات التخصص العلمى وبالتالي فهي ليست وقفا على دراسة السلوك الإنساني.

أما فيما يتعلق بأن عالم النفس يكون عرضة للتحيز خلال بحثه في السلوك الإنساني حيث أنه جزء من الظاهرة التي يدرسها، وأن تلك خاصية يختص بها علم النفس دون بقية العلوم، فإنه يكفى في هذا المجال أن نستعيد واقعة حدثت عام ١٩٠٢ في مجال علم الفيزياء.

ففي ذلك العام أعلن م. بلوندلوت، وهو فيزيائي فرنسى بارز في جامعة نانسي، وعضو في أكاديمية العلوم الفرنسية، أعلن أنه اكتشف أشعة أطلق عليها اسم اشعة "ن". وسرعات ما أعلن تأكيد صحة هذا الاكتشاف في معامل فرنسية أخرى وعلى أيدي علماء فرنسيين آخرين مما حدا بالأكاديمية إلى منحه جائزة لالاند. ولقد ثار حول ذلك الاكتشاف جدل بالغ الصخب حين لوحظ أن تلك الأشعة لا يمكن لغير العلماء الفرنسيين العثور عليها. وبعد زيارة أحد علماء الفيزياء البارزين من غير الفرنسيين لمعامل بلوندلوت، ثبت بما لايدع مجالا للشك أن ذلك الاكتشاف المزعوم لا يعدو أن يكون تعبيرا عن نوع من أخطاء المصادفة فحسب. ولنا أن نتساءل، ألا يحتمل أن يكون لعامل التحيز القومي – وليس الشخصي فحسب – دور في دفع العلماء الفرنسيين للوقوع في ذلك الخطأ دون قصد، بل دون وعي؟ وألا يزيد من ذلك الاحتمال معرفتنا بأن إعلان بلوندلوت لاكتشافه كان تاليا لاكتشاف رونتيجن لأشعة × بستة سنوات ؟

لقد حدث ذلك في مجال الفيزياء، وهي كما يقال ملكة العلوم، وحدثت أمور شبيهة بذلك في مجالات علمية لا حصر لها، وتشير جميعا إلى أن تعرض الباحث العلمي لخطر التحيز ليس بالأمر القاصر على البحث العلمى في مجال السلوك الإنساني فحسب، بل إنه خطر تتعرض له مجالات العلوم جميعا طالما أن القائمين بالبحث بشر لهم آمالهم، وأحلامهم، ورؤاهم، ورغباتهم، ولهم بالتالي تحيزاتهم الخاصة. وليس من مبرر لحرص العلوم جميعا على التزام "الموضوعية" سوى التحرز من خطر التحيز. وعلى أية حال فلا بأس من عرض خبرة شخصية ميدانية لإشكالية التحيز في علم النفس.

إن كثرة الغالبية من علمائنا توقن أن " التحيز " نقيض للعلم الموضوعي الصحيح. ومن ثم فإنه نقيصة لابد وأن ينفض رجل العلم شبهتها عن نفسه، وأن يعلن للكافة تبرؤه منها. وإذا كان مجتمع العلماء يتوقع من رجل العلم أن يخطئ في حساباته أو افتراضاته أو استدلالاته، ويتقبل منه هذا الخطأ – أيا كانت خطورة نتائجه – بتسامح نادر، فإن

هذا المجتمع عينه لا يغفر لعالم قط " خطيئة التحيز ". فشتان بين الخطأ والخطيئة.

وتختص العلوم الإنسانية – وفي مقدمتها – علم النفس، بالجانب الأكبر من شبهات التحيز. ويستند أصحاب هذا التخوف، إلي ما يتميز به موقف البحث في السلوك الإنساني من أن الباحث يعد جزءا من موضوع بحثه بحكم كونه إنسانا. ولما كان هدف أي بحث علمي هو التوصل إلى قوانين عامة تفسر مجموعة الظواهر موضع البحث، فإن هذه الباحث في مجال السلوك الإنساني هو التوصل إلى قوانين عامة تفسر سلوكه هو أيضا، وسلوك من قد يحب أو قد يكره من أقرانه البشر. ومن هنا فإن تحيزاته الذاتية، ورغباته، وآراءه الشخصية، قد تتدخل جميعا في تفسيره للنتائج التي يصل إليها بحثه، بل قد يمتد تدخلها لتؤثر في اختباره للوقائع محل الدراسة، وللمنهج الذي يختاره لتناولها.

كانت تلك هي الصورة كما تلقيتها مع أبناء جيلي من دارسي علم النفس في مطلع الخمسينات على أيدي أساتذة أجلاء بذلوا قصارى جهدهم في تدريبنا على التخلي عن تلك السمة المقيتة، سمة التحيز، والتحلي بأهم سمات العالم

الموضوعي، سمة الحياد. ولقد لقننا أساتذتنا آنذاك أن التمكن من إنجاز عمليتي التخلي والتحلي هاتين ليس بالأمر الميسور، وأنه يقتضي مجاهدة شاقة للنفس، وجهدا مكثفا لإتقان الفنيات اللازمة لهذا الإنجاز.

لقد كانت ساحة علم النفس آنذاك تتقاسمها في بلادنا مدرستان كبيرتان تكادان أن تكونا على طرفي نقيض : مدرسة التحليل النفسي وعلى رأسها رائد هذا الفن في العالم العربي أستاذنا الراحل مصطفى زيور، وعلى الضفة المقابلة المدرسة السلوكية وعلى رأسها – ومازال – أستاذنا الدكتور مصطفى سويف. ورغم تباين نظرة كل من المدرستين إلى الإنسان، ومن ثم إلى جوهر موضوع علم النفس وما يترتب على ذلك من تباين في الأدوات والتفسيرات إلى حد أن كلتا المدرستين قد أنكرت على الأخرى مشروعية انتمائها إلى علم حقيقي بالنفس، رغم كل ذلك فقد اتفقت المدرستان – بل وتباريتا – في إدانة التحيز وابتكار الفنيات الكفيلة بتخليص الباحث العلمي من شبهاته.

ارتأت مدرسة التحليل النفسي أنه لا سبيل لممارسة المحلل النفسي لعمله على الوجه الصحيح إلا إذا ما تخلص

من تحيزاته الشخصية. ولذلك فإن على المحلل النفسي أن يخضع نفسه خلال فترة تدريبية لجلسات متعمقة على يد محلل نفسي درب، تكشف له عما بداخله من تحيزات خافية دفينة ولا يلبث خلال خطوات تحليلية نفسية معقدة أن يستبصر بتلك التحيزات، ومن ثم يتخلص منها. وله بعد ذلك أن يمضي إلى مرضاه، محايدا موضوعيا ليعالجهم ويبرئهم من أعراضهم التي هي بشكل أو بآخر تعبير عن تحيزات انفعالية ذاتية حادة لم يطيقوا مواجهة أنفسهم بها في طفولتهم فغاصت في أعماق لا شعورهم ثم راحت بعد ذلك تتبدى في صورة أعراض مرضية تشوه نظرتهم للعالم من حولهم وتشوه بالتالى تعاملهم مع غيرهم.

وعلى الضفة المقابلة من علم النفس الذي نهل منه جيلنا آنذاك، كانت المدرسة السلوكية التي كان ملاذها الرئيسى من خطر التحيز متمثلا بشكل أساسي في إحكام التدريب على الفنيات الإحصائية الصارمة بحيث تكفل للباحث العلمي أن ينأى بتحيزاته عن أي تدخل في التعامل مع موضوع بحثه سواء في تصنيف بياناته أو توصيفها أو تحليل نتائجه. ولقد ساعد تلك المدرسة على تدعيم ملاذها

الإحصائي والاطمئنان إليه ذلك التقدم المذهل في علم الإحصاء والحاسبات الآلية.

وعلى أية حال فلسنا بصدد المقارنة بين الفنيات التي ارتضتها كل مدرسة لتقي أتباعها شبهة التحيز أو الانحياز. كما أننا لسنا بصدد استعراض الثغرات والفجوات التي تشوب السدود التي أقامتها كل من المدرستين بهدف توفير الحماية المرتجاة. فضلا عن أن ذلك قد يخرج عن الإطار الذي تستهدفه هذه الصفحات، فإن التوصل إلى تلك الثغرات والفجوات كان آنذاك – أي في بداية الخمسينيات – أمرا لم يحن وقته بعد بالنسبة لي. فلقد ظل يقينى ثابتا بأن التحيز هو الخطر الأكبر الذي يهدد العلم وهو الوصمة المقيتة التي ينبغي أن يتجنبها رجل العلم. وظلت كذلك حتى وقعت كارثة يونيو ١٩٦٧، والتي أدت تداعياتها على المستوى الشخصي إلى اتجاهي نحو دراسة الشخصية الإسرائيلية، وهو المجال الذي أنجزت فيه أطروحتي للحصول على درجة الدكتوراه في علم النفس من جامعة عين شمس. ولعل خير ما يعبر عن طبيعة الأزمة التي كادت أن تعصف بي آنذاك هي الكلمات

التي قدمت بها رسالتي إلى لجنة المناقشة في التاسع من يناير ١٩٧٤ حيث قلت :

" بدأت قصتي مع هذا البحث في الأيام القليلة التي صاحبت وتلت كارثة يونيو ١٩٦٧. واعترف أنها بداية قد تأخرت بما يزيد عن ربع القرن. لقد أحسست آنذاك أن الكثير من المسلمات النظرية التي كنت أطمئن إليها وأركن لها قد تهاوت، وأنني أوشك أن أتهاوى معها. لقد بددت شمس ذلك اليونيو المشئوم كثيرا من الأوهام النظرية التي كنت أستظل بها دون أن أفطن إليها. ومن بين تلك الأوهام كان توهم إمكانية الفصل بين الأولويات الوطنية، والأولويات العلمية. صحيح أنني لم أعتقد قط بإمكانية الفصل بين العلم والمجتمع، ولكنى كنت على مستوى الممارسة أرتضي حلا وسطا موهوما أقنع فيه بكفاية أن تتوافر بين العلم والمجتمع رابطة ما دون إصرار على ضرورة تطابق الأولويات الوطنية مع الأولويات العلمية. ولم أعد أر مع مغيب شمس الخامس من يونيو سوى أولوية واحدة على المستويين الوطنى والعلمي هي التصدى للخطر الإسرائيلي. ولكن كيف؟ لم يكن لدي اختيارات كثيرة، فالقتال الفعلي، وهو

أرقى وأهم أوجه التصدى المنشود كان بالنسبة لي، وبفعل عوامل كثيرة، أبعد حتى عن مدى الأمنيات. ومن ثم لم يعد أمامي سوى أن أضع ما أعرفه في خدمة من مارسوا ويمارسون بالفعل قتال العدو الإسرائيلي. ولست بالذي يعرف الكثير. فكل ما أعرفه بحكم تخصصي الأكاديمي كان وما يزال قدرا متواضعا من علم النفس. ولكن لم يكن بد من محاولة تسخير ذلك القليل الذي أعرفه لخدمة صراعنا مع العدو. ولعل محاولتي إن لم تفد المقاتلين تقيني الانهيار عجزا ومرارة. هكذا كنت أفكر عندما بدأ اهتمامي بتحصيل نوع من المعرفة النفسية بالعدو الإسرائيلي. هكذا كانت البداية ولم يكن الطريق أمامي ممهدا، بل كان – وأكاد أقول وما يزال – وعرا مقفرا مليئا بالحسك والشوك...".

كانت تلك هي الكلمات التي عبرت بها عن نفسي، والتي آثرت أن أنقلها حرفيا عن تسجيل صوتي لوقائع مناقشة أطروحة الدكتوراه كما أذيعت من الإذاعة المصرية آنذاك.

لقد كان جوهر الأزمة التي تشير إليها تلك الكلمات هي أنني وجدت نفسي مطالبا " وطنيا " بتسخير معرفتي

النفسية لدراسة العدو الإسرائيلي، ولكني كدارس مجتهد لعلم النفس وجدت نفسي مطالبا " علميا " بالتخلي عن عدائي للعدو الإسرائيلي وتحيزي ضد هذا العدو وإلا أصبحت دراستي له لغوا لا طائل وراءه. ولم أجد بدا من مراجعة مسلماتي العلمية الأساسية. هل صحيح أن الانحياز يهدد العلم الموضوعي ؟ وهل من سبيل لتخلص الإنسان بما هو إنسان من انحيازه ؟ وهل من الممكن أن يتخلى الإنسان عن انحيازه مؤقتا خلال بحثه العلمي ليعود إليه من جديد بعد إنجاز هذا البحث ؟ واستغرقتني تلك التساؤلات طويلا. وتضمنت صفحات أطروحتى المشار إليها للحصول على درجة الدكتوراه عرضا لمسيرتي بصدد محاولة الإجابة على تلك التساؤلات، أستأذن في نقلها عن مستهل الفصل الخامس من فصول تلك الأطروحة التي صدرت طبعتها الأولى ضمن منشورات مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس عام ١٩٧٥ وعنوانها " دراسة في الشخصية الإسرائيلية : الأشكنازيم ":

"إن الدراسة السيكولوجية للتجمع الإسرائيلي من موقع مصري قد فرضت علينا صراعا بدا في أول الأمر

وكأنه حتمى بين مقتضيات التجرد العلمي ومقتضيات الالتزام الوطنى. وكاد ذلك الصراع أن يتحول إلى قيد يعوق إمكانية المضي في الدراسة. ثم لم يلبث أن تحول إلى تساؤل مؤداه : هل ثمة صراع حقا بين مقتضيات التجرد العلمي، ومقتضيات الالتزام الوطني؟ وأدى طرح ذلك التساؤل إلى سلسلة متتالية من التساؤلات المترابطة: هل ثمة تعارض بين الانحياز والموضوعية، أم أن التعارض الحقيقي إنما هو بين الذاتية والموضوعية ؟ أليس من فرق بين الانحياز والذاتية ؟ أليس من فرق كذلك بين الحياد والموضوعية ؟ هل صحيح أن ثمة طريق محايد غير منحاز يؤدي إلى معرفة حقيقية، خاصة في مجال العلوم الإنسانية ؟ وإذا لم يكن بد من الحياد لكي تتحقق المعرفة العلمية الموضوعية، فكيف للإنسان أن يعرف أعداءه، أو أصدقاءه معرفة علمية ؟ ألا يعني هذا استحالة معرفة العدو وأيضا استحالة معرفة الصديق ؟ هل الطريق ممهد فحسب لمعرفة أولئك الذين لا يتخذ الإنسان منهم موقفا منحازا مسبقا، أي أولئك الذين ليسوا بأصدقاء وليسوا بأعداء ؟ ترى وهل يهتم الإنسان عادة بمعرفة هؤلاء أم أن اهتمامه إنما ينصب على معرفة أولئك الذين يحبهم

وأولئك الذين يكرههم؟ وهل من إمكانية لأن يؤجل المرء اتخاذ موقفه إلى أن ينتهي من بحثه؟ أم أن اتخاذ مثل هذا الموقف هو بمثابة المبرر أو الدافع الذي يدفعه إلى البحث ؟ ترى هل علماء النفس الذين تصدوا ويتصدون لدراسة العديد من مشكلات الإنسان المعاصر الملحة قد أجلوا اتخاذ مواقفهم حيال تلك المشاكل إلى ما بعد قيامهم بدراستها دراسة محايدة؟ ترى هل يمكن مثلا لعالم أمريكى أن يتصدى لدراسة مشكلة التعصب العنصري حيال الزنوج دون أن يكون مهتما بتلك المشكلة بمعنى أن له موقفا ما منها دفعه بالتالي إلى دراستها؟..... الانحياز يعني اتخاذ موقف مسبق يحتمل أن يكون موضوعيا، ويحتمل أن يكون ذاتيا. أي يمكن أن يكون صحيحا، ويمكن أن يكون خاطئا. أما الذاتية فتعني ألا يرى المرء إلا أفكاره هو وأن يراها على أنها وقائع خارجية... "

لقد مضت على هذه الكلمات سنوات طوال، حققت خلالها العلوم الطبيعية والإنسانية إنجازات ضخمة، وتغير من ملامح تلك العلوم الشيء الكثير. وقد أتيح لي خلال تلك الأعوام الطويلة أن ألتقي مرة ببعض من طلاب الدراسات العليا من دارسي الهندسة وأن ألتقي أحيانا بأقرانهم من

دارسي الطب فضلا عن لقاءاتي المستمرة تقريبا بدارسي العلوم الإنسانية عامة وعلم النفس على وجه الخصوص. وكنت ألحظ خلال تلك اللقاءات أن الكثرة الغالبة من أبنائنا، بل ومن زملائنا، ما زالوا على يقينهم المعهود من خطورة التحيز على العلم وضرورة الحياد بالنسبة لرجل العلم. وقد كنت ومازلت حريصا في مثل تلك اللقاءات على الإشارة إلى أهمية التفرقة بين الانحياز والذاتية، طارحا من الأمثلة والاستشهادات ما يتناسب مع طبيعة تخصصات المشاركين واتجاهاتهم، محاولا أن أحذر من أن محاولة التنصل من الانحياز – الذي هو صورة من صور الانتماء – إنما تدفع برجل العلم إلى واحد من طرق ثلاثة بالغة الخطورة : الطريق الأول يؤدي برجل العلم إلى أن يقصر جهده العلمي على توافه الموضوعات حيث يستطيع أن يلتزم حيالها بحياد صادق مستبعدا كل ما يثير لديه اهتماما اجتماعيا، فإذا بصاحبنا ينصرف بعلمه عما يعذبه، متجها إلى موضوعات لا تعنيه، وقد لا تعني غيره. ولعل ذلك يتفق مع ما سبق أن توصلت إليه، في مطلع السبعينات، خلال مسح أولي لموضوعات البحوث الأكثر انتشارا في مجال علم النفس

الاجتماعي حيث اتضح أن المجالات التي تعاني ندرة بالغة من حيث اهتمام الدارسين بالتصدى لموضوعاتها هي مجالات: الدين، والجنس، والسياسة. ولنا أن نتصور ماذا يبقى لرجل علم النفس الاجتماعي بعد استبعاد تلك المجالات. أما الطريق الثاني فإنه يدفع برجل العلم إلى محاولة مخادعة نفسه منكرا انحيازه مستنكرا له، ثم إذا بنا نجده غارقا في الذاتية حتى أذنيه. ويكفينا أن نشير في هذا الصدد إلى ما أسفرت عنه دراسات مقاييس الذكاء الأمريكية الشائعة عن تشبعها بتحيزات اجتماعية صارخة، وكيف أن حرص أصحاب تلك المقاييس على إنكار تحيزاتهم قد أدى إلى تحول كثير من مقاييسهم إلى أدوات ذاتية خالصة. أما الطريق الثالث وهو أخطر تلك الطرق فيتم من خلاله استدراج رجل العلم وقد انبهر بتقدم الأدوات "الموضوعية" للعلم الغربي لكي يضع خبرته العلمية، ومعلوماته الميدانية، بل وكيانه الشخصي أحيانا في خدمة أعداء قومه، ملتحفا بتلك العباءة المهترئة، عباءة العلم المحايد الذي لا وطن له، ولا انحياز لدى رجاله.

إن الاستجابات التي يثيرها الطرح السابق للمشكلة، والتي مازلت ألمسها في عيون وعلى ألسنة الكثرة الغالبة من الأبناء والزملاء تشير إلى أن ما تضمنته كلماتي التي مضت عليها السنوات الطوال مازالت – للأسف – صالحة للتكرار : "... لم يكن الطريق ممهدا، بل كان – وأكاد أقول وما يزال – وعرا مقفرا مليئا بالحسك والشوك ".

أما صعوبة التجريب في مجال علم النفس فهي أيضا ليست بالخاصية القاصرة على ذلك العلم دون سواه، بل إن العوائق الأخلاقية والموضوعية التي تحد من انطلاق التجريب في مجال دراسة السلوك الإنساني تكاد تكون هي بذاتها نفس العوائق التي تحد منه في مجال الطب مثلا، والقضية في النهاية هي تأكيد إمكانية تخطي تلك العوائق تحطيما أو التفافا وبأساليب تختلف – ولابد أن تختلف – من مجال علمي إلى مجال آخر.

خلاصة القول أن علم النفس، شأنه شأن أي علم آخر يختلف عن بقية العلوم من حيث طبيعة القوانين النوعية التي تحكم الظواهر التي يتعرض لدراستها، ويتفق بدرجة تزيد أو تقل مع بقية العلوم فيما يتعلق بمشكلات المنهج العلمي

وأساليبه وأسسه. ثم إن الظواهر المتعلقة بالسلوك الإنساني تخضع في النهاية لما تخضع له كافة ظواهر الكون من قوانين عامة تنتظمها جميعا. ولا مبرر إذن للحكم بأن الصعوبات التى تواجه المشتغل في مجال علم النفس أكثر تعقيدا من تلك التي تواجه المشتغلين في غير ذلك من المجالات، فلا مجال للمقارنة مثلا بين دراسة تكوين الذرة ودراسة نمو الوظائف العقلية بهدف معرفة أيهما أصعب، فعلم النفس علم " يختلف " – كأي علم – عن غيره من العلوم، ولكننا لا نستطيع القول بأنه أصعبها.

الفصل الثاني

فونت بين العلم والفلسفة والسياسة

فونت بين العلم والفلسفة والسياسة

مقدمة :

يجمع المتخصصون في علم النفس على الإشارة إلى فلهم فونت باعتباره مؤسس علم النفس الحديث، ومن الغريب أنه رغم ذلك، لا يوجد كتاب واحد تخصص في عرض سيرته. وفضلا عن ذلك فإن ما كتب عن فونت لا يولي اهتماما لموقع فونت في مجتمعه خارج معمله وتخصصه العلمى. وهو أمر لا غنى عنه – فيما نرى– لبلوغ فهم حقيقى لدلالة الإسهام العلمي الذي أتى به هذا العالم. ولم يقتصر الأمر على هذا التجاهل فحسب، بل لقد تعرضت صورة فونت – شأنه شأن القادة التاريخيين في العلم والسياسة على حد سواء – لقدر كبير من تدخل الأهواء في رسمها بحيث أصبح فونت الذي نعرفه في الكتب الأكاديمية، يختلف اختلافا بينا عن فونت الحقيقى. ترى كيف حدث ذلك؟ ولماذا؟

لقد قضى فونت مؤسس علم النفس حياته ألمانيا قحا، نشأ في ألمانيا وأنشأ فيها معمله عام ١٨٧٥، ذلك المعمل الذي أصبح آنذاك قبلة المهتمين بهذا العلم الوليد من شتى

بقاع الأرض. وكان من بين تلامذة معمل فونت – ولا نقول تلامذة فونت – عددا من الناطقين بالإنجليزية بطبيعة الحال، ويعنينا منهم في هذا المقام أدوارد برادفورد تتشنر (١٨٦٧–١٩٢٧).

ألمانيا... لماذا؟

ولعله من المناسب قبل الانتقال إلى تتشنر ودوره في صياغة الصورة الشائعة عن فونت، أن نجيب على سؤال ملح. لقد نشأ علم النفس الحديث في ألمانيا على أيدي علماء يحملون الجنسية الألمانية. ترى لماذا كانت ألمانيا بالذات هي مهد النشأة الرسمية لعلم النفس ؟ هل كان ذلك محض صدفة؟ وإلى أي حد تأثر العلم الناشئ بظروف نشأته، وبانتماءات مؤسسيه ؟

لقد حاول دوان شولتز وهو أحد مؤرخي علم النفس المرموقين أن يتصدى لتفسير بزوغ هذا العلم في ألمانيا بالذات، فأشار خلال تناوله لبدايات علم النفس التجريبي إلى أن الرواد الأوائل لهذا العلم كانوا ألمانا. ومن ثم تساءل "لماذا ألمانيا ؟ " ومضى مجيبا على السؤال مقررا :

"... لقد مهد المناخ الفكرى الألماني German temperament – ولمدة قرن كامل – الطريق لنشأة علم النفس التجريبي. فلقد ترسخت جذور علم الفسيولوجيا التجريبي في ألمانيا حيث حاز ذلك العلم درجة من الاعتراف لم تكن قد توافرت له بعد في فرنسا أو انجلترا. وثمة مبررات قوية لحدوث ذلك : إن ما يمكن أن نطلق عليه المناخ الفكرى الألماني كان هو الأكثر ملاءمة من نظيرة في فرنسا أو انجلترا لممارسة عمليات الوصف والتصنيف الدقيق والتنسيق. وبينما كانت فرنسا وانجلترا تميلان إلى تناول العلم باتجاه استقرائي رياضى، فإن ألمانيا بما تتميز به من تأكيد على التجميع الدقيق الشامل للحقائق القابلة للملاحظة، كانت أميل للاتجاه التصنيفي أو الاستدلالي. ولما كانت العلوم البيولوجية والفسيولوجية لا تميل إلى التسليم بداية بتعميمات كبرى يمكن أن تستخلص منها الحقائق، فقد تباطأت الدوائر العلمية في كل من فرنسا وانجلترا في تقبل علم البيولوجيا، بينما رحبت ألمانيا بانضمام هذا العلم إلى أسرتها العلمية نظرا لاهتمامها وإيمانها بالوصف والتصنيف.

وفضلا عن ذلك فإن مفهوم العلم لدى الألمان مفهوم بالغ الرحابة، فبينما يحصر الإنجليز والفرنسيون علمهم في حدود الفيزياء والكيمياء، وهي العلوم التي يمكن تناولها كميا، فإن العلم لدى الألمان يتسع ليشمل العديد من المجالات المتنوعة كعلوم الصوتيات، وفقة اللغة، والتاريخ، والآثار، والجمال، والمنطق، بل وحتى التحليل النقدى للأدب.

بورنج وتتشنر.. التلميذ وانتقائية التأريخ الفونتى

يعد عالم النفس الأمريكي أدوين بورنج (١٨٨٦ – ١٩٦٨) من أبرز مؤرخي علم النفس، إن لم يكن أبرزهم على الإطلاق. فيندر أن نجد كتابا من الكتب المتخصصة في تاريخ علم النفس لا تعتمد مراجعه بصورة أساسية على كتاب برونج الأشهر والمعنون " تاريخ علم النفس التجريبي " سواء في طبعته الأولى عام ١٩٢٩ أو في طبعته الثانية عام ١٩٥٠ ولقد ظلت كتابات برونج هذه بمثابة المصدر الأوحد لدارسي علم النفس من قراء الإنجليزية فيما يتعلق بتلك الحقبة التي شهدت المخاض العنيف الذي أسفر عن مولد علم النفس " العلمى " على يدي العالم الألمانى فيلهلم فونت (١٨٣٢ – ١٩٢٠). وتعتمد مصداقية بورنج في هذا الصدد على عدة ملابسات تاريخية بالغة الطرافة والدلالة معا.

أما إدوارد براد فورد تتشنر (١٩٦٧–١٩٢٧) فقد كان إنجليزيا بحكم مولده فحسب، ألمانيا تماما في كل ما عدا ذلك. لقدر تدرب عامين على يدى فونت في لايبزج، وظل ألمانيا منذ ذلك الحين وطوال خمس وثلاثين عاما قضاها في

الولايات المتحدة الأمريكية التي وصل إليها عام ١٨٩٢ حيث تولى الإشراف على معمل لعلم النفس أقيم في كورنل على غرار معمل فونت في لايبزج. ولقد ظل تتشنر حريصا على إبراز ملامح شخصيته الألمانية التي أكسبه إياها فونت : ظل حريصا على إلقاء محاضراته مرتديا الروب الجامعي، حريصا على إطلاق لحيته بالأسلوب الألمانى الشائع آنذاك حريصا على إخراج محاضراته بشكل تتوافر له كافة الطقوس والمراسم الألمانية التقليدية.

لقد كان تتشنر هو أول وأبرز الوجوه الفونتية في علم النفس الأمريكى، وقد تتلمذ بورنج المؤرخ الأشهر لتاريخ علم النفس التجريبي على تتشنر في جامعة كورنل الأمريكية حيث حصل على الدكتوراه تحت إشرافه عام ١٩١٤. وكان بورنج مأخوذا بأستاذه حقا، حتى أنه يقرر في مقدمة الطبعة الأولى الصادرة عام ١٩٢٩ لكتابه الذي سبق أن أشرنا إليه " إن إهداء هذا الكتاب إلى إدوارد براد فورد تتشنر، إنما يعني اعترافي بأن له أعظم فضل فكري علي ". ثم يشير في مقدمة الطبعة الثانية من نفس الكتاب الصادرة عام ١٩٥٠ إلى " أن إهداء هذا الكتاب إلى أ.ب. تتشنر

مازال ملائما كما كان عام ١٩٢٩، ومازلت أعتقد بصواب كل ما قلته آنذاك ". وليس غريبا على أية حال أن يؤخذ تلميذ باستاذه، ولكن ما يعنينا في هذا الصدد هو أن بورنج – وهو مصدرنا الرئيسى للتأريخ للحقبة الفونتية – قد صور لنا تفاصيل المخاض الفونتي لعلم النفس من منظور هذه العلاقة بينه وبين أستاذه تتشنر من ناحية، وبوصف تتشنر التلميذ الصدوق لرائد هذا العلم ومؤسسه فيلهلم فونت من ناحية أخرى. ومن ثم فقد بدا لنا كما لو كان أمرا مسلما به أن تكون أفكار تتشنر صورة كربونية أمينة لأفكار فونت، وترتب على ذلك مثلا تسليمنا بأن فونت قد استعار العديد من أفكاره الرئيسية من التراث الفكرى البريطاني مترسما خطى جون ستيورات ميل، وأن نظريته في علم النفس هي النظرية البنيانية. وأنه لم يكف أبدا عن محاولة تحرير علم النفس من الفلسفة، ومن ثم فإن أبرز وأهم إنجازاته قد تجسدت في "معمل علم النفس". حتى إن فلوجل في كتابه الموسوم " علم النفس في مائة عام "– والذي ترجمه لطفى فطيم إلى العربية – يؤكد أن تميز فونت عن فخنر وهلمهولتز إنما يرجع – فيما يرجع إليه – إلى أنه كان على عكس فخنر وهلمهولتز

سيكلوجيا في المقام الأول.... وكانت كتاباته الفسيولوجية والفلسفية مع أهميتها تعتبر شيئا جانبيا في أهميتها ودلالتها بالنسبة لسيكولوجيته (فلوجل، ج.ل. ١٩٧٩ ص ١٢٢). وفضلا عن ذلك فإن بورنج رغم إعلانه المتكرر عن انبهاره بفونت، فإنه لم يهتم البتة بمحاولة التعرف على فونت خارج حدود معمله، ومن ثم فقد فاته فهم فونت فهما حقيقيا. وانتقل ذلك القصور إلينا.

هكذا تعلمنا عن مؤرخي علم النفس المحدثين، عن ادوين بورنج، عن برادفورد تتشنر، عن فيلهم فونت. ولكن ترى هل ما تعلمناه يمثل الحقيقة كل الحقيقة ؟ وهل يمكن مراجعة التاريخ ؟ لقد طرح بورنج نفسه هذا التساؤل حرفيا وأجاب عليه بالإيجاب في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه الشهير تاريخ علم النفس التجريبي والتى صدرت عام ١٩٥٠ بعد أن مضى على صدور الطبعة الأولى إحدى وعشرين عاما حيث استهل تلك المقدمة بقوله " ترى هل يمكن مراجعة التاريخ ؟ نعم. فمع مسيرة الزمن تصبح إعادة النظر في تفسيره واردة، فضلا عن أن ثمة اكتشافات جديدة " ألا ما أصدق هذه العبارة. ولكن ترى هل تصور قائلها طبيعة تلك الاكتشافات

الجديدة التي سيقع عليها قراء الإنجليزية في النصف الثاني من السبعينات ؟

فونت... السيرة الشخصية

اجتمع رأي عدد من علماء النفس الأمريكيين الشبان على الاحتفال بالعيد المئوي لإنشاء معمل فونت لعلم النفس في مدينة لايبزيج الألمانية احتفالا فريدا، وذلك بأن يعيدوا قراءة فونت في مصادره الألمانية الأصلية، فإذا بهم يكتشفونه من جديد. وإذا بما اكتشفوه يكاد أن يكون مناقضا لما نعرفه عن فونت وعن الفونتية. وأشار هؤلاء العلماء في مقدمة إنجازهم العلمي إلى حقيقة أنه لأمر غريب أن تظل مثل هذه المهمة في انتظار الإنجاز إلى أن مضت على وفاة فونت ستون عاما... ويكفي أن نقارن بين ما حصل عليه فونت من تأريخ علمي بعد وفاته بما حصل عليه معاصره وليم جيمس مثلا Riaber, R.W. ١٩٨٠ P.٤. وعلى أية حال فإن هذا الصمت الطويل يعد أمرا مريبا في حد ذاته.

ويقرر كيرت دانزيجر [Dnziger, Kurt ١٩٨٠ a] في هذا الصدد أن ثمة عقبات عديدة قد حالت بين قراء الإنجليزية والفهم الصحيح لفونت :

أولا :

ما تفيض به الكتب الدراسية النفسية المعاصرة من عروض مبتسرة وممسوخة لفونت، فليس ثمة سوى ما يتضمنه كتاب بورنج " تاريخ علم النفس التجريبي ". ومادام بورنج هو تلميذ تتشنر، ومادام تتشنر هو تلميذ فونت، فلقد بدا كما لو كان أمرا مسلما به أن تكون أفكار تتشنر صورة كربونية أمينة لأفكار فونت. وفي الحقيقة فإن كلا من تتشنر وفونت يتبنى نسقا نظريا نفسيا يختلف عما يتبناه الآخر تماما. أحدهما يطلق على نظريته " البنيانية "، والآخر يسمى نظريته " الإرادية".

ثانيا :

إن الجانب الأكبر من كتابات فونت النفسية لم تترجم أبدا إلى الإنجليزية. والأخطر من ذلك أن الأجزاء التي ترجمت كانت منتقاه تماما ولا تمثل مجمل فكره. فحتى بالنسبة لأشهر كتبه على الإطلاق " أسس علم النفس الفسيولوجي "، فإن تتشنر لم ينشر سوى ترجمته للجزء الأول من الكتاب، وهو أقل أجزاء الكتاب إثارة للاهتمام من حيث النظرية النفسية لدى فونت. كذلك فقد كرس فونت قدرا

هائلا من وقته وجهده لعلم النفس الاجتماعي، وتجسد ذلك الجهد في عشرة مجلدات ضخمة تحمل اسم " علم النفس الشعبي"، ورغم ضخامة هذا العمل فقد تجاهله علماء النفس الأمريكيين كلية.. مما أدى إلى تشويه خطير لمنظور علم النفس الفونتي ككل..".

ثالثا :

لقد كان فونت بصدد بناء نسق نظري موسوعي. ويعني ذلك أن الفكرة الواحدة سوف تعالج أكثر من مرة وبأكثر من طريقة في أكثر من سياق. ذلك فضلا عن أن فونت لم يكف مطلقا طوال حياته الممتدة عن تعديل وتحوير وتطوير أفكاره.

رابعا :

ونستطيع أن نضيف إلى هذه الأسباب الثلاثة التي أوردها دانزيجر سببا آخر لعله يفوقها أهمية بل ويسبقها في تفسير ذلك التشويه الخطير الذي لحق بفكر فونت خلال نقله إلى القارئ الأمريكي، ومن ثم إلى علماء النفس بعامة. ويتمثل هذا السبب في حقيقة أن فونت كان فيلسوفا له موقف سياسي، واستمر كذلك بل وأثناء وبعد افتتاحه لمعمله الشهير.

لقد أشار بورنج فيما سبق أن أسلفنا إلى أن فونت "لم يكف ابدا عن محاولة تحرير علم النفس من الفلسفة ". بل إننا وقد سلمنا بذلك مع بورنج قد ألفنا تقسيم تاريخ علم النفس إلى تاريخ فلسفي قديم ينتهي عند فونت مؤذنا ببداية علم النفس "العلمي" الحديث. ويشير وولمان إلى ذلك بوضوح بقوله أنه كان لزاما على فونت لكي يحقق إنجازه المتمثل في إقامة العلم الجديد أن يتخلص من الماضي غير العلمي وأن يقطع الروابط بين علم النفس العلمي الجديد وبين الفلسفة العقلية القديمة [Wolmam,B. ١٩٦٠] والحقيقة أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق.

فلقد استوقف انتباهنا منذ سنوات طوال أن روزنتال ويودين يضمنا قاموسهما الفلسفي اسم فونت باعتباره فيلسوفا مثاليا وأن أفكاره الفلسفية مزيج تلفيقي لأفكار سبينوزا، ولايبنتز، وكانت، وهيجل. وأن لينين قد طرح اعتراضات قوية ضد أفكار فونت في كتابه المادية والنقد التجريبي [Rosenthal, M and P. Yudin ١٩٦٧] ويتفق ذلك مع حقيقة أن فونت قد أصدر في لايبزج عام ١٨٨١ – أي بعد افتتاح معمله الشهير بعدة سنوات – مجلة اختار لها اسما بالغ

الدلالة هو " دراسات فلسفية "، وظلت تصدر تحت هذا الاسم حتى عام ١٩٠٥ حيث تغير اسمها إلى " دراسات نفسية ". وقد نشر فونت في مجلته هذه عام ١٨٩٧ – أي بعد مضي اثنتين وعشرين عاما على افتتاح معمله – مقالا فلسفيا تزيد صفحاته عن الثلاثمائة صفحة، أفاض فيه في تبيان موقفه الفلسفي المثالي. وأوضح فونت في هذا المقال أيضا ارتباطه الفكري بعالم الطبيعة الفليسوف النمسوي أرنست ماخ (١٨٨٣–١٩١٦)، الذي كان ينتمي بفكره إلى المثالية الذاتية ويعد من مؤسسي المذهب الفلسفي المعروف بالنقدية التجريبية.

خلاصة القول إذن أن فونت كان غارقا في التفلسف حتى أذنيه قبل إنشائه لمعمله الشهير، واستمر كذلك حتى النهاية. ولم يكن تفلسف فونت قاصرا على فكرة أبداها هنا أو هناك، ولا على اجتهادات نظرية تصدر عنه من آن لآخر ليعود بعدها مستغرقا في تجارب معمله، بل إن تفلسفه لم يكن بحال لخدمة تجاربه المعملية تفسيرا للنتائج أو تبريرا لها. لقد كان فونت فيلسوفا بمعنى أنه كان يتبنى نظرة شاملة للكون ككل، وللإنسان على وجه الخصوص. ولم يكن معمل فونت

سوى نتاجا جزئيا لتلك النظرة الفلسفية الشاملة. ولقد أعلن فونت بصراحة في مقدمة كتابة " الأخلاق " الصادر عام ١٨٨٦ أنه يستهدف التوصل إلى نظرة نهائية وشاملة للكون."... ولكنني أظن أننا يجب أن نبحث في الأخلاق مستهدفين تعزيز الدعامات الأساسية للميتافيزيقيا، أي لنظرتنا النهائية للكون " [Wundt, W. ١٨٩٧]

لقد كان فونت إذن منتميا حتى النخاع للفسلفة المثالية الألمانية، بينما كان مفسروه وشراحه من الناطقين بالإنجليزية ينتمون إلى الفلسفة الإمبيريقية البريطانية، ومن ثم فقد آثروا أن ينسبوا فونت وأفكاره إليهم بدلا من انتسابهم إليه وإلى أفكاره.

ومن ناحية أخرى فقد كان فونت ألمانيا متعصبا، ولعل المجال يتسع لإلقاء مزيد من الضوء على هذه الحقيقة. وعلى أية حال فإن الفجوة الحضارية بين فونت وعلماء النفس الأمريكيين قد اتسعت وازدادت عمقا بتأثير صراعات الحرب العالمية الأولى، ومع تدهور العلاقات الأمريكية الألمانية تباعد علم النفس الأمريكي تلقائيا عن كل ما هو ألماني.

لقد ساهم فونت شخصيا في صياغة نسق كامل للفسلفة المثالية، وكان حريصا في كافة كتاباته في علم النفس على الإشارة بوضوح إلى انتماءاته الفلسفية والاعتراف بفضل عدد من عمالقة الفلسفة الألمانية عليه وخاصة هربارت ولا يبنتز. بل إنه يختتم كتابه الأشهر " أسس علم النفس الفسيولوجي " الصادر عام ١٨٨٠ بقوله "... إن العقل ليس كينونة بسيطة بل إنه – باعتباره نتاجا متطورا لما لا حصر له من العوامل – ليصدق عليه وصف لايبنتز بأنه مرآة العالم" [Wundt, W. ١٩٠٤]

ورغم ذلك فإن أحدا من مؤرخي علم النفس لم يتعرض مطلقا لحقيقة اعتراف فونت بفضل لايبنتز على أفكاره، وما لهذه الحقيقة من تأثير على مفاهيم فونت النفسية، بل إنهم وقد ساروا على درب بورنج أقدموا معه على أمرين بالغي الخطورة: فهم من ناحية فصلوا بتعسف بين فونت العالم صاحب المعمل وفونت المفكر صاحب الموقف الفلسفي والانتماء القومي، حتى أنه قد بدا للبعض أن فونت كان فيلسوفا ثم أصبح عالما أو تحول إلى العلم. وهم من ناحية أخرى قاموا بصياغة أسطورة المنابع البريطانية للاتجاه

الفونتي في علم النفس لتحل محل الجذور – بل والثمار– الفلسفية الألمانية لمفاهيم فونت النفسية.

فونت... والممارسة السياسية

يقول فونت في مقدمة سيرته الذاتية التي نشرت عام ١٩٢٠ أي عام وفاة فونت، إن أقوى دوافعه للإنجاز كانت الدافع السياسي، وأن ذلك يصدق بصفة خاصة على نقاط التحول البارزة في حياته، ويعرف فونت الدافع السياسي بأنه " الاهتمام برفاهية الدولة والمجتمع [Dimond, S. ١٩٨٠, p.٥]

ويبدو أن تتشنر قد فوجئ بأستاذه يعلن هذه الحقيقة دون مواربة، ولعل مصدر المفاجأة هو أن تتشنر كان قد قطع آنذاك شوطا بعيدا في نقل صورة معينة عن فونت إلى المهتمين بعلم النفس من الأمريكيين يبدو فيها فونت بعيدا كل البعد عن القضايا العامة الفلسفية، فما بالنا بالقضايا السياسية، بل والألمانية على وجه التحديد. ومن ثم فقد بادر تتشنر في العام التالى مباشرة، أي عام ١٩٢١، بعرض للسيرة الذاتية التي نشرت في العام السابق مشيرا إلى ما ورد فيها من تأكيده على أهمية الدافع السياسي لديه وكيف أنه يحتل قائمة

دوافعه [Titchener, E.B.١٩٢١ la] معلقا على ذلك بعبارة نصها ".. رغم كل ما تعلمه فونت عبر حياته الطويلة، فإنه لم يتعلم بما فيه الكفاية كيف يعرف نفسه" [Titchener, E.B. ١٩٢١ b]

وليس من تعليق لدينا على هذه العبارة أفضل من أن نقلب معا أوراق سيرة فونت الذاتية كما كتبها بنفسه، وكما استعرضها سولومون ديامونـد [Diamond, S.. ١٩٨٠] وهو واحد من مجموعة علماء النفس الأمريكيين الذين أشرنا إليهم والذين احتفلوا على طريقتهم الخاصة بالعيد المئوي لافتتاح أول معمل لعلم النفس على يدي فونت.

يقرر فلهلم فونـت فـي الصـفحات الأولـى مـن سيرته الذاتية أنه مازال يذكر آخـر أيـام سـنته الدراسـية الأولى وهو في حوالي السادسـة فـي عمـره حـين رأى وهو واقف في الظهيرة علـى درج منـزلهم جمهـرة مـن الفلاحين تتجمع في ميـدان عـام. ثـم شـهد المتظـاهرين يشعلون النار في منزل العمدة. ثم شـهدهم يتفرقـون أمـام هجوم سرية من جنود الخيالة. ولـم تكـن تلـك الـذكرى

التى فضل فونت أن يستهل بها سـيرته الذاتيـة إلا مقدمـة للصور التى شاهدها خلال الثورة العظمى.

التحق فونت بالمدرسة الثانويـة، حيـث كـان طفـلا وديعا مذعورا غير قادر على إقامـة علاقـة مـع أقرانـه مهما كانت الظروف مواتية لـذلك، وكانـت نتيجـة العـام الأول فشلا ذريعا. ولـم يعـد مسـتقبله المهنـي المتوقـع يتجاوز ما نصـحه بـه ذات يـوم أحـد مدرسـيه، وهـو وظيفة متواضعة في مكتـب البريـد باعتبارهـا الأنسـب لمسـتوى طموحـه. واسـتقر رأي الأسـرة علـى منحـه فرصة ثانية في مدرسة أخرى وكان يبلـغ آنـذاك الثالثـة عشر من عمره. وفجأة حدث تحول غريـب فـي أحـوال فونت. تكونت الصـداقات وشـارك فـي الأنشـطة غيـر المدرسية. وأحس على حد تعبيـره أنـه " قـد ولـد مـن جديد ". ويبدو أنه في هذا التاريخ قد بـدأ وعيـه السياسـي في التفتح.

لقد التحق فونـت بهـذه المدرسـة الثانويـة فـي خريـف ١٨٤٥. وفـي مطلـع ١٨٤٦ ثـار الفلاحـون البولنديون في الغال ضد النمسـا. وكـان الليبراليـون فـي

بادن ومنهم فونت يتعاطفون مع هـؤلاء الفلاحـين دائمـا. حتى أن فونت يشير في سـيرته الذاتيـة إلـى أن غالبيـة العناصر الراديكالية في هايدلسـايم كـانوا يطلقـون علـى أنفسم اسـم " البولنـديون " إشـارة إلـى ذلـك التعـاطف القوي مع الفلاحين البولنديين في ثـورتهم ضـد أصـحاب الأرض الروس.

وفي عام ١٨٤٧ ارتفعـت الأصـوات فـي بـادن مطالبة بتحويل الجيش إلى ميلشـيا قوميـة تتعهـد بحمايـة الدستور. وقد أيـد المجلـس التشـريعي فـي بـادن تلـك المطالب في مـارس ١٨٤٨. وفـي مطلـع عـام ١٨٤٩ أعلن الثوار قيام جمهورية مستقلة في بـادن. وفـي يونيـو من نفس العام تمكن فونت، وهو لم يتجـاوز بعـد السـابعة عشر – إذ وقـف علـى أحـد المرتفعـات بـالقرب مـن هايدلبرج – من أن يرى الوميض البعيـد لنيـران المـدافع تعلن قمع الجيش البروسى للجمهورية الوليـدة. ولقـد بلـغ من تأثر فونت بما شاهده أن سـجل فـي أولـى صـفحات سيرته الذاتية عبارة بالغة الدلالة نصها: " لـم يعـد اليـوم سوى عدد قليل من الأحياء الـذين يتـذكرون أيـام قامـت

في بادن جمهورية مستقلة اسـتمرت نصـف عـام وإنـي لمن تلك القلة"

ويمضي فونت إلـى الدراسـة الجامعيـة. ويقـرر أن أحدا من أساتذته آنـذاك لـم يسـتوقف انتباهـه كثيـرا وكان الاستثناء الوحيد في هذا الصـدد هـو أسـتاذ فلسـفة الجمال حين أشار في معرض حديثه إلـى قصـة نشـرت عام ١٨٥٠ وقد تأثر فونت بهـذه القصـة تـأثرا كبيـرا، وأشار في سيرته الذاتية إلى أنهـا تهـدف إلـى " تصـوير الخصائص البشعة للدولـة البوليسـية وتأثيراتهـا المـدمرة على الأخلاق "كما أشار إلى أنها تضـم بـين شخصـياتها عددا من "الصور التي يمكـن التعـرف علـى أصـحابها لشخصيات شاركت في ثورة ٨٤٨".

وفي نهايـة الخمسـينات وبدايـة السـتينيات مـن القرن التاسع عشر، ومع ازدهـار المنـاخ الليبرالـي، بـدأ فونـت يلعـب دورا نشـطا مـن خـلال عضـويته فـي "الرابطة التربوية للعمال". وقـد قـام مـع مجموعـة مـن زملائه من أساتذة جامعـة هايـدلبرج بإلقـاء محاضـرات عامة في فروع الرابطة في عديـد مـن المـدن الألمانيـة.

وقد ورد في إحدى هذه المقـالات وهـي بعنـوان " حـول الوقت ":

" إن أول ساعة ميقاتية يعرفهـا المـرء، هـي أول رجل شرطة يتعامل معه.. فهى تجلـب معهـا كافـة تلـك القيود التى تحد من حريتنا الشخصـية.. إن ثمـة غريـزة طبيعية تدفع البشر إلى النضـال ضـد أيـة قـوى تقمـع استقلاليتهم.. إننا نسـتطيع أن نحـب أي شـيء بشـرا أو حيوانات أو زهورا أو أحجـارا – ولكـن أحـدا لا يحـب رجل الشرطة..".

كانت الرابطة التربويـة للعمـال مسـرحا للنقـاش السياسي، ونظرا لأن فونت كـان يشـغل منصـب رئـيس فرع هايدلبرج، فقد أصبح شيئا فشيئا أكثـر انغماسـا فـي الأمور السياسـية وكـان يمثـل الفـرع فـي المـؤتمرات الإقليمية للرابطة.

وفي عـام ١٨٦٦ انتخـب فونـت عضـوا فـي المجلس النيابي لبادن ممـثلا لمقاطعـة هايـدلبرج حيـث حصل على ٤٥ صوتا مـن عـدد الأصـوات البـالغ ٥١. وكان فونـت خـلال عضـويته فـي المجلـس مرتبطـا

بالحزب التقدمي الحاكم، وكـان طبيعيـا باعتبـاره أسـتاذا جامعيا أن توكل إليه المسـئوليات ذات الطـابع التربـوي. ولقد أسهم فونت خلال عضويته فـي وضـع التشـريعات الخاصة بإلغاء بعض الاسـتثناءات القانونيـة التـي كـان يتمتع بها طلاب الجامعـة والتـى كانـت تعتبـر مـثلا أن نشوب مشاجرة عنيفة بين الطلاب أمـر يخـص الجامعـة فحسب، بينما تعتبر جريمة إذا مـا أقـدم عليهـا الجمهـور من غير الطلاب. وفضـلا عـن ذلـك فقـد أدى حمـاس فونت السياسي البالغ لتوحيـد الـدويلات الألمانيـة جميعـا إلى ضمه لعضـوية لجنـة السـلام التـي تشـكلت عقـب حرب ١٨٦٦ بين بروسيا والنمسا.

إلا أن عضوية فونت فـي المجلـس النيـابي لـم تستمر طويلا حيث استقال بعـد عـام ونصـف. ويقـرر فونت في سيرته الذاتية وأيضا في خطاب بعـث بـه عـام ١٨٧٢ إلى خطيبته، أنـه اسـتقال بعـد أن تبـين لـه أن الاشتغال بالسياسة يتطلب تفرغا كاملا ممـا لا يجعـل فـي استطاعته التوفيق بينه وبين عمله العلمي.

وعلى أية حال فقد ارتبطـت تلـك الاسـتقالة مـن حيث التوقيت مع اتجاه الرابطة التربويـة للعمـال صـوب مزيد من الراديكالية إذ أصبحت فـي عـام ١٨٦٨ إحـدى تنظيمات الرابطة الدوليـة للشـغيلة وهـي رابطـة تتبنـى فلسفة تقوم على الصراع الطبقـي ممـا يتعـارض تمامـا مع توجهات فونت الفلسفية.

إن موقف فونت مـن قضـايا الصـراع الطبقـي موقف واضح لا لبس فيه فهـو يتبنـى فـي هـذا الصـدد موقفا قوميا متطرفا. ويتضح هـذا الموقـف القـومي فـي خطبة ألقاها أمام فـرع الرابطـة التربويـة للعمـال فـي هايـدلبرج عـام ١٨٦٤ إذ يقـول: " إن هـدف حركـة الطبقة العاملة كلها هو حريتها واسـتقلالها وتحررهـا مـن الآلية، ولكن هذا الهـدف يـرتبط ارتباطـا لا فكـاك منـه بوحدة ألمانيا وحريتها، ومن ثـم فـإن علـيهم أن يقـاتلوا وملـؤهم الإحسـاس بـواجبهم حيـال شـرف الأمـة. إن الصـلابة فـي القتـال والاعتـزاز بالشخصـية أمـور لا علاقة لها بالمكاسب المادية، وقيمتها تفـوق قيمـة الـذهب والممتلكات..."

وليس ثمة تعارض كبير فيما نرى بين ما ذكره فونت في سيرته الذاتية وما أورده في رسالته إلى خطيبته عن مبررات الاستقالة من عضوية المجلس النيابي، وعن تلك التأثيرات التي أحدثها تحول الرابطة التربوية للعمال صوب تبني فلسفة طبقية. ومما لا شك فيه أن استمرار فونت في ممارسة دوره السياسي السابق بنفس قناعاته الليبرالية القومية التي عرضنا لها كان سيقتضيه التصدر للفكر الجديد للرابطة التربوية للعمال الذي يرفضه، والتصدي أيضا لما يرفضه من ممارسات السلطة وهو ما لم يكن ليطيقه بحال. ومن ثم فقد انسحب من مجال الممارسة السياسية المباشرة ولكن ترى هل غير ذلك من قناعاته الفكرية الفلسفية؟ أم أنه اختار مجالا آخر – ربما يكون أكثر أمنا – للتعبير عن هذه القناعات وتجسيدها؟

فونت عالما

لقد كان خطاب الأستاذية الذي ألقاه فونت في جامعة زيوريخ عام ١٨٧٤ مليئا بأسماء الفلاسفة، فقد أشار مرة إلى كل من أرسطو، ولايبنتز، ولوك،

ومرتين لفخته، وأربعة مـرات لهيجـل، وخمـس مـرات لشوبنهور، وثماني مرات لهربـارت، وإحـدى وعشـرين مرة لكانت. في حين لم يتضمن أية إشـارة مـن قريـب أو بعيد لبحوث الفسيولوجيا أو المخ.. إلـى آخـره. وقـد ورد في هذا الخطاب وبشـكل واضـح " أن النظـام الواحـدي الذي تسعى إليه العلوم الحديثة لابـد وأن يكـون المثاليـة " بل إنه زاد الأمر وضوحا بإشارته إلى مثالية فخته.

وفي عام ١٨٧٦، وإثر افتتاحـه لمعملـه الشـهير، ألقى فونت خطابا في جامعـة لايبـزيج بمناسـبة تدشـينه أستاذا بها جاء فيـه: " أنـه بقـدر نزعتنـا اليـوم وبحـق للمطالبة بأن يكون للخبرة تأثيرها علـى الفلسـفة، ينبغـي أن يكون تأكيدنا على أن الفلسفة في عصـرنا هـذا تحديـدا ينبغي أن تمارس تأثيرها القديم بـين العلـوم الإمبيريقيـة.. إن الإمبيريقية الحديثة إنما تسـتمد اسـمها مـن الفلسـفة.. ولعل الـزمن لا يطـول كثيـرا، وتسـتعيد الميتافيزيقـا – التي تلقى احتقارا بالغا من قبـل البـاحثين الإمبـريقيين – بعضا من مكانتها المرموقة".

إذن، لقـد ظـل العـالم فلهلـم فونـت متمسـكا بتوجهاته القومية وبأفكاره الفلسفية. ولكـن تـرى إلـى أي حد تركـت تلـك التوجهـات والأفكـار بصـماتها علـى إنجازاته في مجال علم النفس؟.

فونت وعلم النفس البنياني

يورد القاموس الشامل لمصـطلحات علـم الـنفس والتحليل النفسي تعريفـا لعلـم الـنفس البنيـاني باعتبـاره إحدى وجهات النظـر أو المـدارس النفسـية التـي تحلـل المحتويات أو المضـامين العقليـة إلـى مكونـات أوليـة باتبـاع مـنهج الاسـتبطان مـدعوما بالتجريـة. ويـربط إنجلش وإنجلش في قاموسهما المشار إليـه بـين التعريـف السابق وبين مصطلحين آخرين:

المصـطلح الأول، هـو سـيكلوجية المحتـوى أو المضمون، باعتبارهـا دراسـة محتـوى العقـل أي ذلـك الـذي فـي العقـل أو الشـعور، أي ذلـك الـذي يمكـن ملاحظتـه عـن طريـق الاستبصـار. ويقـرر إنجلـش وإنجلش بوضوح في تناولهما لهـذا المصـطلح أن " علـم النفس البنياني وكـذلك الظاهرياتيـة همـا بمثابـة شـكلين

مختلفـين لسـيكولوجية المحتـوى" والظاهرياتيـة وفقـا لتعريف القاموس ذاته هـي " وجهـة النظـر القائلـة بـأن السلوك إنما يتحـدد بظـاهر الخبـرة بـأكثر مـن تحـدده بـالواقع الخـارجي الموضـوعي الفيزيقـي الموصـوف". ويورد القاموس المثال التالي لتوضـيح مـا يعنيـه بـذلك: إن الاستبطانيين قد يعرفـون المنضـدة مـثلا باعتبارهـا توزيع معين للأضواء والألوان والخصـائص اللمسـية بـل وحتى للروائح، في حـين أن أصـحاب الاتجـاه الفيزيقـي قد يميلون إلى تعريفها باعتبارها كتلـة تشـغل حيـزا مـن الفضاء، أما أصحاب الفلسـفة الظاهرياتيـة فـإنهم سـوف يميلـون إلـى تناولهـا كمـا يـدركها مـن يخبرهـا دون إخضاع ذلك الإدارك أو تحـويره وفقـا لأي مـن قـوانين الملاحظة. ومن ثـم فقـد يكـون التعريـف الظاهريـاتي للمنضدة وفي حدود خبرة معينـة أنهـا مكـان للكتابـة أو للعب الطاولة أو اللاستناد أو للجلوس... إلى آخره.

أمـا المصـطلح الثـاني الـذي يـربط إنجلـش وإنجلش بينه وبين علم النفس البنياني فهـو مصـطلح علـم النفس الوجودي. ويعرفانه بأنـه " وجهـة نظـر تـرى أن

مهمة علـم الـنفس ينبغـي أن تقتصـر علـى ملاحظـة ووصـف البيانـات الموجـودة الآن، أو بعبـارة أخـرى وصف محتويات الخبرة أو المحتويـات العقليـة. ويمكـن اعتبار علم النفس الوجودي بمثابة النتـاج الطبيعـي لعلـم الـنفس البنيـاني مـع تركيـز قـاطع علـى الوصـف الاستبطاني الكامل البعيد عـن كافـة التفسـيرات، والـذي يتبعه تحليل وتصنيف للخبـرات كوقـائع فـي حـد ذاتهـا ومن أجل ذاتها. ولقد ارتبط هذا المصـطلح بوجهـه نظـر تتشنر[English, H.B.& English, A.C]

أما روزنتـال ويـودين فـي قاموسـهما الفلسـفي فإنهما يقرران خلال تناولهمـا لتعريـف مصـطلح البنيـة "إن لمفهـوم البنيـة مكانـا خاصـا متميـزا فـي مجـال اللغويات حيث تعني البنيانيـة دراسـة اللغـة كنسـق مـن الإرشادات. وللمفهوم مكـان خـاص متميـز أيضـا فـي مجال علم النفس متمثلا في مفهـوم الطبيعـة المتكاملـة أو البنيانية للنفس، وهـو مـا يميـز الجشـتات علـى وجـه الخصوص" [Rosenthal, M.&P.Yudin]

ويتفق روزنتال ويودين في ذلك مع ما أورده عالم النفس الأشهر جان بياجيه في كتابه المعنون "البنيانية" من حيث الربط بين البنيانية والجشتلت في علم النفس، إذ يقرر أنه " يمكننا القول بأن فكرة البنية قد دخلت علم النفس منذ حوالي بدايات هذا القرن حين اتخذت مدرسة فورزبرج لعلم النفس المعرفي متمثلة في ألفريد بينيه الفرنسي وكلاباريد السويسري موقفا مضادا للارتباطية.. إلا أن أكثر الأشكال جلاء وظهورا للبنيانية النفسية كان يتمثل بلا شك في نظرية الجشتلت التي ازدهرت من خلال تراكم بحوث وولفجانج كوهلر، وماكس فرتيمر والتي امتدت إلى علم النفس الاجتماعي على يدي كورت ليفين وتلامذته. [Piaget,J. ١٩٧١ pp ٥٢-٥٣]

أما كارل فلوجل في كتابه علم النفس في مائة عام فإنه يقابل بوضوح بين علم النفس البنياني، وعلم النفس الوظيفي مقررا: " إن الصراع بين علم النفس البنياني وعلم النفس الوظيفي يمكن أن ينظر إليه كامتداد طبيعي لتضاد أقدم بين المضمون والفعل والذي

يعد بدوره – إلى حـد مـا – منـاظرا للتعـارض الأكثـر قدما بـين الآليـة والنشـاط" ويقـرر فلوجـل " أن هـذا الخلاف في وجهات النظر بين علـم الـنفس العـام وعلـم النفس الفارقي، قد أصبح الآن خلافا بـين أنصـار البنيـة، وأنصـار الوظيفـة.." ثـم يمضـي فلوجـل مقـررا " إن البنيانية أو الوجودية كما سـميت أحيانـا. تخـتط لنفسـها طريقا أكثـر ضـيقا وجمـودا. ويبـدو أن وجودهـا فـي النهاية إنما تحدد بدرجة كبيرة بمنهجهـا. وإذا مـا نظرنـا إلى هذا المنهج وجدنا أن البنيانية في جوهرهـا هـي علـم نفس استبطاني يهدف إلى تحليـل الخبـرة إلـى عناصـر. (فلوجل، ل. ١٩٧٣)

ويقرر ماركس وهيلـيكس فـي كتابهمـا: أنسـاق ونظريات في علم النفس " إن أرقى الصـور تطـورا لعلـم النفس الاستبطاني الذي يتـدرج تحـت اسـم البنيانيـة أو الوجودية تتمثل فـي صـورتها الأمريكيـة النهائيـة فـي أعمال تتشنر. لقـد أعطـى تتشـنر هـذا النسـق اسـمه المعروف عام ١٨٩٨ حين أشار إلى تشـابهه مـع دراسـة البنية في علم البيولوجيا. لقد كانت نظريـة تتشـنر بمثابـة

التحسين المعدل لسيكولوجية معلمه الأثير فلهلم فونت. لقد كان علم النفس البنياني خلال الأعوام الأولى لنشأة علم النفس في ألمانيا بمثابة علم النفس الوحيد، وكانت غايته هي التحليل الاستبطاني للعقل البشري. لقد كان علم النفس بمثابة نوع من كيمياء الشعور ". [Marx, M.H. & W.A. Hillix p ٦١]

ويحدد ماركس وهيليكس الدلالات الرئيسية للبنيانية في تاريخ علم النفس في ثلاث دلالات:

١- أنها أعطت لعلم النفس دفعة علمية قوية، إذ ربطت وللمرة الأولى بينه وبين ذلك النمط من الإنجاز العلمي الذي يحظى بالاعتراف الأكاديمي الرسمي، والذي يتميز بوضوح عن منبعيه الأصليين: الفسيولوجيا والفلسفة.

٢- أنها أتاحت اختبارا شاملا للمنهج الاستبطاني الكلاسيكى باعتباره المنهج الوحيد لعلم النفس المكتمل.

٣- أنها أقامت بناء فكريا قويا أثار في مواجهته قوى الوظيفية والسلوكية والجشتلت، مما مكن لتلك

القـــوى مـــن النمـــو والرســـوخ [Marx, M.H.&W.A.Hillix p ٦١].

ولكن ترى هل كان فونت مؤسسـا للبنيانيـة فـي علم النفس، وأن تتشنر قد نسج علـى منوالـه كمـا يـرى فلوجل. لقد كان فونت يـرى أن علـم الـنفس يمكـن بـل ويجـب أن يكـون تجريبيـا، وكـان موضـوع البحـث الرئيسي لديه هو ما يسمى بالخبرة المباشـرة فـي مقابـل الخبرة الوسيطة التي تعني – لدى فونـت – تلـك الخبـرة التى تستخدم كوسيلة لتحقيق معرفـة تتعلـق بشـيء آخـر غير الخبـرة نفسـها. فـي حـين كـان يقصـد بـالخبرة المباشرة، الخبـرة فـي حـد ذاتهـا وكمـا يعبـر عنهـا صاحبها. وكان السبيل إلى دراسـة هـذا النـوع الأخيـر من الخبرة لدى فونت هو منج الاستبطان.

لقد كـان لعلـم الـنفس التجريبـي – فيمـا يـرى فونت – مهاما ثلاثا هي:

أ- تحليل العمليات الشعورية إلى عناصر.

ب- اكتشـــاف طبيعـــة الاتصـــالات بـــين تلـــك العناصر.

جـ- تحديد القوانين الحاكمة لتلك الاتصالات والروابط.

وهكذا كانت بداية تجزيئيـة فونـت. ولعـل تلـك التجزيئية تبدو في أوضح صورها إذا مـا تناولنـا موقـف فونت من مشـكلة الجسـم – العقـل وهـي واحـدة مـن المشكلات الرئيسية التى واجهت ومازالـت تواجـه كافـة أصحاب النظرة الشاملة إلى الإنسـان سـواء كـانوا مـن الفلاسفة أو العلماء. لقد كـان فونـت يعتقـد بـأن الجسـم والعقل نسقان متوازيان لا يـتم التفاعـل بينهمـا مباشـرة، وأن العقل لا يعتمد على الجسـم، ومـن ثـم فإنـه يمكـن دراسته مستقلا.

وينبغي أن يكـون واضـحا أن فونـت لـم يكـن يسـتهدف تحليـل العمليـات الشـعورية باعتبارهـا موضوعات، بل باعتبارها عمليات ووقـائع، حيـث يقـرر بوضوح أنه في حقيقة الأمر فإن الأفكـار – شـأنها شـأن كافة الخبرات العقلية الأخرى – ليسـت موضـوعات بـل إنها عمليات أو وقائع.[Wundt, W. ١٨٩٤ p.٢٣٦]

ويعلق مـاركس وهيلـيكس علـى هـذا الموقـف الفونتي بقولهما "... وهكذا فإن النظـر إلـى علـم الـنفس باعتباره علما يبحث عن عناصر العمليـات لـيس بـالأمر

السهل. ولقد كانـت نتيجـة افتقـاد فونـت الوضـوح أن أصبح متهمـا بالعناصـرية الجامـدة وبأنـه ينظـر إلـى محتويات الشعور باعتبارها عناصر بنيانيـة ثابتـة. ولقـد ارتبط اسم الوجودية بهذه المدرسة لأنهـا بـدت كمـا لـو كانت تنظر إلى عناصر الشـعور باعتبـار أنهـا موجـودة شأن وجـود الموضـوعات الفيزيقيـة. ولقـد بـدا علـى البحث التجريبي فـي ليبـزيج مـن الشـواهد مـا يبـرر للمتقـدمين اتهامـاتهم، وذلـك رغـم معارضـة فونـت النظرية المنظمـة لمثـل وجهـة النظـر هـذه فـي علـم النفس". [Marx, M.H.&W.A. Hillix p ٦١]

كانت تلك في عجالة سريعة أهـم ملامـح البدايـة الفونتية الأولى. ويعد تتشـنر – كمـا سـبق أن أشـرنا – هو أول من صاغ لعلم النفس البنيـاني اسـمه وذلـك فـي مقال له نشره عام ١٨٩٨ جاء فيه:

إن لعلم البيولوجيا بأوسـع معانيـه، كعلـم للحيـاة والأشياء الحية، أقساما ثلاثة. أو بعبارة أخـرى فـإن ثمـة مداخل ثلاثة يمكن تناولـه مـن أي منهـا. إننـا نسـتطيع دراسة بنية كـائن عضـوي معـين، دونمـا نظـر إلـى

وظيفته. وذلك بتحليل يحدد أجـزاءه المكونـة، وبتركيـب يبين طريقة تشكله من الأجـزاء... وإننـا لنجـد أن جانبـا كبيرا جدا من علم النفس التجريبي يسـتهدف تحليـل بنيـة العقل بهدف استخلاص العمليات العناصـرية مـن خضـم النسيج المتشـابك للشـعور، أو بهـدف عـزل مكونـات تشكيل شعوري معين. إن مهمتـه أشـبه بعمليـة تشـريح الكائنات الحية، ولكنـه تشـريح يسـتهدف نتـائج بنيانيـة وليست وظيفية. إنه يحـاول أن يعـرف أولا وقبـل كـل شيء مـاذا هنـاك وبـأي مقـدار يوجـد، دون التصـدي لمعرفة لماذا هـو هنـاك. [Marx, M.H&W.A. Hillix p ٦٦-٦٧]

ويقول تتشنر في كتاب له نشر عام ١٨٨٩:

ينبغي أن نفهم العقل باعتبار أنـه يعنـي ببسـاطة المجموع الكلي للعمليـات العقليـة التـى يخبرهـا الفـرد طيلة حياته. إن الأفكـار والمشـاعر، والـدفعات... إلـى آخره إنما هي عمليات عقلية ويتكـون عقلـي مـن العـدد الكلي للأفكار والمشاعر والـدفعات ومـا إلـى ذلـك مـن الخبرات التي خبرتهـا خـلال حيـاتي. [Titchener, E.B. ١٨٩٩ p. ١٢]

ويحدد تتشنر لعلم النفس ثـلاث مشـكلات رئيسـية عليه مواجهتها:

إن عالم الـنفس يسـتهدف بلـوغ غايـات ثـلاث، فهو يستهدف أولا تحليل الخبـرة العقليـة العيانيـة الفعليـة إلى أبسط مكوناتهـا. ويسـتهدف ثانيـا اكتشـاف كيفيـة تجميع تلك العناصر معا، أو البحـث فـي القـوانين التـي تحكم تجمعها. ويستهدف ثالثا الربط بـين هـذه العناصـر وشـروطها الفسـيولوجية الجسـمية. [Titchener, E.B. ١٨٩٩ p. ١٥]

إن النصوص الثلاثـة السـابقة، والتـي آثرنـا أن نوردهـا متتاليـة دون تعليـق يقطـع سـياقها، يمكـن أن نستخاص منها ما يلي:

أولا: ربط تتشنر بوضـوح، ومنـذ البدايـة، بـين مفهوم البنية، وأصوله البيولوجيـة، وخاصـة بينـه وبـين التشريح الحي. ويفصح هذا الـربط عـن خاصـية هامـة، هي ارتباط البنيانية في علم النفس ومنـذ البدايـة الأولـى، باتجـاه تجزيئـي يميـز علـى وجـه الخصـوص علـم التشريح.

ثانيا: يؤخذ على البنيانية من وجهة النظر الفلسفية أنها تسقط من اعتبارها البعد التاريخي، مقتربة بذلك وفي هذا الصدد فحسب، من الوضعية المنطقية، والنص الثاني من نصوص تتشنر السالفة يفصح عن موقف خاص اتخذته البنيانية في علم النفس لديه. موقف وسطي يأخذ بالتاريخ في حدود كونه تراكما للخبرات الشخصية التي تعرض لها الشخص طيلة حياته، وليس باعتباره تراكما إنسانيا عاما يميز البشر عن بقية الكائنات.

ثالثا: لا يخرج تتشنر كثيرا في تحديده للمهام الثلاث التي تواجه علم النفس عما أتى به معلمه فونت. غير أنه لا يذهب مذهب فونت في اعتبار أن الفيزياء تدرس الخبرات الوسيطة بينما يدرس علم النفس الخبرات المباشرة فهو يرى أنه ينبغي النظر إلى كافة الخبرات باعتبارها خبرات مباشرة بحيث يصبح الفارق قاصرا على طبيعة الاتجاه الذي يتخذ حيال تلك الخبرات. فالفيزيائي يدرسها مستقلة عن صاحب

الخبرة بينما يدرسها عالم النفس من خلال الذي يخبرها.

ولعل من أهم المفاهيم التي اهتم تتشنر بصقلها وإبرازها مفهوم خطأ المنبه، ويعني لديه توجيه الانتباه إلى الخصائص المعروفة للمنبه وتسجيلها بدلا من الاهتمام بالخبرة الحسية في حد ذاتها، ويسلم تتشنر بأن مثل هذا التوجيه يعد بالغ الفائدة بل والضرورة في تعاملنا اليومي، وأننا جميعا نحرص على تنمية مثل تلك العادات لدينا. ورغم ذلك فإنه يرى ضرورة خفوت هذه العادات القوية لدى من يود أن يكون ملاحظا سيكلوجيا كفؤا. وليس من سبيل إلى ذلك إلا من خلال جهد تعليمي مكثف ومثابر في هذا الاتجاه الجديد. بعبارة أخرى فإن ممارسة الاستبطان بكفاءة تقتضى أن يتعلم المرء تجاهل الموضوعات والأحداث كما هي، والتركيز بدلا من ذلك على الخبرة الشعورية الخالصة المرتبطة بموقف الاستثارة الراهن المؤقت. والأمر بذلك يختلف تماما عنه في علم الطبيعة حيث يتركز الاهتمام على الموضوعات والأحداث كما هي،

والسعي إلى تجاهـل المواقـف الراهنـة المؤقتـة المثقلـة بالخبرات الشعورية.

لقد قام تتشـنر – وفقـا لتعبيـر مـاركس وهيلـيكس بطرد علم نفس الطفل، وعلم نفس الحيـوان مـن النسـيج الرئيسي لعلم النفس كما تطـرد الأرواح الشـريرة، وهـو ما لم يقدم عليه فونت. لقـد دفـع تتشـنر بتجربـة فونـت نحو مزيد من الصرامة والمبالغة. فلم يعـد يكفيـه القـول بضرورة أن يكون علم النفس علمـا تجريبيـا، بـل كـان يرى أنه من الضروري أيضـا أن يكـون علمـا خالصـا. ويقول ماركس وهيليكس فـي هـذا الصـدد " لقـد كـان تتشنر يعتبر العلم التطبيقي نوعـا مـن التنـاقض، فالعـالم كما يراه ينبغـي أن يحـتفظ بنفسـه متحـررا مـن كافـة الاعتبارات التي تتعلق بالقيمة العملية لمـا يفعلـه، ولـذلك فإن تتشنر لم يتقبل مطلقا ما قـام بـه كاتـل وغيـره فـي مجال علم النفس الفـارقي باعتبـار أن ذلـك لا يقـدم أي إسهام هام لعلم النفس، كمـا أن تتشـنر يسـخر بسـخرية مريرة من فكرة أن وظيفة علم الـنفس تشـمل استكشـاف السبيل لصـون العقـول المريضـة أو مرضـى العقـل".

[Marx, M.H.& W.A. Hillix ١٩٦٣ p ٦٩]

كانت تلك هي البدايات البنيانية في تاريخ علم النفس، ومنذ كانت تلك البدايات والانتقادات تنهال عليها مهما تحور شكلها ومهما ابتعدت عن أصولها الأولى ونستطيع أن نوجز تلك الانتقادات في المعالجة التالية مرجئين مناقشتها قليلا:

أولا: أن الاستبطان – وهو الأداة الرئيسية لعلم النفس البنياني – لا يعدو أن يكون استرجاعا، طالما أن تقديم تقرير عن حالة من حالات الشعور لابد وأن يستغرق وقتا ما. ونظرا لسرعة النسيان خاصة أثر التعرض للخبرة مباشرة، فإن جانبا من هذه الخبرة يتعرض حتما للضياع، وإذا ما ألح القائم بالاستبطان في سعيه لاسترجاع الخبرة الشعورية كاملة فإن ذلك قد يؤدي إلى نوع من الخطأ في الاسترجاع أو حتى التزييف له.

ثانيا: إن عملية الاستبطان في حد ذاتها قد تحدث تغييرا في الخبرة نفسها، باعتبار أن الاستبطان بدوره ليس سوى خبرة. ويحدث ذلك بشكل واضح في استبطان حالة شعورية كالغضب مثلا، إذ تؤدي محاولة

الفرد لاستبطان خبرته الشعورية الغاضبة إلى خفوت إحساسه بالغضب بل حتى إلى تلاشي غضبه تماما.

ثالثا: إن التقارير الاستبطانية قد يعوزها الاتساق بحكم تباين أساليب التعبير اللغوي مما يحد من إمكانيات المقارنة.

رابعا: ثمة مجالات عديدة ومتزايدة تدخل في صميم نطاق علم النفس ولا يمكن تناولها مطلقا باستخدام المنهج الاستبطاني، ومن أمثلة تلك المجالات: المعاني اللاشعورية، والأفكار التي لا تصحبها صور والتي قامت عليها مدرسة فورزيورج، وذلك فضلا عن علم الحيوان وعلم نفس الطفل.

ولعل أصدق ما قيل عن البنيانية من وجهة نظر علم النفس المعاصر يتمثل في كلمات ماركس وهيليكس عندما اختتما تناولهما لها ختاما دراميا أقرب إلى الرثاء بقولهما:

" لقد ماتت البنيانية. لقد أودت بها دوجماطيقيتها الضيقة، وهو مرض لا تعمر معه طويلا أي من مدارس علم النفس. لقد افتقدت البنيانية أي سند

تطبيقي عملي، وافتقدت أيـة روابـط تـربط بينهـا وبـين بقية مجالات علم النفس، ولذلك فلم يـأس علـى موتهـا إلا قلة ". [Marx, M.H. &W.A. Hillix p ٨٢]

ترى هل هذا صحيح؟ وهل نحـن بصـدد انتحـار البينانية حقا؟ أم إننا حيال واقعـة أقـرب إلـى أن تكـون قتلا للبنيانية أو انتحارا أقدمت عليه؟ تـرى مـن قاتلهـا إذا كان الأمر كذلك؟ أم إننا حيال اختفاء لهـا فحسـب، وأننـا قد نعثر عليها طريدة خارج أسوار علـم الـنفس الرسـمي؟ وهي أسوار شاهقة حقا.

وعلى أية حال فلنحاول أن نتبـين موقعـا لبنيانيـة فونت وتلامذته من تيـارات الفكـر الفلسـفي المعاصـرة لهم، بل والمعاصرة لنا أيضا. وقـد يبـدو الحـديث عـن الفكر الفلسفي أو عـن الفلسـفة بشـكل أو بـآخر، ونحـن بصدد قضية من قضـايا علـم الـنفس مثـارا لقـدر مـن الغموض، ولكثير من الجدل أيضـا، ولـيس هـذا بـالأمر المستغرب على أية حال فلقد أشار إليـه أسـتاذنا الـدكتور مصطفى زيور في تصـديره لكتـاب أزمـة علـم الـنفس المعاصر حين قال:

" يبـدو لـي أن جمهـرة علمـاء الـنفس العـرب ينصرفون عن الاطلاع على الإنتـاج الفلسـفي المعاصـر. وأن أكثرهم انصرافا هـم الـذين بـدؤا دراسـتهم العليـا بدراسة الفلسفة. وقد وضـح لـي مـن مناقشـاتهم وممـا يكتبون، أنهم ينظرون إلى الفكر الفلسـفي نظـرة ارتيـاب وحذر. وحجتهم في ذلك أن علم الـنفس لـم يقـف علـى قدميـه بوصـفه علمـا إلا بعـد إطـراح مـنهج التأمـل الفلسفي، والالتزام بمناهج العلـوم المضـبوطة، ومـن ثـم فإن العهد السابق على هذا الالتزام إنما هـو فيمـا يـرون بمثابة عصر الجاهلية في علم النفس ". [بوليتزير،ج.]

وعلى أية حال فإن مثـل هـذا الارتيـاب الحـذر، مهما بلغت سكوته، ومهما تماسـكت مبرراتـه، ينبغـي أن يخفت بل ويتلاشى إذا ما كنا بصدد الاقتـراب مـن فونـت وهو الشخصية الرئيسية في موضـوعنا، وذلـك ببسـاطة لأن فونت كان في نهاية الأمر فيلسوفا.

ترى ما هي طبيعة المنـاخ الفلسـفي الـذي كـان يسود أوروبا آنـذاك؟ مـا هـي القضـايا الفلسـفية التـي أفرزها ذلك المناخ؟ وما هي طبيعـة الصـراع بينهمـا، إن

محاولة الإجابة على تلك التساؤلات هـي السـبيل الأوحـد لتحديد انتماء فونت الفلسفي، ومن ثم لفهـم دلالـة إسـهامه البنياني في علم النفس.

يقـول برنـال فـي كتابـة الموسـوعي المسـار التاريخ للعلم:

" لقد تميزت نهاية القرن التاسـع عشـر – شـأنها شأن بدايته – بردة فلسـفية تسـتهدف الحـد الشـديد مـن مجال العلـم وقيمتـه. وبينمـا اسـتهدفت الـردة الأولـى التصدي لتأثيرات الثورة الفرنسية، فـإن مـا كـان يحـرك الردة الأخيرة هـو الـوعي بـالثورة الاجتماعيـة القادمـة وعيا مثيرا للقلـق. فـرغم تعـاظم الثـروات الجديـدة... ورغم الآفاق المفتوحة أمـام مزيـد مـن التقـدم، كانـت ضغوط المجتمع تتزايد بدلا من أن تخفت. ولـم يكـن فـي صـفوف المثقفـين المتحضـرين مـن ينكـر الإحسـاس اليائس بالإحباط.. وكانت الاشـتراكية الماركسـية تبـدو- وخاصة في أوربا بمثابة البديل المـأمول للطبقـة العاملـة الصناعية.. لقد كان ثمة ارتداد عن الماديـة التـي ميـزت منتصف القرن، واتجـاه إلـى الوضـعية الجديـدة التـي

ينادي بهـا ارنسـت مـاخ وارسـتوالد والتـي اسـتبعدت المادة، مستبدلة إياها بربطـات مـن الإحساسـات أو بمـا إلى ذلك من أوهام مريحة، تحت ستار تطهيـر العلـم مـن التركيبات العقلية غير الضرورية. إن هـذه الفلسـفة ومـا شابهها من فلسفات... إنمـا تسـتهدف تجريـد العلـم مـن طابعه الثـوري وجعلـه مقبـولا لـدى منظمـات الـدين والدولة ". [Bernal, J.D. ١٩٥٧ pp٤٠٧-٤٠٨]

خلاصـة القـول أن المنـاخ الاجتمـاعي للثـورة الصناعية الأوروبية قد أفرز تيـارين فكـريين متمـايزين ومتصارعين: التيـار الفكـري المـادي الماركسـي مـن جانب، والتيـارات الفكريـة المثاليـة مـن جانـب آخـر، ونستطيع أن نعتبر تلك التيارات غيـر الماركسـية جميعـا بمثابة ردود على الماركسـية بـدرجات متفاوتـة. ولكـن ترى أين تقع بنيانية فونت وتتشـنر مـن هـذه الخريطـة الفكرية المتشابكة؟

يقول تتشنر في كتاب لـه نشـر عـام ١٨٩٩ " إن الميتافيزيقيـا التـي يوجهنـا إليهـا العلـم هـي تلـك الميتافيزيقيا التي تختفي فيهـا كـل مـن المـادة والـروح

ليفسحا الطريـق لمفهـوم موحـد هـو الخبـرة: ويعلـق ماركس وهيليكس على الـنص السـابق بقولهمـا " وهنـا يبدو تتشنر كما لو كان متقـبلا لفكـرة واحديـة الخبـرة، ووجهة نظره هذه شبيهة بوجهة نظر ارنسـت مـاخ الـذي كان تتشنر شغوفا به، والذي أكد علـى الخبـرة باعتبارهـا أسـ ـ ـ ـ ـ ـ ـاس كـ ـ ـ ـ ـ ـ ـل العلـ ـ ـ ـ ـ ـ ـوم [Marx, M.H. &W.A. Hillix ١٩٦٣ p. ٧٦]

كذلك فإن روزنتـال ويـودين يضـمنا قاموسـهما الفلسفي اسم فونت مشـيرين إلـى أنـه فيلسـوف مثـالي، وأن أفكاره الفلسـفية.. مـزيج تلفيقـي لأفكـار سـبينوزا، ولايبنتـز، وكانـت، وهيجـل، وأن لينـين قـد طـرح اعتراضات قوية ضد أفكـار فونـت فـي كتابـه الماديـة والنقد التجريبي. [Rosental, M. & P.Yudin ١٩٦٧]

فونت وتتشنر ينتيمان إذن مـن الناحيـة الفلسـفية إلى ارنست ماخ الذي عبر تتشـنر صـراحة عـن شـغفه به، والذي ارتبط به اسم فونـت حتـى أن لينـين ينقـدهما معا في كتابه المشار إليه. ترى مـن هـو ارنسـت مـاخ؟ وما هي قصة الفلسفة النقدية التجريبيـة؟ ثـم مـا علاقـة علم النفس الفونتي بهذا كله؟

كان ارنست ماخ من معاصرى فونـت، فقـد ولـد عام ١٨٣٨ أي بعد مولد فونـت بسـت سـنوات، وتـوفي عام ١٩١٦ أي قبل وفاة فونت بسنوات أربـع. وقـد كـان ماخ واحدا مـن علمـاء الطبيعـة والفلاسـفة النمسـويين، وكان ينتمـي بفكـره إلـى المثاليـة الذاتيـة، ويعـد مـن مؤسسي المذهب الفلسفي المعـروف بالنقديـة التجريبيـة. ولقد نشأت هذه الفلسفة تحت وطأة الأزمـة التـي واجهـت علم الطبيعة فـي أواخـر القـرن التاسـع عشـر، والتـي تمثلت فـي اكتشـافين رئيسـيين همـا اكتشـاف وجـود الإلكترون، واكتشاف ظاهرة الإشعاع الـذري، ومـن ثـم فقد تصدع البناء الشامخ الـذي أقامـه نيـوتن وقـدم مـن خلاله صورة فيزيقيـة متكاملـة للعـالم، وبعـد أن كانـت الذرة هي اللبنة الأولى في تركيب الكـون، وهـي الوحـدة الأساسية التي لا تقبـل الـرد إلـى مـا هـو أصـغر، أو التجزئة إلى عناصر مستقلة مكونة لهـا، أصـبح كمـا لـو أن الإلكترون قد احتل هـذا المكـان، وأن الـذرات ليسـت مكونات بسيطة، بل إنها مكونات بالغـة التعقيـد، بـل وأن العناصر المكونـة للـذرة تتسـم هـي الأخـرى بصـفات

ليست بسيطة تمكنها من إصدار واستيعاب كميات معينة من الطاقة بدليل اكتشاف ظاهرة الإشعاع الذري. لقد غيرت هذه الاكتشافات تماما من صورة المادة كما عرفها علم الطبيعة الكلاسيكى النيوتوني. وبدا للبعض كما لو أن المادة قد فقدت ماديتها. وتحت تأثير هذه الصدمة اهتز يقين الفلاسفة والعلماء المثاليون. وبدلا من أن يقدموا المادة في صورتها الجديدة، انتهوا إلى موقف مزدوج: فمن ناحية ذهبوا إلى القول بأن التجربة لا تقدم سوى كثرة من الإحساسات لا رابطة بينها وبين بعضها، وأنه لا يوجد في العالم الخارجي أي أساس لتصوراتنا عن الأجسام حال تحركها في المكان. ومن ناحية أخرى ذهبوا إلى رفض ما تصوروه متعلقا بالمادة القديمة من مفاهيم، كالجوهر والعلية والضرورة. لقد بدأ الماخيون بإنكار موضوعية العالم الخارجي، ثم لم يلبثوا أن رفضوا الطابع الموضوعي للقوانين التي تحكم التطور في الطبيعة والمجتمع. وقامت المادية التجريبية على مبدأين أساسيين:

أ- مبدأ الاقتصاد في الفكر، وفحواه أن العالم الخارجي مكون من عناصر حيادية أي إحساسات ليس إلا، وبالتالي فإنه لابد من تنقية التجربة من مفاهيم المادة والضرورة والعلية.

ب- مبدأ التنسيق، ويقوم على الربط بين الذات والموضوع، بيد أن هذا الربط يتم عادة لحساب الذات.

نستطيع أن نستخلص من هذين المبدأين أن أهم ما يميز النقدية التجريبية هو تشكيكها في إمكانية معرفة العالم الخارجي، كما هو في حقيقته، ولذلك فإن ماخ يعرف الأشياء بأنها مجرد مركبات من الأحاسيس، ويستند في رفضه لأفكار السببية والضرورة والجوهر إلى كونها جميعا غير واردة في الخبرة، ويعرف العلم باعتباره مجموعة من المفاهيم التي تشير في النهاية إلى مركبات من الأحاسيس، بحيث يمكن استبداله تماما بالملاحظة المباشرة.

لقد كان تتشنر أكثر صراحة بل وشجاعة في إعلان شغفه بالفلسفة النقدية التجريبية وإعجابه بماخ فيلسوفا، أما فونت فقد نشر في مجلة دراسات فلسفية

فـي عـام ١٨٩٧ مقـالا مطـولا زادت صـفحاته عـن الثلاثمائة صـفحة محـاولا فيـه أن يحـدد لنفسـه موقفـا فلسفيا متميزا. ويعلق لينـين فـي كتابـه الماديـة والنقـد التجريبي. على مقال فونت قائلا:

" إن مقال فونت المشار إليه يعـادل كتابـا ضـخما حيث يقع فيما يزيد عن ٣٠٠ صـفحة، ويتضـمن المقـال تحليلا مفصلا للمدرسة الحلوليـة ثـم النقديـة التجريبيـة. ترى لماذا ربـط فونـت بـين هـاتين المدرسـتين؟ لأنـه يعتبرهما على صلة وثيقـة ببعضـهما الـبعض... ويبـين فونت في الجزء الأول من مقالـه أن الحلـوليين مثـاليون ذاتيون، يتبعون خطـى الإيمـانيين.. وهـذا رأي صـحيح تماما.. غير أن فونـت نفسـه مثـالي وإيمـاني. وهـو لا يدين الحلـوليين لمثـاليتهم ولا لإيمـانيتهم، ولكـن لأنهـم توصلوا إلى تلـك المبـادئ العظيمـة بطـرق خاطئـة ".
[Lenin, V.I. pp ٦٢-٦٣]

إن لينين لم يكن متخصصا بـل ولا حتـى مهتمـا بعلم النفس وقضـاياه، ولكنـه مـع ذلـك لـم يسـتطع أن يتجاهل طبيعة المأزق الفلسفي الـذي يحـيط بفونـت: إنـه يمارس الماخية فعلا، ويرفضها فكـرا أو بـالأحرى فإنـه

يظن نفسه رافضا لها على الحالين، وهو في حقيقة الأمر متفق معها على أية حال. تلك هي مأساة فونت الحقيقية، وفي غمارها تتوارت بشائر البنيانية تحت ركام هائل وسيل لا ينتهي من بحوث معملية تجزيئة لا أول لها ولا آخر.

لقد التقط فونت الهدف الحقيقي للعلم المنشود، وهو دراسة الوعي، ووضع يده على الأداة الحقيقية لبلوغ الهدف متمثلة في اللغة بمعناها الشامل كأداة تواصل. لكنه لم يلبث أن أضاع كل شيء، فتضاءل الهدف وتدنى ليصبح تحليلا للعمليات الشعورية وانهارت الأداة واختزلت لتصبح استبطانا تجريبيا ضيقا. وشيئا فشيئا احتل السلوك مكان الصدارة كهدف للدراسة، ولم يكن بد لكي تكتمل الصورة من أن تصبح الملاحظة الموضوعية هي الأداة المثلى. وقد كان ذلك كله قدرا محتوما لا مهرب منه.

المراجع الأجنبية

Anderson, R.J. (١٩٧٥) " The untranslated content of Wundts Grundzuge der physio- logischen psychologie " ,Journal of Histiry of Behavioral Sxcience, ١٩٧٥, ١١،٣٨١-٣٨٦

Allen, G.W. (١٩٦٧) William James: A biography. Viking

BernAL, j.d. (١٩٥٧) Sciance in history , Watts

Boring, E.G. (١٩٢٩) A history of experimental psychology, Appelton

Boring, E.G. (١٩٥٠) A history of experimental psychology, Appelton

Danziger, Kurt (١٩٨٠ a) " Wundt and the two traditions of psychology" , IN, Wilhelm Wundt and the making of a scientific psychology, R. W. Rieber, Ed., Plenum Press

Danziger, Kurt (١٩٨٠ b) " Wunrts theory of behaviour and volition ", IN, Wilhelm

Wundt and the making of a scientific psychology, R.W.Rieber, Ed., Plenum Press

Diamond, S. (١٩٨٠) " Wundt before Leipzig " IN, Wilhelm Wundt and the making

Of a scientific psychology, R.W.Rieber, Ed., Plenum Press, P.٥

English, H.B. and A.C.English (١٩٥٨) , A comprehensive dictionary of psychology

And psychoalytical terms, Longman

Lenin, V.I.Materialism and empiriocreticism: Critical comments on reactionary philosophy

Marx, M.H. and W.A. Hillix (١٩٦٣) , Systems and theories in psychology, McGrowhill
Piaget, j. (١٩٧١) , Structuralism, Routedge and Kegan Paul
Rieber, R.W. (١٩٨٠), ed., Wilhelm Wundt and the Making of A scientific psychol- ogy, Plenum Press
Rosenthal, M and P. Yudin A dictionary of philosophy, Progressive Publishers, Moscow, ١٩٦٧
Shultz, Duan A history of modern psychology, Academic, ١٩٧٥
Titchener, E.B. (١٨٩٩) An outline of Psychology, Mcmillan
Titchener, E.B. (١٩٢١ a) " Review of Wundt, Erlebtes und Erkanntes" , American
Journal of psychology, ٣٢. ٥٧٥-٥٨٠
Titchener, E.B.(١٩٢١ b) Wilhelm Wundt", American Journal of Psychology. ٣٢, ١٦١-١٧٧
Wolman, B. Contemporary theories and systems in psychology, Harper, ١٩٦٠
Wundt, W. (١٨٩٤) Lectures on human and animal psychology, (ttans. O.E.Creighton and E.B. Titchener), Macmillan
Wundt, W. (١٨٩٧) E thics: An investigation of the facts and laws of the moral lifs,
Vol I (trans. By, J.H.Gulliver. and M.F.Washburn), Macmillan
Wundt, W. (١٩٠٤) Principles of physiological psychology, (trans. By E. B.Titchener), Macmillan

المراجع العربية

بوليتزير، ج. (التـاريخ غيـر مبـين) أزمـة علـم النفس المعاصر، دار الكتاب العربي.

فلوجل، ج. ك. (١٩٧٩) علـم الـنفس فـي مائـة عام، ترجمة لطفي فطيم، دار الطليعـة للطباعـة والنشـر، بيروت.

الفصل الثالث

فرويد بين العلم والصهيونية

فرويد بين العلم والصهيونية

جوهر الفرويدية

لقد تضمن البناء الفكـري للتحليـل النفسـي حتـى في صياغاته الأولى التي قدمها سـيجموند فرويـد مزيجـا من مجموعتين مـن الأفكـار، تـدور المجموعـة الأولـى حول التسليم بأننا إذا ما تتبعنـا التطـور التـاريخي الـذي سلكته البشرية لوجدناه يرجع إلى جماعـة أو قبيلـة بدائيـة يرأسها زعيم واحد يدين لـه الجميـع بـالولاء والطاعـة، ويحتكر لنفسه كل نساء القبيلة محرما علـى أبنـاء القبيلـة الاقتراب من أي منهن. وينتهي الأمر بـأن يقتـل الأبنـاء أباهم الزعيم متحملين فـي سـبيل ذلـك أقسـى مشـاعر الخطيئة والإثم. ولقـد توارثـت البشـرية تلـك المشـاعر التي حكمت أبناء وبنات القبيلة البدائية الأولـى جـيلا بعـد جيل. ولـم يـتم هـذا التـوارث عـن طريـق الانتقـال التاريخي عبر الوعي الشعورى للبشرية. فـإن قسـوة تلـك المشاعر وضرواتها قد دفعت بها إلـى أعمـاق اللاشـعور أو إلى ما يمكـن أن يسـمى باللاشـعور السـلالي. أمـا

المجموعة الثانية من الأفكـار فتقـوم علـى التسـليم بـأن الفـرد يلجـأ إلـى كبـت المشـاعر المؤلمـة الصـادمة والمرتبطة بالشعور بالإثم أو دفعها إلـى اللاشـعور الـذي يمكن أن يسمى حينئذ بـلا شـعور الفـرد. ومـن خـلال المزج بين هاتين المجموعتين من الأفكـار يصـل التحليـل النفسي إلى أن حياة الفـرد إنمـا هـي تلخـيص للتـاريخ البدائي للجنس البشـري. وأن الطفـل مطالـب بالانتصـار على البذور البدائية فـي داخلـه خـلال سـنواته الـثلاث الأولى وكبتها في اللاشعور.

النقد الراديكالى للفرويدية

لقـد واجهـت الفرويديـة انتقـادات عديـدة مـن وجهات نظر شتى، ولعل أكثر تلـك الانتقـادات شـيوعا، وأبعـدها عـن الصـواب، تلـك اليمينيـة المنطلقـة مـن أرضيات دينية أو سياسية محافظة، والتـى تركـزت علـى توجيه تهمة الدعوة للإلحاد الـدينى والانحـلال الأخلاقـي إلى الفرويدية. ولكـن الانتقـادات التـى لـم تحـظ لـدى مثقفينا بنفس الدرجة مـن الشـيوع هـي تلـك الانتقـادات الردايكالية المنطلقة من اليسار الفكري.

لقد كان ثمة حوار تـاريخي متصـل بـين اليسـار الماركسي تحديدا وبين التحليل النفسـي، ولـم يكـن ذلـك الحوار مرتبطا بحال بتـاريخ علـم الـنفس فـي الاتحـاد السوفيتي، بل ولا حتى بوجـود الاتحـاد السـوفيتى ذاتـه. فللنظرية الماركسية أتباعها حتى في الـدول الغربيـة التـي لا تدين بالماركسية بل هي أقـرب إلـى إدانتهـا. وعلـى أيدي وأقلام هؤلاء بالتحديد استمر ذلـك الحـوار الخصـب بين الماركسية والتحليل النفسـي. ولعـل قيـامهم بالـذات بهذا الدور إنما يرجع إلى أنهم بحكـم وضـعهم التـاريخي – بل والجغرافي – لم يقعوا فـي بـراثن ذلـك التنـاقض الطاحن بين الدولـة والثـورة أو بـين السـلطة والعقيـدة، والذى لعب دوره التاريخي في انهيـار الاتحـاد السـوفيتي في نهاية الأمر. لقد كانوا أصـحاب فكـر يحـاورون مـن خلاله أفكارا أخرى. وشهدنا مـن هـؤلاء فلهلـم رايـش، وجـورج بـوليتزير، وهنـري فـالون، ولوسـيان سـيف وغيرهم. وإذا كان هؤلاء قـد حـاولوا بـدرجات متفاوتـة من النجاح إقامة علاقة من التزواج بـين الفكـر اليسـاري بعامة، وبين الفرويدية، فإن ثمـة نقـدا راديكاليـا يسـاريا

يتجاوز مثل تلك المحاولات، ويتجه مباشـرة إلـى جـوهر رؤية التحليل النفسي للإنسان.

يقول كيث بروكس فـي مقالـه المعنـون " ليسـت الفرويدية بالأساس الصالح لإقامة علـم نفـس ماركسـى " والمنشور ضمن كتاب علـم الـنفس الراديكـالي الصـادر عام ١٩٧٣، تقـوم وجهـة نظـري علـى أن الماركسـية تتعارض مع التحليل النفسي أساسـا فيمـا يتعلـق بـالنظر إلى طبيعة الحقيقة الإنسانية human reality

ويمضي المقال مفسرا لاتجاه العديـد مـن علمـاء النفس اليساريين صـوب فرويـد والتحليـل النفسـي بأنـه "نظرا لفشل الماركسية فـي تنـاول تلـك الجوانـب مـن الحياة الاجتماعية التـي أصـبحت محـور اهتمـام علـم النفس، فقد اتجه الكثير من اليساريين صـوب فرويـد لسـد هذه الفجوة. وتمثل ذلـك فـي محاولـة مـاركيوز تفسـير فرويد والماركسية، وكذلك انبعـاث الاهتمـام مـن جديـد بكتابات رايش في حقبته الماركسية."

ويجسد المقـال جـوهر التنـاقض بـين الماركسـية والتحليل النفسي موضـحا " أن تعريـف الفرويديـة لعلـم

الـنفس باعتبـاره دراسـة الـديناميات النفسـية، والحيـاة العقلية للأفراد ككيانات منفصـلة عـن العـالم، وخارجـة عنه، حيث يشـار إلـى العـالم عـادة باعتبـاره عـاملا خارجيا، يجعـل الفرويديـة متعارضـة تمامـا مـع علـم النفس القائم علـى الفكـرة الماركسـية التـي قـال بهـا ماركس في كتاب الإيديولوجية الألمانيـة، والتـي مؤداهـا أن الشعور منذ البداية نتـاج اجتمـاعي، ويظـل كـذلك ؛ طالما بقي البشر"

وفيما يتعلق بالفرويدية كأيديولوجيـة فـإن المقـال يقرر أن الفرويدية تتبنى نظـرة محـددة للمجتمـع تتمثـل ملامحها الأساسية فـي القـول بـأن النسـاء أدنـى مـن الرجال، وأن الرجـال بطبيعـتهم عـدوانيون وتنافسـيون، وأن الشواذ جنسيا مرضى، وأن تغيير المجتمـع لـن يحـل شيئا طالما أن جوهر البشر ثابت لا يتغير.

إن بعـض الفرويـديين الماركسـيين يـرون أن الماركسية باعتبارها نظـرة شـاملة كبـرى macroview لـم تهـتم بصـياغة تتعلـق بالكيانـات الصـغرى macroview المتمثلة في الأفـراد ومـن ثـم فـلا بـأس

لـديهم فـي اسـتكمال تلـك النظـرة الشـاملة الكبـرى للماركسية بالنظريـة الفرويديـة التـي ينصـب اهتمامهـا أساسا علـى الفـرد. ولكـن يفـوت هـؤلاء فيمـا يـرى بـروكس "... أن الفرويديـة تعتبـر أن حقيقـة الكائنـات البشرية تقع خارج علاقاتهم الاجتماعية، ومـن ثـم فإنهـا لا تتمكن حتى من مجرد فهم هؤلاء الأفـراد. ومـن هـذه الزاوية، فإن الإسـهام الوحيـد الـذي قدمـه فرويـد هـو تـوفير المفـاهيم الأساسـية اللازمـة لتجهيـل وتشـويش حيوات البشر اليومية... ".

ويمضـى بـروكس موضـحا إن رواج الأفكـار الفرويدية بين ذوي النزعة اليسارية مـن علمـاء الـنفس، إنما يرجع إلى النظر إلـى الفرويديـة باعتبارهـا النقـيض الإنساني للنظرية السلوكية ومـا تتميـز بـه مـن بـرود وعقم. وقد أدى رفض مؤسسات علـم الـنفس الأكـاديمي للفرويدية باعتبارها ليسـت مـن العلـوم الوضـعية وفقـا لمحكات العلم السـائدة فـي الخمسـينيات والسـتينات فـي الأوساط الجامعية، إلـى اعتبـار الفرويديـة بمثابـة علـم النفس الحقيقي الذي يتناول تلـك المشـكلات التـي تحجـم

السلوكية عن تناولها بحجة عدم إمكانية إخضاعها للتجريب العلمي الصارم، كالحب، والكراهية، والخوف، والقلق،.... إلى آخره. لقد ساد اعتقاد مؤداه أن الفرويدية كفيلة بأن تعيد للفرد تلك الأعماق التي أضاعتها السلوكية. ومن ثم كان على المرء إما أن يتبنى الاتجاه السلوكى، أو اتجاه التحليل النفسى... وفي حقيقة الأمر فلقد طمست الفرويدية الشعور الإنساني باختزاله إلى سلبية ميتافيزيقية في مواجهة سيطرة قوى العقل. وتتفق الفرويدية في هذه النقطة مع السلوكية بأكثر مما تتعارض معها، حيث يكون المرء حيال حتمية ميكانيكية خلوا من أي فهم للذات الفعالة. أي أن المحددات الحقيقية للحياة البشرية لا توجد في علاقة المرء بالعالم أو بالآخرين، بل إنها إما أن تكون في ميكانيكية العقل، أو في بعض القوانين الموضوعية المطلقة الغامضة.

ولا يفوت بروكس الإشارة إلى عامل اقتصادي شخصي يؤثر في ميل بعض اليساريين للتحليل النفسي، مقررا أنه ينبغي ملاحظة أن العديد من الفرويديين

الماركسيين أو اليساريين هم في نفس الوقت معالجون، ومن ثم فإن الاعتراض على الفرويدية يعني الاعتراض على واحد من أهم مصادر الدخل والمكانة الاجتماعية لهؤلاء الماركسيين.

نحن وفرويد والصهيونية

إن بواباتنا الشرقية لم تعد تحول، منذ سنوات، دون دخول الإسرائيليين إلى بلادنا، خاصة اذا ما كانوا من العلماء. وما أكثر علماء التحليل النفسي في إسرائيل. وآلاف من طلابنا يدرسون التحليل النفسي، فينبهرون به أيما انبهار. وقد لا يتاح لهم، دائما، من يبصرهم بأبعاد الفكر الصهيوني، واستثماره للتحليل النفسي، فنا وفلسفة ومؤسسة، لبلوغ غايات الصهيونية.

ولقد سبق أن حاولت التنبيه إلى خطورة ما يطرحه الفكر الفرويدي من تفسير حضاري، وذلك منذ حوالي خمسة وثلاثين عاما في مجلة " المجلة " القاهرية (كانون الأول – ديسمبر ١٩٦٥). ولم تمض سنوات قليلة بعد ذلك، حتى استوقفتني محاولة

أقدم عليها أحد المحللين النفسيين المصريين استهدفت تفسير موقف الشعب المصري من نكسة عام ١٩٦٧، تفسيرا نفسيا يعتمد على مقولة " اللاشعور " وغيرها من مفاهيم التحليل النفسي. وقد تناولت تلك المحاولة بالنقد في مقالة نشرتها آنذاك مجلة " الفكر المعاصر " القاهرية، في شباط (فبراير) ١٩٧٠. واقتصرت محاولاتي للتنبيه والتحذير بعد ذلك على طرح قضايا الفكر الصهيوني والشخصية الإسرائيلية، خلال محاضراتي في الجامعة غير أنه وقد تصاعد المد الصهيوني من حولنا، وانتشرت، مع تصاعده، دعاوى وادعاءات التحليل النفسي في تفسير الصراع العربي – الإسرائيلي، فقد أصبحت صيحة التحذير العامة واجبة، ولم تعد الجهود الفردية في هذا المجال كافية.

الأرض المحتلة جوهر الصراع

ليس من شك في أن جوهر الصراع العربي – الإسرائيلي يتمثل في الأرض، أرضنا الفلسطينية والعربية التي احتلتها إسرائيل. وعلى قضية احتلال هذه الأرض – وهي قضية مادية ملموسة – تقوم،

وتتعـدد، أوجـه الصـراع الأخـرى كافـة، السياسـية والاقتصادية والعسكرية والسكانية، وكذلك النفسية.

ولقد سعى الفكـر الصـهيوني، ومـازال يسـعى، إلى تمييع قضـية الاحـتلال هـذه، ودفعهـا بعيـدا مـن مكانتهـا، باعتبارهـا البـؤرة الرئيسـة للصـراع. وأحـد البدائل الرئيسة التـي يطرحهـا الفكـر الصـهيوني لـذلك الجوهر المادي الملمـوس للصـراع العربـي الإسـرائيلي هو تصويره كما لو كـان صـراعا نفسـيا فـي جـوهره، ومن ثم فـإن كـل مـا نشـهده، ونعايشـه، مـن معانـاة واحتلال وقتال وشـهداء، لـيس سـوى نتـائج ومظـاهر لذلك الصراع النفسي؛ ومـا الأرض واحتلالهـا ومقاومـة ذلك الاحتلال إلا ذرائع تتخفى وراءهـا ديناميـات صـراع نفسي عميق الجذور. ولقد وجد هـذا الطـرح الصـهيوني ضالته في فكرة مـن أفكـار واحـدة مـن مـدارس علـم النفس المعاصر، هي مدرسـة التحليـل النفسـي، والتـي تكاد أن تنفرد، من بـين مـدارس علـم الـنفس جميعـا، بإقدامها علـى طـرح تصـور نفسـي شـامل للتـاريخ، وللحضارة، وللفن، وللمـرض، وللـدين، وللحـرب، الـخ.

ولعل تلك النظـرة النفسـية الشـاملة هـي سـر انبهـار الدارسـين بالتحليـل النفسـي، وهـي، أيضـا، مكمـن خطورته، وسبب تناغمـه وملاءمتـه لأهـداف المخطـط الصهيوني.

التحليل النفسي والصهيونية

لقد تصدت مدرسـة التحليـل النفسـي الفرويـدي، بجسـارة نـادرة، لتفسـير الحضـارة البشـرية، بكافـة أوجهها، البناءة والهدامة، علـى حـد سـواء، باعتبـار أن تلك الأوجه، جميعـا، إنمـا هـي اسـتجابات لصـراعات نفسية عميقة تكمن في أغوار الـنفس الإنسـانية، يسـتوي في ذلك بناء السـد العـالى وقصـف هيروشـيما بالقنبلـة الذرية، ولا فرق في ذلك بـين الصـلاة والقتـل، ولا بـين نظـم الشـعر وإطـلاق الرصـاص، ولا بـين ممارسـة الجنس ورياضة الملاكمة، فكـل ذلـك لا يعـدو أن يكـون صورا متباينة، إما للتعبير عن تلـك النزعـات التدميريـة الجنسية المغروسة بالوراثة في أغـوار الـنفس الإنسـانية، وإما للتعبير عن محاولات التغلـب علـى تلـك النزعـات

وإعلانها، بل إن تلك المحاولات الأخيـرة محكـوم عليهـا بالقصور، حيث " لا فائـدة مـن محاولـة الـتخلص مـن ميـول النـاس العدوانيـة ". وخلاصـة القـول إذًا، أن التركيـب السـيكولوجي يصـبح لـدى مدرسـة التحليـل النفسي سببا وأصلا لكل مـا عـداه، بـدلا مـن أن يكـون نتاجـا للظـروف الاجتماعيـة والتاريخيـة والاقتصـادية والسياسية.

ولم يأل أصـحاب التحليـل النفسـي جهـدا، منـذ قامت مدرستهم وحتى يومنا هـذا، فـي تطبيـق مـنهجهم على مناحي الحياة وظواهرهـا كافـة، بـل وشخصـياتها التاريخية أيضا. وحظت ظاهرة النازية بقـدر كبيـر مـن اجتهادات المحللين النفسـيين، لتفسـيرها وفقـا لمنطلقـاتهم الفكرية، وتركـزت جهـودهم، فـي هـذا الصـدد، علـى ترسـيخ مـا يسـمى بخاصـية " معـادات السـامية "، وإرجاعها إلى خصائص ثابتة عميقة، تميـز اليهـود، مـن ناحية، وتميز غير اليهود، من ناحية أخرى.

ولم يكن غريبا، والأمـر كـذلك، أن يجـد الفكـر الصـهيوني ضـالته فـي الاختزاليـة السـيكولوجية

الفرويدية. فتحت عباءتها وحدها، يمكـن التحـدث برطانـة علمية حديثة عن " سيكولوجية يهودية واحـدة " تمتـد مـن العهد القديم إلى القرن العشرين، وتضـم تحـت جناحيهـا يهود الفلاشـا، ويهـود الحضـارة المسـيحية الأوروبيـة، ويهود الحضارة الإسلامية الشـرقية، فالكـل يهـود، لهـم نفس التكـوين السـيكولوجي المتـوارث عبـر الأجيـال، والذي لم تستطع آلاف السنين من الشـتات أن تنـال مـن جوهره شيئا. وتحـت عبـاءة التحليـل النفسـي وحـدها، يمكن التحدث برطانة علمية جذابة عـن الـرفض العربـي للاحتلال الإسـرائيلي لـلأرض، باعتبـاره " غيـرة مـن الشقيق الأكثر تفوقـا وحضـارة "، أو " محاولـة للتنفـيس عن تلك العدوانية الكامنة، التي لا تجـد لهـا متنفسـا فـي نظم التربية العربية السائدة "، الخ.

الصهيونية وخطابات فرويد الشخصية

نشر المحلل النفسـي الإيطـالي ألـدو كـاروتنيونو في عام ١٩٨٢ كتابـا بعنـوان التنـاغم الخفـي: سـابينا اشبيلراين بين يـونج وفرويـد. أي بعـد مضـي ثمـاني

وثلاثين عاما على رحيل سيجموند فرويـد. وبعـد مضـي اثنين وعشرين عاما على رحيل كـارل جوسـتاف يـونج التلميذ الأثير، ثم الخصم العنيـد لسـيجموند فرويـد. بـل وبعد مضي ست وثلاثين عاما علـى الرحيـل المأسـاوي لسابينا اشبيلراين المحللة النفسية الفرويديـة. فبعـد مضـي هذه الأعوام وفي أواخر عام ١٩٧٧ انبعثـت تلـك القصـة إلى الحياة من جديد بمحض المصادفة، فلم يـدر فـي خلـد أحد من أبطالها أن تنشر تلك الوقائع علـى المـلأ، بـل إن ارنسـت جـونز المحلـل النفسـي البريطـاني والمـؤرخ المعتمد لسيرة سيجموند فرويـد، لـم يـورد اسـم البطلـة الأولى لقصتنا فـي آلاف الصـفحات التـي كتبهـا سـوى إشارة واحدة في أحـد هـوامش المجلـد الثالـث لأعمـال وحياة فرويد وذلك بمناسبة لا علاقـة بهـا بقصـتنا ذلـك رغم ما يعرفه يقينا عـن تأثيرهـا العلمـي علـى أفكـار فرويد ويونج على حد سواء.

لقد ظلت وثائق تلك القصة منسـية لوقـت طويـل في أحد أدراج مكتب سابينا اشبيلراين فـي سـرداب مبنـى قديم كانت تشغله فيما مضـى إدارة معهـد جينيـف لعلـم

النفس في أوائل عشرينات القرن العشـرين. ذلـك المعهـد الذي شهد قيام سابينا اشبيلراين بتحليـل نفسـي لعـدد مـن المشاهير من بينهم عالم النفس البارز جـان بياجيـه قبيـل أن تقرر العودة إلى وطنهـا روسـيا عـام ١٩٢٣ حيـث مارست التحليل النفسـي الـذي كـان يحظـى بـاعتراف النظام السوفيتى آنـذاك. واسـتمر الأمـر كـذلك إلـى أن انقلب الاتحاد السوفيتى علـى التحليـل النفسـي، واعتبـره خارجا علـى القـانون. ويـرجح برونوبتلهـايم أن تكـون سـابينا قـد هلكـت عـام ١٩٣٦ أو ١٩٣٧ فـي خضـم أحداث التطهير الستالينى الشهيرة.

وفي أواخر عـام ١٩٧٧، وقعـت تلـك الوثـائق مصادفة في يد المحلل النفسـي الإيطـالي الـدوكاروتنيونو وهو من أتبـاع مدرسـة يـونج فـي التحليـل النفسـي. واكتشـف كـارتينيونو أن بـين يديـه مجموعـة مـن الخطابات الموجهة إلى سابينا اشـبيلراين منهـا عشـرون خطابا مـن فرويـد، بالإضـافة إلـى عـدد أكبـر مـن الخطابات التي تحمـل توقيـع يـونج، وكـذلك مسـودات ونسـخ مـن خطابـات أرسـلتها هـي إليهمـا. وأدرك

كارتينيونو على الفور أهميـة الكنـز الـذي وقـع عليـه. وظن للوهلة الأولى أن تلك الأهميـة إنمـا تقتصـر علـى صدور تلك الخطابـات مـن شخصـيتين عملاقتـين مثـل فرويد ويونج، فلم يكـن اسـم سـابينا اشـبيلراين يعنـي الكثير آنذاك. ولكن أهمية سابينا اشـبيلراين لـم تلبـث أن اتضحت بعد أن نشر كارتينيونو تلك الخطابات.

ولـدت سـابينا اشـبيلراين عـام ١٨٨٥ لأسـرة يهودية ثرية بمدينـة روسـتوف بجنـوب روسـيا. وكـان جدها وأبو جدها ايضا من الحاخامـات المرمـوقين. وقـد بدت عليها في فترة مراهقتها أعـراض اضـطراب نفسـي لازمها إلى أن اصطحبها والـداها إلـى مدينـة زيـوريخ السويسـرية طلبـا للعـلاج فـي مصـحة بورغـولزلى للأمـراض العقليـة. وتشـير وثـائق المصـلحة إلـى أن سابينا اشبيلراين قد دخلت المستشفى فـي أغسـطس عـام ١٩٠٤ حيث تولى علاجها يونج الـذي كـان قـد التحـق بالمصحة عام ١٩٠٠ ولـم يلبـث أن أصـبح مـن ألمـع أطبائها إلى أن تركها عـام ١٩٠٩. وقـد وصـف يـونج اشبيلراين عند دخولهـا المصـحة بأنهـا منكسـة الـرأس

دائما، عاجرة عن النظـر إلـى أي شـخص فـي وجهـه مباشرة، تخرج لسانها مـن فمهـا مبديـة كافـة علامـات الاشمئزاز إذا ما لمسها أي شـخص. وفضـلا عـن ذلـك فقد كانت تنتابها نوبات متتاليـة مـن الاكتئـاب، والبكـاء، والضـحك، والصـراخ، وظلـت اشـبيلراين مقيمـة بالمستشفى لمدة عشرة شهور تحسنت حالتهـا فيهـا بشـكل ملحـوظ تمنـت معـه عنـد مغادرتهـا المستشـفي مـن الالتحاق بكلية الطـب فـي زيـوريخ، وإن ظـل علاجهـا مستمرا على أيدى يونج الذي كـان فـي بدايـة ممارسـته لمنهج التحليل النفسي في العلاج. ولعل سـابينا قـد كانـت أولى مريضاته اللاتـي مـارس معهـن العـلاج بالتحليـل النفسي.

لقد افتتنت سابينا بمعالجها يونج، الـذي يبـدو أنـه بادلها حبا بحب. وكان مقدرا لهذه العلاقـة أن تظـل فـي الخفاء. ولقد كتبـت سـابينا فـي يومياتهـا فـي سـبتمبر ١٩١٠ تقول:

"... إن زوجتـه.. تجـد نفسـها متمتعـة بحمايـة القانون واحترام الجميع، بينما أنـا التـي أردت أن أمنحـه

كل ما أمتلكه في حيـاتي دون أدنـى اعتبـار لمصـالحي، يقال عنى أنني مجرد عشيقة خلـو مـن الأخـلاق... فـي مقدوره أن يظهر في كل مكـان تصـحبه زوجتـه، بينمـا أتسال أنا في الظلام. إنني لا أسعى لإعـلان قصـة حبنـا بين الناس، احتراما لمشاعر زوجتـه مـن ناحيـة، وحتـى لا تلوك حبنا الألسنة من ناحية أخـرى...". كمـا عبـرت سابينا في تلك اليوميـات عـن رغبتهـا الشـديدة فـي أن تحمل من يونج، وأن تضع طفلا يحمـل اسـم سـيجفريد. ليكون هذا الطفل بمثابة الجسر الـذي يصـل بـين حقيقـة كونها يهودية، وأن يونج آري. وقـد عبـرت عـن نفـس هذه الفكرة في أحد خطاباتها إلـى يـونج جـاء فيـه " إن مشكلتى فيما يتعلق بسيجفريد هو أننـي أود أن ألـد طفـلا حقيقيا يصبح رمزا لطفـل آري – سـاني، أي أشـبه مـا يكون بتجسـيد لاتحـاد نظرياتـك أنـت الآرى بنظريـات فرويد اليهودي ".

ولم يمض وقـت طويـل حتـى انكشـفت قصـة العشق هذه حين كتب شـخص مجهـول – يغلـب الظـن أنه زوجة يونج – خطابا بدون توقيـع إلـى والـدة سـابينا

يحذرها فيه مما قد تلحقه هذه العلاقة بابنتها من ضرر، ويدعوها للتدخل لإيقاف ذلك. وكتبت والدة سابينا ليونج خطابا عاطفيا تقول فيه أنه وقد أنقذ ابنتها من مرضها فعليه الآن ألا يدمرها، وألا يتجاوز حدود الصداقة. وحاول يونج أن يتملص من تبعات العلاقة خوفا من الفضيحة مما أثار سابينا وكتبت إلى فرويد تطلب مقابلته. وفضل فرويد في البداية عدم التدخل حرصا على علاقته بيونج. ولكن حين أوشكت تلك العلاقة على التصدع، ثم تصدعت بالفعل تم لقاء فرويد بسابينا التى لم تلبث أن أصبحت محللة نفسية. وتزوجت سابينا من طبيب، وحملت منه. ورغم ذلك فقد ظل حلمها القديم المتعلق بالطفل سيجفريد يداعب تخييلاتها. وعندئذ كتب لها فرويد في أغسطس ١٩١٣ خطابا جاء فيه :

" يصعب علي أن أتقبل أنك مازلت على حرارة حبك القديم، وأحلامك الماضية. ولم يبق لي سوى أن ألتمس الحليف في شخص ذلك الغريب الصغير الذي ستلدينه. إنني كما تعلمين قد تخلصت من

آخر ما يربطني بالمشكلة الآرية. وأود لـو خـرج الطفـل ذكرا أن يصير صهيونيا متعصبا.. إننـا يهـود، وسـنظل يهودا.. وسيبقى الآخرون، علـى اسـتغلالهم لنـا، دون أن يفهمونا، أو يقدرونا حق التقدير".

وفي سبتمبر مـن نفـس العـام، حـين وضـعت سابينا حملها، وأنجبت ابنتها ريناتـه، كتـب إليهـا فرويـد "والآن أبعث بأحر التهاني القلبيـة. ولعلـه مـن الأفضـل أنـك أنجبـت أنثـى. إن بمقـدورنا الآن أن ننقلـب إلـى سيجفريد الأشقر محطمـين ذلـك الصـنم قبـل أن يحـين أوانه"

فرويد والانتماء الصهيوني

لسنا بصدد الخوض في حديث سـاذج عـن علـم يهودي وآخر غير يهـودي. فـالعلم إنجـاز بشـري ملـك للبشر جميعا، إذا ما كـان علمـا بحـق. ولسـنا، كـذلك، بصدد التعرض إلى مدى علمية التحليـل النفسـي، فمكـان ذلك هو البحوث الأكاديمية العلميـة المتخصصـة. ولسـنا أيضا، ممـن ينكـرون أن بضـعة أفـراد مـن المحللـين

النفسيين قد اتخـذوا مواقـع عمليـة نضـالية، بدرجـة أو بأخرى، من أمثال فرانز وإيريـك فـروم وفـيلهلم رايـخ. ولكنهم فـي النهايـة، أفـراد لا يعبـرون عـن مؤسسـة التحليل النفسي وأفكارها الرسمية.

ولعله مما قد يستوقف النظـر أن التحليـل النفسـي قد نشأ تاريخيا، في نفس الحقبة التـي تبلـور فيهـا الفكـر الصـهيوني، حيـث كـان تيـودور هرتسـل معاصـرا لسيجموند فرويد الذي ولد قبلـه بسـنوات أربـع فحسـب، وكان كلاهما مـن يهـود الحضـارة الألمانيـة : أولئـك اليهود الذين أفرزوا الفكر الصـهيوني والفكـر الفرويـدي في الوقت عينه تقريبا.

وظل التحليل النفسي رغـم مـا يتميـز بـه مـن شمولية قاصرا بشكل كبير علـى البلـدان الأوروبيـة دون البلـدان الناميـة. ولقـد نشـرت مجلـة الفكـر العربـي المعاصر فـي عـددها رقـم ١١ الصـادر فـي مـارس ١٩٨١ حوارا جرى بـين جـان كليفـرول وهـو طبيـب ومحلل نفسي فرنسي من تلامذة جاك لاكـان، وبـين عـالم النفس اللبناني عدنان حب الله، حيث تسـاءل عـدنان حـب

الله كيف نفهم ظـاهرة اقتصـار التحليـل النفسـي علـى البلدان الأوروبية، وعدم انتشـاره فـي البلـدان الناميـة ؟ وقد فسر كليفرول هذه الظاهرة بأنهـا ناتجـة عـن غيـاب الايديولوجية الرأسـمالية. فبمجـرد أن تنتشـر الرأسـمالية في هذه البلدان، لابد للتحليـل النفسـي أن يتبـع الحركـة حتما.

لقد نشر المحلل النفسـي الشـهير برونـو بتلهـايم مقالا بالفرنسية عام ١٩٨٦ بعنوان فيينا بلـدة فرويـد ثـم أعيد نشر المقال فـي صـورة جديـدة بالإنجليزيـة عـام ١٩٩١ أي بعد وفاته المأساوية منتحـرا عـام ١٩٩٠ عـن عمر يقترب من التسعين عاما. فـي كتـاب بعنـوان فيينـا بلدة فرويد، ومقـالات أخـرى. ويضـم الكتـاب ضـمن أبوابه الثلاثة بابا بعنوان اليهود فـي فتـرة الهولوكوسـت وما بعدها، وهو الباب الذي تضمن المقـال المشـار إليـه. ويستهل بتلهايم مقاله بالقول أنهـا لـم تكـن مصـادفة أن يولد التحليل النفسي في فيينا، وأن ينمو هناك.

وموقف فرويد من الصهيونية غنـي عـن البيـان. وهو موقف لا يتعارض، بحـال، مـع مـا هـو معـروف

عنه من إلحاد صريح. ولقد نشر بيتر جاي المحلل النفسي، وأستاذ التاريخ في جامعة يال عام ١٩٨٧ كتابا بعنوان بالغ الدلالة : يهودى لا إله له : فرويد، والإلحاد، وخلق التحليل النفسي. ويشير المؤلف، وهو أيضا شأنه شأن فرويد يهودي ألماني ممن عانوا من العسف النازي، يشير إلى أنه رغم أن التحليل النفسي ليس علما يهوديا، إلا أنه حركة يهودية قامت على أكتاف يهود ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم يهودا.

فالصهيونية في النهاية ليست موقفا دينيا يهوديا على عكس ما يشيعه غالبية أنصارها، بل إنها موقف فكري عنصري يقوم على التسليم بتمايز اليهود عن غيرهم، وعداء هؤلاء الأغيار لهم، وأن حل تلك المشكلة لا يتأتى إلا بتمسك اليهود بيهوديتهم، وتأكيد تمايزهم، ومقاومة أية مساع لدمجهم في مجتمعاتهم الأصلية. وبالتالي فليس ثمة تعارض البتة بين الإلحاد والصهيونية. وبالفعل فإن إلحاد فرويد لم يمنعه من تأكيد انتمائه إلى اليهودية، بل والتزامه بالصهيونية، فكرا وتنظيما.

لقد انضم فرويـد إلـى جمعيـة " بنـاى بريـث " (أبناء العهد) الصهيونية منذ عـام ١٨٩٥، أي وهـو فـي سن التاسعة والثلاثين، واستمرت عضـويته فيهـا طـوال ٤٤ عاما حتى وافته المنيـة. كمـا ظـل مواظبـا، لعـدة سنوات، علـى حضـور اجتماعاتهـا نصـف الشـهرية، وفيها ألقى أولى محاضراته عـن تفسـير الأحـلام. ولقـد عرفت لـه الجمعيـة الصـهيونية فضـله، فاحتفلـت فـي السادس من مايو ١٩٢٦ بعيـد مـيلاده السـبعين. وكـان خطاب فرويد في هذه المناسبة بـالغ الدلالـة والوضـوح، حيث ورد فيه : ".... إن كـونكم يهـودا لأمـر يـوافقنى كل الموافقة، لأنني نفسي يهودي.. إننـي مـدين بالفضـل لطبيعتي اليهودية فيما أملك من صفتين مميـزتين لـم يكـن في وسـعي الاسـتغناء عنهمـا حيـال حيـاتي الشـاقة.. فلأنني يهودي، وجدت نفسى خلـوا مـن التحيـزات التـي ضللت غيري وحالـت دون اسـتخدام ملكـاتهم الذهنيـة. وكيهـودي، كنـت مسـتعدا للانضـمام إلـى المعارضـة وللتصـرف دون موافقـة الأغلبيـة السـاحقة. وهكـذا، وجدت نفسي واحدا منكم، أقـوم بـدوري فـي اهتمامـاتكم

الإنسـانية والقوميـة. واكتسـبت أصـدقاء مـن بيـنكم، وحثثت الأصدقاء القليلين الذين تبقوا لـي علـى الانضـمام إليكم..."

ولعل تلك الكلمات ليست في حاجـة إلـى تعليـق. فالرطانة الصهيونية عن الخصائص اليهوديـة تعلـن عـن نفسها، وكذلك الحديث عن الاهتمامـات القوميـة للحركـة الصهيونية، والسعي إلى كسب الأنصار لها.

ولعلنا نستطيع أن نكتفـي بتلـك النمـاذج للتـدليل على انتماء فرويـد إلـى الفكـر الصـهيوني، وارتباطـه بالتنظيمات الصهيونية. ولكن ذلك كلـه قـد لا ينـال مـن الرجل كعالم، بل كمؤسس لفرع مـن فـروع العلـم نـال من الشهرة والذيوع الشيء الكثير. وقـد يبـدو للـبعض أن فكر الرجل لم يؤثر في علمـه، وأن اسـتثمار الصـهيونية لعدد من الأفكار الأساسية للتحليـل النفسـي كـان محـض مصادفة. فكثير من اليهـود– بـل ومـن غيـر اليهـود– استهواه الفكر الصهيوني. وكثيـر مـنهم ارتـبط، بدرجـة أو بأخرى، بالتنظيمات الصـهيونية، ومـن بـين هـؤلاء. بطبيعة الحال، عدد من المشـاهير العلمـاء فـي مختلـف

فروع المعرفة وليس من المنطـق فـي شـيء أن نـرفض علمهم لمجرد أنهم صهاينة، قولا أو فعلا.

ولكن الأمر بالنسـبة إلـى فرويـد كـان مختلفـا تماما. فهو لم يكن مجرد عالم يهودي ملحـد ينتمـي إلـى الفكر الصهيوني ويتعاطف مـع المنظمـات القائمـة، بـل إنه قد تفرد بإقامة تنظيم صـهيوني جمـع فيـه، باقتـدار، بين أسس التنظيم السياسي السـري، والهـدف الصـهيوني المتميز، فـي غلالـة علميـة جذابـة حاكتهـا، فاحكمـت نسيجها يد مدربة وعقل عبقري.

التنظيم الصهيوني الفرويدي

لعـل القـارئ لمؤلفـات فرويـد، بـل لمؤلفـات الرعيل الأول مـن أصـحاب التحليـل النفسـي، لا يكـاد يستبين شيئا من ملامح ذلـك التنظـيم الصـهيوني الـذي نتحدث عنه. إنهم جماعة من العلماء يكتبـون فـي مجـال جديد، وبرؤية جديدة. قد تستهويك رؤيـتهم، أو قـد تثيـر نفورك، ولكنها، غالبـا، لـن تثيـر ريبتـك. وحتـى لـو اسـتوقفتك فكـرة الاختزاليـة السـيكولوجية، واسـتوقفتك كـذلك معالجـات هـؤلاء الـرواد للمشـكلة اليهوديـة،

بوصفها مشكلة سـيكولوجية خالصـة، فـإن ذلـك قـد لا يوحي له بشـبهة التنظـيم الصـهيوني، ولكـن الأمـر لا يصبح غريبا، إذا ما كنا بصـدد تنظـيم طابعـه الأساسـي هو السرية، وهو الأمـر الـذي يسـتحيل أن نتلمسـه فـي المؤلفات الفرويدية العلنية. ولكننـا نجـده دون عنـاء فـي الخطابات الشخصـية المتبادلـة بـين الفرويـديين خـلال الأعوام الأولـى للقـرن العشـرين، والتـي لـم تعـرف طريقها إلى النشر إلا مع خمسـينيات ذلـك القـرن، ومـا زالت عملية النشر هذه مستمرة في إضـافة الجديـد، حتـى أيامنا هذه.

لقد نشر فرويد، في عـام ١٩١٤، كتيبـا بعنـوان "تاريخ حركة التحليل النفسي"، ولم ترد فـي هـذا الكتيـب أية إشارة إلى ذلك التنظيم الصهيوني السـري الـذي نحـن بصدده وكل مـا أورده فرويـد فـي كتيبـه كـان متعلقـا بتشكيل الرابطة الدولية للتحليل النفسي.

كان ذلك هو أقصى ما صـرح بـه فرويـد علنـا آنذاك. أما ما نشر بعد ذلـك بـأعوام طـوال، فقـد كـان مختلفا تماما. لقد قام المحلل النفسـي المعـروف، ارنسـت

جونز، ابتداء من عام ١٩٥٣، بالشروع في نشر سيرة حياة فرويد. وكان جونز آنذاك هو آخر الأحياء من القيادة السرية للتنظيم الصهيوني الفرويدى. وتضمنت تلك السيرة، التى نشرت في ثلاثة أجزاء، العديد من الخطابات المتبادلة بين فرويد وخلصائه، ومن بينهم أعضاء تلك القيادة السرية، والتى كانت تضم، إلى جانب فرويد، كلا من جونز وفيرنزى وساخس ورانك وإبراهام، وايتنغتون الذي انضم إلى تلك القيادة بعد تشكيلها بعدة أعوام.

أشار جونز إلى أن بداية التفكير في تشكيل تلك القيادة السرية ترجع إلى يوليو ١٩١٢، حيث اقترح جونز على فيرنزي اقتراحا مؤداه "... إن علينا... أن نشكل جماعة صغيرة من المحللين الموثوق فيهم كنوع من الحرس القديم الذي يحيط بفرويد ". ونوقش هذا الاقتراح بالتفصيل مع فرويد الذي استجاب له فورا وبصورة إيجابية... وتتضح تفاصيل هذا الاقتراح، وكذلك طبيعة استجابة فرويد له، في خطاب بعث به فرويد إلى جونز، يحمل تاريخ الأول من أغسطس

١٩١٢، أي بعد مـرور أقـل مـن شـهر علـى بـزوغ الفكرة، ذكر فيـه : ".... إن مـا اسـتولى علـى خيـالي فورا هو فكرتك عن مجلـس سـري يتـألف مـن خيـرة رجالنا وأكثـرهم اسـتحقاقا للثقـة، للقيـام علـى أمـور التطورات اللاحقة للتحليل النفسي، وللـدفاع عـن القضـية في مواجهة الأشخاص والأحـداث بعـد وفـاتي... وقبـل كل شيء ينبغي أن تلتزم تلـك اللجنـة بالسـرية المطلقـة، سـواء فيمـا يتعلـق بوجودهـا أصـلا، أو فيمـا يتعلـق بأعمالها... ومهما أتت بـه الأيـام المقبلـة، فـإن القائـد المقبل لحركة التحليل النفسي ينبغي أن يخـرج مـن بـين هذه الحلقة الصغيرة المختارة من الرجال..."

ولم يمض عـام حتـى عقـدت تلـك القيـادة أول اجتماعاتها في منـزل فرويـد، الـذي أهـدى لكـل مـن أعضائها فصا إغريقيا قديما من مجموعتـه، وقـام هـؤلاء بتركيب هذا الفص على خاتم ذهبـي، كـان فرويـد يلـبس مثيلا له. وحين انضم ايتنغتـون إلـى القيـادة، بعـد عـدة أعوام، أهدى فرويـد إليـه خاتمـا ممـاثلا كـذلك. وقـد استوقف ذلك الحرص على السـرية فيلـيس جروسـكيرث

في كتابها " الحلقـة السـرية " الـدائرة الداخليـة لفرويـد وسياسات التحليل النفسي "، وقـد انتهـى الكتـاب إلـى أن ما أسسه فرويد كان أشبه شـيء بديانـة غيـر سـماوية، تعرف أدبياتها الإيمان، والهرطقة، والخيانة.

ولكن يا ترى ما الذي يـدفع عالمـا إلـى تشـكيل قيادة سرية للمشـتغلين بـذلك العلـم ؟ ألا يضـفي ذلـك طابعا سياسيا مريبا على القضـية بأسـرها ؟ وعلـى أيـة حال، فإن ايريك فـروم، وهـو مـن المحللـين النفسـيين البارزين الذين خرجـوا حتـى علـى الإطـار التنظيمـي العلني لحركة التحليل النفسـي، لا يتـردد فـي أن يفـرد، في كتابه " رسالة سـيجموند فرويـد: تحليـل لشخصـيته وتأثيره"، فصلا بعنوان " الطـابع شـبه السياسـي لحركـة التحليل النفسي ". بل إنه يـرى فـي هـذا الكتـاب "... إن فرويد كان يمكـن أن يصـبح قائـدا اشـتراكيا، أو قائـدا لحركة ثقافية أخلاقيـة، أو – لأسـباب أخـرى – واحـدا من قادة الحركة الصهيونية ".

ويبدو أن فرويد قـد كـان، منـذ البدايـة، علـى وعي بالطبع الصهيوني لحركة التحليـل النفسـي. ولـذلك،

فقد كان حريصـا دومـا، علـى أن تضـم واجهـة هـذه الحركة وجوهـا غيـر يهوديـة، وحبـذا لـو لـم تكـن صهيونية. وقد صـادف مسـعاه النجـاح حينـا، والفشـل حينا آخر. لقد نجح مثلا، فـي المحافظـة علـى ارنسـت جونز، المحلـل النفسـي المسـيحي الملحـد والصـهيوني المتعصب، عضـوا فـي القيـادة السـرية للتنظـيم حتـى النهاية ولكنه واجه إخفاقا شديدا في المحافظـة علـى بقـاء كارل يونج، المحلل النفسي المسيحي فـي إطـار الحركـة، على الرغم مما قدمه إليـه مـن إغـراءات وصـلت حـد محاولة تنصيبه خليفـة لـه فـي قيـادة الواجهـة العلنيـة لحركة التحليل النفسي.

وقد أشار إريـك فـروم إلـى أنـه فـي المـؤتمر الثاني لحركة التحليل النفسي الـذي عقـد فـي نـورمبرغ، في مـارس ١٩١٠ أدرك فرويـد ميـزة توسـيع الحركـة إلى ما هو أبعد من النطاق الضـيق ليهـود فيينـا. وأدرك أيضا، أن عليه إقناع زملائه مـن هـؤلاء اليهـود بوجهـة نظره التي كان مؤداها إسـناد بعـض المناصـب الرئيسـة في الحركة إلى غيرهم وفي مقدمتهم يـونج " وحـين نمـى

إلى علم فرويد أن بعضا من زملائه يهـود فيينـا يعقـدون اجتماعا في الحجرة التي يشغلها شتيكل فـي الفنـدق لحـق بهم وأدار معهم مناقشـة حاميـة، كـان جوهرهـا إبـراز الجو المعادي الفظيع المحيط بهـم، والحاجـة إلـى غطـاء خارجي لمواجهته... ثـم قـام، بصـورة دراميـة، بخلـع سترته قائلا : إن أعدائي سوف يسـعدهم رؤيتـي أتضـور جوعا؛ إنهم سوف ينزعون سترتي عن ظهري".

ولعل إحساس فرويد بحاجة تنظيمـه إلـى غطـاء يخفي جوهره الصهيوني يتضح في خطاب بعـث بـه إلـى كارل إبراهام، الذي أصبح واحـدا مـن أعضـاء القيـادة السرية للتنظيم، يحثه فيه على كسب مـودة يـونج، وذلـك في مايو ١٩٠٨، جاء فيه :"... إن يـونج، لكونـه مسـيحيا وابنا لقسيس، يجد مقاومات داخلية شـديدة تعـوق اقترابـه مني... ونحن لا غنى لنا إطلاقـا، عـن رفاقنـا الآريـين كافـة، وإلا سـقط التحليـل النفسـي ضـحية لمعـاداة السامية".

وعلى أية حال، فقد أخفـق فرويـد فـي الاحتفـاظ بهذا الغطاء الذي كان يتمثل في يـونج، والـذى لـم يلبـث

أن انشق عن التيار الفرويدى واتخـذ لـه نهجـا مسـتقلا متميزا. وواصل فرويـد ورفاقـه سـعيهم نحـو غايـاتهم التي تمثلت في تقديم الغطـاء الفكـري المناسـب لتـدعيم أفكار من نوع أن معـاداة السـامية خاصـية سـيكولوجية ضـارية الجـذور، وأن لليهـود مـن الخصـائص السيكولوجية ما يميزهم عن بقية البشـر، إلـى آخـر تلـك الأفكار التـي تمثـل ركنـا أساسـيا مـن أركـان الفكـر الصهيوني.

وكان طبيعيا والأمر كذلك أن يجـد المتأمـل فـي سير حياة العديد من أقطـاب حركـة التحليـل النفسـي أن الخيوط متداخلة متشابكة بين ممارسـتهم العمليـة للنشـاط الصهيوني والتحليل النفسـي، فمـاكس إيتنغتـون، مـثلا، وهو أحـد أعضـاء القيـادة السـرية للتنظـيم الفرويـدى الصهيوني، قرر فـي سـبتمبر ١٩٣٣، أن يغـادر ألمانيـا إلى فلسـطين، حيـث أقـام هنـاك بقيـة حياتـه، وأنشـأ "الجمعية الفلسطينية للتحليل النفسي " التـي مازالـت قائمـة حتى الآن، بعد أن تغير اسمها طبعـا. وقـد قـال المحلـل النفسي سيدني بومر :" لـم يكـن انتقـال إيتنغتـون إلـى

إسرائيل مجرد استجابة لضـرورات الحـرب، بـل كـان نتيجة طبيعية لميله طول حياتـه إلـى الصـهيونية ". أمـا المحلل النفسي الشهير، ارنست سـميل الصـديق الصـدوق لماكس إتينغتون، والذي بلغ مـن تقـدير فرويـد لـه أنـه أهداه، عام ١٩٣٩، ذلك الخـاتم الشـهير الـذي سـبق أن أهدى مثله لأعضاء القيـادة السـرية للتنظـيم قبـل ذلـك بسنوات طوال، فإنه صاحب الكتـاب المعـروف "المعـاداة للسامية مرض اجتمـاعي" والـذى يرجـع فيـه المشـكلة اليهودية برمتها إلى أسباب نفسية خالصـة. أمـا سـيجموند برنفيلد، المحلل النفسي الذي يزكيـه فرويـد فـي خطابـه المؤرخ في ١٩٣١/١/٢٢، بقولـه "... أنـه خبيـر بـارز في التحليل النفسي. وأعتبره واحـدا مـن أقـوى العقـول بين تلامـذتي وأتبـاعي..."، فإنـه – أي برنفيلـد – هـو نفسه ذلك العضـو البـارز فـي المنظمـات الصـهيونية، الذي تبنى أفكـار الفيلسـوف الصـهيوني مـارتن بـوبر، وكرس جانبا كبيرا من كتاباته النفسـية لإبـراز خصـائص الشعب اليهودي، والدفاع عـن فكـرة " فلسـطين كـوطن قومي لليهـود "؛ وكـذلك الحـال بالنسـبة إلـى الطبيـب

والمحلل النفسي فليكس دويتش، الـذي كـان منـذ شـبابه من أنشط أعضاء التنظيم الطلابي الصـهيوني فـي فيينـا، والذي التقى، في صفوف هـذا التنظـيم، بمـارتن فرويـد، ابن سـيجموند فرويـد ؛ ومـن خـلال لقائهمـا، عـرف دويتش طريقه إلى فرويد والفرويدية.

مقتضيات السياسة تسبق قواعد العلم

ترى كيف أمكـن لفرويـد، ولتنظيمـه الصـهيوني السـرى، أن يحققـا مـا حققـاه ؟ إن الأمـر لا يرجـع، فحسب، إلى تلـك العبقريـة التـي تميـز عقليـة فرويـد المنظمة ؛ ولا أيضا، إلى مجرد ذلـك الحضـور الغـلاب الذي ميز شخصية فرويد. إنما يرجـع الأمـر أيضـا إلـى قاعدة علمية أدركها فرويد والتزم بهـا دومـا، شـأنه فـي ذلك شأن قائد أي تنظيم سياسي: "المعيـار السياسـي قبـل الميعار العلمى". ووفقـا لتلـك القاعـدة التنظيميـة، قاتـل فرويد من أجل ضم يـونج إلـى الواجهـة العلنيـة لقيـادة حركة التحليل النفسـي، وأشـاد علنـا بعبقريتـه العلميـة ونفاذ بصيرته التحليلية ؛ ولكنه أفضـى إلـى رفاقـه فـي قيادة التنظيم السـرى بـالمبررات الحقيقيـة لهـذا الضـم.

وليس من بين تلك المبررات التـي سـاقها فرويـد مجـرد إشارة، ولو من بعيد، إلى عبقرية يـونج العلميـة. فهـو – أي يونج – لـيس سـوى مسـيحي آري "يلزمنـا لتغطيـة حقيقة هويتنا ". وحين أخفقت محـاولات الضـم والتغطيـة هذه، كان ما يبدو علنا وعلى السطح هـو أن ثمـة خلافـا علميا بين فرويد ويـونج هـو الـذي أدى إلـى التباعـد. ولكن الحقيقة، كما تكشفت بعد ذلك، هـي أن يـونج ذلـك المسيحي الألماني الذي وصفه فرويد بالآريـة، قـد خـرج على الخط السياسي الصهيوني الذي كـان يقضـي آنـذاك بتضـخيم أبعـاد المشـكلة اليهوديـة، وحشـد مشـاعر التعاطف مع اليهود فـي مواجهـة الخطـر النـازي. ولـم تتردد القيادة الفرويدية الصهيونية فـي تشـجيع محـاولات إلصاق تهمة معاداة السامية والتعاون مـع النظـام النـازي بيونج وهي الاتهامات التي ثبت زيفها بعد ذلك.

والأمر كذلك بالنسبة إلـى إريـك فـروم وفـيلهلم رايخ. لقد ألقى بهما خـارج أسـوار التنظـيم الفرويـدي. وكان السـبب المعلـن كالمعتـاد هـو خروجهمـا علـى الأفكار الأساسية للتحليل النفسـي. أمـا السـبب الحقيقـي

فلا يصعب تبنيه إذا ما نظرنا مرة أخـرى إلـى الموقـف السياسي الصهيوني للتنظيم الفرويدي. إن مـا يجمـع بـين فروم ورايخ هـو تأثرهمـا بالماركسـية، وسـعيهما إلـى الجمع بـين الفكـر الماركسـي وفكـر التحليـل النفسـي، وممارسة هذا الجمع عمليـا. وكانـت الماركسـية تنـادي، في أدبياتها المبكرة بأن حـل المشـكلة اليهوديـة لا يتـأتى إلا بتقبل اليهود بداية لحقيقـة أنهـم جـزء مـن الأوطـان التي يعيشون فيها، ومن ثـم، فـإن علـيهم الانـدماج فـي شـعوب تلـك الأوطـان. وتتنـاقض تلـك الـدعوة إلـى الاندماجية تناقضا تاما مع ما تدعو إليـه الصـهيونية مـن أن الحل هو تأكيد تمايز اليهود ودعـم سـعيهم إلـى خلـق وطن يهودي. ولا تتضح طبيعـة الموقـف الـذي يتخـذه التحليل النفسي الفرويـدي مـن الفسـلفة الماركسـية فـي المؤلفات المعلنة لفرويد وأعوانه، ولكنها تبـدو جليـة فـي الخطابات الشخصية التي تبادلها فرويـد مـع العديـد مـن الشخصيات المعاصرة لـه. ويكفـي أن نشـير فـي هـذا الصدد على سـبيل المثـال، إلـى الموقـف الـذي اتخـذه فرويد حين طلب منـه صـديقه آرنولـد زفـايج أن يوقـع

علـى بيـان يتضـمن إدانـة الاضـطراب الاقتصـادي الرأسمالي الذي أدى إلى الأزمة الاقتصـادية العالميـة فـي الثلاثينات. لقد أفصح فرويـد عـن موقفـه بوضـوح فـي خطاب شخصي بعث بـه إلـى زفـايج فـي ٢٦ نـوفمبر ١٩٣٠، قال فيه "... لقد كان يسـعدني أن أضـع تـوقيعي على البيان، لو لـم يتضـمن هجومـا علـى الاضـطراب الاقتصـادي الرأسـمالى، إلا أن تـوقيعي سـوف يعنـى، آنذاك، تدعيمي للنموذج الشيوعي، وإننـي لأنـأى بنفسـي عن ذلك. فعلى الرغم من كل ما أحـس بـه مـن ضـيق بالنظم الاقتصادية الراهنة، فـإنني لا أتصـور أن الطريـق الذي يتبعه السـوفيات سـوف يـؤدي إلـى أي تحسـن ". وفي خطاب تال بعث به فرويد إلى زفـايج، فـي السـابع مـن ديسـمبر ١٩٣٠، جـاء فيـه عـن التجربـة السوفياتية :"لقد حرمتنا من آمالنا... ولم تقـدم إلينـا شـيئا بديلا...". وكان فرويد صادقا فـي ذلـك، كـل الصـدق، كفائـد لتنظـيم سياسـي صـهيوني. فلقـد تعلقـت آمـال الصهيونية العالمية، في البدايـة، بـالثورة البلشـفية، علـى رجاء أن تحصل مـن خـلال هـذه الثـورة، علـى دعـم

لإقامة الدولـة اليهوديـة الموعـودة. وبالفعـل فقـد ظـل حزب أحباء الصـهيونية فـي روسـيا قائمـا إلـى بدايـة الثلاثينيات. وفي ذلك الإطـار، نسـتطيع أن نـدرك مـدى صدق كلمات فرويـد. ونسـتطيع أيضـا، أن نفهـم طـرد رايخ من الجمعية الدوليـة للتحليـل النفسـي فـي يونيـو ١٩٣٤، بعد أن طلب منه إيتنغتـون، فـي العـام السـابق، أن يستقيل فرفض. ولقد حاولت قيـادة التنظـيم الفرويـدي الصهيوني أن تصور الأمر كما لـو كـان خلافـا علميـا بين فرويد ورايـخ، يتمثـل، أساسـا، فـي كتـاب رايـخ المعنون "وظيفة الأورجـازم". ولكـن الكتـاب كـان قـد مضى على إصداره آنذاك، ستة أعوام حيـث صـدر فـي ١٩٢٧/٥/٦ احتفاء من رايخ بعيد مـيلاد فرويـد. بـل إن فرويد نفسه قد بعث إلى رايخ بخطـاب شخصـي يمتـدح فيــه الكتــاب، مشــيرا إلــى أنــه "... هــام وغنــي بملاحظاته... وكما تعرف، فلـيس لـدي اعتـراض علـى محاولتك تفسير مشكلة النوريسـتانيا بعجـز عـن تحقيـق أولية تناسلية". الأمر إذا ليس أمر خـلاف علمـي بحـال. فأي خلاف علمي ذلـك الـذي يتطلـب الطـرد والإدانـة

والتشويه؟ إنه خلاف سياسي مـع التوجهـات الصـهيونية للتنظـيم الفرويـدي. لقـد انضـم رايـخ إلـى الحـزب الاشتراكي النمساوى، ومنه إلـى الحـزب الشـيوعي، ثـم ارتكـب " خطيئتـه الكبـرى" بزيارتـه الأولـى للاتحـاد السـوفيتي فـي سـبتمبر ١٩٢٩، أي بعـد ذبـول آمـال الصهاينة في إقامة دولتهم القوميـة هنـاك، وبعـد تحـريم قيـام الأحـزاب الصـهيونية. الأمـر إذا أمـر صـراع سياسي، وما الخلاف العلمي إلا محاولة للاستخفاء.

وفـي حقيقـة الأمـر، فـإن الطـابع السياسـي المتعصب للتنظيم الفرويـدي الصـهيوني السـري يفصـح عن نفسه أيضا، في ذلـك الأسـلوب الحـاد والشخصـي، الذي ميز، ويميز الفرويديين فـي إدانـة، ومهاجمـة مـن يخرجون علـيهم. ولننظـر، مـثلا، إلـى حـوار جـرى مكتوبا، وعلانية، بين فرويـد وآدلـر، وإبـان اختلافهمـا. قال فرويد عن فضله على آدلر: " لقد صـنعت مـن القـزم عملاقا ". فرد آدلر :"... حتى القزم، إذا مـا احتـل مكانـه على كتفي عملاق ضخم، فإنـه يسـتطيع أن يـرى لأبعـد ممن يحمله " فرد فرويد، مرة أخرى، قـائلا:" قـد يصـدق

ذلك على القزم، ولكن لا يصدق بحـال، علـى قملـة فـي شعر ذلك العملاق".

ترى هل يمكن لمثل تلك الحـدة أن تكـون مجـرد استجابة لخلاف علمي ؟ بل إن الأمـر ليمضـي إلـى مـا هو أبعد من ذلك. فبعد وفاة آدلـر، فـي الأول مـن مـايو ١٩٣٧، كتب أرنولد زفايج إلى فرويد معبـرا عـن تـأثره لذلك، إذ أن آدلر وافته المنية فجأة وهـو يسـرع الخطـى عبر أحد شوارع اسكتلندا في طريقـه إلـى إلقـاء إحـدى محاضراته، فإذا بفرويد يكتـب لزفـايج، فـي ٢٢ يونيـو ١٩٣٧، مؤنبا إياه، لإبدائه مثـل تلـك المشـاعر، قـائلا: "إنني لا أفهم تعاطفك من أجـل آدلـر. إن ملاقـاة المـوت في أحد الشوارع الفـاخرة فـي اسـكتلندا ليعـد بالنسـبة لطفل يهودى خرج من ضاحية متواضـعة مـن ضـواحي فيينا، حدثا رائعا في حد ذاته، ودليلا على مـدى مـا بلغـه من رفعة. لقد كافأته الدنيا بسـخاء نظيـر مـا قدمـه مـن خدمات بمعارضته للتحليل النفسي..." تـرى، هـل يمكـن تصـور أن يتخـذ العـداء مثـل تلـك الصـورة الحـادة المتشـنجة، إلا إذا كـان صـادرا عـن قائـد سياسـي

متعصب؟ ولم يكن الأمر قاصرا على الموقـف مـن آدلـر بطبيعة الحـال، فقـد كتـب فرويـد إلـى جـونز، فـي ١٩١٩/٢/١٨، مشجعا إياه على طرد أنصـار يـونج مـن جمعية لندن، مستخدما في خطابـه مصـطلحا لا يسـتخدم إلا في أوساط سياسية معينـة، وهـو مصـطلح التطهيـر، إذ كتب :".. إن عزمك على تطهيـر جمعيـة لنـدن مـن أنصار يونج لأمر رائع..".

لقد كان فرويد طموحا إلى أقصـى الحـدود فيمـا يتعلـق بالآفـاق التـي يرجوهـا لتنظيمـه السياسـي الصهيوني. ولم يكن يألو جهدا في مد شـبكة التنظـيم إلـى كل دولة يستطيع الوصول إليها. ووفقـا لمـا أشـار إليـه فروم " فقد كان للحركة منظمـات أو مجموعـات دوليـة، لكل دولة مجموعـة يقودهـا مسـئول مـرتبط مركزيـا، برابطة التحليـل النفسـي الدوليـة، ومركزهـا زيـورخ. وتعمل الحركة علـى كسـب العناصـر النشـيطة، علميـا واجتماعيا، وتوظيفها لخدمتها...". وقد كـان ذلـك الطـابع الـدولي أمـرا تفرضـه الطبيعـة الصـهيونية للتنظـيم الفرويـدي. ولكـى لا يخـتلط علينـا الأمـر بالتنظيمـات

الدولية العلمية الأخـرى، والتـى لا تـأتمر بـأمر قيـادة سياسية سرية، يكفي أن ننظر إلـى رؤيـة فرويـد لآفـاق الطابع الدولي لحركة التحليـل النفسـي. فهـو يقـرر فـي كتابه عن تاريخ حركـة التحليـل النفسـي "... إنـه لمـن الواضح أن القتـال مـن أجـل التحليـل النفسـي ينبغـي خوضه حتى نهاية فاصلة، حيث تتعـاظم المقاومـة التـي يواجههـا، أي بالتحديـد، فـي البلـدان ذات الحضـارات القديمة...".

إن عبارة فرويد هذه لم تلفت الانتبـاه آنـذاك فـي عام ١٩١٥ وانصرفت الأذهان إلى أنه يعنـي بهـا عبـارة الحضارة الأوروبيـة فـي مقابـل الحضـارة الأمريكيـة الأحدث. ولكن ألا يحق لنـا اليـوم أن نسـأل مـن جديـد عما كان يعنيه فرويد بعبارتـه ؟ ألـيس مـن المحتمـل – مجرد احتمـال – أن تكـون مصـر وفلسـطين معنيتـين بتلك الإشارة إلى بلدان الحضـارة القديمـة هـذه ؟ ألـيس ثمة احتمال أن يكـون فرويـد قـد استشـرق، ببصـيرته النفـاذة، أن المقاومـة الأكبـر لتنظيمـه الصـهيوني،

وللصهيونية بعامة، ستكون على هذه الأرض؟ وأنها سوف تشهد القتال الحاسم من أجل نهاية فاصلة؟.

المراجع الأجنبية

Bettelheim, B. Freud's Vienna and other essayes, Vintage Books, ١٤٩١.

Brooks, K. "Freudianism is not a basis for a Marxist psychology" IN Phil Brown.

(ed). Radical psychology, Tavistock, ١٩٧٣

Carotenuto, Aldo A secrt symmetry : Sabina Spilerein , between Jung and

Freud, Translated by Arno Pomerzns, John Shepley, Krishna Winston. New York: Panthon Books, ١٩٨٢

EKstein, R. "Siegfried Bernfeld: Sisyphus or the boundaries of education" ,IN, Franz Alexander et. Al. (eds.) Psychoanalytic pioneers, Basic Books, ١٩٦٦

Flagg, G.W. "Felix Deutsch: Psychoanalysis and internal medicine", IN, Franz Al- expander et.al. (eds.) Psyhoanalytic pioneers, Basic Books, ١٩٦٦.

Fromm, E. Sigmund Freud's mission: An analysis of his personality and in- fluence, Harper & Brothers, ١٩٥٩.

Gay, P.A godless jew: Freud, atheism, and the making of psychoanalysis, Yale university press, ١٩٨٧

Grosskurth, P. The secret ring: Freud s inner circle and the politics of psycho- analysis, Addison- Wesley, ١٩٩١

Jones, Ernest The life and work of Sigmund Freud, New York: Basic Books, ١٩٥٧

Pomer, S.L. "Max Eitington: The organization of psychoanalytic training". IN. Franz

Alexander et. Al. (eds.) Psychoanalytic pioneers, Basic Books, ١٩٦٦

المراجع العربية

قدرى حفني، إخفاق التحليل النفسي من فرويد إلى فروم، تأليف : هاري ك. ويلز، عرض نقدي، المجلة، القاهرة، العدد ١٠٨، ديسمبر ١٩٦٥، ١١٩– ١٢٣

قدرى حفني، حول التفسير النفسي للتاريخ، الفكر المعاصر، القاهرة، العدد ٦٠، فبراير ١٩٧٠، ٢٣–٣١

الفصل الرابع

نظرة طائر

نظرة طائر

مقدمة:

منذ ما يزيد قليلا عن ربع القرن، وقـع فـي يـدي مصادفة كتابا لم أعـره اهتمامـا فـي بدايـة الأمـر، وإن كنت اقتنيته لسبب لـم أعـد أذكـره. عنـوان الكتـاب لا يستوقف النظر، ومؤلفه أيضا لم يكن آنـذاك مـن الأسـماء اللامعـة بالنسـبة لـي علـى الأقـل، المؤلـف ميشـيل فيرتايمر، وعنـوان الكتـاب قضـايا أساسـية فـي علـم النفس:

Michael Wertheimer, Fundamental Issues In Psycholgy, Holt, Rinhart and Wins- ton.Inc., ١٩٧٢

ومضت سنوات والكتاب قـابع فـي مكتبـي إلـى أن اصطحبته في سفرة لي، ولعـل اصـطحابي إيـاه كـان على سبيل الخطأ إذ أن شكل غلافـه يتشـابه مـع غـلاف كتاب شيق آخر يصلح لتسلية مسافر. وبـدأت فـي تقليـب صفحات الكتاب مستسـلما مـتململا. ومـا أن بـدأت فـي قراءة كلمات مقدمتـه حتـى تبينـت أننـي حيـال نـوع مختلف من الكتابـة فـي هـذا المجـال. وأظـن أن مـا

تضمنه، ورغم مرور زمن طويـل علـى كتابتـه مـازال صحيحا معاصرا حتى اليوم.

يشير المؤلف في السـطور الأولـى مـن مقدمـة كتابه إلى صعوبة التعرف على علـم الـنفس مـن خـلال المقررات الدراسية التـي يدرسـها طـلاب هـذا العلـم. ويسوق لذلك عدة أسـباب، لعـل أبرزهـا أن المعلومـات التي يتضمنها أي كتـاب مقـرر تكـون حتمـا معلومـات قديمة نسبيا نظرا لتسـارع التطـورات فـي مجـال علـم النفس. بالإضافة إلى ذلك فإن ما يقدمـه غالبيـة مدرسـو علم النفس لا يخرج عما سبق أن تلقـوه هـم، وغالبـا مـا يعرضونه أيضا بنفس الطريقة التـي تلقـوه بهـا. ولـذلك يفضل المؤلف أن تتـاح للـدارس المبتـدئ لعلـم الـنفس إطلالة على أهم معـالم علـم الـنفس المعاصـر. إطلالـة تركز على الخطوط الفكرية الأساسـية، دون إغـراق فـي التفاصيل مما يهدد بضياع الملامـح الأساسـية للصـورة. ومن هنا جاء اختيار المؤلف لعنوان كتابـه : قضـايا علـم النفس الأساسية. وسـوف نعتمـد فـي السـطور التاليـة بشكل أساسـي علـى تلـك المقدمـة التلخيصـية البديعـة

للكتاب، لعلها تفتح الشهية لمزيد مـن الإسـهام فـي هـذا المجال.

يشير المؤلف إلى أنـه إذا صـح أن علـم الـنفس دراسة للإنسان وعقله، ولكيفية تصـرف الكائنـات الحيـة، وللحب، وللأسى، وللابتكار، ولتغيـر الشخصـية وثباتهـا، وللفكر، وللسلوك، فإن قلة من العلوم هـي التـي يمكـن أن تضاهي ما يثيره من اهتمام شخصي داخلـي ملـح، فهـو علم بالغ الثراء والتعقيد، يتصدى للعديـد مـن التسـاؤلات، ويداف إلى مجالات شتى. إنه علم شـديد التنـوع، ولكنـه يفتقد التماسك الداخلى، بحيـث يصـعب علـى المـرء أن يعرف من أين ينبغي أن يبدأ ليحيط بهـذا العلـم. إن علـم النفس أشبه ما يكون بلوحة رسـم معقـدة تبـدو أجزاؤهـا جميعا للرائى في نفس اللحظـة، يكمـل بعضـها بعضـا، ويتفاعل كل منها مع الآخـر، ولكـن الكتـاب أو المقـرر الدراسي أشبه ما يكون بمقطوعـة موسـيقية، تبـدأ عنـد نقطة ما ويعايشها المسـتمع عبـر الـزمن. تـرى، كيـف ينبغي على المرء إذن أن يقدم علم النفس في كتاب؟

ثم يشير المؤلف أنه سوف يقوم في هذا الصدد بفحص ذلك الكيان المدهش لعلم النفس بأن ينظر بشيء من التفصيل إلى عدد قليل من القضايا التي يتناولها. فالإنسان لم يكف طيلة العصور عن طرح التساؤلات عن نفسه وعن العالم المحيط به، ولا شك أن تلك التساؤلات قد احتلت مكانة جوهرية ضاربة الجذور في أفكاره منذ بزوغه ككائن مفكر يعي ذاته، وتباينت أساليب طرح تلك التساؤلات، كما تباينت أشكال ترابطها من عصر إلى عصر، ومن مكان إلى مكان، بل ومن فرد إلى آخر، وتعد محاولة صياغة تلك التساؤلات بصورة متماسكة – حتى ولو لم تكن صياغة نهائية حاسمة – سبيلا للتعريف بمجال علم النفس.

ويقرر المؤلف بداية أنه سوف يسعى إلي تقديم علم النفس من خلال محاولة صياغة بعض القضايا المتواترة التي تناولها ويتناولها علماء النفس، وذلك بدلا من الجوس خلال آلاف التجارب ومئات النظريات، ملتقطين شيئا من هنا، وشيئا من هناك في

محاولة لتقديم صورة خاطفة لعلم النفس. ولن يخلو العرض بطبيعة الحال من الإشارة إلى العديد من الدراسات، والعديد من النظريات، ولكن الاهتمام سوف يكون منصرفا في المقام الأول إلى رسم خريطة لذلك الإطار الواسع الذي يعمل داخله علماء النفس.

ويتضح هذا القصد من تتالي فصول الكتاب، فالجزء الأول : المقدمة يتضمن في البداية محاولة موجزة لتحديد ماهية علم النفس، وخاصة علم النفس الأمريكي المعاصر، ثم يعرض عرضا مختصرا للقضايا العظمى المتواترة، مستشهدا بأمثلة قليلة من الدراسات المعاصرة أو الحديثة ليبين كيف تفصح مختلف تلك القضايا عن نفسها في الفكر النفسي القائم بالفعل، ولقد كان وصف القضايا في هذا الجزء الأول يميل إلى الطابع النموذجي متجاوزا جوانب التعقيدات والتحفظات والتفاصيل، مقتصرا على الجوانب النموذجية الحية، مرجئا ما عدا ذلك إلى الفصول التالية.

ويضـم الجـزء الثـاني سلسـلة مـن القضـايا الجوهرية من أمثلتها: ترى هـل مقـادير سـلوكنا بأيـدينا نحن، أم أننا ضحايا قوى مجهولـة تأخـذ بقيـاد سـلوكنا؟ ترى هل الماضي هو العامل الحاسـم فـي تحديـد كيفيـة إحساسنا، وفعلنا، وتفكيرنا، أم إنـه الحاضـر؟ تـرى هـل علينـا أن ننظـر إلـى كيفيـة عمـل أجسـادنا وخاصـة أجهزتنا العصبية لكي نعرف مـاذا وكيـف ولمـاذا نفعـل ما نفعله، أم أن علينا لتحقيق ذلك أن نبقـى فـي مسـتوى دراسة العقل والخبرة؟... وهكذا.

ويتضمن الجزء الثالث فحصـا مفصـلا إلـى حـد ما لاثنتـين مـن القضـايا المنهجيـة الأساسـية. تتعلـق القضية الأولى بالمفاضـلة بـين تنـاول الظـواهر بكافـة أشكالها الثرية المعقدة المتشابكة والتـي كثيـرا مـا تبـدو مبهمة، وبـين محاولـة التوصـل إلـى صـياغات لتلـك الظـواهر تتصـف بالدقـة والانتقـاء. وتتعلـق القضـية بالمفاضلة بين نسج النظريـات، وصـياغة التـأملات فـي محاولـة لفهـم مـا يجـري، وبـين التـزام القياسـات

والملاحظة الدقيقة والنظر إلى دقـائق تفصـيلات الوقـائع وتسجيلها.

أما الجزء الرابع فهـو محاولـة لتجميـع مختلـف القضايا، وحل بعـض التعارضـات الواضـحة، وإعمـال النظـر فـي الماضـى وفـي المسـتقبل وصـولا إلـى تصورات لمسار علم النفس كيف كـان؟ وإلـي أيـن قـد مضى؟ ويكشف المؤلـف فـي هـذا الجـزء أيضـا عـن وجهات النظر التي ينحاز إليها شخصيا.

الهدف من هذا الكتاب إذن– كمـا يقـول مؤلفـه– هـو أن يكـون مقدمـة لعلـم الـنفس تتسـم بالشـمول، وبالعمومية، وبالمفاهيميـة، ويقـرر المؤلـف أنـه رغـم اتخاذه في بعـض الأحيـان مواقفـا أميـل للتشـدد، إلا أن الهدف الرئيسي يتمثل في إثارة التسـاؤلات ولـيس تقـديم الإجابات. ويبدأ بطرح السؤال الـذي يمثـل عنـوان هـذا الفصل الأول من فصلى المقدمة : مـا هـو علـم الـنفس؟ ترى كيف يمكن للمرء أن يعرف هذا العلم.

يرى المؤلف أن لعلـم الـنفس جوانـب وأصـولا شتى. وجذور كلمة علم النفس في حـد ذاتهـا إنمـا تعنـي

دراسة النفس أو الروح أو العقل، وثمـة العديـد المتنـوع من الأشياء التي تبدو للوهلة الأولى وكـأن لا علاقـة بـين بعضها والبعض تتعايش جميعا تحت مظلـة تلـك الكلمـة. ولكن تلك الأجزاء جميعا تنبعث بالفعل مـن بـؤرة عامـة مشتركة، ومثل هذه البؤرة لا يسهل وصـفها، فهـي تغيـر من شكلها من وقت لآخر كصنيع الأميبـا التـي لا تسـتقر على شكل محدد، بحيـث تبـدو مختلفـة تمامـا بـاختلاف مواقع النظر إليها. ويعنى ذلك في النهايـة أن علـم الـنفس اليوم– رغم ما يجمع بين أجزائه– إنمـا هـو شـتات مـن أشياء متباينة بحيث يكاد يسـتحيل علـى المـرء – إذا لـم يشأ أن يكون متعسفا – أن يقدم تعريفا لهـذا العلـم يجمـع بين البساطة والكفاية.

ويشير المؤلف إلى أننا نسمع أحيانـا مـن يطلـق على علم النفس اسم دراسـة العقـل، باعتبـار أن مجـال اهتمام هذا العلم يتمثل في العمليـات العقليـة. وقـد يبـدو مثل هذا التعريف مناسـبا تمامـا، غيـر أنـه لـيس ثمـة رابطة بين تلك الحالات أو العمليات الذاتيـة وبـين جانـب لا يستهان به من علم النفس يتسـع ليشـمل مـدى واسـعا

ابتداء من بحث التغيـرات الكيميائيـة التـي تحـدث فـي المخ أثناء تعلم الحيوانات وذلك ضـمن دراسـة تـأثيرات التركيب الوراثي للفئران على إدمانهـا للكحـول، وانتهـاء إلى مقارنة التكرار النسبي للخطأ فـي قـراءة المؤشـرات ذات الطرز المختلفة للطائرات. وفضـلا عـن ذلـك فـإن هناك العديد من فروع العلم الأخرى– تضـم بعضـا مـن الفلسفة وكثيرا من الدراسات الأدبيـة– التـي تعلـن هـي أيضا أن دراسة العقل منوطة بها. وثمـة تعريـف آخـر، لعله الأكثر انتشارا حاليا – من وجهـة نظـر المؤلـف – يعتبر أن علم الـنفس هـو علـم السـلوك. ويؤكـد هـذا التعريف أن لعلم النفس منهجا علميا، بمـا يعنـي عـادة أن له مضمونا موضوعيا. ووفقا لهذا التعريـف فـإن اهتمـام علم النفس ينحصر في السلوك وليس العقل أو الخبرة.

ولقد اعتقد أعـلام السـلوكية فـي النصـف الأول من القرن العشرين أن قصـارى مـا نسـتطيع ملاحظتـه كعلماء إنما هو ما يفعله غيرنا مـن البشـر أو الحيوانـات، وليس ما يشعرون به أو يفكـرون فيـه، ولعـل الكثيـرين يختلفون مع مثل هذا التقييد. فضلا عـن ذلـك فـإن مـن

دارسس السلوك – ومن بينهم بعـض علمـاء البيولوجيـا– من لا يعتبرون أنفسهم ضمن علماء الـنفس. وعلـى أيـة حال فإن هذا التعريـف السـلوكي مـازال يسـتخدم علـى نطاق واسع.

وثمة تعريف آخر قـد يبـدو انهزاميـا وإن كـان الكثيرون مازالوا يحملونه محمـل الجـد. وأصـحاب هـذا التعريف إنما يقـرون عمليـا بهـزيمتهم بقـولهم أن علـم النفس هو ما يمارسه علماء النفس بصـفتهم هـذه. وربمـا كان مثل هذا المنحى مثيرا للسخط حيث إنـه فـي الحقيقـة لا يقدم أية معرفة بهوية علم الـنفس أو بمـا يتناولـه هـذا العلم، وإن كان يعتـرف صـادقا بـأن لعلـم الـنفس مـن التعريفات ما قد يضاهي عـدد علمـاء الـنفس، حيـث إن أولئك الذين يطلقون على أنفسـهم اسـم " علمـاء الـنفس " يمارسون أمورا بالغة التبـاين حتـى أن الشـيء الوحيـد الذي يحفظ لهذا المجال تماسكه هـو اتفـاق هـؤلاء الـذين يعملون في نطاقـه علـى أنهـم يحملـون اسـم " علمـاء النفس" سواء كـانوا مـن المهتمـين بـالعلاج النفسـي أو السيكوفيزيقا. وسواء كان موضوع اهتمـامهم هـو ذبـاب

الفاكهة. أو الفئران، أو البشـر. وسـواء تعـاملوا بـأجهزة الحساب الآلي، أو بالمتاهـات، أو ببقـع الحبـر. وسـواء كانوا من المشتغلين بقضايا الـتعلم، أو الحـب، أو عقـاقير الهلوسة.

وعلى أية حال فأيا كان اختيـار المـرء لتعريـف علم النفس أو للتعرف عليه، فإن علم الـنفس يظـل دومـا موضوعا خلابـا. فالطلبـة يقـدمون عليـه متـوقعين أن يكشف أمامهم أسرار وجـودهم هـم، وأن يجـدوا المعنـى لوجودهم، وأن يحققوا استبصارا إذا مـا مسـت دراسـتهم التحليل النفسي، والبشر جميعا تواقـون بطبيعـتهم لمعرفـة أنفسهم. ورغم أن لدى علم النفس بعض مـا يمكـن للمـرء الفاهم أن يفيد منه، سـواء فيمـا يتعلـق بحياتـه هـو أو بحياة الآخرين، فإن غالبيـة البحـوث النفسـية المعاصـرة تقع في إطار المعرفة الخالصـة، أي المعرفـة مـن أجـل المعرفة فحسب.

ويشير المؤلف إلى أنه قـد يتكـون لـدى بعـض الطلاب بعد دراستهم المقرر التمهيـدى فـي علـم الـنفس إحساس بأنه قد غرر بهم بشكل أو بآخر، فهـم لـم يحققـوا

ما كانوا يتوقعونه من استبصـار بأنفسـهم وبسـلوكهم. ولا يلبث الطالب أن يواجه علـم الـنفس ذا الصـبغة العلميـة، وقد تحول دافعه الشخصي الداخلي القـديم- بعـد دراسـته لمثل هذا المقرر- إلى هدف خارجي لا تشوبه الأوهام.

ولعـل إشـارة المؤلـف إلـى صـعوبة تحديـد موضوع علم النفس، وإلى ما قد يشـعر بـه طـلاب علـم النفس عند بداية دراسـتهم لـه مـن إحبـاط يجعـل مـن المناسـب إحالـة القـارئ إلـى مـا ورد فـي كتابنـا: "الشخصية الإسرائيلية" في معـرض حـديثنا عـن موقـع دراستنا تلك من التراث، حيـث ورد فـي الصـفحات مـن ٧-١٠ ما يلي:

يقرر أندروز في مقاله عـن منـاهج البحـث فـي علـم الـنفس أن المـرء لا يتسـاءل عـادة عـن المـادة الأساسية لعلوم الطبيعة أو الكيمياء أمـا علـم الـنفس فقـد لقى من الوجهة التاريخيـة بعـض الصـعاب فـي تقريـر حدود المادة الخاصـة بموضـوعاته، تلـك المـادة التـي تراوحت من الشعور، إلى ذلـك التطـور الحـديث الـذي يطلق عليـه مـن قبيـل التعريـف الإجرائـي الاسـتجابة

التمييزية. ويؤكد أحمد عزت راجـح نفـس تلـك القضـية مقررا أن لكل علم من العلـوم موضـوعا خاصـا يتخـذه محور دراسته... أما علـم الـنفس فمـن الغريـب أنـه لا يوجد لدينا حتى اليوم تعريف واحد لـه يجمـع عليـه كـل الباحثين في هذا العلم أو أكثـرهم. ويسـلم يوسـف مـراد أيضا بذلك قائلا : قد اسـتقر رأي العلمـاء فيمـا يخـتص بموضـوع العلـوم الفيزيائيـة والكيميائيـة والبيولوجيـة ومنهج البحث فيهـا، فـي حـين لا يـزال السـيكلوجيون يثيرون من وقت لآخـر مشـكلة موضـوع علـم الـنفس ومنهجه، ويمضى مشيرا إلى أن كتب علـم الـنفس تتبـاين تباينا عظميـا لا فـي موضـوع علـم الـنفس ومناهجـه وتأويـل حقائقـه وتصـنيف المظـاهر النفسـية وتقريـر خصائصـها فحسـب. بـل فـي المصـطلحات نفسـها ومدلولاتها".

وإن كان تعريف أي علم من العلـوم يقـوم علـى أساس مـن تحديـد لموضـوعه فإنـه لمـن الطبيعـي أن ينعكس الجدال حول موضـوع علـم الـنفس علـى تعـدد تعريفاته وتنوعها وتباينها، وليس يعنينـا فـي هـذا المقـام

التعرض تفصـيلا بالمقارنـة أو بالنقـد لتلـك التعريفـات المتعددة. يكفى أن نشير إلى آثـار انعكـاس عـدم تحديـد موضوع علم النفس علـى تعميـق الفجـوة بـين دارسـي علم النفس الشبان وأسـاتذتهم، تلـك الفجـوة التـي كانـت محور الخطاب الذي ألقاه هدسون فـي الاجتمـاع السـنوي للجمعية النفسية البريطانية عام ألـف وتسـعمائة وسـبعين، والذى قال فيه:

" إن دارسي علم النفس الشـبان يجـدون سـعادتهم وتثقيفهم لدى ليفى شتراوس وشومسـكى وشـوتز وليـنج، ولا يجدون سعادة ولا ثقافة فيمـا أضـعه تحـت أنظـارهم من كتابات ذات اتجاهات عقلية أكثـر إمبيريقيـة... إنهـم لا يرون في التـراث الإمبيريقـى فـي العلـوم الإنسـانية سوى واحد فحسب من منافـذ عديـدة مفتوحـة حيـالهم : البنائيـة، والفينومنولوجيـة، والأنثروبولوجيـة ومـا إلـى ذلك... إنهم يسلمون تسليما قاطعـا بـأن اعتقـادي الـذي نشأت عليه، وهو النظر إلى علـم الـنفس باعتبـاره علمـا للسلوك، هو إما مجـرد خطـأ علـى المسـتوى الوصـفي فحسب أو أنه تعبير لفظـي عـن أيدلوجيـة خفيـة. وهـم

يرون أن العقيدة السلوكية عقيدة أيديولوجيـة طالمـا أنهـا تؤكد شرعية أنواع معينة من المعرفـة المتعلقـة بالطبيعـة البشرية، وتسقط تلك الشرعية عـن أنـواع أخـرى. وهـم في هذا الصدد على حق دون جـدال إذا مـا نظرنـا إلـى علم النفس كما درسته في أكسفورد عـام ألـف وتسـعمائة وخمسين".

ومن الطبيعي والأمـر كـذلك أن تـنعكس أزمـة العلوم الإنسانية في مجال علم النفس كأوضـح مـا يكـون، فإذا كان (جيلـين) علـى سـبيل المثـال يؤكـد ضـرورة استعادة الاهتمام بالنظرية فـي العلـوم الإنسـانية بعامـة، فإن بوليزير يؤكد نفس الضرورة في مجـال علـم الـنفس بقوله: " والغلطـة الكبـرى لهـذه السـيكولوجية المسـماة بالعلمية أنها تذهب أبعد ممـا ينبغـي وأقـل ممـا ينبغـي معا. فهي تذهب بعيدا جدا في الإعـداد لتجاربهـا، ولكنهـا لا تذهب بما فيه الكفايـة فيمـا يتعلـق بالأسـلوب الـذي تتصور به هذه التجارب".

وإذا كـان برنـال يـرى أن ثمـة خطـورة فـي "محاولة العلـوم الاجتماعيـة أن تطبـق مباشـرة منـاهج

علوم أخرى "، فإن زيور في مقدمته للترجمة العربية لكتاب بوليتزير " أزمة علم النفس المعاصر " يشير إلى نفس القضية بقوله :"... أراد علماء النفس لعلمهم أن يدخل حظيرة العلوم المضبوطة، ويحظى بما تحظى به هذه العلوم من الدقة والاحترام، فاصطنعوا أدوات القياس الفسيولوجي في معامل علم النفس، وانتهوا إلى نتائج ما كان يمكن أن تكون إلا من قبيل ما يحصل عليه علماء وظائف الأعضاء، نتائج لا تلقي أي ضوء على الإنسان بما هو إنسان".

وإذا كان كولمان قد أبرز تحاشي العلوم الإنسانية التصدي للمشكلات الاجتماعية الملحة في العالم المعاصر، فإن هدسون يطرح نفس القضية في خطابه المشار إليه آنفا وهو يفصل طبيعة الأزمة بين دارسي علم النفس وأساتذته قائلا:" إنهم يتوقعون أن يتعلموا شيئا عن أسباب عدم إنسانية الإنسان... ونحن نعلمهم أمورا تتعلق ببناء الاستبيانات وشهية فئران أو خنازير التجارب... إنهم يودون لو تعلموا شيئا عن الروح الإنسانية، وعن المشكلات الدائمة الخاصة

بالعلاقة بين الخبرة الإنسـانية والعقـل الإنسـاني، ونحـن نقدم لهم أسس المـنهج العلمـي. إنهـم يطـالبون بحيويـة الموضوع، ونحن نحاول أن نعلمهم الدقة والصرامة".

نستطيع بعد هذا الاقتبـاس المطـول مـن كتابنـا "الشخصية الإسرائيلية" أن نعـود مـن جديـد إلـى كتـاب "قضايا أساسية في علم النفس".

يشير المؤلـف إلـى أن المـدرس الـذي يتـولى عرض مقدمة نمطية لعلم النفس، كثيـرا مـا يجـد نفسـه في ورطة : فهو إمـا أن يشـوه عرضـه لكـي لا يحطـم آمال تلاميذه، أو أن يغامر بـدفعهم إلـى فقـدان اهتمـامهم بالموضوع. والأمل معقود على أن يواصـل علـم الـنفس تعديل صورته لدى النـاس بحيـث تتحـول مـن " قـراءة الأفكـار" و "التحليـل الـذاتي" إلـى "علـم وتكنولوجيـا السلوك"، ومن ثم تذبل حدة ذلـك التعـارض، حيـث لـن يقدم الطلاب آنذاك ولـديهم مثـل تلـك التوقعـات غيـر الحقيقية، وحينئذ قد يبهرهم علـم الـنفس كمـا هـو عليـه حقا.

ويشير المؤلـف إلـى أن عـالم الـنفس الراحـل فيلمور هـ. سانفورد قـد نشـر عـام ١٩٥٨ مقـالا فـي مجلة عالم النفس الأمريكي، لم يتناول فيـه ذلـك التسـاؤل عن هوية علم النفس وإن كان قـد عـرض إجابـة شـافية لتساؤل مشابه عن من هو عـالم الـنفس؟ وكانـت إجابتـه دقيقة ومتواضـعة قـدم فيهـا منظـورا بـالغ العموميـة حرص أن يتحاشى فيـه الإشـارة إلـى أيـة اتجاهـات أو نظريـات أو موضـوعات بعينهـا. ولكنهـا – أي تلـك الإجابة– تنقل بالفعل جوهر ما يـدور حولـه علـم الـنفس حاليا، وكيف يمارس علماء الـنفس عملهـم كمتخصصـين في هذا العلم، يقول سانفورد:

عالم الـنفس هـو ذلـك الـذي يعبـر فـي مختلـف المواقف علـى تنوعهـا عـن اعتقـاده بجـدوى التنـاول العلمي لمشكلات السـلوك الإنسـاني. فهـو فـي المعمـل ينسج النظريـات، ويطـرح الفـروض، ويختبـر أفكـاره، وينشر نتائجه. وهـو يفعـل نفـس الشـيء فـي العيـادة مستخدما مـن الأسـاليب مـا يناسـب مواجهـة مختلـف المشكلات. وهو يؤمن بـأن مشـكلات السـلوك الإنسـاني

قابلة للحل. وهو يؤمن بالأدلة الواضـحة ويـؤمن بإمكـان التوصل إلى الاسـتدلالات المناسـبة حيـال أيـة مشـكلة إنسانية. إنه متحرر من الروتينيـة اللفظيـة ويسـتطيع أن يبحث عن بدائل للصـياغات النظريـة للمشـكلات. وهـو يستريب في الدجماطيقية– صـغرت أو كبـرت– ويعـرف كيف يعيش مستغنيا عن الإجابـات القطعيـة الزائفـة ومـا تكفله من ارتياح مخـادع. أنـه يـؤمن بعلنيـة المعرفـة، فرغم استخدامه لمعرفتـه الفرديـة، ولحدسـه الخـاص لا يهدأ له بال إلا إذا مـا نشـر إنتاجـه وأخضـعه للتحليـل بحيـث يمكـن اختبـار صـدقه، وبحيـث يتـاح للكافـة الاستفادة منه، وهو رجل علم بأوسـع مـا تعنيـه الكلمـة. ملتزم بأخلاقيات العلم، وبما تعنيه تلـك الاخلاقيـات مـن إكبـار للوقـائع، وللمنطـق، وللموضـوعية، ولإمكانيـة الاختبار، ولتواصلية المعرفة، وبمؤقتيـة مـا يـركن إلـى صدقه. إنه رجل علـم، يتحلـى بتواضـع العلمـاء. ذلـك التواضـع الـذي يبقـي العقـل متفتحـا، والـذي يفضـل التشوش المستنير على اليقـين العملـي. ونظـرا لأنـه لا يملك معرفـة نهائيـة، فـإن عليـه أن يستكشـف دومـا.

ونظرا لأنه لا يغلق عقله فإنه يفتح أذنيـه وعينيـه. ورغـم أنه رجل علم، فإن تواضعه يمنعه من إغـلاق فكـره أمـام احتمال ألا يكون بمقدور العلم والإحاطـة الشـاملة بـدقائق الوجود الإنساني. وفـوق ذلـك، فلعـل تعرضـه الحمـيم لجوهر الطبيعة الإنسانية هو الذي يجعلـه أكثـر حساسـية وتعاطفا حيال أي شخص أيا كانـت مكانتـه أو سـلالته أو مهنته أو لونه. ويتشابك مـع تلـك الميـول والاتجاهـات عدد من المهارات الفريدة للعـالم النفسـي: ثمـة مهـارات نظرية تمكنه من صياغة المشـكلات، وتخطـيط الفـروض القابلة للاختبار. وثمة مهارات المعالجـة، تلـك المهـارات الموجهة إلى اختبار الأفكار الأولية غيـر المحـددة. وثمـة مهارات التقييم التي يحتاجها عالم الـنفس لاتخـاذ قراراتـه بشأن إمكانية الحصول علـى البيانـات المطلوبـة ومـدى تعلقها بالموضوع.

وهكذا فإن علم النفس بأوسـع معانيـه هـو اتجـاه أو طريقة في التفكيـر وفـي التصـرف حيـال مشـكلات إنسانية. ويستطيع عالم النفس المعاصـر أن يـردد كلمـات تيرنس التي مضت عليها قـرون عديـدة "إننـي إنسـان:

وليس ثمة شيء ذا طـابع إنسـاني أسـتطيع أن أكـون لا مباليا حياله". ليس ثمـة شـيء إنسـاني يمكـن أن يبـدو غريبا أو مغتربا في نظر ذلـك الإنسـان : عـالم الـنفس الحديث.

ثم يشير المؤلـف إلـى أن عنـوان هـذا الفصـل الموجز ربما كان يبـدو واعـدا بإجابـة بالغـة الوضـوح للتساؤل عن هوية علـم الـنفس. وقـد يحـس القـارئ أن ذلك السؤال قد نحى جانبا. ولكـن رغـم أن التسـاؤل لـم تتم الإجابة عليه مباشرة فقد تم عرض أكثـر مـن تعريـف محدد، مـع اسـتبعاد أن يكـون أيهـا بمثابـة التعريـف الوحيد. فقد كان لكل منها ما يذكر لـه، وأيضـا مـا فاتـه أن يشير إليه. ولعلنا نستطيع النظـر إلـى بقيـة صـفحات هذا الكتاب باعتبارها نوعا آخـر مـن تعريـف المجـال. وقد يميل القارئ بعـد شـيء مـن الألفـة بالمجـال إلـى محاولة اصطناع تعريفه الخاص. ففى النهايـة يبـدو مـن المستحيل أن نصل إلى صياغة تضـم علـم الـنفس كلـه ويقبلها علماء النفس جميعا. ولـذلك فـإن التعريـف الـذي قد يتوصل القارئ بنفسه إلى صياغته بعـد ألفتـه بالمجـال

قد يضاهي سواه من التعريفات سواء مـن حيـث كفاءتـه أو من حيث مثاليته.

ويشير المؤلف في النهاية إلى أنـه مـن المحتمـل ألا تكون ثمة حاجة حقيقية لتعريـف "نهـائى" للمجـال. إن الوعي ببعض البدائل المتاحـة ونـواحي قوتهـا وضـعفها قد يكون أكثر جدوى من القبول المتعسـف لوجهـة نظـر معينة والانقياد الأعمى لها. ولـذلك فقـد كـان هـذا هـو السبيل الذي أتبعه حيال غالبية التسـاؤلات الأخـرى التـي سنتناولها قي الصفحات التاليـة :" ألا نـزعم بـأن إجابـة محددة أو وجهة نظر بعينهـا هـي الأفضـل أو الأصـح، بل إن نسعى إلى فهم وتفضيل تعدد البدائل"

ويبدأ فيرتيمر في الإشارة إلى أنـه كثيـرا مـا يعلـق الدارسون النجباء لعلم النفس علـى مـا يبـدو لهـم مـن تشتت غيـر متـرابط للمقـررات التـي يدرسـونها فيـه، بتساؤل مؤداه" ألا يعدو أن يكون علـم الـنفس إذن مجـرد ركام متنـافر مـن المجـالات، والمشـكلات، والأسـاليب التي حدث أن تجمعـت بمحـض الصـدفة تحـت عنـوان "علم النفس"؟ والإجابة لا : فثمة قـدر مـن الاسـتمرارية.

ثمـة مـا يجمـع بـين مختلـف الاتجاهـات والمجـالات الفرعية. ويخلص المؤلف إلى أنه سـوف يتنـاول بعـض القضايا التجميعية مما يمكن أن يقلـل إلـى حـد مـا مـن ذلك التشابك غير المتمايز، الذي يشمل كل مـا يقـع تحـت عنوان علم النفس، مثيرا لمشاعر الإحباط والحيرة.

ويستهل المؤلف عرضه للقضـايا الأساسـية فـي علم النفس بالإشارة إلى أن المجـادلات فـي علـم الـنفس قد ظلت تدور– عبر العصور– حـول عـدد مـن الأسـئلة المحورية. ويصعب الفصـل بـين بعـض هـذه الأسـئلة وبعضها، فهي كلها تتعلق بالإنسان في نضـاله مـن أجـل التوصل إلى هويته وماهيته، ومن ثـم فـإن أيـة محاولـة لفصم ما يربط بينها إنما هي محاولة حمقاء.

ويتساءل المؤلـف: ولكـن تـرى مـا هـي تلـك القضايا التي تعتبر أساسـية؟ أيـة تسـمية نطلقهـا علـى القضية بعد اختيارها؟ وأي ترتيـب نرتضـيه لطـرح مـا تثيره القضية من أسئلة؟ ترى لمـاذا سـوف نعـرض كـل قضية قد نتناولها فـي صـورة قطبـين متـواجهين؟ أهـو الولع الفكري بالتصـنيف إلـى أبـيض – أسـود؟ أم لأن

القضايا بطبيعتها أميل إلى أن تتخـذ هـذه الصـورة أي س في مقابل ص، موقف في مواجهـة موقـف، ولـيس فـي صورة التساؤل عـن كميـة س أو كميـة ص. ويخلـص المؤلف إلى أن الأسلوب الذي اختاره للعـرض قـد يبـدو أحيانا مشوبا بقدر مـن التعسـف أو الاصـطناع، ولكنـه يجعل الأمور أكثر اتساقا وأيسـر تنـاولا. وفضـلا عـن ذلك فان للقطبية خاصية جيدة حيـث يسـاعد كـل نقـيض على تعريف نقيضـه. فالقطـب هـو مـا لـيس القطـب المناقض.

ثم يعـرض المؤلـف لملاحظـة تمهيديـة أخيـرة مؤداها أنه رغم انقسام كل قضية إلـى قطبـين متـواجهين إلا أن لغالبية تلك القضايا خاصية بالغـة الأهميـة تتمثـل في أن تجميع القطبين المتعارضـين يـؤدي إلـى بـزوغ بناء جديد أكثر رقيا وإنتاجية.

ويقرر المؤلـف أن أحـدا مـن علمـاء الـنفس لا يستطيع أن يتحاشى اتخاذ موقف – حتـى ولـو ضـمنيا– حيال عدد من القضايا شبه الفلسـفية كتلـك التـي نوشـك أن نتناولها. فمثل تلك القضـايا تفـرض نفسـها بشـكل أو

بآخر على كل سؤال أو بحث له طـابع نفسـي. والموقـف الذي يتخذه الفـرد حيـال تلـك القضـايا يشـكل ملامـح اتجاهه الفكرى في مجال علـم الـنفس، فضـلا عـن أنـه يمكن أن يترك بصماته أيضا على حياتـه اليوميـة خـارج إطار الممارسة المهنية.

ثم يقرر المؤلـف أن مناقشـته سـوف تـدور حـول عشرة قضايا أساسية اثنتان منهـا تتعلقـان بكيفيـة سـعي المرء لبلوغ بغيته، وكيفية ممارسـة المـرء لعملـه كعـالم نفسي. أما بقية المسائل فتتعلـق بـالمواقف حيـال قضـايا معينة أكثر تحديدا إلـى حـد مـا. ويقتـرح المؤلـف أن نطلق على المسألتين المتعلقتـين بـالمنهج اسـم القضـايا المنهجية، وأن نطلق علـى بقيـة المسـائل اسـم القضـايا الجوهرية. ولما كان يبدو منطقيا أن يـتم تنـاول المسـائل الأساسية المتعلقـة بالمضـمون قبـل النظـر فـي كيفيـة اختيار الأسلوب المناسب لدراسـته، فقـد ارتـأى المؤلـف البدء بالقضايا الجوهريـة ثـم المضـي بعـد ذلـك إلـى القضايا المنهجية.

" الإنسان سيد مصيره" في مقابل " الإنسان ضحية المقادير"

يبدأ المؤلف عرضه لتلك القضية الأزلية بأن يتساءل : ترى هل يجلس الإنسان على مقعد القيادة، أم أنه مجرد مسافر ملقى على المقعد الخلفي مقيدا مكمما؟ إلى أي حد يستطيع المرء أن يقرر ما سوف يحدث له، وما سوف يفعله، وإلى أين يمضي؟ هل هو حر في أن يختار من بين البدائل العديدة التي تواجهه بها الحياة. أم أن اختياره محتوم أيا كان؟.

ثم يبدأ المؤلف بعرض رؤية كارل روجرز عالم النفس الشهير، وصاحب المدرسة المعروفة في العلاج النفسي، والذى يرى أنه إذا ما أتيحت للفرد الفرصة من خلال علاقة متسامحة متفهمة، فإنه يستطيع أن يحقق رؤية واضحة للمسالك المختلفة التي تفتح أبوابها أمامه. وبفضل طبيعة الإنسان المتطلعة للأمام، والمتهيئة للسعى الإيجابي، فإنه– وفقا لرؤية روجرز– يستطيع الاختيار الحكيم لأفضل الطرق التي يتبعها. ويشير المؤلف إلى أن المعالجين النفسيين

الوجوديين يـرون نفـس هـذا الـرأي، حيـث يـرون أن جوهر الوجود الإنساني يفـرض علـى المـرء أن يواجـه قرارا إثر قرار والمرء حـر فـي اختيـار هويتـه، مهمـا كانت معاناته في سبيل الحصول علـى كافـة المعلومـات التي قد يحتاجها أو يريدها قبل أن يحدد اختياراته.

ثم ينتقل المؤلف إلى الضفة المقابلـة مشـيرا إلـى أنه على النقيض من روجـرز والوجـوديين يقـف ب.ف. سكينر الذي يرى أن الكائنـات تفعـل أفعـالا، أي تصـدر استجابات. وهذه الأفعال أو الاسـتجابات قـد تتبعهـا أو لا تتبعها نتائج معينة تتمثل في المثيـرات التدعيميـة. ومـن ثم فإن الاستجابات التي تليها مثيرات تدعيميـة تميـل إلـى الحدوث ثانية في موقف مشابه، بينما تلـك التـي لا تلقـى تدعيما يصبح تكرارها أقل احتمـالا. وكافـة الاسـتجابات تخضع لتأثيرات التدعيم. وجوهر الوجـود الإنسـانى إنمـا هو سلوكه لا أكثر من ذلـك ولا أقـل. ومـا دام السـلوك خاضعا تماما لسيطرة التـدعيم، ومـادام الإنسـان فريسـة لقوى التدعيم– وغياب التدعيم– التـي تتقادفـه مـن كـل صوب، فـإن سـلوكه خاضـع لسـيطرة نـزوات بيئتـه.

الإنسان إذن– وفقا لما يـراه سـكينر – لـيس سـيدا بـل ضحية للقوى التي تشكل سلوكه.

ويشير المؤلف إلى أن لهـذا السـؤال صـداه فـي الفكر الديني أيضا: هل الإنسان مسير أم مخيـر؟ أمـا فـي الفلسفة فثمة سؤال مشابه يعـرف لـدى الفلاسـفة بقضـية الإرادة الحرة في مقابل الجبريـة ومازالـت تلـك القضـية تحظى باهتمام كبير.

ويلخص المؤلف الموقف مـن القضـية بالإشـارة إلى أن هناك إذن مـن يبـرزون– شـأن روجـز– قـدرة الإنسان الحقيقية على الاختيـار، ويبـدو الإنسـان لـديهم قادرا على اختيار طريقه، وعلى اتخـاذ قراراتـه بحريـة، مفاضلا بين العديد من التصـرفات البديلـة التـي يجـدها أمامه في أية لحظة مختـارا التصـرف الـذي يرتضـيه. فإذا ما كان المـرء فعـالا ومنتجـا وسـعيدا فإنـه لأمـر يحسب له. وبالمثل فإن التعسـاء، والـذين يعجـزون عـن الإنجاز، بـل وحتـى المجـرمين مسـئولون أيضـا عـن كونهم كذلك، طالما كانت لـديهم الحريـة فـي أن يكونـوا وأن يتصـرفوا وفقـا للأسـلوب الـذي يرتضـونه. أمـا

الجبريون– أمثال سكينر– فإنهم يبـرزون مـا يتسـم بـه السلوك من انتظامات ومن قابليـة للتنبـؤ بمسـاره، كمـا يبرزون حقيقة أن السلوك قابـل للتغيـر وللضـبط إذا مـا تم تعديل الظروف التي يجرى في ظلهـا تعـديلا مناسـبا. ويرى بعض الجبريين أنه بدون التسـليم بحتميـة السـلوك يستحيل قيام علم للسـلوك. بـل إن مجـرد وجـود ذلـك القدر من الانتظام في السلوك وهو ما اتضـح فـي عديـد من مجالات علم النفس، يثبت صـدق الفرضـية الجبريـة. خلاصة القول إن أولئك الـذين يؤمنـون بـالإرادة الحـرة يرون أن البشر يكونون على ماهم عليـه لأنهـم اختـاروا ذلك، أما الجبريون فيرون أن البشر إنمـا يكونـون علـى ماهم عليه لأنه قد تم تشكيلهم كـذلك بفعـل قـوى داخليـة وخارجية كالوراثة والخبرة.

" الإنسان طيب" في مقابل " الإنسان شرير"

من البشر من يتأفف دوما، ومنهم مـن يبـدو دائـم الابتهاج. ثمة من لا يرون إلا عبر منظـار أسـود، وثمـة من يميلون إلى رؤية الجانب المضـيء فـي كـل شـيء. ترى هل كـل شـيء يمضـي إلـى الأفضـل حقـا، وأن

عالمنا هو على أفضـل صـورة، أم أن علـى المـرء أن يفقد الأمل كلية؟ هل على المرء أن يركـز اهتمامـه علـى ما هو إيجـابي فحسـب متجـاهلا السـلبيات؟ أم أن سـر الحكمة إنما يتمثل ببساطة في أن يستسـلم المـرء لحقيقـة أن لا شيء يستحق الاهتمام بـأى حـال؟ إن لمثـل تلـك المواقف الفكرية ما يقابلها في الفلسفة وفي علم النفس.

فالمرء يمكن أن يكـون متفـائلا أو متشـائما فـي نظرته لجوهر طبيعة الإنسان: هـل هـو طيـب أم شـرير بطبيعته؟ وغالبا ما يتضمن الموقـف الـذي يتخـذه المـرء حيال تلك المسألة تصورا حول إمكانية قيـام علـم الـنفس. فالتصور الملائكى الـذي يرتفـع بمنزلـة الإنسـان إلـى عنان السماء يـؤدي بصـاحبه إلـى التسـليم بـأن ذلـك الجوهر الروحي الشفاف للإنسان سوف يظـل إلـى الأبـد بعيدا عن تناول أي علم موضوعي بارد. ومـن ثـم فـإن محاولة التناول العلمي الصـارم لعقـل الإنسـان أو حتـى لسلوكه قد تعد– إلى جانب أنها محكـوم عليهـا بالفشـل – تحقيرا للإنسان يتنافى مع المبادئ الأخلاقية.

ولعل كلارك ل.هل وإبراهـام هـ ـ . مـازلو قـد يمثلا طرفي النقيض في هذا الصدد. لقد اتبـع (هـل) فـي دراسته للسلوك أسلوبا افتراضـيا اسـتدلاليا دقيقـا، وكـان حريصـا علـى أن يكـون علميـا تمامـا. وكـان يعنـي باستخدام هذا الأسلوب في علم النفس أنـه يمكـن اختـزال سلوك الكائنات إلى فرضيات وأفكـار واضـحة الصـياغة، وأن الصدق الإمبيريقي لتلك الأفكار يمكـن اختبـاره فـي المعمل تجريبيـا، وأن تلـك الفرضـيات والأفكـار ومـا تشكله من نظرية تخضع لما تقتضيه نتـائج التجـارب مـن مراجعة وتعديل. وبهذه الطريقـة فـإن النظريـة تقتـرب أكثر وأكثر من مطابقة الظاهرة التـي تحـاول تفسـيرها. لقد كان (هل) على قناعـة كاملـة بوجـود علـم للسـلوك وفي نفس الوقت فقـد كـان يعتنـق نظـرة أقـرب إلـى التشاؤم فيما يتعلق بطبيعـة الكائنـات : فالحيـاة تمضـي مسـتهدفة اللاشـيء وهـدف السـلوك فـي حاجـة إلـى اختزال، فالكائن يتعرض لسلاسل متتاليـة مـن المثيـرات الدافعة، التي يحاول عبثـا أن يتحاشـاها أو يقللهـا ولكنـه لا يملك منها فكاكا. إن ذلك الإنسان الـتعس يشـق طريقـه

في الحياة متأثرا بضغوط حاجاته الجسمية المزعجة اللاعقلانية المفروضة عليه بحكم مولده، وبفعل ذلك الصراع الحتمي بين دوافعه وبين بيئته التي لا تتفهمه، ولا تتيح له أن يتفهمها. وكل ما يستطيع أن يفعله هو أن يتعلم بعشوائية المحاولة والخطأ بعضا من الوسائل للتقليل بشكل أكثر كفاءة من حالات الاحتياج المؤلمة التي يعانيها.

أما (مازلو) فقد كانت لديه –على الطرف المقابل– رؤية للإنسان ككائن متسع الإمكانات، قادر على تجاوز احتياجاته البيولوجية الأنانية. ويقترب بعض الأفراد النادرين من التحقق الكامل لمواهبهم الفريدة وبلوغ حالة راقية يطلق عليها مازلو اسم حالة تحقيق الذات. ورغم أن ظروف البيئة قد تعوق شخصا ما لبعض الوقت، فإن بداخل كل فرد إمكانية أن يصبح كائنا إنسانيا منتجا له قيمته. وفي نفس الوقت، فإن المقاييس والتجارب الباردة المجردة للمعمل لا تلقى هوى لدى مازلو الذي يتبنى اتجاها كلينيكيا وأدبيا. وتتضمن وجهه نظره ما يعني أن القوالب الجامدة

للمنهج العلمي –بمعناه الضيق– لا يمكـن لهـا مطلقـا أن تحقق فهما أصيلا لخصوصية الحالة الإنسانية.

لاشك أن نظرة (هل) إلى الإنسـان أشـد تشـاؤما من نظرة (مازلو). ولكن هل– رغم تشـاؤميته– لـم يكـن يـرى الإنسـان شـيطانا، كمـا كـان يـراه غيـره مـن المفكـرين. لقـد لاحـظ توماس هـوبز– مـثلا – فـي منتصف القرن السابع عشر أن الإنسـان أنـاني، لا يـرى إلا ذاتـه، ويسـعى دون هـوادة لإشـباع رغباتـه علـى حساب الآخرين. وليس من سـبيل لكـي يعـيش الإنسـان في سلام مع أخيـه الإنسـان دون سـرقة أو اغتصـاب أو قتل أو فوضى اجتماعية سـوى الالتـزام بعقـد اجتمـاعي صارم لا يسمح للمرء بالتطاول علـى حقـوق وامتيـازات الآخرين. وبالمثل فقد تبنى فرويد في بـواكير هـذا القـرن نظرة بالغة التشاؤم لجوهر الطبيعـة الإنسـانية، حيـث إن الليبيدو – وهو مصدر الدافعيـة الإنسـانية– يتصـف بـلا اجتماعية عميـاء، أنانيـة، جنسـية، عدوانيـة، مـدمرة. ويرى فرويد أن كافة أنواع السلوك إنما تصـدر عـن نبـع شرير. ولكن ليس كل من كتبـوا مـن المحللـين النفسـيين

عن الليبيدو اعتبـروه مفسـدة. أوتورانـك –علـى سـبيل المثال– يرى أن الليبيدو يعد مـن قـوى الحيـاة المنتجـة الإيجابية الخلاقة. كذلك فإن (ألفـرد آدلـر) قـد اعتبـر أن المحرك الأساسى للإنسـان هـو السـعي لبلـوغ السـبيل الأمثـل لمواجهـة مشـكلات الحيـاة بطريقـة إيجابيـة متحررة.

وبذلك فإن هل، وهوبز، وفرويـد يتخـذون موقفـا متشائما في نظرتهم لطبيعة الإنسـان حيـث يـراه هـوبز وفرويد فاسدا حتى النخاع. فالإنسان كـائن شـرير، ومـا الإيثارية إلا وهـم، فالكـل يسـعى إلـى إشـباع رغباتـه الأنانية الخاصة. أمـا مـازلو، ورانـك، وآدلـر فـإنهم – على الطرف الآخر– ينسبون للإنسان نوعـا مـن النبـل. فالإنسـان كـائن يسـعى للأمـام، طبيعتـه خيـرة فـي جوهرها. تضم جوانحه إبداعا، وإنتاجـا، وشـفقة، وكرمـا وسخاء.

" حاصل الجمع" في مقابل "النظرة الكلية"

ترى هل يمكن الحصـول علـى صـورة مناسـبة للكل بتفكيكه إلى أجزاء ثم إعـادة إضـافتها إلـى بعضـها

من جديد؟ لعـل موضـوع الشخصـية يتـيح لنـا مثـالا واضحا في هـذا الصـدد. هـل الشـخص هـو مجمـوع اتجاهات أفعاله، أو أنمـاط عاداتـه، أو مجمـوع الـروابط التى تربط استجاباته بمثيراتهـا؟ أم أن ثمـة شـيئا فريـدا متميـزا عـن مجمـوع هـذه السـمات وتلـك الصـفات والخصائص هو الذي يشكل جوهر شخصيته؟.

إن من يعتنق نظريـة التجميـع يسـتخدم طريقـة بسيطة واضحة فـي فهـم الظـاهرة باعتبارهـا مجمـوع العناصر التي تتكون منها. بينما يرى مـن يعتنـق نظريـة الكل– أو الجشطلت– أنه في كثير مـن الأحيـان لا يكـون الكل مجرد خليط خامد من أجزاء لا تتبـادل التـأثير فـي بعضها الـبعض. إن الكـل يتجـاوز مجمـوع الأجـزاء. كذلك فإن العلاقات بين الأجزاء تعد أساسـية مـن وجهـة النظر هذه، فخصـائص الكـل يمكـن أن تحـدد طبيعـة الأجزاء. بينما طبيعة الكل لا تعني حاصـل جمـع أجـزاء هذا الكل.

ولعل خير نماذج لـذلك التعـارض بـين الاتجـاه التجميعي والاتجاه الكلي تتمثـل فـي ظـواهر الشخصـية

والإدراك والتفكير. ولننظر إلى مسألة من مسائل التعلم تعارضت حيالها وجهتي نظر كينيث سبس وماكس فيرتيمر، وهي مسألة تغيير الأوضاع. وتبدو النتائج في هذا الصدد واضحة: ولنتصور طفلا، أو دجاجة، أو سمكة، أو كلبا، علمناه أن يختار مثلا المكعب الأكبر حجما من بين مكعبين نقدمهما له أحدهما صغير الحجم والآخر متوسط الحجم. فإذا ما أحسن الاختيار نال على سبيل المكافأة طعاما شهيا، أو إيماءة مشجعة، أو ما إلى ذلك من مكافآت تتناسب مع طبيعة ذلك الكائن. وظللنا به كذلك حتى أتقن عمله، ثم دفعنا به إلى اختيار حرج. قدمنا له زوجا من المكعبات: أحدهما هو نفس المكعب متوسط الحجم الذي تعلم أن يختاره من قبل باعتباره الأكبر، وبدلا من المكعب الأصغر حجما الذي كنا نستخدمه فيما سبق، جئناه بمكعب آخر يفوق المكعب المتوسط حجما، ترى أي المكعبين سيختار الآن؟ هل سيختار نفس المكعب المتوسط الذي كان الاختيار الصحيح فيما سبق؟ أم أنه سوف يدرك أن المطلوب منه اختيار "الأكبر" من بين زوج المكعبات

المعروض عليه حاليـا، ومـن ثـم فإنـه سـوف يختـار المكعب الأكبر حجما متجاهلا المكعـب الآخـر المتوسـط الذي كان الاختيار الصحيح فيما سـبق؟ إنـه كمـا تشـير نتائج التجارب سـوف يختـار بالفعـل المكعـب الأكبـر حجما متجـاهلا المكعـب الآخـر المتوسـط الـذي كـان الاختيار الصحيح فيما سبق. ترى لماذا؟

من وجهة النظر الجشـطلتية أو الكليـة فـإن مـا تعلمه الكائن هو علاقة "الأكبر مـن.." وأن اسـتجابته قـد قامت على الموقف ككل، ومن ثم فـإن المكعـب متوسـط الحجم عندما يكون جزءا من كل يضـمه ومكعـب أصـغر حجما منه يلعب دورا يختلـف عـن دوره عنـدما يكـون جزءا من كل يضمه ومكعـب أكبـر منـه حجمـا. فهـو الأكبر في الحالة الأولـى فـي حـين أنـه الأصـغر فـي الحالة الثانية. الكل هو الـذي يحـدد معنـى الجـزء إذن، والكائن يستجيب لمثل تلـك العلاقـات والتفـاعلات التـي تسود بيئته. ويتساءل أنصـار النظريـة الكليـة: تـرى إذا ما كان السلوك مجرد نتـاج تجميعـي خـالص للعلاقـات التي تربط منبها معينا باسـتجابة بعينهـا، فلمـاذا إذن لـم

يقع الاختيار في المـرة الثانيـة علـى المكعـب متوسـط الحكم؟

لقد حدث انتقـال للاختيـار إذن، ولعلـه لـو لـم يحدث لكان ذلك بالتأكيـد سـندا قويـا لفكـرة أن الـتعلم مجرد تجميع بسيط. ولكـن هـل يعنـي ذلـك أن النتـائج الإمبيريقية قد أدت إلى استبعاد هـذه الفكـرة تمامـا؟ لـم يحدث هذا مطلقـا. وكمـا أوضـح سـبنس فـي نظريتـه البارعة، فإن كل ما يحتاجه المرء لتفسير مـا حـدث مـن وجهة النظر التجميعية هو افتراض أن مـا غرسـناه فـي الكائن خلال عملية التعلم هو عن ميـول تنبيهيـة لاختيـار المكعب متوسط الحجـم، وميـول تثبيطيـة ضـد اختيـار المكعب صغير الحجم، وأن تلك الميـول جميعـا قـد تـم تعميمها بدرجة معينة وتجمعت معـا. وفـي الحقيقـة فـإن النظرية التجميعيـة قـد أتاحـت بـذلك التفسـير إمكانيـة التوصل إلى تنبؤات تتعلـق بـالظروف التـى يمكـن فـي ظلها إبطال هذا الانتقال، وهـي تنبـؤات قابلـة للاختبـار، وقد تم ذلك الاختبار فعلا، ولكن النتائج لم تكن حاسمة.

يـتعلم الكـائن خـلال المحـاولات التدريبيـة أن يتحاشى المكعب الصغير، وفي نفس الوقـت فإنـه يـدرك بفضل التعميم أنه ليس من الحكمـة اختيـار أيـة مكعبـات صغيرة أخرى. ومن ثم يتكـون لديـه نـوع مـن الهالـة التثبيطية تحيط بالحجم الصغير. كما يتكـون لديـه بالمثـل تدريج تنبيهي يحيط بالمكعـب المتوسـط بحيـث تحظـى الأحجـام التـي تقتـرب منـه بـبعض مـن الإمكانـات التنبيهيـة، أي أن الكـائن يميـل بعـض الشـيء إلـى اختيارها إذا ما أتيح له ذلك. والآن، فـإذا مـا أتـيح لتلـك التدريجات التعميمية أن توسع مـن انتشـارها قلـيلا، وإذا ما تجمعـت الميـول التنبيهيـة والتثبيطيـة، فـإن الكـائن سوف يختار ذلك المنبه الـذي يفـوق غيـره مـن حيـث المجموع الكلى للميول التنبيهيـة مطروحـا منهـا الميـول التثبيطية. إن الميل التثبيطي المتعلـق بالمكعـب الصـغير يمتد بالتعميم ليشمل المكعـب المتوسـط، فـي حـين أنـه يصل بالكاد –إذا ما وصل– إلـى المكعـب الكبيـر. أمـا الميل التنبيهي المرتبط بالمكعـب المتوسـط فإنـه ينتشـر بالتعميم ليشمل المكعب الكبير. ومـن ثـم فـإن مجمـوع

الميول التنبيهية مطروحا منها الميـول التثبيطيـة بالنسـبة للمكعب المتوسط في الجزء الثاني من التجربـة كـان أقـل من ذلك المجموع بالنسبة للمكعب الكبيـر، وبالتـالي فـإن الاختيار يقع علـى ذلـك المكعـب الكبيـر. وهكـذا فـإن النظرية التجميعية التي تقـوم علـى اتجاهـات الاسـتجابة صوب الأحجام المطلقة، يمكن أن تتصـدى بالتفسـير لمـا يبدو كما لو كان سلوكا كليا يقوم على العلاقات.

وبالإضافة إلى ما سبق، فهـل مـن المستحسـن أن نلتزم في تحليلنـا بالمطلقـات، وأن نفتـت الأشـياء إلـى وحـدات ميسـورة الفهـم، جـاهزة التعريـف، يمكـن بتجميعها معا أن تشـكل كـلا، أم أنـه مـن الأفضـل أن نركـز علـى جانـب العلاقـات بـين الأجـزاء، وعلـى الخصائص المتوافرة في الكل، وليس فـي أي جـزء مـن أجزائه على حدة؟ إن سبنس يختار وجهـة النظـر الأولـى التي ترى الكل مسـاويا لمجمـوع الأجـزاء المكونـة لـه منعزلة، بينما يختـار فيرتيمـر وجهـة النظـر الأخـرى القائمة على أن "الكل" يتجاوز مجرد مجموع أجزائه.

"العقل" في مقابل "الجسم"

إيـا كانـت وجهـة نظـر المـرء فيمـا يتعلـق بموضوع علم النفس، وما إذا كـان متمـثلا فـي الوقـائع العقلية أو الخبرة أو السلوك، فإن عليـه أن يلـتمس بغيتـه من التفسيرات إمـا فـي إطـار المصـطلحات العقليـة أو المصطلحات الفيزيقيـة. قـد يطمـئن الـبعض ويقنعـون بتفسير يحيـل السـلوك إلـى مـا يلازمـه مـن وقـائع فسيولوجية تجري في المخ، حقيقة كانـت أم خيـالا. بينمـا يرى غير هؤلاء أن معرفة العلاقة بـين أشـكال سـلوكية معينة، وبين ما يجرى في الجهاز العصـبي قـد تكـون – في حد ذاتها– أمرا مثيرا للاهتمـام، ولكـن تلـك الوقـائع العصبية لا تقدم لك في الحقيقة شيئا علـى الإطـلاق فيمـا يتعلق بالوقائع السـلوكية أو الوقـائع العقليـة علـى حـد سواء. ترى هـل علـى المـرء أن يسـتخدم المتغيـرات العقلية أو السـلوكية فـي محاولـة لفهـم الظـواهر التـي يشملها مجال علم الـنفس، أم أن ردهـا إلـى المتغيـرات النيوروفسيولوجية والفيزيقة هو السبيل الأوفق لفهمها؟

يرى كيرت ليفين على سـبيل المثـال أن السـبيل لتفسير ما يفعله المرء وللتنبـؤ بمـا سـوف يفعلـه، هـو أشبه شيء بالنفاذ داخل جلده وتبين كيف يبـدو العـالم مـن خلال عينيه. إذا ما اسـتطعت أن تحصـل علـى صـورة واضـحة لحيـز حياتـه– أي لرؤيتـه لنفسـه ولبيئتـه– بالإضافة إلى معرفة طبيعة ما يتجـذب إليـه، ومـا ينفـر منه، وما لا يبالى به، فإنك تكون آنذاك قـد حققـت فهمـا صادقا لما يفعله المرء، ولمـاذا يفعـل مـا يفعـل. وثمـة صورة أخرى لـنفس هـذا الاتجـاه نجـدها فـي نظريـة برسكوت ليكى عن الاتساق الـذاتي: إن الأسـاس الوحيـد الذي يلزمك لفهم شخص مـا هـو التسـليم بأنـه سـوف يتصرف بطريقة تتسق مـع صـورته الذاتيـة أو تصـوره لذاته. فلتقنع شخصا ما بأنه عاجز عـن الهجـاء، ولسـوف تراه يرتكب من الأخطاء الهجائيـة الشـنيعة مـالا يخطـر على بال، حتى ولو كـان بصـدد هجـاء أكثـر الكلمـات شيوعا، أو فلتجعله يرى في نفسـه امتيـازا فـي الهجـاء. ولسوف تـراه يسـلك تبعـا لـذلك. فلتقنعـه بأنـه يكـره الرياضيات، وأنـه لا يحسـن الأداء الحسـابي، ولسـوف

يتسق سلوكه مع صورته الذاتيـة تلـك، فـإذا مـا اقتنـع بالنقيض فقد يصبح عبقرية رياضية.

ومن ناحية أخـرى فـإن المـرء يسـتطيع إقامـة "جهاز عصبى تصوري" وهي التسمية التـي قـال بهـا د. و.هب وذلك بصـياغة بعـض الافتراضـات عـن كيفيـة عمل هذا الجهـاز العصـبي، ثـم اسـتنباط التنبـؤات أو التفسـيرات المتعلقـة بالسـلوك مـن خـلال الخصـائص المفترض وجودها في ذلك الجهـاز العصـبي التصـوري. ولقد استند هب في نظريته على أحدث مـا توصـلت إليـه البحـوث الفسـيولوجية آنـذاك. وتمكـن- وفقـا لـذلك التصور– من تفسير ظاهرة تدهور الـذاكرة القريبـة مـع التقدم في العمـر، وامتـدت التفسـيرات لتشـمل ظـواهر الانفعال، والإحساس، والتعلم، والإدراك، والشخصية.

ترى أي الاتجاهين إذن هو الواعـد بتحقيـق فهـم السلوك؟ هل ينبغي على المـرء أن يلـتمس التفسـير فـي الوقائع العقلية التي تجـري داخـل الفـرد، أم أن عليـه أن يـدرس الوقـائع العصـبية الفسـيولوجية الكامنـة التـي بالجسم؟ إن ليفين وليكى يفضـلان اتبـاع الطريـق الأول:

على علم النفس أن يسعى لفـض أسـرار العقـل، ولفهـم النفس الإنسـانية. أمـا هـب فيختـار الطريـق الثـاني: محاولة اكتشاف الميكانيزمات البدنيـة والوقـائع العصـبية الفسيولوجية التي تتسبب في السلوك.

"الذاتية" في مقابل "الموضوعية"

ترى هل ينبغي على علم الـنفس محاولـة دراسـة الحالات الذاتية، أم أنه من الضـروري– وخاصـة إذا مـا كان يتطلع إلـى أن يكـون علمـا مضـبوطا– أن يركـز فحسب على الظواهر الموضوعية التي يمكن قياسها.

يرى البعض أنـه طالمـا أن الاهتمـام الأساسـي لعلم النفس ينبغي أن يكون بالحياة العقليـة للفـرد، ومـادام علم النفس هو الوحيد المكرس خصيصا لمـا هـو ذاتـي، فإن الاستبطان – أو ما إلى ذلك من سـبل للنظـر داخـل العقل– ينبغي أن يكون بمثابـة المـنهج الرئيسـي. ويـرى آخرون أن يستحيل إقامة علم يفتقد العموميـة التـى يتحـتم توافرهـا لأي علـم، وأن المعطيـات العلميـة الصـادقة الوحيدة هي تلك التي يمكـن للآخـر ملاحظتهـا. ومـادام أحدا لا يسـتطيع أن يلاحـظ مباشـرة مجريـات الحالـة

العقلية لشخص آخر، فإن على علم الـنفس أن يلـزم نفسـه بحدود مـا هـو قابـل للملاحظـة العلنيـة الموضـوعية. خلاصة القـول إذن أن أنصـار الموضـوعية يـرون أن مجال علم النفس ينبغي أن يقتصر علـى دراسـة السـلوك، في حين يـرى أنصـار الذاتيـة أن الموضـوع الرئيسـي لعلم النفس ينبغي أن يكون الخبرة.

ولقد قـام جـورج كيللـي، فـي كتابـه المعنـون "سيكولوجية التركيبات العقليـة الشخصـية" الصـادر عـام ١٩٥٥، بدراسة كيفية تفسـير الفـرد لعالمـه. أي الأبعـاد التي يستخدمها لرؤية بيئته؟ فقد يـدرك شـخص الآخـرين كطبيبـين أو أشـرار، كطـوال أو قصـار، كعـاطفيين أو خامدي العواطف. وقد نجد شخصا آخر أميـل إلـى أبعـاد مثل قساة أو رحماء، ذكور أو إنـاث، أذكيـاء أو أغبيـاء. لكل فرد مخزونـه الخـاص مـن التركيبـات العقليـة، أو منظاره الخاص الذي يـرى العـالم مـن خلالـه. ولعـل اضطرابا يعاني منه المـرء قـد يرجـع إلـى أن الأبعـاد التي يستخدمها لرؤية العالم ليست علـى مـا يـرام. ربمـا كان يلوي أعنـاق مـا يصـله مـن معلومـات بصـورة

تشوهها. أو لعله ببساطة يحاول دون تلقي أنواع من المعلومات لابد من الإحاطة بها لكي يتعامل مع بيئته بنجاح. ولعله في مقدور المعالج النفسي مساعدة مثل هذا الفرد المضطرب بأن يسأله إعادة النظر في مخزونه من التركيبات العقلية التي يرى بها العالم، وأن يبحث معه عن تركيبات عقلية بديلة قد تمكنه من تحقيق توافق أكثر استقرارا، وقد وقع كيللي لأسلوبه العلاجي على تسمية طريفة تناسبه تماما فأسماه "التبديلية البناءة"

وعلى النقيض من ذلك يقف اتجاه جوزيف وولبه في العلاج النفسي والمسمى بأسلوب الكف المتبادل. ويستند هذا الأسلوب إلى بعض المبادئ المستقرة في مجال تشريط السلوك، حيث يقوم المعالج بتدريب المريض على الاسترخاء، ثم دفع حالة الاسترخاء هذه شيئا فشيئا للتصارع مع المنبهات المولدة للقلق. وحيث إن استجابات القلق لا تستطيع الصمود أمام حالة الاسترخاء، فإن استجابات الاسترخاء الإيجابية المطلوبة لا تلبث أن تكف

استجابات القلق. ويتحقـق بـذلك شـفاء المـريض دونمـا حاجة إلى التنقيب في حالاته الذاتية.

أما مجال الانفعال فيمكن دراسـته إمـا بالأسـلوب الاستنباطي أو بالأسـلوب الموضـوعي. فـنحن نسـتطيع أن نطلب مـن النـاس وصـف مشـاعرهم فـي مواقـف معينة، أو أن نسـألهم عـن الانفعـالات التـي تسـتثيرها لديهم منبهات بعينها. ونستطيع بدلا مـن ذلـك أن نـدرس المؤشـرات الفسـيولوجية للانفعـالات؛ كتزايـد معـدل ضربات القلـب، أو تزايـد التوصـيل الكهربـائي للجلـد نتيجة لإفراز العرق، أو تغيرات النشاط العـام. كمـا أنـه من الممكن قيـاس تفضـيلات الأفـراد –أو الحيوانـات– من خلال جهاز كذلك الـذي ابتكـره ب.ت. يـونج حيـث يكون المطلوب من الكائن المفاضلة بين شيئين.

كذلك فإنـه مـن الممكـن دراسـة الإدراك بـأن نطلب من الناس وصف ما يرون، وفـي بعـض الأحيـان بأن نستخدم أسلوب الاستجابة التميزيـة فحسـب، أي بـأن يطلب من الفرد أن يضـغط علـى أحـد مفتـاحين إذا مـا رأى ضوءا أو سمع صـوتا وأن يضـغط علـى المفتـاح

الآخر إذا لم ير أو يسمع شيئا. كما يستطيع المرء في مجال التعلم أن يحاول تتبع ما يطرأ من تغيير على فهم المفحوص لعمل جديد، أو أن يحسب كمية أخطائه، أو أن يقيس الوقت الذي يمضيه على الهدف، أو الوقت الذي يستغرقه لحل مشكلة.

إن أغلب مجالات علم النفس تتيح للمرء أن يختار بين أن ينظر إلى الموضوع– بشرا كان أو حيوانا– إما من الداخل أو من الخارج. ويحظى الاتجاه الذاتي بتفضيل كيللى وغيره ممن أشرنا إليهم سلفا في هذا الفصل مثل ليفين. حيث تعد المعطيات الذاتية بالنسبة لهؤلاء هي المادة الخام لعلم النفس. أما الأخرون أمثال وولبه أو سكينر على وجه الخصوص، فإنهم يتبنون اتجاها أكثر موضوعية، حيث تعد الأمور الخارجية القابلة للملاحظة، والوقائع العضلية، والحقائق القابلة للقياس بالبوصات، أو الجرامات أو الثواني، أو الوقائع الفيزيقية القابلة بالفعل للتخصيص وللحساب، هي النوعية التي ينبغي على علماء النفس تناولها دون غيرها.

الماضى في مقابل الحاضر

ترى هل ينبغي النظر في ماضـي الفـرد لتفسـير سلوكه؟ أم أنه ينبغي التركيز علـى ظروفـه الراهنـة؟ أن بعض علماء النفس– وخاصة أولئـك الـذين يميلـون إلـى إبراز أهمية التعلم – يلتمسون فهـم سـبب إقـدام الكـائن على فعل ما يفعلـه مـن خـلال خبرتـه السـابقة. بينمـا يبحـث الـبعض الآخـر فـي الحالـة الراهنـة للكـائن، محـاولين إعـادة بنائهـا هنـا والآن، مفسـرين سـلوكه باللجوء إلى المتغيـرات ذات التـأثير فـي زمـن حـدوث الاستجابة. ترى هـل علـى النظريـة النفسـية أن تكـون تاريخية أم أن تنأى عن ذلك؟

يـرى أصـحاب نظريـات الـتعلم أن تـأثيرات الخبرة السابقة تنتشر في كـل صـوب، فتفسـير الدافعيـة وكذلك الإدراك إنمـا يكـون بإرجاعهمـا إلـى عمليـات طويلة من التعلم الشاق، فدوافعنا إنما تنبعـث مـن ميـول تعلمناها طيلة عمـر مـن التفاعـل مـع بيئتنـا الفيزيقيـة والاجتماعية، ونحن ندرك مـا علمتنـا سـنون خبرتنـا أن ندركه.

بل إن بعض علماء النفس، الـذين يطلقـون علـى أنفسهم، التجـاوزيون، بمعنـى الـذين يـرون أن تفسـير الموقف الـراهن تفسـيرا صـحيحا يتطلـب بالضـرورة تجاوزه إلى مـا وراؤه قـد فسـروا عـددا مـن الخـدع البصرية التي ابتكروها بأنها إنمـا ترجـع إلـى توقعاتنـا الإدراكية. ومن أمثلة تلك الخدع أننا لـو نظرنـا –مـثلا– إلــى صــورة حجــرة مشــوهة الأبعــاد: حوائطهــا، وأرضيتها، وسقفها ذوات أبعـاد رباعيـة غيـر مسـتوية، فإن ما يحدث عـادة أننـا – نظـرا لأن خبرتنـا السـابقة تقودنا إلـى توقـع أن تكـون حـوائط الحجـرات رأسـية عمودية، وأسقفها وأرضياتها أفقيـة مسـتوية– نـرى هـذه الغرفة كذلك، حتى ولو تشـوه إدراكنـا لأحجـام الأشـياء، بل والأشخاص، المتحركة داخـل هـذه الغرفـة. وينبغـي لكي نفسر مثـل هـذا السـلوك والإدراك أن ننظـر إلـى خبرة الكائن السابقة، وإلى تعاملاتـه السـابقة مـع بيئتـه، وإلى ما تعلمه من توقعات عبر الزمن.

وعلى النقيض من ذلك، يؤكد كيـرت ليفـين علـى ضرورة فهم حيز الحياة الراهن إذا مـا شـئنا تفسـير مـا

يفعله المرء والتنبـؤ بـه. صـحيح أن الخبـرات السـابقة تلعب دورا هاما في تشـكيل المكافئـات فـي حيـز حيـاة الشـخص، أي تلـك الخصـائص المرغوبـة وغيـر المرغوبة التي تجعله يقدم علـى فعـل ويتحاشـى آخـر، ولكن أهميـة معرفتنـا لجـذورتكوين تلـك المكافئـات لا تعادل بحال أهمية معرفتنا بدورها الفعلـي الـراهن. إنـك إذا ما استطعت أن ترى البيئة كمـا تبـدو للشـخص فـي الوقت الراهن، فإنك – من وجهة نظـر ليفـين – تسـتطيع أن تفهم حقا ما يفعله هذا الشخص.

ولعل نظـرة أصـحاب الاتجـاه الجشـتلتى إلـى الإدراك، تتناقض بشكل أكثر حـدة مـع نظـرة أصـحاب الاتجاه التجاوزي. فـالخبرة السـابقة قـد تلعـب – مـن وجهـة نظـر الجشـتلتيون – دورا فـي تحديـد التنظـيم الإدراكي، وذلك إذا ما أحاطـت بالعمليـة ظـروف غيـر عادية بحيـث بـدت الأشـياء غامضـة. وفـي الغالبيـة العظمى من الأحوال فإن الدور الـذي تلعبـه الخبـرات أو التوقعات السابقة يكون دورا بـالغ الضـالة، ذلـك إذا مـا لعبت دورا على الإطـلاق. إن للبنيـان الحـالى المباشـر

للموقف التنبيهـي الأثـر المطلـق فـي إحـداث صـورة إدراكية معينة.

وهكذا فـإن التجـاوزيين– وغيـرهم مـن الـذين يبرزون التعلم – يبهرهم ذلك القدر الكبيـر مـن السـلوك الراهن الذي يمكن تفسيره بـالنظر فـي الخبـرة السـابقة، فإذا ما شئت أن تفهم سلوك فرد أو أن تتنبـأ بـه فعليـك– من وجهة نظرهم – أن تنظر إلى ما سـبق أن فعلـه فـي مواقف مشابهة، أي إلى ما تعلم فعلـه حـين واجـه مثـل تلك الحالات من قبل في تاريخه الماضـي. ولكـن أولئـك الذين يتخذون موقفـا لا تـاريخي – مثـل ليفـين– فـإنهم ينصـحون بمزيـد مـن الاهتمـام بخصـائص الظـروف القائمة هنا والآن، وبصـفات الفـرد المعـين فـي البيئـة المعينة وفي لحظـة بعينهـا، فالوصـف الـدقيق للموقـف الراهن سوف يحقق– من وجهة نظـرهم – فهمـا أفضـل، وتنبؤا أفضل مما لو فحصنا التـاريخ السـابق للفـرد، وأن الأهم هو هنا والآن.

الطبع في مقابل التطبع

إن النظر إلى الماضى باعتـاره السـبيل الأفضـل لتفسير السـلوك الـراهن يمكـن أن يتخـذ واحـدة مـن صـيغتين رئيسـيتين: فهـو إمـا أن يتجـه إلـى فحـص الصفات التي ولد الفرد مزودا بهـا، وإمـا أن يتجـه إلـى دراسة الخصائص التـي سـبق للفـرد أن تعلمهـا. وتلـك هي المجادلة الشهيرة بـين الطبـع والتطبـع: تـرى هـل تلعب الجينـات أو المورثـات دورا أساسـيا فـي تكـوين خصـائص الشخصـية ودرجـة الـذكاء؟ أم أن الكـائن يتعلمها من خلال البيئـة المحيطـة، والخبـرات السـابقة؟ إن وجهة النظر الإمبيريقية أو المناصـرة للتطبـع والتـي تمثلت صورتها الأشد تطرفا في مفهـوم " العقـل صـفحة بيضاء" لدى أرسطو وجون لوك منذ قـرون بعيـدة، تـرى أن الإنسان لا يعدو أن يكون عنـد مولـده سـوى صـفحة بيضاء تقوم الخبرة بالكتابـة عليهـا، فليسـت لـدينا أيـة أفكارا أو حتـى ميـول ولاديـة. وعلينـا أن نـتعلم إدراك المكان. المرء لا يكون مزودا بشيء علـى الإطـلاق عنـد مولده، وكل ما يكـون عليـه الإنسـان إنمـا هـو نتـاج لخبراته التي حصلها، أي نتاج للتطبع.

ويـرى أصـحاب المـذهب الطبيعـي – علـى النقيض من ذلك– أن المولود يكون لديـه الكثيـر بالفعـل عند الميلاد، وربما يكون ذلك في بنيـة جهـازه العصـبى، ومن ثم فإن ذلك المـوروث العصـبى هـو الـذي يحـدد كيفية إدراكنا للعالم، ولـذلك فـإن بعـض الأفـراد يكـون بحكم تكوينهم الوراثي كسالى، فـي حـين يكـون غيـرهم نشطين. ويولد البعض أذكياء والبعض أغبيـاء، كمـا يولـد البعض ولـديهم موهبـة موسـيقية، والـبعض يفتقـدونها. ترى أهو الطبع أم التطبع المحـدد الرئيسـي للسـلوك؟ أو – إذا ما شئنا تعبيرا أقـل تطرفـا– فـأي العـاملين أكثـر أهمية من الآخر: الوراثة أم البيئة؟

فلننظر إلى مشـكلة كإدمـان الكحـول. لقـد درس بعض علماء النفس بشكل تجريبـي محكـم دور المورثـات السلوكية في تفضيل الكحول لـدى الفـأر، وخلصـوا مـن تجربتهم إلى أنه ليس ثمة علاقة بـين تفضـيل الكحـول أو عدمه وبين كيفية تنشئته الفـأر ونوعيـة الخبـرات التـي حصلها، ولكن الأمر يرجع فحسب إلـى تركيـب الجينـات أي إلى الوراثة.

وعلى النقيض من ذلك فإن بعـض علمـاء الـنفس الإكلينيكي، والمحللين النفسيين يـرون أن أسـباب إدمـان الكحول تضرب بجذورها فـي طبيعـة تكـوين شخصـية الفرد أو في خبرات طفولته. وربمـا يرجـع الأمـر فـي إدمان هؤلاء الراشـدين للكحـول إلـى أنهـم قـد دللـوا كأطفال، أو لأنهم لسـبب أو لآخـر يعـانون مـن ميـول اعتمادية ملحة، أو لأنهـم قـد تعلمـوا ممارسـة العـدوان السلبي حيال الآخرين وحيال العالم، أو لعلـه ذلـك الـنمط من الأسرة الذي يكون فيـه الأب سـلبيا، فـي حـين الأم قوية مسيطرة مما يولد نوعا مـن الشخصـية تبحـث عـن السلوان في الكحول. إن خبـرات العـلاج النفسـي تـوحي بأن مثل تلك العوامل قد تلعب دورا مسـببا فـي العديـد – بل ربما فـي الغالبيـة العظمـى– مـن حـالات الإدمـان الكحولي المتطرفة التي يصعب السيطرة عليها.

وعموما، فإن كـلا مـن الطبـع والتطبـع يلعـب بـدون شـك دورا بـارزا فـي غالبيـة أنـواع السـلوك المركبة. ولكـن يبقـى علـى المـرء أن يختـار إبـراز أحدهما أكثر مـن الآخـر، أن نهـتم أساسـا بالمحـددات

الولادية للسـلوك، أو بالتـأثيرات الغلابـة للـتعلم. فبينمـا كرس فريق من علماء الـنفس جهـودهم البحثيـة لدراسـة إسهام الوراثة في عديد من أنـواع السـلوك، فـإن غالبيـة علماء الـنفس الإكلينيكـي، وأصـحاب نظريـات الـتعلم يبدون اهتماما أكبر بتأثيرات التعليم على السلوك.

التبسيط في مقابل التركيب

يحـاول بعـض البـاحثين إرجـاع أكبـر قـدر يستطيعونه في مجال دراستهم إلى قـانون واحـد أو إلـى عدد محدود من القوانين العامة البسـيطة، ويـرى الـبعض أن مثل ذلـك الاتجـاه التبسـيطي إنمـا ينتهـك الظـاهرة النفسية. بمعنى أن اختزال كافة ما تتضـمنه ظـاهرة حـل المشكلات والتفكير مثلا إلى سلاسـل مـن الترابطـات أو إلى منعكسـات شـرطية متتاليـة، أو إلـى سلاسـل مـن روابط المثيـر– الاسـتجابة، كـل ذلـك لا يـؤدي –فـي رأيهم– سوى إلى نوع من التبسيط المخل.

لقد طـرح إدويـن جـوثري – مـثلا – نظريـة للسلوك تقوم على قـانون مفـرد وحيـد: وقتمـا تحـدث استجابة معينة، فإنهـا تـرتبط دومـا بكـل عنصـر مـن

عناصر المنبه القائمة وقـت حـدوثها. ويمكـن الاعتمـاد على هذا القانون في تفسير العديد مـن مختلـف الظـواهر خاصة التعلم. ولقد بـين جـوثرى –فضـلا عـن ذلـك– كيف أن هذا القانون يمكن أن يستخدم فـي فهـم الظـواهر الاجتماعية، والشخصية، وعلم النفس التربـوي ومـا إلـى ذلك فالتعلم – كما يقول جـوثرى – يتحقـق عـادة بشـكل تدريجي، لأن عناصر المنبه التـي تمـس الكـائن تكـون في تقلب مسـتمر وتـرتبط الاسـتجابات المناسـبة بـنفس تلك العناصر. وترجع فعاليـة الثـواب إلـى حقيقـة أنـه يؤدي إلى تغيير جذري في ظـروف التنبيـه. كـذلك فـإن الشخصـية هـي بمثابـة الحصـيلة الكليـة لاتجاهـات الاستجابة.

وعلى النقيض مـن ذلـك فـإن كـارل جوسـتاف يونج يطرح نظرية في طبيعة الإنسـان بالغـة التركيـب، ويغلب عليهـا الطـابع الروحـاني. حيـث يتحـدث ذلـك المحلل النفسي عن لا شعور فـردي، ولا شـعور جمعـي، وكلاهما يـؤثر علـى السـلوك بطـرق معقـدة، وتلعـب الخبرات الانفعاليـة السـابقة للفـرد دورا هامـا، وكـذلك

الأنماط الأوليـة للاشـعوره الجمعـى أي تلـك النمـاذج الانفعاليـة البدائيـة مثـل "أمنـا الأرض"، و " الشـرير" و"الأب مطلق القدرة". وقد يكـون الشـخص انبسـاطيا أو انطوائيا ولكنه لا شعوريا يكون علـى النقـيض مـن ذلـك فقد تتمركز حياته العقليـة حـول الإحسـاس أو الحـدس، في حين تدور حالته الروحية حول الفكر أو المشاعر.

إن نظرية جوثري تتميز بالبسـاطة، فـي حـين أن نظرية يونج بالغة التركيب. وعلـى صـعيد علـم الـنفس تتناثر العديد من المشـكلات التـي يمكـن النظـر إليهـا نظرة بسيطة أو نظرة مركبـة. ويـرى أنصـار النظـرة البسيطة أنها تتيح فهما أيسر، كما أنها تحقـق تنبـؤا جيـدا وإن لم يكن مكتملا. أمـا ذلـك الـذي يـرفض التبسـيط، ويدعو إلى دراسة التزييف والتشـويه، ولكنـه فـي نفـس الوقت يقع في خطـورة ألا يمضـي بـه الطريـق بعيـدا حيث ينتهي إلى أمور بالغة التعقيد، عسـيرة الفهـم بحيـث لا يجد أحدا يعيره أذنا صاغية.

الثراء في مقابل الدقة

يستطيع عالم النفس أن يتناول الظاهرة التي يهتم بها كما هي عليه من ثراء غامض معقد، أو أن يحاول أن ينحي جانبا تلك الجوانب الغائمة الحدسية الغامضة مركزا على إبراز العلاقات الدقيقة الواضحة البعيدة عن الغموض.

لقد قام روبرت و. وايت –على سبيل المثال– في كتابه "الحياة في تقدمها" (١٩٦٦) بتقديم سير حياة شاملة مزودة بنتائج اختبار إكلينيكي، لعدد من الأفراد الأحياء. ولقد كتب المادة ببراعة وتمكن بحيث تجسد الأشخاص الذين تناولهم بالوصف كما لو كانوا شخوصا أبدعتهم قريحة قصاص مقتدر، وقد اعتمد على كل من تلك السير– وكانت كل منها تتضمن دراستين متعمقتين تفصل بينهما مدة عشر سنوات – لكي يدرس بالتفصيل ما يطرأ على الشخصية من تغيرات عبر الزمن. ولقد أسهمت كل حالة في تصوير بعض المبادئ العامة الشاملة التي عالجها وايت بشكل أكثر تنظيما في الفصول التي وزعها فيما بين

استعراضه للحالات. وكانت كل معلومـة عـن كـل فـرد تتصل اتصالا وثيقا بفهـم كيفيـة تطـوره عبـر الأعـوام تفحص فحصا دقيقـا. وقـد اعتمـد وايـت علـى حسـه الإكلينيكي الخاص، وكذلك على دراسات مـن سـبقه مـن الباحثين لفهـم الأثـر العـام للتقـدم فـي العمـر علـى الشخصية. إن قراءة النتيجـة العامـة التـي انتهـى إليهـا وايت تعد أمرا مدهشا حقا، حيـث يبـدو أنـه قـد تمكـن بشكل ما في أن يضع يده على جـوهر الحالـة الإنسـانية دون أن يلجأ إلى تشويهها أو تبسيطها تبسيطا مخلا.

وعلى النقـيض مـن ذلـك، قـدم وليـام ايسـتس (١٩٥٩) صياغة كمية دقيقة لمـا يحـدث خـلال عمليـة تعلم مخططة إلى حد ما. وفضل ايسـتس أن يتعامـل مـع زوج محدد من الاستجابات (كالضـغط علـى واحـد مـن مفتاحين)، على المرء أن يـتعلم أداءهـا تحـت ظـروف تنبيهية محددة تحديـدا واضـحا (إضـاءة لـون معـين أو لون آخر مثلا). ويبدو مثـل ذلـك النمـوذج نمطيـا فـي مجال التعلم بعامـة، كمـا أن الظـروف التجريبيـة تتـيح مماثلة معملية محددة واضحة نقية لمـا يجـري مـن تعلـم

فـي الحيـاة اليوميـة. وتتضـح روعـة الاتجـاه الـذي استخدمه ايستس وتلامذته فـي إمكانيـة إخضـاع نظريـة ذات صياغة رياضية واضحة دقيقة للاختبـار مـن خـلال تجارب محكمة. ويحدد النمـوذج الرياضـي للـتعلم الـذي صاغه اسـتس طبيعـة الشـكل الـذي ينبغـي أن تتخـذه وظيفـة الـتعلم، وكيـف ينبغـي أن يتحسـن الأداء بالممارسة، كما يقدم الأساليب الدقيقـة لقيـاس خصـائص ذلك المنحنى. وبفضل اتجاه استس أمكـن إخضـاع إحـدى العمليات النفسية الأساسية على ما هي عليـه مـن تركيـب وتعقيد للدقة التجريبية وللفحص النظرى الدقيق.

إن اتجاها حدسيا أو إكلينيكا كاتجـاه وايـت يميـل إلى إبراز الثراء، بينما اتجاهـا رياضـيا تجريبيـا كاتجـاه استس يهتم بالدقة والإحكام. ولـيس ضـروريا أن نتنـاول العديد من المجالات الأساسـية للمشـكلات لنبـين امتـداد هذا التباين المنهجي. إن موضوعا مثـل تكـوين الانطبـاع أو "الإدراك الاجتماعى" أي مسـألة كيـف يـدرك الأفـراد غيرهم، قد درسه – في اطار الاتجـاه المهـتم بالحـدس أو الثراء باحث مثل فريتـز هيـدر (١٩٥٨) معتمـدا علـى

خبرته ومقدرته الثرية على استشـفاف الحكمـة الإنسـانية متوصلا إلى صياغة تحليلية مركبة للعوامـل التـي تـؤثر في كيفية رؤية الشخص للشخص.

وفي مقابـل ذلـك فقـد قـام نورمـان اندرسـون (١٩٦٥) بدراسة تجريبية منظمة لما يترتـب علـى تقـديم صفات معينة تصف شخصـا افتراضـيا إلـى المفحـوص ثم القيام بقياس كمي لمدى ما تتركـه هـذه الصـفات مـن انطباع طيب أو سيئ لديه.

لقد تميز اتجاه وايت وهيدر بـالثراء، كمـا تميـز اتجـاه اسـتس واندرسـون بالدقـة. إن أولئـك الـذين يحرصون علـى ثـراء المـادة يـودون الإحاطـة بـأدق تفاصيل الظاهرة التـي يدرسـونها متحاشـين أي تبسـيط مخل. فهـم يـرون أن غالبيـة الوسـائل الدقيقـة تنتهـك موضـوع الدراسـة وتشـوهه ولا تقـدم سـوى صـورة ناقصـة أو كاريكاتيريـة للحقيقـة. أمـا أولئـك الـذين يستهدفون الدقة فإنهم علـى النقـيض يعلـون مـن قيمـة الوضوح والبسـاطة والإحكـام المنطقـي، ويميلـون إلـى التريث حيال الأفكـار الغامضـة أو المهتـزة، ويـرون أن

غالبية الاتجاهات التي تستهدف ثراء المـادة لا تقـدم شـيئا ذا بال عما تتصدى لدراسـته طالمـا أنهـا لا تطـرح مـا تتوصل إليه بصورة ملموسـة تسـمح بشـكل قـاطع بـأن تستخاص منه نتائج قابلة للاختبار.

"النظرية" في مقابل " البيانات"

إن الجميع – تقريبا – يـودون لـو حققـوا نوعـا من الدمج بين النظرية والبيانات، كـأن تنبثـق النظريـات من البيانات، وأن تـدفع النظريـات المـرء للبحـث عـن بيانات جديدة، وأن تسـتخدم البيانـات لتثبيـت النظريـات أو لتعديلها ورغم ذلك فإن الاختلافـات فـي الأسـلوب أو التفضيلات تظل قائمة. ترى هل علـى المـرء أن يركـز أساسا على التنظير أم علـى جمـع البيانـات؟ إن الفـارق بين عالم الفيزيـاء النظـري وعـالم الفيزيـاء التجريبـي شبيه بالفارق المماثل في مجال علـم الـنفس، ولكنـه فـي علم النفس قد يكتسب مذاقا مختلفا إلى حـد مـا عنـه فـي مجال الفيزياء حيـث تراكمـت – إذا مـا قورنـت بعلـم النفس – ثروة ضـخمة مـن النظريـات والبيانـات، ممـا

يجعل من مثل تلك المقابلة بين التنظير، وجمع البيانات نوعا من التوزيع الأوضح للعمل.

ولكى نوضح ما يتعلق بعلم النفس من هذه القضية، فلننظر إلى موضوع الشخصية كما تناوله أصحاب التحليل النفسي أمثال سيجموند فرويد، وأصحاب التحليل العاملي أمثال هانز أيزنك.

لقد استخدم فرويد بيانات من نوع معين: استمع إلى مرضاه يقولون ما يخطر لهم إيا كانت طبيعته. ولكن هذه ليست بيانات وفقا للمعنى المألوف في صياغة النتائج المحكمة للقياسات الدقيقة. لقد كان فرويد مهمتا في المقام الأول باستخراج معنى نظري من الظاهرة التي يتصدى لها في أحلام مرضاه وتداعياتهم الطليقة. ولقد توصل فرويد من خلال صراعه لفهم أعماق الشخصية الإنسانية إلى وضع مبادئ جسورة، وابتكار مفاهيم نظرية حاذقة.

أما منهج ايزنك في دراسة الشخصية فقد كان يقوم على تكديس كميات هائلة من القياسات النفسحركية والإدراكية لمجموعة من الأفراد، ثم

إخضاع تلك القياسـات لأسـاليب خاصـة مـن التحليـل الكمى: معاملات الارتبـاط المتبادلـة والتحليـل العـاملي. وقد أتاحت له نتائج الحاسـبات الآليـة أن يحـدد عـاملين أساسيين: العصابية، والانطوائية – الانبسـاطية. ولـم يـتم توصيف هذين العاملين في صـورة نظريـة معينـة، بـل في صورة درجات الأداء على اختبـارات سـرعة النقـر، وزمن الرجع، وما إلى ذلك، فقد قـام ايزنـك بقيـاس كـم مـرة يسـتطيع المـرء أن يضـرب بمطرقـة قطعتـين معدنيتين تبعدان عن بعضهما عدة بوصـات خـلال فتـرة زمنية محددة. وكم يستغرق مـن الوقـت للضـغط علـى ذراع آلة البرق بعد سماعه إشارة صـوتية معينـة يطلـب منه الاستجابة لها بأسرع ما يمكن، وهكـذا. لقـد اسـتخدم ايزنك لتحديد أهـم أبعـاد الشخصـية أسـلوب العلاقـات الكمية المتبادلـة بـين البيانـات، بـدلا مـن الحـدس أو الاعتبارات النظرية المسبقة.

وكثيرا ما نسـمع فـي أيامنـا هـذه، عـن عـدم جدوى تجميع بيانات إذا لـم يكـن لـذلك علاقـة مباشـرة ببعض النظريات الجاريـة، أو إذا لـم يكـن ذلـك عـاملا

مساعدا لخلق نظرية جديدة. وكثيرا ما نسـمع كـذلك مـن يعلـن أن أيـة علاقـة جديـدة تسـتحق أن تـدرس، وأن القياسات الجيدة للوقائع النفسـية ليسـت فـي حاجـة إلـى دفاع، وأن المعنى النظري يحتل مكانـة ثانويـة بـل إنـه يمكن تجاهله تماما. إن مـن يسـتهدون بالنظريـة أمثـال فرويد يسعون من أجل نظـرة شـاملة تتـيح لهـم تفسـير مدى واسع من الوقـائع أو الظـواهر النوعيـة المختلفـة. أما أولئك الذين يستهدون بالبيانـات أمثـال ايزنـك فـإنهم يكونـون أكثـر ألفـة بالقياسـات المحـدودة، الصـغيرة الوسواسـية، ويولـون اهتمامـا بالعموميـات أقـل مـن اهتمامهم بما هو محدد.

علم النفس المحافظ في مقابل علم النفس الراديكالي

لقد اكتمل بذلك، العرض البـديع للقضـايا العشـر الرئيسية لعلم النفس. ولقد التـزم فيرتيمـر فـي عرضـه بحدود ما يمكن أن نطلق عليه علـم الـنفس الرسـمي، أي ذلك المسموح له بتجاوز الأسـوار الأكاديميـة والوصـول إلى دارسي علم النفس. ولكن ثمـة مـا يمكـن أن نطلـق عليه الوجه الآخر لعلم الـنفس. ذلـك الوجـه الراديكـالي

المقابل لما يتميز بـه علـم الـنفس الرسـمي مـن سـمة محافظة.

في مقال لي بعنـوان "موقـف ثـوري فـي علـم النفس الأمريكي" نشـرته مجلـة الطليعـة القاهريـة فـي ديسمبر سنة ١٩٧٠ أوردت توثيقـا لبدايـة تعرفـي علـى وجه آخر لعلم النفس الأمريكي كـان مجهـولا لـي حتـى ذلك الوقت، ومن ثم بداية تعرفي علـى الوجـه الإنسـاني التقدمي لعلم الـنفس السياسـي. ولقـد اسـتهلت المقـال بالاعتراف بأنني "قد كنت حتى أسـابيع قليلـة واقعـا فـي إسار أحاسيس سـلبية حيـال علمـاء الـنفس الأمـريكيين المعاصرين. كنت أشعر بالأسـى – ولا أقـول بالخجـل – وأبناء مهنتي مـن علمـاء الـنفس الأمـريكيين يضـعون معرفتهم بالإنسان، وهي معرفـة علـى قـدر كبيـر مـن التقـدم التخصصـي، فـي خدمـة أهـداف الإمبرياليـة الأمريكية سواء في داخل الولايـات المتحـدة أو خارجهـا. كان يبدو لى وكأنهم جميعا مشتركون فـي هـذا الموقـف حتى أن الاستثناءات القليلـة أو الاسـتثناء الوحيـد الـذي أذكره في هذا الصدد وهـو إيريـك فـروم عـالم الـنفس

التقدمي الأمريكي المعروف قد تـرك مهنـة علـم الـنفس وتفرغ للنضال السياسي تمامـا. وكـان كـل ذلـك أمـرا مفهوما لدي تماما. وإن كـان الفهـم لا يحـول دائمـا دون الأسى والخجل".

" وفي خضم تلك الأحاسيس كنـت ذات يـوم مـن أيـام الشـهر الماضـي أتصـفح المجلـد الأخيـر مـن "الملخصات السيكلوجية" وهـي مجلـة شـهرية تصـدرها الرابطـة السـيكلوجية الأمريكيـة وتتضـمن ملخصـات لغالبية البحوث السيكولوجية المنشـورة فـي كافـة أنحـاء العالم. واستوقف انتباهي عنوان لمقال نشـره عـالم نفسـي أمريكي في صيف عام ١٩٦٩ هـو شسـترو. فيورشـتاين وكـان العنـوان "الحالـة : الولايـات المتحـدة. المظهـر المرضـي: فيتنـام". ولـم يكـن المؤلـف مـن الأسـماء المعروفة لي فـي علـم الـنفس الأمريكـى. كـذلك فـإن المجلة لم تورد تلخصيا لـذلك المقـال مكتفيـة بالإشـارة إلى عنوانه".

وخطر لي للوهلة الأولى أن المقـال لـن يعـدو أن يكـون محاولـة جديـدة لتقـديم مزيـد مـن الخـدمات

السيكولوجية للسلطة الأمريكية، وأعدت النظر في العنوان. أنه يتخذ الأسلوب الذي يتبعه الأطباء في تسجيل المرضى الذين يعالجونهم. وخطر لي آنذاك أن المقال قد يكون جزءا من تلك اللعبة القديمة المستهلكة التي استخدمها – ومازال يستخدمها – علماء النفس الأمريكيين وغيرهم بمحاولة تمييع كافة قضايا الصراع الاجتماعي والدولي وعلى رأسها قضية الحرب بإرجاعها إلى أسباب سيكولوجية خالصة وبذلك يتحول أولئك "المعتدون" إلى مرضى ينبغي معالجتهم بدلا من محاربتهم.

وحاولت – دون توقع لجديد – أن أختبر صحة ما انتهيت إليه فأرسلت إلى كاتب المقال أطلب نسخة من مقاله، ولم يمض وقت طويل حتى تلقيت المقال مصحوبا بخطاب رقيق يطلب مني فيه أن أرسل له برأيي في مقاله. وتحفزت وبدأت القراءة فإذا بالمقال يبدأ هكذا:

"يكفى أن يتحدث المرء إلى مناضل زنجي من أبناء الجيتو، أو إلى طالب ثائر، أو إلى أحد المترددين

على هيئات المعونات الخيريـة، أو إلـى أحـد الرافضـين لأداء الخدمة العسكرية، لكي تتضح لـه ضـآلة مـا قدمـه علم النفس لتلك القطاعات الكبيرة من أبنـاء أمتنـا. تـرى أين كانت جهود علم النفس والعنصـرية تتفشـى لعشـرات من السنين قبل صدور قـرارات المحكمـة العليـا بشـأن التفرقة العنصرية؟ ترى ما طبيعة الدور الـذي لعبـه علـم النفس من أجل محاربة الفقـر، والعنصـرية، والعسـكرية، ومن أجل إعادة ما اختل مـن تـدريج للمصـالح القوميـة حسب أهميتها؟ ترى ماذا في مقررات علـم الـنفس التـى نضعها ونقوم بتدريسها قـد أدى إلـى مثـل ذلـك العجـز عـن الـتمكن مـن التـأثير الفعـال علـى المشـكلات الاجتماعية المعاصرة الكبرى، ليست تلـك سـوى نمـاذج قليلة من تساؤلات عديدة تواجه علم النفس المعاصر".

"إن علماء النفس لا يحتلـون مكانـة بـارزة بـين قادة التحرك من أجل تقوية ودعـم النضـال ضـد تفشـي الظلم الاجتمـاعي. بـل إنهـم أكثـر مـيلا إلـى العمـل والتعاون مـع المؤسسـات التعليميـة غيـر الديمقراطيـة، والنظم الاجتماعية المتعصبة عنصـريا، والسـلطة الناميـة

للتحـالف الصـناعي – العسـكري المعـادي لتحـالف الجمـاهير الشـعبية، دون وعـي أو اهتمـام كبيـر بمـا يتضمنه كل ذلك من أبعاد اجتماعيـة. ولعـل الوقـت لـم يفتنا بعد، ولعلنا مازلنـا نسـتطيع أن نتحـرك كمجموعـة مـن أجـل تحسـين الاسـتفادة بمـا لـدينا مـن معرفـة سيكلوجية بحيث تصـبح تلـك المعرفـة أكثـر صـلاحية لتلبية كافة احتياجات المجتمع الملحة، وبالتـالي مـن أجـل الكف عن تدعيم ومـؤازرة تلـك البـرامج والممارسـات التي تؤدي في النهاية إلـى إهـدار الإنسـانية أو مجافـاة العمل سيكلوجيا أو أخلاقيا، ولعلنـا بـذلك نسـتطيع إدراك دلالة آلاف الإجبـارات القهريـة التـي تمـارس فعاليتهـا داخـل مجتمعنـا المعاصـر، شـأننا فـي تقـدير وفهـم الإجبارات السيكلوجية التى تجري داخل الفرد".

وقبل أن أمضي في قراءة المقـال أحسسـت بـأن تحفزي آخذ في الخفوت، وأننـي حيـال لغـة سـيكلوجية جديدة غريبـة تمامـا عمـا أعرفـه عـن علـم الـنفس الأمريكى. لغـة تـدعو علمـاء الـنفس الأمـريكيين إلـى ضرورة اتخاذ موقـف ثـوري حيـال قضـايا المجتمـع.

ووجه الغرابة أنها صادرة من عـالم أمريكـى. ويمضـي كاتب المقال مؤكـدا دعوتـه مقـررا، أن علمـاء الـنفس لديهم بالفعل قدرا كبيـرا مـن المعرفـة بالآثـار المـدمرة للظلم والجور، والمناخ غير الديمقراطى ومـا إلـى ذلـك. صحيح أن تلك المعرفـة قـد لا تكـون متـوفرة بالقـدر المأمول، ولكنا نستطيع استخدامها الآن فـي الإسـهام فـي السعي من أجل إرساء مجتمع عادل وإنساني.

واضـح إذن أن فيورشـتاين لا يـدعو علمـاء النفس إلـى اتخـاذ موقـف ثـوري بوصـفهم مـواطنين فحسب، بل أساسا بوصفهم علمـاء نفـس. وتلـك قضـية هامة وخطيرة حقا. فهى تعنـي أن علمـاء الـنفس بحكـم تخصصـهم وخـلال ممارسـتهم لعملهـم يتخـذون بالضرورة موقفا ما من قضايا الصـراع الاجتمـاعي فـي مجتمعاتهم. وسواء كانوا علـى وعـي بمـوقفهم هـذا أو على غير وعي، مدركين له أو متجـاهلين إيـاه، راغبـين في اتخاذه أو عازفين عنه، فهـم يتخذونـه بالفعـل خـلال ممارستهم لعملهم كمتخصصين في علـم الـنفس. ويبحـث فيورشتاين عن مثال علمي يسـوقه تـدليلا علـى قضـيته

فإذا به يلتمسه من مجال العلاج النفسي. وأهمية اختياره لذلك المجال بالتحديد لا ترجع بما نرى إلى كونه شخصيا أحد المشتغلين بالعلاج النفسي بقدر ما ترجع إلى طبيعة الموقع الخاص الذي تشغله قضية العلاج في مجال علم النفس. لقد وقر في أذهان الكثيرين أن العلاج النفسي على تعدد مدارسه واختلافها أمر عملي في المقام الأول. يبدأ، وينتهي، ويدور حول محور واحد هو المريض، شفاؤه أو عدم شفائه. ووفقا لهذا الفهم فإنه إذا كان لنا أن نقدم القضايا الأيدلوجية في فرع كعلم النفس الاجتماعي مثلا فإن تلك القضايا تبدو بعيدة كل البعد عن مجال العلاج النفسي. ويعرض فيورشتاين مثاله كما يلى:

"إن الحاجة إلى توافر فهم عام للمحيط الاجتماعي والاقتصادي وما يترتب على طبيعة ذلك المحيط من نتائج تعد أمرا لا غنى عنه بالنسبة للمعالجين النفسيين، وكمثال على مدى أهمية تلك القضية يمكن أن نسوق ذلك التساؤل الذي آثاره بعض نقاد التحليل النفسي ومؤداه: ألم يسهم المحللون

النفسيون عمليا في شـل النشـاط السياسـي للعديـد مـن المثقفين في ألمانيا خلال بزوغ النازيـة، وذلـك بتنـاولهم للأخطار الاجتماعية الواقعية تماما في ذلـك الوقـت مـن خـلال نظريـات وتفسـيرات تتعلـق بداخليـة الـنفس وديناميا‌تها؟ إن المعالج النفسـي الأمريكـي الـذي تعـوزه اليقظة الاجتماعية يمكن أن يصـنع نفـس الشـيء بحجبـه للتقييم الواقعي للحـرب، وللتهديـد النـووي، وللعسـكرية، ولغير ذلك من الآفات الاجتماعيـة كالعنصـرية والتمييـز الاجتماعي.. إن العلاج النفسي لـيس كمـا كـان يفتـرض بسذاجة في البداية يقف بعيدا عن اتخـاذ موقـف قيمـي أو أنه يتخذ موقفا محايدا من القـيم، بـل إنـه فـي الحقيقـة جزء متكامل من سيكولوجية أشـمل للضـبط السـلوكي أو التأثير السلوكي".

إلى هنا والأمر لـم يخـرج فـي تصـوري عـن كونه دعوة ثورية حقـا ولكنهـا لابـد وأن تكـون دعـوة فردية. مجرد وجهة نظر يسوقها ذلـك العـالم الأمريكـى أو موقف شخصي يتخـذه ولا يلتـزم بـه سـواه. مجـرد استثناء مـن بـين علمـاء الـنفس الأمـريكيين يمكـن أن

يضاف مثلا إلى اريـك فـروم فنصـبح حيـال اسـتثنائين بدلا من استثناء واحـد. أمـر طيـب حقـا، ولكـن لـيس بالأمر الخطير.

ولكن ما أن مضت بى القـراءة حتـى أدركـت أن الأمر أضخم وأخطر من ذلـك بكثيـر. أن فيورشـتاين لا يعبر عن نفسه كفرد فحسب، بـل إن مقالـه تعبيـر عـن اتجاه منظم وعـن حركـة اجتماعيـة واضـحة الخطـوط محددة الأهداف. حركة لها تنظيمهـا الفعلـي الـذي يعبـر عنها، وهو "منظمة علماء الـنفس الأمـريكيين مـن أجـل النضال الاجتماعي" ويعـرف فيورشـتاين هـذه المنظمـة بقوله:

إن منظمة علماء الـنفس الأمـريكيين مـن أجـل النضال الاجتماعى تعـد تعبيـرا عـن محـاولات علمـاء النفس الانطلاق من ذلك البـرج العـاجى الـذي يفرضـه انعزالهم نسبيا أو كليـا عـن مجـال احتياجـات المجتمـع المتصارعة. وتهدف المنظمة إلى تجميـع علمـاء الـنفس الذين يشعرون بأنه في تلك الحقبـة المضـطربة الحاسـمة بما تتضمنه من تهديدات واقعيـة تمامـا بانـدلاع الحـرب

النووية، وبما تتضمنه مـن اتسـاع لنطـاق الفقـر ومـن عنصـرية. ومـن آلاف الآفـات الاجتماعيـة، فـي تلـك الحقبة ينبغي على علماء الـنفس أن يصـنعوا شـيئا أكثـر من مجـرد الوقـوف عنـد حـد الدراسـة والتفكيـر. إن أعضاء تلك المنظمة التي تنمـو بسـرعة فائقـة يشـعرون أنه ينبغي علينا أن نبحـث عـن طـرق لتطبيـق معرفتنـا وخبرتنا وهى على ما هي عليه من نقص فـي اتجـاه حـل المشكلات الملحة لعصرنا".

ويمضي فيورشتاين بعد ذلـك موضـحا أنـه فـي ضوء أهداف المنظمة قام كل من هـوارد جرويـر أسـتاذ علـم الـنفس فـي مركـز الدرسـات المعرفيـة بجامعـة روتجرز، ونائب رئـيس المنظمـة، بالاتفـاق مـع ايثيـل توباخ رئيسة فرع نيويورك مـن المنظمـة بـدعوة فـروع المنظمة في كافـة أنحـاء الولايـات المتحـدة إلـى عقـد وتنظـيم مجموعـة مـن المـؤتمرات لبحـث الجوانـب السيكلوجية والاجتماعيـة المتعلقـة بإنهـاء الحـرب فـي فيتنام. وقد وجهت الدعوة فـي ينـاير عـام ١٩٦٩ علـى أن تعقد تلـك المـؤتمرات فـي يـوم السـبت الأول مـن

مارس في نفس العام. وقـد اختيـر ذلـك اليـوم بالتحديـد تدعيما لقرار بالإضـراب المؤقـت عـن البحـوث اتخـذه عدد كبير من العلماء الاجتماعيين والطبيعيـين مـن معهـد ماساشوسس للتكنولوجيا، ومـن جامعـات يـال وكورنـل وغيرها احتجاجا على "سوء اسـتخدام المعرفـة". وعلـى "الاستخدام غير المسئول للبحث العلمى" وكـان قـد تحـدد لذلك الإضراب يوم ٤ مـارس وبالتـالي فقـد كـان عقـد المؤتمرات في الأول مـن مـارس تعبيـرا مـن المنظمـة عن تضامنها وتأييدها للإضراب.

ويشير فيورشتاين إلى أن أبـواب المـؤتمر كانـت مفتوحة لكل المهتمين من علماء الـنفس بحيـث كـان فـي استطاعة أية مجموعة مـن هـؤلاء العلمـاء مهمـا كـان اتجاهها الاجتماعي أن تشترك في المـؤتمر. ورغـم ذلـك فإن الاتجاه السائد لدى كافة المجموعـات التـي حضـرت المؤتمر كان يشير بوضوح إلى ضـرورة إيقـاف الحـرب الفيتنامية بأسرع وسيلة ممكنـة، وإلـى أن تلـك الحـرب في حد ذاتها إنما تدل على حالـة غيـر صـحية – إذا لـم تكن مرضية – يعاني منها مجتمع الولايات المتحدة.

ويمضي فيورشتاين في نبرة لا تخلـو مـن فخـر واعتزاز مقررا:

" إن الذين تبنـوا الـدعوة إلـى عقـد المـؤتمرات عن فيتنام في طول البلاد وعرضـها إنمـا يعبـرون عـن تزايد الاهتمامـات الاجتماعيـة لعلمـاء الـنفس البـارزين على نطاق الأمة بأسـرها. ومـن بـين قائمـة تضـم ٦٥ اسما نجد: هريت بـار مـن جامعـة نيويـورك، ومـارتن دويتش من جامعة نيويـورك أيضـا. واريـك اريكسـون من جامعة هافارد، وجيروم ك. فرانك مـن جامعـة جـون هوبكنز، وهربـرت س كلمـان مـن جامعـة ميتشـجان، وكينيث كينستون من جامعـة يـال، ودافيـد كـوتش مـن جامعة كاليفورلانيا بيركلـى، وروبـرت ج. ليفتـون مـن جامعة يال. وزيلا لوريـا مـن جامعـة تفـت، وروبـرت ب. ماكلوويد من جامعـة كورنـل، ومـونرو ميللـر مـن جامعـة كولـورادو، وهنـرى ا. مـوراي مـن جامعـة هارفارد. وهارولـد بروشانسـكي مـن جامعـة سـيتي – نيويورك، وبرنـاردف. رايـس مـن مركـز الدراسـات العليا للصحة العقليـة، ومليتـون روكيـتش مـن جامعـة

ولايـة ميتشـجان، وجـون ج. سـوليفان مـن جامعـة نيويـورك، و هـ ـ.ا ويتكـين مـن جامعـة سـتيت- نيويورك".

ولقد حرصت على عرض تلـك الأسـماء جميعـا لسببين: الأول أنها تشير بوضوح إلـى أن المنتمـين إلـى "منظمة علمـاء الـنفس الأمـريكيين مـن أجـل النضـال الاجتماعى" ينتمون إلى كافة اتجاهـات ومـدارس وفـروع علم الـنفس تقريبـا. مـنهم علمـاء الـنفس الاجتمـاعي، وعلماء نفـس الطفـل، ومـنهم أبنـاء مدرسـة التحليـل النفسـي، وأصـحاب نظريـات شـهيرة فـي الشخصـية والقياس السيكلوجي. أما السـبب الثـاني فهـو أن هـؤلاء العلماء لا ينتمون إلـى جامعـة واحـدة ولا إلـى منطقـة جغرافية واحدة فـي الولايـات المتحـدة. والسـببين معـا يشيران بوضوح إلى مدى شـمول واتسـاع حركـة تلـك المنظمة. وبالفعل فلقد انعقدت مـؤتمرات مماثلـة لمـؤتمر نيويورك في عديد من الجامعـات الأخـرى، مـن لـوس انجيلـوس، وكاليفورنيـا، وايـوجين واويجـون، إلـى شـيكاغو، والينـوس، وبوسـتون، وماساشوسـتس.

وواشنطون، وكولومبيا، إلـى روثـر فـورد ونيوجرسـي، ونيوهافن، وكونكتيكت.

وكان ضـمن المتحـدثين فـي نـدوات المـؤتمر مورتون ودويتش أسـتاذ علـم الـنفس بجامعـة كولومبيـا والمتخصص في ديناميات الجماعة والعـلاج النفسـي وقـد عرض وجهة نظره قائلا:

" يبدو لي أن ما يميز موقفنا هو أننـا قـد طورنـا الجهاز التكنولوجي الصناعي الهائـل بدرجـة تمكننـا– إذا ما أحسنا استخدامه– مـن تحريـر العـالم مـن الجـوع، وتحرير الإنسان من الشقاء. ولكن ذلـك الجهـاز لـم يعـد في وسعنا السيطرة عليه، ولم يعـد فـي خدمـة الحاجـات الإنسانية، لقد أصـبحت الحاجـة الإنسـانية تتشـكل لكـي تلائمه. وهكذا فقد خلقنا بالفعل مـا يميـز منـاخ مجتمعنـا المعاصر من تفش للقلـق ولعـدم الاسـتقرار وللإحسـاس بالعجز. إن الحـرب تخلـق أولئـك الـذين يفتقـدون أيـة سيطرة حقيقية على بيئتهم أو علـى المجريـات الرئيسـية لحياتهم".

ويعقب ا. روي جون أستاذ علم النفس الصناعي قائلا:

" فيما قاله الدكتور دويتش ما يشير إلى أن مصدر مشكلتنا إنما يكمن في تطويرنا للتكنولوجيا. وأظن أن ذلك أمر ثانوي تماما. وأني أميل إلى تشخيص المشكلة باعتبارها مشكلة مجتمع مريض. وأن ذلك المرض يتسبب في إثارة وإيلام جوانب معينة من المجتمع أكثر من غيرها. فهو يتسبب في إثارة الشباب الذين لا يرون لحياتهم معنى، وفي إثارة الزنوج الذين لا يرون سوى البؤس والشقاء. وهؤلاء هم الذين يقاتلون المرض ويواجهونه، وتلك علامة على الصحة. ولكن مشاكلنا ترجع حقيقة إلى أسباب متعددة. فمنذ الحرب العالمية الثانية ومقاليد توجيه أمور ذلك المجتمع في أيدي أقلية صغيرة ضخمت من حجم المخاطر الخارجية التي تتهددنا، ومن ضرورة التحرك لمواجهتها مما يجعل الأمر فيما يبدو لي أشبه بحالة البرانويا".

أمـ ـا سـ ـتيفان كـ ـوروفر الأسـ ـتاذ بمعهـ ـد ماساشوستس للتكنولوجيا، والمتخصص فـي علـم الـنفس الفسيولوجي، فينظر إلى الأمر من زاوية مختلفة قائلا:

" لم تعد الحرب هي المشـكلة بـل المشـكلة هـي ازدهار جهاز الدولة، وازدهار جهاز الدولـة يعتمـد حاليـا على الاستعدادات للحرب، وبالتحديد علـى مقتضـيات مـا يسمى بالحروب المحدودة. وذلك هو السـبب فيمـا نعانيـه مـن ضـياع للإمكانيـات الاقتصـادية الهائلـة للولايـات المتحدة في سبيل ذلـك الحفـاظ علـى اسـتمرار ازدهـار جهاز الدولة من خلال الاستعداد للحرب".

ويتناول روبرت مولت أسـتاذ علـم الـنفس فـي جامعة نيويـورك والمتخصـص فـي قيـاس الشخصـية أفكار زملائه معقبا بقوله:

"أخشى أن يكون الدكتور جون قـد اقتفـى خطـى الكثيرين مـن زملائنـا الأطبـاء العقليـين فـي اسـتخدام مصطلحات مثل المرضى والبارانويا مما قـد يـوحي بـأن ثمة شيئا مرضيا في المجتمع نفسـه. واعتقـد أن الـدكتور كوروفر قد طرح بعض حقـائق بالغـة الفائـدة والإقنـاع،

وهي تشير إلى أن الدافع الكامن وراء ذلـك الاتجـاه نحـو التركيز الشديد على الدفاع في مواقف يكـون فيهـا المـرء قويا بالفعل– وهو السـلوك المميـز لحـالات البارانويـا– إنما هو دافع اقتصادي فـي جـوهره. بمعنـى أن القـوى غير المنظورة التي تحركه إنما تتمثـل فـي دافـع الـربح لدى صانع الأسـلحة الـذي يحتـل مكانـة مرموقـة فـي المجتمع.

أما روبرت ألـن المعـالج النفسـي وأسـتاذ علـم النفس والتربية في جامعة ميـامي فإنـه يقـدم نقـدا ذاتيـا ثوريا حقيقيا حين يقول:

" لا أظن أن الـذين يشـاركون بـوعي فـي قتـل تلك الأعداد الهائلة من الرجـال، والنسـاء والأطفـال فـي فيتنام سوى قلة ضئيلة من أبناء هذا الـوطن. ورغـم ذلـك فإننا نحن جميعا الذين أعددنا لذلك الـذي يحـدث. أن مـا يجرى اليوم إنما يتم باسمنا وبتـدعيمنا وبـدولاراتنا التـي ندفعها كضرائب، وبأصواتنا الانتخابية، ولـم يكـن ممكنـا أن يحدث كل ذلك بـدوننا. أنـه لـم يكـن ليحـدث إلا إذا أعددنا الناس، وأعـددناهم جيـدا، بحيـث يـرون أنفسـهم

مجرد أشياء تؤثر في أشـياء أخـرى. وأعتقـد أن علمـاء النفس، والأطبـاء العقليـين، وأولئـك المشـتغلين بـالعلوم الإنسانية قد أسهموا إسهاما جوهريـا فـي هـذه العمليـة، وذلك عن طريقين: الأول من خـلال المشـاركة الفعليـة. والثـاني وهـو الأكثـر أهميـة مـن خـلال الصـمت والإذعان".

وفي إحدى ندوات المـؤتمر التـى انعقـدت تحـت عنوان " النضالات مـن أجـل التحـرر" اسـتهل النـدوة فرانك كولينز وهو من علماء النفس العـاملين فـي مجـال الخدمة المدرسـية ومـن المتخصصـين فـي سـيكولوجية النمو بكلمة بالغة العنف قال فيها:

" إنكم يا علماء النفس قـد بعـتم أنفسـكم لشـارع ماديسون افينيو. لقد بعتم أنفسكم لكى يـتمكن الجـيش مـن دفع الشبان الصغار إلى الشعور بأنهم على مـا يـرام بعـد استدعائهم للتجنيد ووضـعهم أنفسـهم كليـة فـي خدمـة العسكرية. لقد آن الوقت بالنسبة لنـا جميعـا لكـى نـدخل مرحلة سؤال النفس لنتبين ما الذي نفعلـه، ولمـاذا نفعلـه، ولنتأكد من أن ما نفعله يسهم حقا في بناء عالم أفضل".

ولم تكن هذه الندوة قاصـرة علـى علمـاء الـنفس المتخصصين، فلقد ضمت عـددا مـن المهنيـين والطلبـة. وتحدث فيها فيل براون الذي كـان آنـذاك طالبـا يـدرس علم النفس، وأصبح فيما بعد علما من أعـلام علـم الـنفس الراديكالي الأمريكي، وقد ورد في كلمته فـي تلـك النـدوة قوله:

" إن جذور الأعراض المرضية إنمـا تكمـن فـي الرأسـمالية وشـكلها الامبريـالي المتطـور. إن مناقشـة الأشياء قد تكون أمرا رائعا، ولكنكم ما لـم تصـنعوا كـل ذلك في صيغته الاقتصادية والسياسـية فإنـه يصـبح بـلا جدوى على الإطـلاق وإذا مـا كنـا سـيكلوجيون حقـا، فلنجتمع ولننظر معا إلى الأمور نظـرة شـاملة. إن الحـل هو إسقاط النظام عن طريـق الثـورة. وجعـل المجتمـع صالحا للحياة، بدلا من البقاء فـي مجتمـع غيـر صـالح للحياة. إن على المجتمـع أن يتوافـق مـع النـاس ولـيس العكس".

لقد أصبح واضحا لي من ذلـك الوقـت أن علمـاء النفس يتباينون من حيث توجهاتهم الفكرية ومـن ثـم مـن

حيث توظيفهم لعلمهم. وإن مـن بـين المتخصصـين فـي علم الـنفس مـن كرسـوا أنفسـهم لخدمـة قـوى الشـر والتعصب والعدوان موظفين علمهم فـي خدمـة النازيـة، أو المكارثية، أو السـتالينية، أو الصـهيونية إلـى آخـره، ومنهم أيضا من دفعوا من أرزاقهم، ومـن حـريتهم، بـل ومن قدموا حيـاتهم استشـهادا فـي سـبيل قـوى الخيـر والعدل والحرية، مـوظفين علمهـم فـي خدمـة حركـات التحرر أينما كان موقعها. وإذا كـان أبنـاء الفريـق الأول قد وجدوا لأنفسـهم مكانـا فـي العديـد مـن التنظيمـات الحكومية الرسمية، فإن أبناء الفريـق الثـاني قـد أقـاموا لأنفسهم عشرات التجمعات غيـر الحكوميـة التـي تعبـر عن أهـدافهم. ولعـل أحـدث تلـك التجمعـات جماعـة تأسست فـي نهايـة الثمانينـات واختـارت لنفسـها اسـم جماعة علم النفس الراديكالي، والتـي أشـرف بالانتسـاب إليها. وتضم الجماعة وهي مازالـت فـي بدايـة الطريـق ١٦٣ عضوا يحملون جنسيات ثلاثة وعشـرين دولـة مـن بينها مصر. وتشير الوثيقة الرئيسية لهـا إلـى أنهـا تعبـر عن علماء الـنفس الـذين يعارضـون اسـتخدامه لخدمـة

سياسـات القهـر والاسـتغلال، ويسـاندون المقهـورين، ويستخدمون معرفتهم استخداما إيجابيـا للعمـل مـن أجـل التغيير الاجتماعي اللازم لخلق مجتمع أفضل.

الباب الثاني

علم النفس والمجتمع المصري

الفصل الخامس : الإعلام والإنسان المصري.

الفصل السادس: الاتصال الشخصي.

الفصل السابع: سيكلوجية متلقي الرسالة.

الفصل الثامن: علم النفس والسياسة.

الفصل التاسع: الطفل والسياسة.

الفصل العاشر: سيكلوجية العنف السياسي.

الفصل الحادي عشر:سيكلوجية العنف الجماهيري

الفصل الثاني عشر: لماذا نقاوم التغيير؟

الفصل الخامس

الإعلام والإنسان المصري

الإعلام والإنسان المصري

مقدمة :

نعرض في هذا الفصل لـثلاث دراسـات يجمعهـا إطلالها على الواقع المصـري بدرجـة أو بـأخرى، كمـا يجمعها أيضا أنها تنظر إلى ما يبدو أنـه قضـايا إعلاميـة خالصة من منظـور نفسـي اجتمـاعي متخصـص. أمـا الدراسة الأولى وقد نشرت فـي مجلـة القـاهرة للخدمـة الاجتماعية، يناير ١٩٩٣. فتـدور حـول الصـورة التـى رسمها الإعلام المصري للعامـل المصـري قبـل يوليـو ١٩٥٢ ومقارنتها بالصورة التـي رسـمها نفـس الإعـلام في الستينيات، وكيـف تـأثرت الصـورة فـي الحـالتين بالظروف الاجتماعيـة الاقتصـادية التـي كانـت تعمـل فعلها في المجتمع المصري. أما الدراسـة الثانيـة فتـدور حول سينما الأطفال في مصـر وقـد نشـرت فـي مجلـة الفن الإذاعي في ينـاير ١٩٨٨. وتـدور الدراسـة الثالثـة حول صورة البطل في السينما المصـرية، وهـي عبـارة

عن بحث ألقي ضمن ندوة عـن السـينما المصـرية فـي الفتـرة مـن ١٨ إلـى ٢٢ إبريـل ١٩٨٤، وقـد نشـرت الهيئة المصرية العامة للكتاب أعمـال النـدوة فـي كتـاب صـدر عـام ١٩٨٦ بعنـوان الإنسـان المصـرى علـى الشاشة. ولقد آثرت أن ألحق بالبحث مـا تضـمنه الكتـاب أيضا من تعليقات ومناقشات دارت حوله.

الصورة الإعلامية للعامل

نسـتطيع مـن خـلال الكتابـات المتـوافرة عـن مجتمع ما قبـل يوليـو ١٩٥٢ (٨،١،٣) أن نخلـص إلـى حقيقة مؤداها أن التعريف الـواقعي لمفهـوم "العامـل" لـم يكن يواجه مشكلة كبيرة، بصـرف النظـر عـن الموقـف من أحوال العمال المعيشية والـدعوات لتحسـينها. ويكفـي أن نشير لتأكيد تلك الحقيقة إلـى أن مسـألة تعريـف مـن هو العامل لم تطرح في تلك الكتابـات باعتبارهـا مشـكلة، بل كان الحديث عن العمال ومـواقفهم والمواقـف المتخـذة حيالهم ينساب مباشرة باعتبـار أن تعـريفهم أمـر متفـق عليه مفروغ منه. ونستطيع أن نتبـين مـن اسـتقراء تلـك الكتابات أن الملمح الأساسـي الـواقعي لمفهـوم "العامـل"

أنه هو ذلك الشخص الذي يقـوم بعمـل يـدوي أو بـدني مقابل أجر.

ولعله من الملفت للنظر أن بقيـة الصـور المقابلـة كانت على نفس القدر من الوضـوح الـذي يجعلهـا فـي غنى عن التعريـف بأصـحابها مـن التجـار والفلاحـين والموظفين والملاك من أصـحاب الأراضـى والمصـانع. والأمر يرجع فيما نرى إلى تقليديـة المجتمـع واسـتمرار اسـتقرار أوضـاعه المهنيـة لفتـرة طويلـة. ولا نعنـي بالاستقرار في هذا السياق حكـم قيمـة بـأي حـال، بـل نعني به استقرارا نسبيا للحدود بين فئـات المجتمـع علـى مستوى الصور الإدراكية الشائعة.

لقد كانـت لـدينا آنـذاك عـدة صـور أساسـية واضـحة المعـالم إلـى حـد كبيـر: العامـل، والفـلاح، والموظـف (أو الأفنـدي)، والمهنـي الحـر (المحـامي والطبيـب والمهنـدس وأمثـالهم)، والتـاجر، ومالـك الأرض، ومالـك المصـنع، والعسـكريين، ورجـال الـدين...إلـي آخـره. وكـان لكـل مـن تلـك الفئـات خصائصها الإدراكية الواضـحة والمسـتقرة فـي عيـون

الآخرين. وقد تختلـف صـورة العامـل الإدراكيـة لـدى مالك المصنع عنها لـدى الموظـف عنهـا لـدى العمـال أنفسهم. وقد تتباين تلك الصـور الإدراكيـة عـن بعضـها سلبا وإيجابـا. ولكـن تلـك الاختلافـات مهمـا تعـددت وتباينت تظل اختلافات في الموقـف أو الرؤيـة لموضـوع واحد متفق عليه دون أن يصل الأمر إلـى اخـتلاف حـول تعريف الموضوع في حد ذاته.

إن أحدا لم يـتهم آنـذاك برصـد ملامـح الـرؤى المتبادلة بين أبناء القوى الاجتماعية التـى كانـت تتفاعـل في مجتمع ما قبل يوليـو ١٩٥٢. ورغـم ذلـك ولحسـن الحظ فإن جانبا لايستهان به من خصـائص تلـك الصـورة الإدراكية للعامل مـازال باقيـا فـي التـراث الصـحافي والأدبى والفني الذي شـهدته تلـك الحقبـة. ونسـتطيع أن نسـجل انطباعاتنـا عـن أهـم الملامـح المميـزة لتلـك الصورة على الوجه التالى:

١- إبراز ملامح العامـل الطيـب وفـي مقـدمتها الإخـلاص لصـاحب العمـل، والقناعـة، والالتـزام الأخلاقي الديني، والحـرص علـى المصـنع أو المتجـر

باعتباره مصدر لقمة العـيش، والمحافظـة علـى أمـوال صاحب العمل وعـدم خيانـة "العـيش والملـح". وتتمثـل مكافأة هذا العامل الطيـب فـي تمتعـه برضـا وإشـفاق وتقدير صاحب العمل لأمانتـه وإخلاصـه. وقـد يتحـول هذا العامل الطيـب فـي النهايـة ليصـبح مـن أصـحاب الأعمال الطيبين ذوي الرزق الوفير.

٢- إبراز ملامح "العامل الشـرير" وفـي مقـدمتها التحلل الخلقي، والحقـد، والشـره للمـال والرغبـة فـي الثراء السـريع بأيـة طريقـة حتـى ولـو خـان العـيش والملح.

٣- الدعوة إلـى عـدم التعـالي علـى أصـحاب العمل اليدوى في مجـال العلاقـات الاجتماعيـة وخاصـة فيما يتعلق بالزواج.

٤- الدعوة إلـى " العصـامية" بمعنـى الاعتمـاد على الذات والبدء من أول السـلم والإقـدام علـى العمـل باعتبار أن ذلك هو السـبيل إلـى تنميـة الثـروة وسـعادة الفرد.

5- لم يكن ثمة تمايز قيمي واضح بين "الحرفي" و" العامل الصناعي".

تلك هي أبرز الانطباعات عن صورة العامل آنذاك، ونحن إذ نؤكد أنها مجرد انطباعات فإننا نؤكد في نفس الوقت أنها لا تغني عن ضرورة القيام بدراسة تفصيلية تحليلية لمكونات صورة العامل في مجتمع ما قبل يوليو ١٩٥٢. فمثل تلك الدراسة التى ندعو إليها قد تكشف بشكل أكثر دقة وتحديدا عما وراء هذه الصورة الإعلامية دوافع وأهداف. فالصورة الإعلامية -كما نعرف- ليست بحال مجرد تصوير للواقع ولكنها أساسا موقف من هذا الواقع ومحاولة للتأثير فيه سلبا أو إيجابا.

صورة العامل في المجتمع المصري منذ الستينات

لقد كانت مشكلة الفلاح والملكية الزراعية هي أول ما اتجهت إليه جهود واجتهادات قادة يوليو ١٩٥٢ لتغيير الخريطة الاجتماعية الداخلية للمجتمع المصري، فكان الإصلاح الزراعي وقوانين تحديد الملكية الزراعية وتوزيع الأرض على الفلاحين المعدمين...

إلى آخره. وأحـدثت هـذه الإجـراءات مـا أحدثتـه مـن تغيير جذري في الصـورة الإدراكيـة للفـلاح المصـري. ولسنا بصدد التعرض لتفصيلات هذه الصـورة ومـا طـرأ عليها مـن تغييـرات آنـذاك طالمـا أن موضـوعنا هـو العامل المصري. غيـر أن ثمـة جزئيـة تعنينـا بالنسـبة لموضـوعنا هـو أن عنصـرا جديـدا قـد ظهـر علـى الخريطة الاجتماعية وترك تـأثيره حتمـا علـى الصـورة الإدراكية للفلاح بوصـفه عـاملا زراعيـا. ونعنـي بهـذا العنصر ظهور فئة جديدة من المـلاك الـزراعيين "مـلاك الإصلاح الزراعي": إنهم ليسـوا مـن مـلاك الأراضـى الزراعية التقليـديين أصـحاب الملكيـات الكبيـرة. وهـم أيضا ليسوا مـن صـغار المـلاك الـذين حصـلوا علـى قراريطهم بالميراث ومـا إلـى ذلـك. إنهـم فئـة جديـدة مطحونة تملكت الأرض فجأة بقرار ثوري. فئـة لـم تكـن تعرفها الخريطة الاجتماعية المصـرية قبـل ذلـك. وكـان الأمر يتطلب وقتا لترجمة هذا الواقـع الاجتمـاعي الجديـد إلى صورة إدراكية مستقرة الملامح.

ولم يمض وقت طويل حتى أهلت حقبة الستينات، والتي تميزت فيما يتعلق بموضوعنا بحدثين خطيرين، إحداهما اجتماعي سياسي، والحدث الآخر إعلامي اتصالي. لقد شهد النصف الأول من الستينات وفي نفس الوقت تقريبا صدور قرارات التأميم وما تبعها من ضمان نسبة الـ ٥٠% على الأقل للعمال والفلاحين في قيادة المؤسسات السياسية الشعبية، وتمثيل العمال في مجالس إدارة الشركات... إلى آخره. ومن ناحية أخرى فقد بدأ آنذاك إرسال التليفزيون المصري. ورغم ما قد يبدو للوهلة الأولى من انفصال الحدثين فإن تأثيرهما كان غلابا فيما يتعلق بالصور الإدراكية للجماعات الفرعية في المجتمع المصري منذ ذلك الوقت.

إن الصورة الإدراكية، كما سبق أن أوضحنا، ضرورة اجتماعية عرفتها البشرية منذ كانت. ولقد أوضحنا كذلك أن المؤسسات الإعلامية في المجتمع الحديث تلعب دورا حاسما في ترويج وترسيخ ملامح هذه الصورة. ويحتل التليفزيون على وجه التحديد

مكانة متميزة في هذا الصدد، فهو الجهـاز الـذي يسـتطيع بإمكاناته أن يحول الصورة الإدراكية إلـى صـورة فعليـة مجسدة نراها ونسمعها وتترك فينا أثـرا قريبـا مـن أثـر الواقع في هذا المجال بالتحديـد. ولسـنا علـى أيـة حـال بصدد الإفاضة في بيان تأثيرات التليفزيـون فـي تشـكيل الاتجاهـات وتكـوين الصـور الإدراكيـة والتصـنيفات النمطية، فكلهـا أمـور قـد أفـاض فـي تناولهـا أهـل التخصص الإعلامي وهم الأقدر على ذلك.

شهدت تلك الحقبة أيضا ما عـرف باسـم قـرارات يوليـو ١٩٦١ أو قـرارات التـأميم أو القـرارات الاشتراكية. وما يعنينـا مـن هـذه القـرارات فـي هـذا المجال هو ما أحدثته مـن تـأثير علـى ملامـح صـورة العامل الإدراكية. لقد تضمنت تلك القـرارات نوعـا مـن رد الاعتبار للعمال متمثلا فـي ضـمان أن يكـون ٥٠% من أعضاء مجلس الشعب مـن العمـال والفلاحـين. وقـد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى أن يصـبح الانتسـاب للطبقـة العاملة مغنما سياسيا واجتماعيـا بـل واقتصـاديا يسـعى إليه الكثيرون. ولم يكن بد والحال كـذلك مـن أن تطـرح

قضية تعريف من هو العامل؟ ومـن هـو الفـلاح؟ وبهـذا القدر من الإلحـاح للمـرة الأولـى فـي تـاريخ مصـر الحديث.

وإذا كانـت قضـية التعريـف كقضـية منهجيـة منطقية قد أثارت ومازالت تثير قـدرا كبيـرا مـن الجـدل في مجال فلسفة العلوم، فإن قضـية العامـل فـي مجتمـع الستينيات قد أثارت إلى جانب ذلك جـدلا سياسـيا سـاخنا. ولا غرابة في ذلك فإنها قضـية المشـاركة فـي السـلطة السياسية، ومن ثم فإنها هدف جميع العـاملين فـي المجـال السياسي على مختلف انتماءاتهم الاجتماعية.

ولسنا بصدد التعرض لتفاصـيل تلـك المناقشـات الحامية التي سبقت إقرار الميثـاق الـوطني فيمـا يتعلـق بهذه القضية. بـل إننـا لسـنا كـذلك بصـدد اسـتعراض جوانب التعريـف السياسـي الـذي أسـفرت عنـه تلـك المناقشات. كل مـا يعنينـا هـو أن تعبيـر "العمـال" قـد اكتسب معنى جديدا أوسع كثيرا من حـدوده القديمـة التـى كانت تكـاد تقصـره علـى العمـل اليـدوي أو البـدني.

وبالتالي فإن الصورة النمطية التقليدية لم تعد ملائمة تماما للملامح الواقعية الجديدة للعامل.

لقد شهدت تلك الفترة أيضا ونتيجة لتلك القرارات بزوغ فئة جديدة هي فئة "العامل المدير" بل "العامل عضو مجلس الإدارة". لقد كان انتساب العامل لفئة الإدارة في ظل النظام القديم تعني أنه لم يعد عاملا بانضمامه إلى هذه الفئة الاجتماعية المتميزة، وهو أمر كان مستحيل الحدوث إلا فيما ندر. أما في ظل الأوضاع الجديدة فقد أصبح انتساب العامل للإدارة مشروطا باحتفاظه بصفته كعامل، بل كممثل للعمال في إدارة المؤسسة. وقد أسهم هذا التغيير كذلك في اهتزاز الصورة الإدراكية النمطية التقليدية القديمة للعامل.

والأمر الذي يستوقف النظر أن تلك المكاسب السياسية للعمال، وما صحبها من تدافع على الانتساب سياسيا إلى فئة العمال لم يؤد واقعيا إلى زيادة الإقبال على العمل اليدوي، بل لعل ما حدث كان العكس تماما. فما زال الإقبال الجماهيري على الجامعة بكلياتها النظرية متزايدا. ومازال التوجه إلى التعليم الصناعي

أمرا اضطراريا. ولا يتعـارض ذلـك مـع حقيقـة تزايـد أعداد الجامعيين الذين يمارسون أعمالا حرفيـة، بـل لعـل تلك الحقيقة تؤكد ما ذهبنا إليه. فالجـامعي الـذي يمـارس حرفة يدوية تدر عليه دخلا، مازال حريصـا فـي الأغلـب على تعريف نفسه بأنه جامعى ولـيس مجـرد عامـل. أي أنه بعبارة أخرى يحرص علـى إدراج نفسـه فـي إطـار غير إطار الصورة الإدراكية للعامل.

ولقـد شـهدت تلـك الفتـرة كـذلك ولأسـباب اقتصادية عديدة تزايد ظاهرة مـا يمكـن أن نطلـق عليـه "تعدد الأدوار المهنية". ونعني بها في هـذا المجـال لجـوء أعداد متزايدة من الأفراد للقيام بـأكثر مـن عمـل واحـد. ورغم أن هذه الظاهرة ليسـت وليـدة السـتينيات ولكنهـا تضخمت – ومازالت تتضخم – منذ تلـك الفتـرة. وتـأثير ذلك على حدود الصـورة الإدراكيـة للعامـل غنـي عـن البيان. إن العديد مـن المـوظفين يمارسـون إلـى جانـب وظائفهم أعمالا حرفية متنوعة (سـائق– مبـيض– عـاملا بلاط... إلى آخـره). كـذلك فـإن العديـد مـن العمـال وخاصة عمـال القطـاع العـام يمارسـون إلـى جانـب

أعمالهم الأصلية أعمالا تجارية وكتابية أخرى حسب ما تسمح به ظروفهم وإمكانياتهم وتأهيلهم.

وفضلا عن كل ذلك، فقد شهدنا منذ تلك الفترة، وبالنسبة لقطاعات كبيرة من العمال– هم عمال القطاع العام– غياب الصورة التقليدية المألوفة لصاحب العمل. وإذا كانت الصناعات الكبرى في العالم الحديث تعرف تلك الظاهرة بشكل أو بآخر حيث يصبح المدير ممثلا لصاحب أو لأصحاب رأس المال في علاقته المباشرة بالعمال، فإن الأمر يختلف بالنسبة لبلادنا، فصاحب العمل لا وجود له أصلا من الناحية الواقعية المادية في القطاع العام. والإدارة العليا في هذا القطاع تمثل كيانا معنويا مجردا يملك هذا القطاع هو "الدولة" وقد ترك هذا التغيير الجذري أثره العميق على الصورة الإدراكية للعامل سواء من حيث إدراكه لنفسه أو إدراك الآخرين له. ولعلنا لا نبالغ كثيرا إذا ما قلنا إن صورة عامل القطاع العام قد اقتربت كثيرا من صورة الموظف التقليدية من حيث إن كلاهما يعمل لحساب كيان معنوي غير ملموس هو "الدولة".

وفي ظل هذا المناخ تمـايزت صـورة "الحرفـي" أو "الصـنايعي"، وازدادت ملامحهـا بـروزا بحيـث أصـبحت تكـاد تنفـرد بخصـائص الصـورة الإدراكيـة التقليدية المألوفة للعامل. وبحيث أصـبح الحـديث الـدارج عـن "العمـال" يسـتدعي إلـى الـذهن مباشـرة صـورة الحرفي أو الصـنايعي الـذي يعمـل لحسـابه أو لحسـاب صاحب الورشة أو المؤسسة الصـناعية الصـغيرة. ولقـد ساعد في ذلـك دون شـك خفـوت الصـورة الإدراكيـة التقليدية القديمة للعامـل وعـدم تبلـور ملامـح صـورته الإدراكية الحديثة التي تميزه عن غيره من الفئات.

وماذا بعد؟

لعله مما يستوقف النظر أنه رغـم تـوافر قـدر لا بأس به من الدراسات الإعلاميـة التـي تناولـت الصـور الإدراكية التي يقدمها الإعلام المصـرى، فإننـا لـم نقـع على دراسة تناولت موضوع صورة العامـل فـي الإعـلام المصري. ثمـة دراسـات تناولـت صـورة المـرأة (٤) وصـورة الفـلاح (٢).. إلـى آخـره، غيـر أن صـورة العامل لم تكن ترد إلا عرضا فـي مثـل تلـك الدراسـات

فعلى سبيل المثال تشير إحـدى الدراسـات التـي تناولـت موضوع ملامح البطـل فـي السـينما المصـرية إلـى أن شخصية العامل كبطل للرواية قـد ظهـرت بنسـبة ٢,٨% في أفلام عام ١٩٧١ ثم ارتفعـت إلـى ٨,٦% فـي أفـلام عام ١٩٧٩. كما أن شخصية العاملة قـد ظهـرت بنسـبة ٧,٧% في أفلام عـام ١٩٧١ لتـنخفض إلـى ٣,٣% فـي أفلام عام ١٩٧٩ (٦).

وتشير إحـدى الدراسـات إلـى " أن شخصـيات السينما المصرية في غالبها تفتقـد لمعنـى العمـل كقيمـة في حياتها، بل هي في الغالب شخصـيات لا نراهـا تعمـل سواء في المجتمع أو في البيت. وقد لا نعـرف شـيئا عـن المجتمع الذي تحيا فيه. وإذا أدركت معنـى العمـل فهـي تدركه في حدود الأنانية الفردية المرتبطـة بـأحلام الثـراء وصعود السـلم الاجتمـاعي، وبمفـاهيم النجـاح الـذاتي البعيد عن أية قيم أعم وأشمل فـي معانيهـا الأخلاقيـة... إن قيمة العمل من أكثر نقـاط الضـعف الموجـودة عنـد تناول الشخصية في الفيلم الروائي" (٩).

ترى ما دلالـة ذلـك؟ إن الأمـر فيمـا نـرى لا يحمـل شـبهة جهـل أو تجاهـل، فالصـورة الإعلاميـة تقتضي بالضرورة توافر عناصر ثلاثـة : تصـور الواقـع من زاوية معينة، ومحاولة لتفسير هذا الواقـع، ثـم موقـف من هذا التفسير. وإذا ما غابت هـذه العناصـر الثلاثـة أو غاب إحداها أصبح التوصل إلـى تشـكيل تلـك الصـورة أمرا متعذرا. وفيما يتعلـق بموضـوعنا –أعنـي صـورة العامل– فإن تـوافر هـذه العناصـر الثلاثـة أمـر محـل نظر. فالواقع العمالي الـذي نتحـدث عنـه جديـد نسـبيا، ومن ثم فإن محاولة التصدي لتفسيره واتخـاذ موقـف منـه ليس بالأمور اليسيرة، وإن لم يكن بد مـن ضـرورة البـدء في دراستها وإنجازها.

المصادر

١- أمين عز الدين، تاريخ الطبقة العاملة المصرية : ١٩١٩-١٩٢٩، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠.

٢- إيمان مصطفى، صورة الفلاح في الدراما التي يقدمها التليفزيون: دراسة تحليلية ميدانية، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الإعلام -جامعة القاهرة، بحث غير منشور، ١٩٨٦.

٣- رؤوف عباس، الحركة العمالية في مصر : ١٨٩٩-١٩٥٢، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨.

٤- صفية مجدي، " صورة المرأة في السينما المصرية"، في "الإنسان المصري على الشاشة" الهيئة المصرية العامة الكتاب، القاهرة، ١٩٨٦.

٥- عزة عبد الغني حجازي، الإدراك المتبادل بين ثلاث شرائح ثقافية وموقعها من بعض قضايا المجتمع، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية البنات - جامعة عين شمس، بحث غير منشور، ١٩٨٣.

٦- قـدري حفنـي، "ملامـح البطـل فـي السـينما المصرية"، في "الإنسان المصـري علـى الشاشـة" الهيئـة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦.

٧- ـــــــ، المصـــريون ونظـــرتهم إلـــى الفلاحين: دراسة في شخصية الجماعـة، أعمـال المـؤتمر الدولي السابع للإحصـاء والحسـابات العلميـة والبحـوث الاجتماعية والسكانية، القاهرة، ١٩٨٢.

٨- محمود متولي، الأصـول التاريخيـة للرأسـمالية المصرية وتطورهـا، الهيئـة المصـرية العامـة للكتـاب، ١٩٧٤.

٩- يحيى عزمي، "العمـل كقيمـة اجتماعيـة علـى الشاشة المصرية"، في "الإنسان المصـرى علـى الشاشـة" الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦.

سينما الطفل

لقد عرف الإنسان فن القصة منذ كانت البشرية. ومارس الإنسان فن التمثيل بمعنى تجسيد القصص بشخوصها وأحداثها منذ أقدم العصور، فلدينا مدونة لمسرحية دينية مصرية كتبت قبل الميلاد بألفي عام وكان موضوعها: "موت الإله أوزوريس". أما فن السينما فلم تعرفه البشرية إلا في نهاية القرن التاسع عشر حيث أتاح التطور التكنولوجي للإنسان أن يجسد قصصه لتصبح مرئية مسموعة وتظل رغم ذلك خيالا خالصا. وقطع فن السينما شوطا طويلا ليظهر تعبير "سينما الأطفال" ورغم رواج هذا التعبير، وكثرة تداوله فإن معناه المحدد لم يتبلور بعد. ترى ما الذي نقصده تحديدا بمصطلح "سينما الأطفال".

قد ينصرف الذهن إلى أنها تلك الأفلام التي نصنعها خصيصا ليشاهدها الأطفال كأفلام الرسوم المتحركة، أو بعض الأفلام الفكاهية أو حتى بعض أفلام المواعظ والحكم التوجيهية. وقد ينصرف الذهن أيضا إلى أن المقصود بسينما الأطفال هي تلك الأفلام

التي يقوم الأطفال بـأداء أدوار رئيسـية فيهـا بمعنـى أن يكون الطفل هو محور قصصها. وقد يميـل الـبعض إلـى تحديد أرحب لمصطلح سينما الأطفال بحيـث يشـمل كافـة الأفلام التي لا نرى ضـررا مـن أن يشـاهدها الأطفـال بحيث نستبعد فحسب أفـلام الجـنس والعنـف ومـا إلـى ذلك.

ورغم وجاهـة هـذه التعريفـات – وهـي ليسـت سوى أمثلة قليلة – فإننا نراهـا تقـوم علـى فكـرة بعيـدة عن الواقع. إنها تفترض كما لـو كـان الأطفـال يمثلـون مجتمعا منغلقا سـلبيا مستسـلما، يتقبلـون مـا نعرضـهم عليهم صاغرين، ويتأثرون بذلك الـذي نقدمـه لهـم، بـل ويتصرفون تبعا للتأثيرات التي نتوقعهـا مـنهم، ثـم إنهـم ينصرفون عنا إذا ما شئنا لهم أن ينصـرفوا لتفـرغ نحـن لأفلامنا. أو لما يمكن أن نطلـق عليـه فـي هـذه الحالـة سينما الكبار.

الطفل والفيلم في المجتمع المصري

إن الأطفال جزء لا يتجـزأ مـن مجتمعنـا نحـن الكبار. والطفل ليس بالكائن الذي يتلقـى وينفعـل فحسـب

بل هو يختار ويتفاعل أيضـا، ولا تعـوزه الحيلـة لبلـوغ غايته إذا ما لم نكن في متنـاول يـده. وعلـى أيـة حـال فغاية الطفل بالنسبة لموضوعنا تكـاد تكـون لصـيقة بـه ينالها متى شاء.

يكفينـا أن ننظـر حولنـا إلـى واقـع الأسـرة المصرية التى تستطيع أن تتـيح لأطفالهـا رؤيـة الأفـلام في دور السـينما أو عـن طريـق أجهـزة التليفزيـون أو بالفيديو هل تستطيع مثل هـذه الأسـرة أن تفصـل واقعيـا بين ما يراه الأطفال وما يراه الكبار؟

إن ذهاب الأطفال إلى دور السـينما –لـو تيسـرت تلك الدور– نشاط جمـاعي تقـوم بـه الأسـرة كلهـا أو مجموعة منها على الأقل. ولابـد أن يكـون ضـمن هـذه المجموعة فرد أو أكثر من الكبار. وحتـى إذا مـا تخيلنـا أن ثمة دورا كافية للسـينما تعـرض أفلامـا خصصـناها للأطفـال، وأن ثمـة دورا أخـرى أو مواعيـد أخـرى لعرض أفلام الكبـار، فسـوف تبقـى مشـكلة أن تـتمكن الأسرة من ترك أطفالهـا ليـذهب كبارهـا إلـى السـينما. تـرى هـل يتيسـر ذلـك للأسـرة فـي ظـل ظروفهـا

الاجتماعية الراهنة؟ إن الأمر لا يبدو يسـيرا، هـذا إذا مـا سلمنا بأنه أمر مرغوب أصلا.

والأمـر أكثـر وضـوحا فيمـا يتعلـق بمشـاهدة الأفلام من خلال أجهزة التليفزيـون. فالأسـرة المصـرية تتجمـع عـادة – كبـارا وصـغارا– لمشـاهدة بـرامج التليفزيـون دون تفرقـة بـين إعلانـات تنظـيم الأسـرة والأحاديث الدينيـة والمسلسـلات والأفـلام. صـحيح أن قطاعات محددا من أطفالنا في سـن مـا قبـل المدرسـة – أو خلال العطلات– قد يشاهدون بـرامج أطفـال صـباحية عادة. وحتى بالنسبة لهـؤلاء فـإن مشـاهدتهم لا تقتصـر على ما يخصهم وحدهم من برامج الفتـرة الصـباحية بـل يتعرضون أيضا لبعض من المسلسـلات ولقـدر لا بـأس به من الفقرات الأخـرى. ولقـد يتبـادر إلـى الـذهن أن العـلاج إنمـا يكمـن فـي "توعيـة" الأسـرة المصـرية بضرورة مراعاة الفصـل بـين أفرادهـا وفقـا للتصـنيف الذي نحدده لهم حتى تتحقق لكل فريق مـنهم الفائـدة التـي نرجوها لهم. ولسنا في حاجة بطبيعة الحـال لتنفيـد مثـل هذا الرأي والخوض في تفاصيل تخـرج بنـا كثيـرا عـن

موضوعنا، وتدخل بنا في موضـوعات كأزمـة الإسـكان، وطبيعة تركيب الأسرة المصـرية ومسـتواها الاقتصـادي والاجتماعي وما إلى ذلك.

تبقى الوسيلة الثالثة لمشاهدة سـينما الأطفـال مـن خلال أجهزة الفيديو. ولعلها الوسـيلة الوحيـدة التـى قـد تسمح بقدر من التحكم والتحديد. ولكـن يبقـى بعـد ذلـك أن انتشار أجهزة الفيديو أقل بطبيعـة الحـال مـن انتشـار أجهزة التليفزيون ومن ثم فـإن حـديثنا فـي هـذه الحالـة يقتصر على شريحة ضيقة نسبيا.

كذلك فإنه حتى بالنسبة لهـذه الشـريحة الضـيقة، فإننا لا نستطيع إحكـام الحصـار بحيـث يشـاهد أطفـال الأسرة جميعا على تباين أعمارهم مـا نختـاره لهـم مـن أفلام منتقاة وأن نضمن في نفس الوقـت عـدم مشـاهدتهم لغير ذلك من أفلام لا نرضاها لهم.

خلاصـة القـول إذن أن الأطفـال– وهـم أولئـك الذين تقل أعمارهم عن الثامنة عشر– إنمـا يشـاهدون مـا يريدون هم مشاهدته، ويسـعون إلـى ذلـك مـا وسـعهم الجهد. ثم إنهم ينصرفون عما لا يريـدون مشـاهدته مهمـا

كان إصرارنا وإلحاحنا. حتـى أنهـم إذا لـم يجـدوا مـن حصارنا مهربا، جلسوا أمام ما نعرضـه علـيهم ينظـرون إليه ولكنهم لا يتأثرون بـه بـل لا يشـاهدونه أصـلا بـل إنهم كثيرا ما ينطلقوا بخيـالاتهم وهـم جالسـين ليصـنعوا لأنفسهم أفلاما خاصة بهـم دون سـواهم. أفلامـا نسـميها نحن الكبار "أحلام اليقظة"

السينما وحلم اليقظة

ترى هل يختلف فيلم السـينما عـن حلـم اليقظـة؟ إن كلاهما خيال متجسد وكلاهما تعبيـر عـن رغبـة مـن أبدعه ومن يشاهدونه. وكلاهما يبتعـد عـن الواقـع بقـدر يزيد أو يقل. وكلاهمـا يشـغل حيـزا زمنيـا محـدودا لا يتجاوزه المرء إلا في الحـالات المرضـية، ليعـود بعـده إلى سيرته الأولى من حيث التعامل مع الواقع.

إن ما يفرق بين فيلم السـينما وحلـم اليقظـة مـن الناحية النفسية أمر محـدد يتمثـل فيمـا يتميـز بـه فـيلم السينما من طابع جماعي تتعدد فيـه الوظـائف وتتكامـل، فهناك من يعد القصة ومن يكتب السـيناريو ومـن يـؤدون الأدوار إلى جانـب المصـور والمخـرج وغيـرهم مـن

المبدعين ثـم هنـاك إلـى جانـب كـل هـؤلاء جمهـور المشاهدين، أما فيما يتعلق بحلـم اليقظـة فـإن الوظـائف جميعا يقوم بها صاحب الحلم وحـده فهـو مبـدع القصـة وصـانع حوارهـا ومخرجهـا ومصـورها ولـه بطولـة تمثيلها ثم إنه مشاهدها الأوحد.

ولعلنـا لا نعـدو الحقيقـة إذا مـا تصـورنا أن السينما سواء كانت للصـغار أو للكبـار إنمـا تـنجح فـي التأثير على جمهورها بقـدر اقترابهـا مـن حلـم اليقظـة الخاص بكل مشـاهد بحيـث يـرى فيمـا يشـاهد حلمـه متجسدا ثم لا يلبث أن يجد نفسه فـي أحـد أبطـال الفـيلم فيتحقق "الاندماج" الـذي قـد يصـل بالمشـاهد إلـى حـد المشاركة الانفعالية – بل والجسدية أحيانـا – فـي "تمثيـل" الأحداث التي يراها كما لو كـان بطلهـا. بعبـارة أخـرى فإن العلاقة بين السينما والحلـم علاقـة تفاعـل متبـادل. فالمبدع السينمائي يحـاول الاقتـراب بإبداعـه مـن حلـم المشاهد، والمشاهد –من ناحيتـه– يحـاول الانـدماج فـي هذا الحلم المصنوع كمل لو كان هو صانعه.

أن الجـذور البعيـدة لفـن السـينما بـل ولفنـون الدراما جميعا، إنمـا تمتـد إلـى خاصـية نفسـية ميـزت البشر منذ كانت البشرية، وهي تلك القـدرة علـى تجـاوز الواقع بالحلم وبالتخييل وإذا ما كان التخييـل، مـن أولـى الوظائف النفسية التـي عرفهـا الجـنس البشـري، فـإن الأمر كذلك أيضا بالنسبة للفرد مـن البشـر حيـث تسـبق ممارسة الطفل للتخييـل تعرفـه علـى اللغـة وممارسـته للتخاطب.

وما دمنا بصدد تناول علاقة الطفـل بالسـينما مـن منظور نفسي، فعلينا أن نضـع فـي الاعتبـار أن السـينما في جوهرها ليست سوى محاولـة لتجسـيد حلـم اليقظـة لدى المشاهد. وإذا ما سلمنا بـأن حلـم اليقظـة هـو أول الأنشطة النفسية التي يمارسها الطفل، فـإن علينـا أن نبـدأ بتبين ملامح ظـاهرة حلـم اليقظـة. فبـدون تبـين هـذه الملامح قد يصعب علينـا أن نمسـك ببدايـة الخـط لفهـم موقف الأطفال – بل والكبار أيضا – من السينما.

الطفل.. السينمائي الأول

تتأخر مراحـل النمـو النفسـي وتتشـابك بحيـث يصعب تحديد نقطة زمنية معينـة قاطعـة تنتهـي عنـدها مرحلـة لتبـدأ مرحلـة جديـدة. والاجتهـادات العلميـة المتخصصة لتناول هذه المشـكلة عديـدة تفـوق الحصـر ولسنا بحال في مجال التعرض لهـا. إن مـا يعنينـا هـو الإشارة إلى حقيقـة علميـة مؤداهـا أن انقضـاء مرحلـة معينة من مراحل النمو النفسي لا يعنـى انـدثار ملامحهـا تماما، بل إنها تظل قائمة بشكل أو بآخر فيمـا يليهـا مـن مراحل، وهكذا حتى نهاية العمر.

إن مرحلة الرشد كما هـو واضـح مـن تسـميتها تتميز بالسلوك العقلانـي المنطقـي ولكـن الفـرد الراشـد ليس ابن مرحلته هذه فحسب، بل إنـه يحمـل فـي داخلـه آثارا باقية من سلوكيات ميزت مرحلـة طفولتـه ومرحلـة مراهقتـه ولا نعنـي بالآثـار فـي هـذا المجـال مجـرد الذكريات أو حتى التأثر بتلك الـذكريات. بـل إننـا نعنـي أنماطا فعلية من السلوك تشـيع احتياجـات حقيقيـة قائمـة رغم انتمائها بحكم المنشأ إلى مراحل سابقة من النمو.

ولـذلك فـإن الرشـد لا يحكـم كافـة تفصـيلات سلوك الراشـد. ثمـة مجـال دائمـا لسـلوك مراهـق أو لسلوك طفلي. فقد يصدر عن الراشـد فـي موقـف عـابر لا يستمر طويلا سلسلة متتاليـة مـن ردود الفعـل تجمـع بين رومانسية المراهقة وحسيتها وبـين انفعاليـة الطفولـة ومخاوفها دون أن يـؤدي ذلـك بالضـرورة إلـى ضـياع الطابع الرشيد للقرار الذي يتخذه الفرد.

إن العديد من الحاجـات والسـلوكيات ذات المنشـأ الطفلي تظل قائمة لدى الراشد حتـى النهايـة. ومـن بـين تلك الحاجات ما قد تتطلـب بحكـم طبيعتهـا إشـباعا لـه طابع طفلي لا عقلانـي تخييلـي. بـل إن ثمـة حاجـات "راشدة" إذا مـا تعـذر عليهـا الإشـباع الـواقعي دفعـت بصاحبها "الراشد" إلى التمـاس السـبيل الطفلـي للإشـباع عن طريق التخييل بصوره المختلفة. ويعـد حلـم اليقظـة صورة متميزة مـن صـور الإشـباع الطفلـي التخييلـي فالراشد في حلـم اليقظـة يقـوم علـى مسـتوى التخييـل بإعادة بناء الواقع من جديد بحيـث يصـبح واقعـا مشـبعا لرغباته. ومن خـلال اسـتغراقه أو اندماجـه فـي حلمـه

يحس كما لو كان قد أشبع رغباته الملحة هـذه. ثـم يعـود إلى واقعه الحقيقي من جديد مسـتعيدا قـدرا مـن هدوئـه بعد أن نجـح بدرجـة أو بـأخرى فـي صـياغة حلمـه ومعايشته. ومن ثم فقد يكون آنـذاك أقـدر علـى السـعي لتعديل واقعه الفعلي إذا ما استطاع.

ومـا السـينما إبـداعا أو مشـاهدة إلا محاولـة متطورة لهذا الـنمط الطفلـي القـديم للإشـباع التخييلـي. وربما يصدق ذلك على سينما الكبـار بـأكثر مـن سـينما الأطفال. فالطفل وخاصة فـي مراحـل نمـوه المبكـرة لا يميز تمييزا قاطعا بـين الواقـع والخيـال بحيـث يصـبح الإشباع التخييلي معادلا تماما من حيـث تـأثيره للإشـباع الواقعي وتصبح الرغبة معادلة تماما للفعـل. أمـا بالنسـبة للراشـدين فـإنهم حـين يمارسـون أنشـطتهم السـينمائية كمبدعين أو كمشـاهدين فـإنهم يحققـون إشـباعا تخييليـا طفليا متمايزا عن إشباعاتهم الواقعية.

وما دام الأمر كذلك. فإننـا نسـتطيع القـول بـأن الطفل هو السينمائي الأول مبـدعا ومشـاهدا وأننـا حـين نمارس أنشـطتنا السـينمائية فإننـا نحـل ضـيوفا علـى

الأطفال في داخلنا، محاولين محاكاتهم ومخاطبتهم والاقتراب منهم وكأننا باهتمامنا مؤخرا بسينما الأطفال نحاول بشكل أو بآخر أن نرد بعضا من الفضل لأصحابه، أي للأطفال.

سينما الطفل.. لماذا؟

تحدثنا الأسطورة الإغريقية القديمة عن الفتى نرجس الذي رأى صورته على سطح الماء فأخذ بجمال وجهه، واستغرق في تأمل هذا الجمال منصرفا عما حوله تماما. وظل هكذا يبتعد عن الواقع شيئا فشيئا حتى فقد حياته بصورته الجميلة. ورغم خيالية تلك القصة الأسطورية إلا أنها – شأن الكثير من الأساطير– تلمس فينا وترا حساسا في أعماق الإنسان. فكل منا يحمل في داخله قدرا من النرجسية، ويزداد هذا القدر وتزداد أهميته أيضا خلال مرحلة الطفولة.

ولعلنا لو تأملنا طفلا يجلس أمام الشاشة يتابع فيلما من الأفلام التي تستهويه وقد استغرق فيما يشاهده لوجدناه منصرفا عن كل ما حوله. ومن حوله أيضا. لا يشعر بجوع ولا بعطش. ولا يستجيب لنداءاتنا له. بل

ولا يكاد يتململ في جلسته إلى أن ينتهـي العـرض. تـرى هل يمكن لمثل هذا الاسـتغراق النرجسـي أن يحـدث إذا لم يجـد الطفـل نفسـه فيمـا يشـاهده؟ ألا يـذكرنا ذلـك باستغراق الطفل فـي التعامـل مـع لعبتـه المفضـلة؟ أو باستغراقه في حلم من أحلام يقظـة؟ إن الطفـل فـي هـذه المواقف جميعا إنما يسـتمتع بمعايشـة نفسـه فـي عـالم خيالي يتيح له الابتعاد لفترة عن عالمـه الـواقعي مـتحللا من قيوده. عـالم يسـتطيع فيـه أن يحـول العصـا إلـى حصان يمتطـي صـهوته دون وجـل أو خـوف. عـالم تصبح فيه الوسـادة "شخصـا آخـر" يناجيـه، ويتحـادث معه، بل ويعاقبـه ويكافئـه أو لعلهـا تصـبح طـائرة أو سفينة فضاء أو ما إلى ذلك، ويظل هو قائـدها علـى أيـة حال. وما سـينما الأطفـال إلا محاولـة لصـناعة عـالم خيالي جاهز نقدمـه للطفـل ليجـد نفسـه فيـه. ولنـا أن نتساءل: فيم هذا الجهد إذا مـا كـان الطفـل قـادرا علـى صنع عالمه الخيالى بنفسـه؟ ولمـاذا إذن ظهـرت سـينما الطفل أصلا؟

إن الطفل قـادر بالفعـل علـى اصـطناع عالمـه الخيالى، ومع ذلك فنحن نصنعه لـه سـواء فـي صـورة لعبة الطفل أو صـورة سـينما الطفـل. وبطبيعـة الحـال فإننا لا نحاول بذلك إراحة أطفالنـا مـن "عنـاء" التخيـل ولكن لنا نحن الكبار أهدافا أخرى. ولعلنـا قـد ألفنـا – ولا نقول مللنا – الحـديث عـن الأهـداف التربويـة لسـينما الأطفال وما تغرسه في الأطفال من قـيم أخلاقيـة نرضـى عنها أو لا نرضى. وعادة ما يصـدر مثـل هـذا الحـديث مـن علمـاء متخصصـين فـي علـوم التربيـة والـنفس وغيرها من العلوم الإنسانية. وقـد يجهـد هـؤلاء العلمـاء الأفاضـل أنفسـهم فـي دراسـة مسـارات نمـو الطفـل واحتياجاته وخصائصه إلى آخره. ثـم إنهـم قـد ينكبـون على تلك المواد السينمائية التي تقـدم للأطفـال فيحللونهـا كيفيا تارة، وكميا تارة أخرى مميـزين فـي النهايـة بـين الغث والثمين، محددين قـدر اسـتطاعتهم مـا هـو نـافع للطفل داعين إلى الاستزادة منـه، ومـا هـو ضـار بـه داعين إلى الإقلاع عنه. وهذا كله جهـد هـام وضـرورى دون شـك. ولكـن المشـكلة هـي أن أصـحاب العلـوم

الإنسـانية لا يقومـون بإنتـاج وتسـويق هـذه الأفـلام السينمائية، بل إنهـم أيضـا –هـم وأطفـالهم– لا يمثلـون نسبة يعتد بها بين مسـتهلكي هـذه الأفـلام. ولـذلك فإنـه مهما صدقت نواياهم وتزايد جهدهم العلمـي. بـل وحتـى مهما اتصفت نتـائجهم بالدقـة والموضـوعية، فسـوف لا يعدو هذا كله أن يكـون استشـارة تقـدم إلـى "أصـحاب الشأن" يأخذون بها لو وافقت أهـدافهم، ويعرضـون عنهـا وعن أصحابها لو لم توافق تلك الأهداف.

وفي مقدمة أصحاب الشأن في هـذا المجـال يقـف مجموعـة المنتجـين أولئـك الـذين يقومـون باسـتثمار أموالهم فـي إنتـاج تلـك الأفـلام السـينمائية وتوزيعهـا والترويج لها، وتلي هذه المجموعة مـن أصـحاب الشـأن مجموعة المسـتهلكين وهـم جمـوع الأبنـاء والأمهـات الذين يدفعون ثمن هذه الأفلام سـواء فـي صـورة تـذاكر سينما أو أجهزة عرض واسـتقبال منزلـي. ويحتـل ذيـل القائمة – قائمة أصـحاب الشـأن– مجموعـة المسـتهدفين وهم جموع الأطفال الذين يصل إليهم فـي النهايـة سـينما الطفل.

ولعلنا لم نكن متعسفين في طرح هذا التدريج التنازلى من حيث علاقات القوى. فالأطفال ليسوا سوى قوة ضغط على الآباء بحكم حب الآباء لهم ومسئوليتهم عنهم وأيضا بحكم إلحاحهم في طلب ما يريدون. والآباء هم الذين يستطيعون دفع الثمن في حدود طاقاتهم الاقتصادية وبالتالي فإن لهم إمكانية المفاضلة بين ما هو معروض أمامهم. أما المنتجون فهم الذين يحددون هذا المعروض الذي يتم الاختيار في حدود نطاقه والآن ترى إلى أي حد تتفق أو تتباين أهداف هذه المجموعات الثلاثة؟

أن الإنتاج –إنتاج أية سلعة– إنما يستهدف الربح. تلك حقيقة قديمة قدم السوق. ولكن الجديد في عصرنا وفي ظل المنافسة الشديدة بين المنتجين هو أن الطريق إلى الربح لم يعد مرتبطا فحسب بمدى إشباع السلع لحاجات المستهلكين الفعلية. الجديد في الأمر هو أن المنتجين في عالم اليوم كثيرا ما يبدأون باصطناع أو بخلق حاجات معينة ثم يقومون بعد ذلك بصناعة السلعة التي تشبع تلك الحاجة التي اصطنعوها. وتعد

سينما الطفل نموذجا مثاليا لـذلك. وينطبـق نفـس القـول على صناعة لعبة الطفل. فمـن خـلال أسـاليب الدعايـة المتطورة واستثمار أكبر قدر ممكن مـن المعرفـة العلميـة الدقيقة بالاحتياجات والخصـائص الطبيعيـة للطفـل. يـتم شيئا فشيئا بزوغ الحاجة إلى "سينما الطفـل"، وعلـى أيـة حال فإن عملية الاصطناع هذه قـد تكـون ضـرورية بـل وذات فائدة تربوية قصوى كما أنها قـد تحمـل شـرورا لا حد لها إذا لم يحسن توجيههـا وانتقـاء مضـمونها، وهـو الدور الذي يفتـرض أن تقـوم بـه الحكومـات وأجهـزة الرقابة إلى آخره.

وإذا مـا انتقلنـا إلـى المجموعـة الثانيـة مـن مجموعات التأثير في سـينما الأطفـال، وهـي مجموعـة الآباء أو أولياء أمور الصغار، لاسـتطعنا أن نتبـين لـديهم مجموعة من الأهـداف الأقـرب إلـى التكامـل. فالآبـاء والأمهات يحبون أطفالهم وبالتالي فهـم حريصـون علـى إسعادهم وتربيتهم وذلك بقدر تبصـرهم بوسـائل السـعادة والتربية. ولعل سينما الأطفال تعـد وسـيلة مـن وسـائل بلوغ هذين الهدفين: إسـعاد الطفـل، وتنشـئته، أو بعبـارة

أخرى تسلية الطفل وتعليمه. ولسنا نقصد بالتعليم في هذا الصدد التعليم المدرسي أو حتى إعداد الطفل لهذا النوع من أنواع التعليم. بل إن المقصود هو التعليم بمعناه العام، أو بعبارة أخرى اكتساب الخبرات والاستفادة منها.

أما المجموعة الثالثة من مجموعات التأثير في مجال سينما الأطفال. فهي مجموعة الأطفال أنفسهم. وقد سبق أن تعرضنا لما تعنيه سينما الأطفال بالنسبة لهم، سواء من حيث عملية التخييل، أو من حيث استحالة وضع حدود فاصلة بين مشاهدتهم لما هو موجه لهم، وما هو موجه لسواهم.

ولعله مما قد يستوقف النظر أن البحوث والدراسات التي تعرضت لسينما الأطفال أو للعلاقة بين الطفل وأجهزة الإعلام بعامة، تكاد أن تندرج من حيث كثافتها تدرجا معاكسا لتدرج جماعات التأثير. فثمة العديد من البحوث تناولت الأطفال ماذا يفضلون؟ ومتى يشاهدون؟ وكيف يشاهدون؟ ومع من؟ إلى آخره، وذلك في حين أننا يندر أن نجد بحثا قد اتجه

نحو المنتجين وهم القـوة الرئيسـية فـي تشـكيل المجـال ليستقصي أهدافهم. صحيح أن ثمـة بحوثـا قـد انصـرفت –كما أشرنا من قبل– إلى تحليـل مضـمون مـا يعـرض على الأطفال. وصحيح كذلك أننـا نسـتطيع مـن خـلال هذه التحليلات أن نخمن أهـداف المنتجـين بدرجـة مـن الدقة تقل أو تزيد. ولكن يبقـى رغـم ذلـك حقيقـة نـدرة البحوث التي اتجهت صـوت المنتجـين مباشـرة أو حتـى صوب معـاونيهم مـن الفنـانين والفنيـين لتبـين حقيقـة أهدافهم أو فلسفاتهم. وإذا ما أضـفنا إلـى ذلـك حقيقـة أن الجانب الأكبر من أفلام الأطفال المتاحـة بالفعـل لأطفـال بلادنا أفلام أنتجها منتجـون غربيـون. أصـبحنا بالفعـل حيال مشكلة ملحـة تثيـر عديـدا مـن التسـاؤلات التـي تتطلب حلا.

تـرى إلـى أي مـدى يتشـابه أطفالنـا وأطفـال الغرب؟ هـل يشـمل هـذا التشـابه مجـال الاحتياجـات النفسية؟ وهل يشمل أيضا مجـال الاحتياجـات التربويـة؟ إلى أي مدى تتشابه القيم المشـتركة المطلـوب تـدعيمها؟ هل المطلوب أن نولي ظهورنـا لتلـك المنتجـات الغربيـة

وأن نصنع نحن سينما الأطفال الخاصة بنا؟ هل هذا مطلوب؟ وهل هو ممكن؟ أم المطلوب هو أن ننتقي من تلك الأفلام المتاحة ما هو مناسب لنا؟ ومن الذي سيختار في هذه الحالة؟ الآباء ؟ الأطفال؟ المستوردون؟ الحكومة؟ وقبل هذا كله هل نحن متفقون بالفعل على طبيعة ونوعية ذلك الذي يناسبنا؟

إن التصدى لمثل هذه التساؤلات يحتاج إلى تضافر العديد من التخصصات العلمية التي تشمل علوم الاقتصاد والاجتماع والنفس والسياسة بل والتاريخ أيضا وذلك لصياغة تصور مستقبلي شامل لما نتوقعه لأطفالنا. وما نتمناه لهم، وبدون تبلور مثل هذا التصور، يصبح من الصعوبة بمكان أن نتحدث عن الدور البناء الذي نود لسينما الأطفال أن تلعبه في بلادنا.

ملامح البطل في الأفلام المصرية

لعل من أكثر التسميات شيوعا وخطرا لعصرنا أنه عصر ثورة المعرفة، وترجع هذه الخطورة إلى الدور الأساسى الذي تلعبه المعرفة في تشكيل السلوك الإنساني عامة، وذلك من خلال تأثيرها في تشكيل بعدين أساسيين من أبعاد السلوك هما:

(أ) الاتجاه.

(ب) الوعي بالحاجة.

فاتجاهات الفرد، سلبية كانت أو إيجابية، نحو مختلف ما يعرض له من موضوعات إنما تتأثر بشكل أساسى بنوعية معلوماته عن الموضوع المطروح، ومن ناحية أخرى فإن وعي الفرد بما يحتاج إليه إنما يتشكل كمحصلة لتلك المقارنة المستمرة بين مستويات الإشباع الفعلي المتحقق ماديا، وبين مستويات الإشباع التي يعرف الفرد أنها متاحة لسواه وغالبا ما نطلق على هذه المحصلة تعبير الحرمان النسبي.

خلاصة القول إذن أنه من خلال تراكم المعلومات، ووفقا لنوعيتها، يتحدد تصور الفرد لما

ينقصه. وتتحدد أيضا اتجاهاته نحـو العـالم مـن حولـه. ولسنا نعني بتعبير المعلومـات فـي هـذا الصـدد نوعـا بعينه دون سواه من سبل التعرف علـى العلـم. بـل إننـا نعني كافة مصادر التأثير المعرفي التـي تلعـب دورا فـي تشكيل صورة العالم لـدى الفـرد. ومـن ثـم فـإن هـذا التعبيـر لا يقتصـر علـى مـا يحققـه التعلـيم بمختلـف مؤسساته ونظمه وبرامجه. ولا يقتصـر كـذلك علـى مـا ينجزه الإعـلام بكافـة وسـائله وأدواتـه ونظرياتـه. إن العملية النفسية الرئيسية التـى يـتم مـن خلالهـا ترجمـة المعلومات إلى سلوك هي ما يعرف فنيا بعملية التعلم.

إن وحـدة الأصـل اللغـوى للتعبيـرات الثلاثـة: التعليم والتعلم والإعلام قد توحي بأن إعمـال الفكـر فـي التمييز بينها إنما هو جهـد فـي غيـر طائـل. فالمعرفـة تصل إلى المرء في النهاية – إذا ما كـان لهـا أن تصـل إليه– سـواء تعلمهـا أو علمنـاه إياهـا أو أعلمنـاه بهـا. ومادامـت قـد وصـلت إليـه فقـد انتهـى دور الوسـيلة وأصبح علينا أن نبحث في تأثيرها عليه أو تأثره بها.

ولعلنا لو كنـا بصـدد موضـوع غيـر موضـوع السينما، لمـا توقفنـا بإلحـاح أمـام هـذه التفرقـة رغـم أهميتها. ولما شغلنا أنفسنا وأثقلنا على القـارئ بمثـل مـا نحن بصـدده، أمـا وأن موضـوعنا هـو السـينما، بـل والسينما في مصر، فإن تلك التفرقة تصـبح أمـرا حتميـا لا مهرب منـه اذا ماشـئنا أن يسـتقيم تناولنـا لموضـوع سينمائي من منظور نفسي.

لقد كانت السـينما فـي مصـر –ومازالـت– مثـارا لجدل شديد حول ماهيتهـا. أهـي فـي جوهرهـا وسـيلة تعليمية ينبغي أن تؤخذ بما تؤخذ بـه وسـائل التعلـيم مـن ضرورة تـوافر الهـدف، بـل وضـرورة وضـوح هـذا الهدف في ذهن المعلن على الأقل؟ أم إنهـا فـي جوهرهـا وسيلة إعلامية ينبغي أن تؤخـذ بمـا تؤخـذ بـه وسـائل الإعلام من ضـرورة التـزام الصـدق فـي النقـل عـن الواقع؟ أم أنها وسـيلة ترفيهيـة لا تسـتهدف، ولا ينبغـي لها أن تستهدف، إعلاما أو تعليما بـل مجـرد الإضـحاك والتسلية؟ أم أن السينما ينبغي أن تكون خليطـا مـن هـذا كله؟ وغني عن البيان أن مثل هذا الجدل لـو بـدا طبيعيـا

–بل وممتعا– للمتخصصين في السينما، فـإن أمثالنـا مـن المتخصصين في علم النفس قد يـرون فيـه عائقـا ينبغـي عليهم تجاوزه قبل أن يحـددوا لعلمهـم موقعـا فـي هـذا المجال. بعبارة أخرى فإن علـى المتخصـص فـي علـم النفس أن يختـار لنفسـه– أو لعلمـه– واحـدة مـن تلـك الرؤى التي تتصارع حول تحديد هويـة السـينما، قبـل أن يبدأ في دخول المجال.

السينما مصدر من مصادر تشكيل الوعي

يتشكل الوعي الإنسـاني، سـواء علـى المسـتوى الفردي أو على المستوى الجمـاعي مـن خـلال تعـرف الفرد على موقعه من العـالم المحـيط بـه. ونسـتطيع أن نتصور نظريا أن الفرد البدائي قد بدأ فـي تشـكيل وعيـه في العصـور السـحيقة معتمـدا أساسـا علـى خبراتـه الشخصـية المباشـرة بالعـالم المحـيط. إلا أن الـوعي البدائي لم يبدأ في اكتسـاب صـفته الإنسـانية المميـزة إلا مع توافر وتزايد إمكانيـات تبـادل الخبـرات وتراكمهـا، ومن ثم لم يعد وعي الفرد معتمدا فحسـب علـى خبراتـه هو الشخصية، بل أصبح أكثر اعتمـادا علـى مـا يصـل

إليه من خبرات الآخرين التي كانت تعـرف طريقهـا إليـه في البداية عبر وسائل الاتصال الشخصي وحدها.

ولكن تلك البداية لم تستمر طـويلا، فمـع اتسـاع رقعة المعمورة وتباين الأنمـاط الاجتماعيـة فـي العـالم، أصبح الاعتمـاد أكثـر فـأكثر علـى وسـائل الاتصـال الجماهيري لتحقيق هذه الغايـة، أي تعـرف الفـرد علـى موقعه من العالم المحيط به.

وتتميـز وسـائل الاتصـال الجمـاهيري هـذه باعتمادها جميعا وبشكل أساسي علـى التلقـي فـي مقابـل المشاركة التـى كانـت – ومازالـت – تمثـل الخاصـية الأساسية لوسائل الاتصـال الشخصـي. فـالفرد قارئـا أو مستمعا أو مشاهدا إنما يتلقى رسالة محـددة مـن مصـدر محدد. ويترتب على غلبة هذا الطـابع خاصـيتان تجمعـان أيضا بين تلك الأنشطة جميعا:

(أ) الخاصية الأولى: الإرجاء

فتـأثيرات أنشـطة الاتصـال الجمـاهيرى علـى الجمهور المستهدف لا تبدو مباشرة بمجـرد التلقـي. بـل

لابد من مضي زمن يسـمح بتراكمهـا واختمارهـا وفقـا لقوانين نفسية محددة.

(ب) الخاصية الثانية : الكمون

فتأثيرات مثـل تلـك الأنشـطة علـى الجمهـور المستهدف ليست بالتأثيرات المادية الظـاهرة التـي يمكـن رصدها بيسر. بل إنها لا تعبر عن نفسـها إلا فـي موقـف يستثير الحاجة إلى مثل هذا التعبير. ومـا عمليـة القيـاس النفسي في هذا المجال إلا نوعا مـن اسـتباق مثـل هـذه المواقف ومحاولـة التنبـؤ بمـا سـتكون عليـه اسـتجابة الجمهور لها.

وإذا كانت هاتـان الخاصـيتان قـد جمعتـا بـين أنشطة الاستماع والمشـاهدة مـن ناحيـة، وبـين أنشـطة القراءة من ناحية أخرى باعتبارهـا جميعـا مـن أنشـطة الاتصال الجماهيري، فإن ثمة خاصيتين تميزان بينهما:

(أ) شمولية المتلقين:

إن الجمهـور الأساسـي الـذي تسـتهدفه الكلمـة المقروءة (الصحف والمجـلات والكتـب... إلـى آخـره) لا يمكن أن يتجاوز مهما اتسع نطاقه حـدود مـن يعرفـون

القراءة. وهم ينحصـرون بالضـرورة فـي نطـاق فئـات عمرية وتعليمية، بل واقتصـادية محـددة. أمـا الجمهـور المســتهدف بالنســبة للســينما والتليفزيــون والإذاعــة والمسرح فإنه يمكـن أن يتسـع ليشـمل أفـراد المجتمـع جميعا بمختلف فئاتهم العمرية والتعليمية.

(ب) شمولية التلقي:

إن عملية القـراءة فرديـة بحكـم طبيعتهـا. قـد يتعدد الأفراد الذين يقـرءون – كـل علـى حـدة– نسـخا متكررة من نفس المادة. أو أنهـم يقـرءون – كـل علـى حدة أيضا– نفس النسخة الواحد بعد الآخر.

أما بالنسبة للتليفزيـون والإذاعـة والسـينما، فـإن الأفــراد يســتطيعون المشــاهدة أو الاســتماع بشــكل جماعي. وتصبح تلك الاستطاعة حتما فـي حالـة مشـاهدة الأفلام السينمائية فـي دور العـرض حيـث يـتم التلقـي بالضرورة من خلال موقف جماعي.

ترى ما الذي يبقى في وعي المشاهد بعـد انتهـاء الفيلم السينمائي؟

أهو الموضوع أو الهـدف أو الحكمـة فحسـب؟ أم أن ثمة جانبا آخر متمـثلا فـي الشخصـيات أو الأبطـال، يترك بصماته الأعمق على وعـي المشـاهد؟ إننـي أميـل إلـى تغليـب تـأثير الشخصـيات أو الأبطـال فـي هـذا الصـدد. فاسـتخلاص الحكمـة أو الموعظـة أو الهـدف الأخلاقي أو حتى خلاصة الحبكـة القصصـية كـل ذلـك يدخل في عداد العمليات العقلية التـي تتطلـب قـدرا مـن التفكير التجريدي. أما الإحاطة لأفعـال شخصـيات الفـيلم وما يجري لأبطاله فإنها تتطلـب فـي المقـام الأول قـدرا من التفكيـر العيـاني المباشـر، وغنـي عـن البيـان أن التفكير التجريـدي يقتضـي فسـحة مـن الوقـت تسـمح بعمليات المقارنة والاستنباط والاستدلال إلـى آخـره. أمـا التفكيـر العيـاني فهـو لا يتطلـب بطبيعتـه مثـل تلـك المساحة الزمنية. ولـذلك فـإن الاستخلاصـات التجريديـة لا تمثل مشكلة في مجال كـالقراءة مـثلا حيـث يسـتطيع القارئ أن يستعيد المادة المقروءة متيحـا لعقلـه أن ينجـز ما يتطلبه التجريد مـن عمليـات. أمـا موقـف المشـاهدة السينمائية للجمهور فإنه بحكـم طبيعتـه لا يسـمح بشـيء

من ذلـك، ولا يصـبح أمـام المتلقـي عـاة إلا المتابعـة العيانية لما يجرى تاركا العنان لجانب آخـر مـن جوانـب الشخصية –هو الجانب الانفعالي– ليمـارس سـيادته علـى الموقف فإذا به يتعاطف مـع هـذه الشخصـية ويغضـب من تلك.. إلى آخـر صـور التوحـد التـي نعرفهـا فـي الكتابات المتخصصة.

ولعلنا لا نثقل على القارئ إذا مـا أوردنـاه أمثلـة توضح ما نقصده. ثمة حكمة شـعبية مؤداهـا أن الـدنيا لا تستقر على حال، وأن من ترفضـه اليـوم، قـد تسـتجدي رضاه غـدا. هـذه الحكمـة التقليديـة تناولتهـا أعـداد لا حصر لها من الأفـلام السـينمائية. قـد نجـد مـن بـين موضوعاتها مثلا:

– أسرة الباشا التـي تـرفض زواج ابنـتهم مـن ابن الخولي ثم تتدهور أحـوالهم الاقتصـادية وتضـطرهم الظروف للجوء إلى ابـن الخـولي الـذي تعلـم وأصـبح يشغل منصبا مرموقا.

– الزبال الذي يتقـدم لخطبـة ابنـة أسـرة مثقفـة فترفضه ويصبح الزبال ثريـا وتضـطر الأسـرة المثقفـة إلى اللجوء إليه لحل مشاكلها.

– الراعـي الـذي يحـب ابنـة اللـورد فيكـون موضع سخرية الأسرة العريقـة التـي لا تلبـث أن تفقـد مكانتها الاجتماعية ولا تجد سواه سندا.

إن هذه القصـص الـثلاث قـد اسـتهدفت نفـس الحكمة بـل واختـارات نفـس الفكـرة: موقـف الأسـرة الثرية من الخطيب الفقير. ويستطيع النقـاد وغيـرهم مـن المتخصصين التوصل دون عناء إلى فكـرة تلـك الأفـلام والحكمة التي تستهدفها إلى آخره، وذلـك لأنهـم يسـعون إلى ذلك. أما جمهور المتلقين فـإن مـا سـوف يحتفظـون به هـو حكايـات الباشـا والخـولي والزبـال والـدكتور والراعي واللورد وهكـذا. وأبطـال هـذه الحكايـات هـم أساسا الذين يرسخون في وعي الجمـاهير إذا مـا حـازوا قبولا أو رفضـا، أي إذا مـا تجاوبـت معهـم الجمـاهير انفعاليا سـواء بالحـب أو الكراهيـة، والشـرط الأساسـي

لمثل هذا التجاوب هو توافر الإحساس العـام بـأن هـؤلاء الأبطال ينتمون لنا.

مثال آخر لعله يكون أكثر تجسـيدا لمـا نقصـده: الغياب عن العالم ثم العودة إليـه مـن جديـد، حلـم راود العقول منذ الزمن القديم، وتناولته العديد من الأفلام:

– أسير حرب تعلن وفاته ثم يعـود بعـد سـنوات طوال وبعد أن أعادت أسرته تشكيل علاقاتهـا علـى هـذا الأساس.

– شـاب ثـري غريـب الأطـوار يفقـد ذاكرتـه نتيجة حادث، ويمارس حياة جديدة تماما. ثـم تعـود إليـه ذاكرته ليكتشف حقائق جديـدة كانـت خافيـة عليـه فـي حياته الأولى.

– شاب يقع على سـر طاقيـة الإخفـاء، ويـتمكن بواسطتها من متابعة ما يجري عادة وراء ظهره.

الفكـرة هنـا واحـدة، ولكـن تبـاين ملامـح الشخصيات التـي جسـدت هـذه الفكـرة ملـيء بالدلالـة النفسية والاجتماعية وهو الأمـر الـذي قـد يفسـر إقبـال

الجماهير على فيلم معـين وإعراضـها عـن آخـر رغـم تناولهما لنفس الفكرة ربما بتفاصيلها.

هذه المحاولة

سوف نحاول في دراسـتنا هـذه أن نعقـد نوعـا من المقارنة البسيطة بين الأفلام الروائيـة العربيـة التـي عرضت عام ١٩٧١، وتلك التـى عرضـت عـام ١٩٧٩ من حيث ملامح أبطال وبطلات هـذه الأفـلام. ويتضـمن الجدولان الملحقان بهذه الدراسة أهـم المؤشـرات الرقميـة التي خلصنا إليها.

ولعله من الواجب قبـل أن نتنـاول هـذه الأرقـام بالتعليق أن نلقي بعـض الضـوء علـى حـدود دراسـتنا هـذه، أو بـالأحرى مثالبهـا، فالدراسـة لـم تتعـرض بالمقارنة سوى لعـامين فحسـب اختيـرا بحيـث تفصـل بينهمـا مسـاحة زمنيـة قـد تسـمح بالمقارنـة، وكـان الأصـوب – لـو اتسـع الوقـت والجهـد – أن تتـابع المقارنات لتغطي عـددا أكبـر مـن السـنوات المتتاليـة. المأخذ الثاني علـى دراسـتنا أنهـا اقتصـرت – ولـنفس الأسباب – على المهنة كتعبيـر عـن الملمـح الرئيسـي،

وليس بخاف أن المهنة وإن كانت في رأينا من أبرز ملامح الشخصية إلا أنها ليست بأبرزها بشكل مطلق. ولعلنا لو مضينا في تعداد المآخذ لما وجدنا متسعا من وقت لإلقاء لمحة سريعة عما يمكن أن تزودنا به نتائج دراستنا – رغم قصورها – من مؤشرات.

ونستطيع أن نوجز أهم تلك المؤشرات فيما يلي:

(أ) كانت الشخصيات النسائية أميل إلى عدم التحديد المهني الواضح (أم. زوجة. عضوة في نادى. ابنة.. إلى آخره) وقد يرجع ذلك إلى حقيقة اجتماعية واقعية وهي قلة نسبة المشتغلات من النساء إذا ما قورنت بالنسبة المقابلة لدى الذكور، ومن ثم فإن دور المرأة العاملة يتنحى عن الصدارة في هذا المجال.

(ب) لقد تصدرت شخصية الطبيب (١٤%) والفنان (١٤%) والموظف (١٤%) المكانة الأولى بين أفلام ١٩٧١، في حين تراجعت تلك الشخصيات عام ١٩٧٩ لتحتل الصدارة شخصية صاحب

الشـركة (١٧,٢%) ثـم الخـارج علـى القـانون (١٠,٤%).

(جـ) أمـا بالنسـبة للشخصـيات النسـائية فقـد احتلـت الصـدارة فـي أفـلام ١٩٧١ شخصـية الطالبـة (١٢,١%) فـي حـين احتلـت شخصـية الراقصـة (١٠%) تلك المكانة في أفلام ١٩٧٩.

(د) ثمة شخصيات قد غابـت تمامـا عـن التواجـد فـي أفـلام هـذين العـامين علـى الأقـل كالشخصـيات العسكرية مثلا، فرغم مـا لهـذه الشخصـيات مـن دور بارز في بلادنا وخاصـة فـي نصـف القـرن الماضي، فإن أحدا لم يتعرض لهـا بخيـر أو بشـر. ولم تظهر حتـى فـي خلفيـات النسـيج القصصـي للأفلام موضوع التحليل.

تعقيبات ومناقشات

الدكتور قدري حفني

أتوجـه للجنـة السـينما بالشـكر والتقـدير لتلـك المبادأة بدعوتنا ونحن من غيـر أهـل الاختصـاص فـي فن السينما للمشاركة في حلقة للبحث تتصل بهذا الفن.

وللحقيقة فقد انتـابني شـيء مـن الوجـل حـين وجهت إلي هذه الدعوة. إننـي أعتـرف كمتخصـص فـي علم النفس بأن علاقتي بالسينما لا تعـدو علاقـة المتفـرج المشاهد. ولكنى تغلبت على وجلـي هـذا، خاصـة وأننـي سوف أتحدث في رحـاب مجموعـة مـن المتخصصـين الذين أرجو أن يصححوا اجتهادي.

إن مشاركة العلوم الإنسـانية فـي مجـال السـينما نفتقدها جميعا. ولعله من العيوب التـي نعـاني منهـا فـي ساحة الثقافـة فـي مصـر، عزلـة المتخصصـين عـن التخصصات الأخرى. ولعـل هـذه الحلقـة تكـون بدايـة لمعالجة هذا النقص، وهذا القصور.

الأستاذ هاشم النحاس:

من بين النقاط التـى تناولتهـا الورقـة.. النقطـة الخاصة بتحديد ماهيـة السـينما.. وهـو التحديـد الـذي يمكننا من خلاله فهم العلاقـة بـين السـينما والمجتمـع.. وفي هذا المجال طـرح الباحـث عـددا مـن التسـاؤلات منها: هل السـينما تعلـيم؟ أم إعـلام؟ أم ترفيـه؟ أم هـي خليط من هذا كلـه؟!!. وأن علـى الباحـث أن يحـدد أولا موقفه من أحد هذه المفاهيم الـذي سـيبني كلامـه عليـه.. ونحن نتفق مع هذا القول اتفاقـا تامـا، لكنـى أود هنـا أن أشير إلى ملاحظة أساسية هي أن موقفنـا نحـن – إذا مـا طلب منـا أن نحـدد موقفـا – يجـب أن ينصـب علـى السينما باعتبارها فنا. وليست مجـرد تعلـيم أو إعـلام أو ترفيه أو خليطا من هذا كله. فالسـينما بـالمعنى المقصـود في ندوتنا هي فن.. ودورها في المجتمـع هـو دور الفـن، ومن هنا فإن مناقشاتنا يجب أن تكون دائمـا حـول: كيـف يمكن أن ندعم هذا الفن في مجتمعنا.

والآن وبعـد هـذا التحديـد.. نريـد أن نعـرف العلاقة بين هـذا الفـن وبـين النتـائج التـي استخلصـها الدكتور قدري حفني في نهاية بحثه.

ماذا تعني الإحصـائية التـي اسـتخلص منهـا أن الطبيب والفنان والموظف يحتلـون المكانـة الأولـى فـي أفلام ١٩٧٢ بينمـا يحتـل المكانـة الأولـى فـي أفـلام ١٩٧٩ صاحب الشركة والخارج على القانون.

وأن الطالبة احتلـت المكانـة الأولـى فـي أفـلام ١٩٧١ بينما احتلت الراقصة هـذه المكانـة الأولـى فـي أفلام ١٩٧٩؟!

نحن نريد أن نـربط هـذه الاحصـائيات بوضـعنا الاجتماعى. ثم – وهذا هو الأهم – مـا علاقـة هـذا كلـه بتعميق فهمنا للفـن السـينمائي وتطـويره إلـى الأفضـل؟ بمعنى آخر.. هل من الأفضـل أن يكـون الفـيلم مجـرد انعكاس للواقع.. أم أنه شيء آخر أكثر مـن ذلـك؟ وهـل قامت هذه الأفلام بدورها كفن أو لا؟.

ثم هناك الاستنتاج الذي توصل إليـه الباحـث فـي نهاية الورقة وهو ملاحظة غيـاب الشخصـيات العسـكرية

تماما في الأفلام التـي فحصـها. مـا هـى دلالـة هـذه الملاحظة وهذا الاستنتاج؟ ولمـاذا لـم يشـر إليهـا فـي التلخيص الذي قدمه الآن؟ هل هناك حساسـية تجـاه هـذا الموضوع؟ الحقيقة أنني لا أجد مبررا لهذه الحساسية.

الأستاذ سعد الدين وهبة:

رأيي أنه ليس هناك أي تنـاقض بـين مـا ذكـره الدكتور حفني عما تحملـه السـينما مـن تعلـيم وإعـلام وترفيه، وبين كون السـينما فنـا، فالسـينما فـن، ولكنـه يحمل في مضمونه أشـياء كثيـرة. ولا تعـارض مطلقـا بين الفن وبين ما يؤديه من وظائف.

أما عن مدلولات هذه النتائج التـي توصـل إليهـا د.حفني.. فأنا أعتقد أنه لم يشأ أن يبدأ بهـا. وأنـه فضـل الانتظار إلى نهاية هذه المناقشة التي لابـد وأن تثـري مـا توصل إليه من نتـائج ودلالات لهـذه النتـائج التـي قـد يرفضها بعض الموجودين وهـم متخصصـون فـي فـن السينما. لذا أرى أن تستكمل أولا مناقشاتنا ثـم نتـرك لـه

أن يعقب على هذا بما توصـل إليـه. أو بمـا يقصـده. أو بما تدل عليه هذه النتائج التي توصل إليها من العينات.

الأستاذ أحمد عبد الوهاب:

أول ما أطرحـه مـن المقـولات الصـادقة التـي تكلـم فيهـا د. قـدري مقولـة أن المتفـرج يتـأثر أولا بالشخصية،.. هذا المعنى كان دائمـا ومنـذ أيـام أرسـطو قضية في النقد الأدبـي.. فقـد اهـتم أرسـطو بالحبكـة.. اعتبرها أهم من الشخصية.. ثـم رأينـا النقـاد المحـدثين يؤكدون على تقديم الشخصية قبـل الحبكـة.. ونحـن فـي كتابة موضوعاتنا السـينمائية نراعـي ذلـك الآن فنعتبـر الشخصية، الجوهرة التي نبني عليها موضوع الفيلم.

النقطة الثانية التي أريد أن أتحدث عنهـا هـي التـي تتعلق بالفهم التقليدي الذي تطرقـه الدراسـات التـى تهـتم بالسينما وعلـم الـنفس أو بوسـائل الاتصـال عمومـا.. وهو: ما هو هدف المتفرج مـن الـذهاب إلـى السـينما؟. وفي هذا المجال أشـير إلـى دراسـة للباحـث الأمريكـى أيرك بارنو تبنى فيهـا وجهـة النظـر التـي تقـول بـأن

السينما أساسا ترفيـه.. بمعنـى أن المتعـة التـي تتحقـق للمتلقي بعد مشاهدة الفيلم مصـدرها أصـلا تحقيـق نـوع من الإشباع لحاجات نفسـية أو روحيـة أو فكريـة. ولقـد ذكر هذا الباحث أن هذه الحاجات تنشـأ مـن الإحباطـات التي يحس بها الإنسان في مواجهـة الواقـع.. وأنـه يلجـأ إلى السينما ليحقـق مـن خـلال شخصـية البطـل الـذي يمتلك ما يسمى القدرة الشاملة كل ما يعجـز عـن تحقيقـه في دنيا الواقع.. وهنا مصدر المتعة التـي يحصـل عليهـا المشاهد.. وهي من جنس المتعة التي يحصـل عليهـا مـن إحساسه بالرضى عندما يشاهد علـى الشاشـة شخصـيات تعاني من عدم الأمـن أو الأمـان فبلوانـا تهـون ونسـعد بحالنا عندما نشاهد بلوى الآخرين.

أما عن قضية الـوعي.. فأعتقـد أنـه لا خـلاف عليهـا.. فمـن الناحيـة الدراميـة.. نحـن نعـرف أن الشخصية الدرامية السليمة هي التـي تكـون عنـد بدايـة الرواية بحالة معينـة. بتصـور معـين للواقـع.. بـوعي معين.. برؤية معينة.. ثم تمر بأحـداث أو تمـر بأزمـات أو مشاكل. وفي نهاية الروايـة نكتشـف إن كانـت هـذه

الرؤية صحيحة أم خاطئة.. وعلى هذا الأساس يأتي حكمنا على سلامة البناء الدرامي للرواية.

أريد أن أقول إن تركيبة العمل السينمائي تقتضي بالضرورة اشتماله على معالجة لقضية الوعي.. فما يكتشفه البطل ويكتشفه معه المتفرج الذي تعرف على نفسه من خلال البطل هو الوعي الذي نقدمه للجمهور.

في مجملها. فالملاحظ أن السينما المصرية منذ نشأتها لا تقسم أبطالها – في الغالب الأعم – طبقا لمواقعهم الاجتماعية بقدر ما تطالبنا بتقسيمة أخلاقية أقرب إلى المثالية.. بمعني آخر هي تقسيم البشر إلى أنواع.. رجل وامرأة. خير وشرير.. بصرف النظر عن الينابيع التي يأتي منها هذا الشر.. وبصرف النظر– من باب أولى – عن أية ينابيع اقتصادية او اجتماعية..

هذا الكلام ينسحب بالطبع على النتائج التي خلص إليها البحث فيما يختص بشخصية المرأة. فالمرأة منذ نشأة السينما وحتى الآن ينظر إليها ككائن

لـه سـمات وملامـح لا تـرتبط بالشـروط الاجتماعيـة والثقافية والسياسية.

بالنسبة للتسـاؤل الهـام الـذي سـبق أن طرحـه الدكتور رفيق الصبان تعليقـا علـى بحـث آخـر حـول أسباب استمرار هذا الفكر أو هذه النظـرة التـي اسـتمرت حتـى الآن لأبطـال السـينما المصـرية باسـتثناء حالـة المخرج كامل التلمساني في فـيلم السـوق السـوداء سـنة ١٩٤٤. أعتقد أن قانون الرقابة الـذي صـدر فـي ١٩٤٧ المسئول عن اتجاه عدد كبيـر مـن فنـاني السـينما إلـى الابتعاد عن هذا التحديد المهني.. ومـن هنـا فقـد اسـتمر الصراع الأساسي في أفلامنـا مـن نـوع الصـراع بـين الخير والشر الذي يحدث في منـاطق رماديـة بعيـدة كـل البعد عن أرض الواقع.

الأستاذ عبد الحميد حواس:

أريد أن أكمل النقـاط التـي أثيـرت أخيـرا دون الدخول في قضـايا نظريـة كبيـرة فـي فهمنـا لظـاهرة السينما... للأفلام التى نقوم بدراسـتها. ذلـك لأنـه لـيس

كما اتضح من كلام الدكتور رفيق الصبان أو من كلام الأستاذ/ كمال رمزى أو من كلام الأستاذ سعد الدين وهبه حول الرقابة وحول الشروط التى يتم فيها إنتاج الأفلام أن هناك شروطا مختلفة، فضلا عن أن الفنان في ذاته يختار واختياره لا يلزمه أن يكون مطابقا للواقع أو أن يمثل كل صور الواقع مماثلة تامة.. وهذا ينقلني إلى قضية... إذن لا يوجد تناقض بين أن يكون الفن في الأساس ترفيها وأن يحمل في ذات الوقت نوعا من الوعى الذي يدركه المتفرج.

الأستاذ رفيق الصبان:

لاحظت أن الحديث عن مهن أبطال الأفلام في هذا البحث قد شغل حيزا كبيرا.. وتساؤلي هو: هل السينما المصرية كانت مخيرة في اختيارها لمهن الشخصيات التى اضطلعت بالبطولة في هذه الأفلام؟ بمعنى هل هناك اختيار حر حقيقة؟ أم أن هناك ظروفا اجتماعية ورقابية وإنتاجية مختلفة تحكم هذا الاختيار؟

والحقيقـة أنـه يـرتبط بهـذا أيضـا الاعتـراض البسيط الذي أثاره الأستاذ هاشـم النحـاس حـول غيـاب الشخصيات العسـكرية.. فـإلى أي مـدى كانـت حريـة السينما المصرية في التعبيـر عـن الشخصـية العسـكرية من خلال الأفلام؟.

الاستاذ مجدى حجازى:

أريد أن أشير إلـى قضـيتين أساسـيتين: الأولـى هي علاقة الفن بالواقع.. فأنا أعتقد أن الفـن هـو انعكـاس للواقع وكلما اقترب الفن مـن الواقـع كـان فنـا حقيقيـا رائعا.. وأعني بهذا أن الفن لـيس صـورا بلاغيـة فقـط ولكنـه انعكـاس لمحاولـة الفنـان اسـتخراج الصـورة الواقعية التي تعكس القـيم الاجتماعيـة فـي هـذا الواقـع المباشر.

أما القضـية الثانيـة فهـي التـي تتعلـق بتـأثير العرض السينمائى علـى التكـوين النفسـي والاجتمـاعي من جانب.. وعلى الشخصية المصرية التـى أعتقـد أنهـا هدف هذه الحلقة الدراسية من الجانب الآخر.

الأستاذ كمال رمزى:

في البداية أرغب في التعليق على العبارة الشائعة التي تقول إن الفن انعكاس للواقع فالحقيقة التي يعكسها تأمل عشرات الأعمال الفنية أن الفن يمكن ألا يكون مرتبطا ارتباطا مباشرا بالواقع.. أو بتعبير آخر ليست كل الأعمال الفنية ترتبط ارتباطا حرفيا بالواقع. لأن العمل الفني هو في الأصل تعبير عن فكر الفنان وتصوره لهذا الواقع وليس الواقع بنفسه– كما قد توحي هذه العبارة.

أما النقطة الثانية فهى تتعلق بالنتائج التي توصل إليها الدكتور حفني ورأيي أن هذه النتائج لا تقتصر فقط على السنتين اللتين اختارتهما الدراسة (٧١،٧٩) بل قد تنسحب هذه النتائج على السينما المصرية.. الاعتماد على الشخصية كمعيار أو كأداة لرصد التغيرات.. في تقديري أننا لو ركزنا على مسألة الرسالة التي عبر عنها الدكتور حفنى بأنها أحيانا الحكمة أو شيء من هذا القبيل.. وأعتقد دون إفاضة في هذا أن القضية قضية الرسالة التي ينقلها الفيلم..

هي المحك الرئيسي، هي غاية صـناعة الفـيلم مـن جهـة وغاية المشاهد من جهة أخرى من مشـاهدة الفـيلم.. فـي تقديرى أن الرسـالة التـي يحملهـا الفـيلم والتـى يريـد المبدع أن ينقلها ويصل بها إلى جمهـوره.. والتـى يـذهب الجمهور من أجلها إلـى دار العـرض السـينمائى.. هـي الأساس.. وهي التـى يمكـن أن تكـون بـؤرة للقيـاس. ولتقدير العمل السينمائى باعتبـاره– كمـا اتفقنـا – عمـلا فنيا برغم الوظائف الأخـرى المتعـددة التـي يقـوم بهـا وهو الذي سيربطنا بالقيمـة.. قيمـة العمـل لأن الاعتمـاد على الشخصيات فحسب.. فضلا عن أنـه – كمـا أقـول– ليس معيارا صـلبا.. يبعـدنا عـن القيمـة.. لأننـا فـي النهاية.. نحن نتعامل مع ظاهرة نوعيـة.. القيمـة أسـاس فيها.

الدكتور قدري حفني:

بالنسبة للنقطـة الأولـى وهـي المتعلقـة بمـا إذا كانت السينما فن، أم إعلام، أم تعليم؟ الحقيقـة أننـي أميـز بين أمرين: السينما كإنتاج أو إبداع فنـي.. وبـين عمليـة

تلقي هذا الإبداع.. السينما كإبداع وخلق فنـي هـي مسـألة تخص الفنان المبدع.. ولكن عملية تلقي هـذا الإبـداع لـو أخذناها من التطور النفسي نجـد أنهـا تـدخل فـي إطـار عملية التعليم. وهذا التحديد هو في الواقـع الـذي يسـاعدنا على فهم لمـاذا يجـد عمـل فنـي بعينـه صـدى لـدى الجمهور بينما لا يجد ذات الصدى عمل فنـي آخـر. قـد لا يكون العمل الأول عملا جيـدا مـن الناحيـة الفنيـة أو من وجهة نظـر النقـاد، ولكـن ظـروف مجتمـع معـين تجعـل مشـاهدي هـذا العمـل فـي مجمـوعهم مهيئـين لاستقبال هذا العمل لالتقاطه والتعلم منـه.. ونحـن نعـرف بالطبع أعمالا كثيرة هاجمها النقـاد وقـالوا إنهـا ضـعيفة ومحدود القيمة ولكـن الجمهـور الـتقط منهـا وردد فـي الشوارع والنواد والمقابلات جمـلا وعبـارات وردت فـي حوار الشخصيات خلال العمل أو الفـيلم. إذن فأنـا أريـد أن أقول إنني كمتخصص في الإنسـان أن هـذه الأعمـال توافرت لها شروط معينة جعلت الجمهـور فـي الموقـف أو في الموقع المناسـب للـتعلم منهـا.. وأعنـي بـالتعلم

هنا... تعلم الخبرة.. التعرف على العـالم.. وهـذا يـدخل كجزء من عملية التعليم بمعناها الواسع.

النقطة الثانية التـي أثيـرت.. هـي لمـاذا يـذهب الإنسان إلى السينما؟ وهنا أرجو-كمتخصـص فـي العلـوم الإنسانية – أن نفرق بـين الجمهـور الـذي يـذهب فعـلا لدور العرض السـينمائية وبـين الجمهـور الـذي يشـاهد الأفلام من خلال جهاز التليفزيون.. صـحيح الأفـلام هـي الأفلام.. ولكن الشخص الذي يخـرج مـن بيتـه ويعـاني من مشقة المواصلات ويـدفع ثمـن التـذكرة لاشـك أنـه يكون في موقف نفسـي واجتمـاعي مختلـف تمامـا مـن ناحية التأثر والتأثير عن الشخص الذي يشـاهد الفـيلم فـي بيته... وطبيعـي أن تكـون الـدوافع مختلفـة فـي كلتـا الحالتين.. والأمر يحتاج إلى دراسة.

أما فيما يتعلق بموضوع المهن، فأنـا أتفـق تمامـا مـع القـول بـإن المهنـة ليسـت كـل شـيء بالنسـبة للشخصية.. ولكن لى تعليق علـى مسـألة اختيـار مهـن معينة.. فأنا لم أقصد بالمهنة مهنة البطـل الرئيسـي.. مـا قصدته هو المهنة حتى وإن كانت في الخلفيـة فهـي نـوع

من الخبرة. فخبرة التجنيد مثلا.. هـي خبـرة عامـة تمـر بها الغالبية العظمى من الشـباب المصـري... لـيس مـن الضروري أن يعكسها العمـل كخبـرة مركزيـة، ولكنهـا يمكن أن تكون في الخلفية.. أمـا أن تكـون غائبـة تمامـا في الأفلام التي قمت بدراسـتها، فهـذا أمـر يـدعو إلـى التساؤل. أما عن الظروف الرقابيـة التـي تحكـم اختيـار مهن أبطال الأفلام.. ففي الحقيقة أنا لا أعرف.

يبقى مـا يتصـل بمسـألة: هـل الحبكـة أم أنهـا الشخصية هي التي تترك أثـرا أكبـر.. والواقـع أن هـذا الباب مفتوح للاجتهاد.. أنـا أتصـور أن الشخصـية هـي التي تتحرك وتتـرك الأثـر الأكبـر لأنهـا هـي السـبيل لتجسيد الحكمة.. لأن الحكمـة الواحـدة يمكـن أن تتكـرر بشخصيات مختلفة وفي مواقع مختلفـة.. لتنـتج فـي كـل مرة أثرا مختلفا.

الأستاذ حسين حلمي المهندس:

مع تقديري العميق لهذا الجهد العلمي الجيد أرجو أن يسمح لى د. قدري بإبداء بعض الملاحظات..

الملاحظة الأولى: حول اقتصار البحث على أفلام عامى ٧١ ، ١٩٧٩ فقط... فضلا عن أن كل سنة منهما لم تدرس أفلامها الدراسة الكافية. فعلى سبيل المثال أرى أن الشخصية العسكرية كانت موجودة في الفترة ما بين ٧١–١٩٧٩ بل وكانت شخصية محورية.. وأنها كانت موجودة أيضا قبل وبعد هذه الفترة في عدد من الأفلام الكوميدية وغير الكوميدية.

لذلك فأنا أطالب دون أن أفرض نفسي على المنهج – باستكمال هذه الدراسة ورأيي أيضا أن يحاول الربط بين الملامح التي تطالعنا على الشاشة وبين المناخ السائد في المجتمع. بالطبع هذا يرتبط بقضية هل السينما مجرد انعكاس للواقع أو مرآة للواقع أم هي نوع من القيادة والريادة؟. وأنا أقول إنها الاثنان

معا.. وعلينا أن نبحـث مـدى هـذا الانعكـاس للواقـع.. ولكن لكي يكـون بحثنـا أكثـر دقـة يجـب أن نصـحح اختيارنا للأفلام ليكون طبقا لسـنة الإنتـاج ولـيس لسـنة العرض.

بالنسـبة لمـا أثيـر حـول الحبكـة أو الحكمـة والشخصية أعتقد أن لكل منهمـا تـأثيره علـى المشـاهد لأنهما مقومان أساسيان في بناء العمـل الفنـي.. الحالتـان موجودتـان ويـؤثران ولابـد أن نعطيهمـا الاهتمـام الواجب.. بأن نبحث مدى هذا التأثير..

لقد لاحظـت أن هنـاك محاولـة للتقريـب بـين المفاهيم التـي يسـتخدمها الأسـاتذة المتخصصـون فـي العلوم الإنسانية وتلك التى نسـتخدمها نحـن فـي مجـال الفن السينمائي وهذا أمر طيب وقيم في حد ذاته.

وفي النهاية أنا أطالب بتوسيع مـدى البحـث، مـع الأخذ في الاعتبار مسألة الربط بين ملامـح البطـل وبـين الأوضاع الاجتماعيـة والتاريخيـة السـائدة وقـت إنتـاج الفيلم بالإضـافة طبعـا إلـى محاولـة اسـتخلاص تـأثير نوعية البطل على المشاهد استجابة وسلوكا لاحقا.

الأستاذ سيد سعيد:

بالنسبة لمسألة ماذا يبقى في وعـي المشـاهد بعـد انتهاء الفيلم؟

بميـل الـدكتور حفنـي للتركيـز علـى دور الشخصية في أحداث التأثير.. أعتقد أنـه بهـذا يقـع فـي خطأ التعميم فالجمهور المتلقي لـيس صـيغة واحـدة بـل هو جمهور مبعثر ينتمي إلى شـرائح اجتماعيـة مختلفـة.. كما أن الأفلام أيضـا تختلـف وتتفـاوت قيمتهـا ومـدى قدرتها على التأثير تبعا للصيغة الفنية أو الشكلية للفيلم.

أما القول بأن ما يتبقى لدى المتلقـي مـن عناصـر أخرى– غير الشخصية – مثـل الحبكـة هـو نـوع مـن التفكير التجريدي والعقلي يحتـاج إلـى مسـتوى مختلـف وفترات أطول للإدراك.. فإننا نجد أن الباحـث نفسـه فـي صفحات تالية يعتمد على هذا العنصـر المسـمى بالحبكـة للتدليل على مقولته حول الشخصيات.

الملاحظة الأساسية –في الواقـع– هـي أن عمليـة الاتصال تصور هنـا كمـا لـو كانـت جانـب واحـد.. والحقيقة أن صـناع الأفـلام تحكمهـم أيضـا اعتبـارات

الاستجابة لاحتياجات الجمهور التي يحسب حسابها عند اختيار شخصيات ذات صدى تسهم أو تلتقى مع الحكم الشعبية في إحداث التأثير المعين.

الدكتور قدرى حفنى:

أولا أنا أوافق تماما على أن سنة الإنتاج وليست سنة العرض هي التي يجب أن توضع في الاعتبار عند إجراء دراساتنا حول الأفلام.

أما فيما يتعلق بتعدد شرائح الجمهور.. فأنا أقول إنها قضية واردة.. فالجمهور ليس شخصا واحدا وبالتالي فإن التأثير لن يكون واحدا..

كما أنني لا أستطيع أن أزعم.. حتى لو صح الاستنتاج الذي طرحته وهو أن الشخصية هي التي تبقى أن هذا يمكن أن ينسحب على كافة المتلقين.. ربما كان السبب في انحيازي لهذا الاستنتاج هو أنني كباحث في علم النفس، تخصصي أساسا في سيكولوجية الفلاحين.. ومن واقع المؤشرات المتوافرة لدي، أنا أميل إلى الاقتناع بأن ما يتبقى لدى المتلقي

(الفلاح) هو الشخصية.. بعكـس المتلقـي المثقـف الـذي يمكن أن يحدثنا عن الحبكة أو الحكمة أو ما شابه ذلك.

النقطة الأخيرة التي أريـد أن أوضـحها.. هـي أن اهتمامي الأساسي كان هـو تحليـل الفـيلم ولـيس تحليـل الجمهور أو الأثـر.. وإن هـذا لا يعنـي – بـالطبع – أن تحليل الجمهور أو الأثر ليس هامـا.. علـى العكـس هـذا التحليل هام جدا وضروري، ويحتاج إلـى تكـاتف جهـود كثيرة.. لأن هـذا الـذي قلنـاه هـو فـي الواقـع مجـرد استنتاجات نظرية تحتاج إلى دراسة واستكمال وتعميق.

الأستاذ سعد الدين وهبة:

الحقيقة بالنسـبة لقضـايا الفـن وقضـايا العلـوم الإنسانية من الصعب أن نصل إلى نتـائج حاسـمة نوافـق عليهـا جميعـا.. فكـل مـا نقولـه هـو وجهـات نظـر واجتهادات.. وحتى إذا ما وصـلنا إلـى حقيقـة مـا مـن خلال بعض العينات فإن هذا لا يمنع مـن الوصـول إلـى حقيقــة أخــرى إذا مــا تغيــرت العينــات أو تغيــرت الظروف.

صورة البطل

الملمح الرئيسى	١٩٧١		١٩٧٩	
	ك	%	ك	%
غير محدد	٥	٧	٥	٨,٦
طبيب – صيدلى	١٠	١٤	٥	٨,٦
فنان	١٠	١٤	٢	٣,٤
موظف حكومى	١٠	١٤	١	٧
طيار مدني	٤	٥,٦	–	–
من رجال القانون	٤	٥,٦	٥	٨,٦
صحفى	٤	٥,٦	٢	٣,٤
مهندس	٣	٤,٢	٤	–ر٧
سائق	٣	٤,٢	٤	١,٧
صاحب شركة	٣	٤,٢	١٠	١٧,٢
فلاح	٢	٢,٨	١	١,٧
تاجر	٢	٢,٨	–	–
عامل	٢	٢٨	٥	٨,٦
أستاذ جامعى	٢	٢,٨	١	١,٧
اقطاعى	١	١,٤	–	–
عمدة	١	١,٤	–	–
باشا	١	١,٤	–	–
طالب	١	١,٤	٣	٥,٢
لاعب كرة	١	١,٤	–	–
مذيع	١	١,٤	–	–
خارج على القانون	١	١,٤	٦	١٠,٤
مدرس	–	–	١	١,٧
ضابط بوليس	–	–	٣	٥,٢

صورة البطلة

الملمح الرئيسى	١٩٧١		١٩٧٩	
	ك	%	ك	%
غير محدد	١٣	٣٣,٣	١٤	٤٦,٦
طالبة	٥	١٢,٨	١	٣,٣
راقصة	٤	١٠,٣	٣	١٠
بائعة هوى	٣	٧,٧	-	-
عاملة	٣	٧,٧	١	٣,٣
مدرسة	٣	٧,٧	٢	٦,٧
فنانة	.٢	٥,١	١	٣,٣
مضيفة – مرشدة سياحية	٢	٥,١	١	٣,٣
موظفة	١	٢,٦	٢	٦,٧
خادمة	١	٢,٦	-	-
صاحبة مشروع تجاري	١	٢,٦	١	٣,٣
ممرضة	١	٢,٦	١	٣,٣
طبيبة	-	-	١	٣,٣
خياطة	-	-	١	٣,٣
صحفية	-	-	١	٣,٣

الفصل السادس

الاتصال الشخصي

الاتصال الشخصي

مقدمة :

الاتصال حاجة إنسانية قبل أن يكون ضـرورة اجتماعية. وتؤكد تجارب علم النفس، فضلا عن الخبرة الإنسانية العامة، أن إغلاق منافذ الاتصال يؤدي بالفرد إلى معاناة نفسية– بل وبدنية – قاسية. وتـؤدي تلـك الحالة إذا ما استمرت إلى انهيار نفسي كامل يتحـول معه الإنسان إلى كائن رخو فاقد تماما لجهاز مناعتـه النفسية إذا ما صح ذلك التعبير. ولو تركنا علماء النفس وتجاربهم جانبا، ونظرنا في أنفسنا، وإلى البشـر مـن حولنا، لوجدنا الصورة أكثر وضوحا. فـالمرء مهمـا كانت انطوائيته، ومهما كان عزوفه عن البشر، لابـد وأن يضيق بوحدته بعد فترة تطول أو تقصر. ولابـد وأن يبحث لنفسه عن "آخر" يأتنس به، ويتفاعل معـه. ولا بأس بعد ذلك من عودته إلى قوقعته من جديد.

وحتى في بعـض حـالات المـرض العقلـي المتطرفة، وحين يتعذر علـى "المـريض" ممارسـة الاتصال المتبادل بالآخرين، فإنه يصطنع– أو يتوهم– لنفسه آخرين يقيم معهم من العلاقات الاتصالية ما يبدو لنا غريبا وشاذا. وخلاصة القول إذن أن الحاجة إلـى الاتصال حاجة إنسانية، شأنها شـأن حاجـة الإنسـان للطعام والشراب والنوم وما إلى ذلـك مـن حاجـات أساسية.

ولعلنا لا نجاوز الحقيقة إذن إذا ما سلمنا بأن الإنسـان يمارس الاتصال منذ بداية الوجود البشري. ولعلنـا لا نجاوز الحقيقة كذلك إذا ما سلمنا أيضا بـأن ممارسـة الاتصال باعتباره حاجة إنسانية كان سابقا على توصل الإنسان لأبجديات اللغة كما نعرفها اليوم، ولكن تـرى كيف كان ذلك؟

لقد كانت أولى أشكال الاتصال البدائي تتمثـل في استخدام الإنسان للتعبيرات الجسمية كوسيلة لنقـل انفعالاته وأحاسيسه إلى الآخـر. وقـد شـملت تلـك التعبيرات الجسمية أجزاء الجسـد جميعـا: العيـون،

الأنف، الشفتين، الذراعين، اليدين، الأصابع، الكتفـين، حركة الجسد ككل.. إلى آخره، ومازالت لغتنا اليوميـة المنطوقة بل والمكتوبة أيضا تحمل آثارا من تلك اللغة القديمة، لغة التعبيرات الجسـيمة. ويكفـي أن نتأمـل تعبيرات مثل: "أوليته ظهري". "فتح له ذراعيه". "شمخ بأنفه". "ربت عليه". "قلب شفتيه". "تمايل طربا". "هـز كتفيه".. إلى آخره.

ولو تركنا جانبا لغتنا المنطوقة لوجـدنا دلـيلا آخر على عمق جذور تلك اللغة القديمة إذا مـا تأملنـا أساليب الاتصال لدى الطفل قبل اكتسـابه اللغـة. إن الأطفال يشبعون حاجاتهم الاتصالية منذ البداية بـذلك الاستخدام الماهر التلقائي لتعبيرات الجسد. والطريـف أن الكبار– وخاصة الأمهات– يستعيدون فورا قـدرتهم المرهفة القديمة على "قراءة" تلك التعبيرات الجسـمية الصادرة عن أطفالهم، وترجمتها، والـرد عليهـا. الأم "تقرأ" نظرات طفلها، وهمهماته، وحركات رأسه. بـل إنها كثيرا ما تستطيع أن تميز بدقة بالغة بـين بكـاء العتاب، وبكاء الخوف، وبكاء الجوع، وبكاء الرغبة في

النوم، أو الحاجة إلى تغيير الملابس، أو الرغبة في أن تحمله على ذراعيها.. إلى آخره. ولكن مـا أن يبـدأ الطفل في النمو واكتساب اللغة، حتى يعزف شيئا فشيئا عن الاعتماد على تلك اللغة القديمة. وعادة ما يشـجعه الكبار على ذلك سواء بالتعبير له عن فرحتهم به وهو ينطق كلماته الأولى، أو بتوجيهه مباشرة إلى ضرورة استخدام اللغة المنطوقة وإلا كفوا عن استقبال رسائله: "قل ما تريد... تكلم... عبر بالكلمـات...كـف عـن استخدام الإشارات".

ولو حاولنا أن نصنف تلك اللغة القديمة وفقـا للتصنيفات التي تعرفها علوم الاتصال الحديثة، لوجدنا أنها نوع من أنواع الاتصـال الشخصـي، أو بعبـارة أخرى أكثر أصالة "الاتصال وجها لوجه". ولا يفوتنـا في هذا المقام أن نشير إلى تعبيرنـا العـامي الـدارج "عيني في عينك" بمعنى واجهني مباشرة لأعرف مدى صدق ما تنطق به.

خلاصة القول إذن أن الاتصال الشخصـي، أو الاتصال وجها لوجه، هو أقدم أنواع الاتصال من حيث

السياق التاريخي سواء على مستوى المجتمع، أو على مستوى الفرد. ولكن، ترى ما الذي حتم ظهـور نمـط آخر من أنماط الاتصال هو "الاتصال الجماهيري"، بل وسيادته شيئا فشيئا؟ هل يرجع ذلك إلى مجرد حداثتـه أو كفاءته؟ قد يكون كل ذلك صحيحا، ولكنه غير كاف وحده للتفسير. لابد من حتم اجتماعي يجعل من انتشار الاتصال الجماهيري ضرورة اجتماعية.

لماذا نشأ الاتصال الجماهيري؟

إن الضرورة الاجتماعية التي حتمت ظهـور وانتشار الاتصال الجماهيري تتمثل– فيما نرى – فـي ثلاثة عوامل متكاملة: زيادة أعـداد البشـر، واتسـاع المعمورة، وتبلور ظاهرة السلطة المركزية.

١– زيادة أعداد البشر

إن فعالية الاتصال الشخصي –بحكم طبيعتـه– ترتبط بصغر حجم الجماعة التي يـتم فـي إطارهـا الاتصال، وإذا ما تجاوز حجم جماعة الاتصـال حـدا معينا تحول نمـط الاتصـال إلـى الشـكل الأقـرب

للجماهيري، أو تفتتت الجماعة إلى جماعات اتصـالية أصغر تمارس الاتصال الشخصـي، ولسـنا بحاجـة للإشارة التفصيلية إلى تجارب علم النفس الاجتمـاعي في هذا الصدد، بل يكفي أن نشير إلى ما نشاهده فـي حياتنا اليومية مما يؤكد ذلك.

لو تصورنا مجموعة من الأفراد يتوافدون على مكان ما لحضور حفل أو اجتماع معين، أو لأية مناسبة اجتماعية أخرى. سوف نلاحظ أن أوائل الحاضـرين عادة ما يتحادثون "معا" في موضوع أو آخـر. ومـع تزايد عدد المتوافدين يتسع نطاق "الحديث معا". بعبارة أخرى يتسع نطاق ممارسة الاتصال الشخصـي. فـإذا تجاوز حجم الجماعة حدا معينا لاحظنا أحد أمرين: قد تنقسم الجماعة إلى مجموعات أصغر أو "شلل" يتحادث أفراد كل شلة مع بعضهم البعض في موضوع أو آخر. أما إذا كان ثمة موضوع هام يجـذب اهتمـام أفـراد الجماعة جميعا– وقد يكون هذا الموضع هـو السـبب المعلن لاجتماعهم– فإنهم عند بلوغ حجم الجماعة حدا معينا يكفون عن "الحديث معا"، ويبدأون في الانتظـام

وفقا لقواعد اتصالية معينة: يستمعون لمحاضرة مـثلا، أو لموسيقى، أو لغير ذلك.

وتشير نتائج بحوث علم النفس الاجتماعي إلى أنه يصعب جدا إقامة تفاعل شخصي مباشر بين أفراد جماعة يزيد عدد أفرادها عن خمسة عشر فردا، وكلما قل العدد عن ذلك كلما كان التفاعل أفضـل. وإذا مـا صدق ذلك على جماعـة لا يتجـاوز عـدد أفرادهـا العشرين، فكيف بنا إذا مـا كنـا بصـدد الآلاف بـل والملايين من البشر؟ كان لابد إذن لكي يتحقق اتصال فعال بين هذه الجماهير الغفيرة، دون أن تتفتـت إلـى جماعات صغرى معزولة عن بعضها الـبعض، كـان لابد من ظهور نمط جديد من أنماط الاتصال إلى جانب النمط الأصيل للاتصال الشخصي.

٢- اتساع المعمورة

إن أعداد البشر لـم تتزايـد فحسـب، ولكـن المساحة المعمورة المأهولة بهم قد ترامـت أطرافهـا وتباعدت. ولم يعد ممكنا والأمر كذلك أن تفي الأنماط التقليدية الأصيلة للاتصال وعلـى رأسـها الاتصـال

الشخصي بإشباع الحاجة الاتصالية للتفاعل بين قاطني هذه المساحات المترامية الأطراف.

إن الاتصال الشخصي بحكم طبيعته يقتضي أن يتواجد أفراد جماعة الاتصال معـا بحيـث يتبـادلون التأثير الاتصالي، ومع التقـدم التكنولـوجي لوسـائل الاتصال (البريد– الهـاتف– الراديـو– التيلفزيـون– الفاكس– التلكس.. إلى آخره) أصبح الاتصـال غيـر المباشر أكثر إغراء حتى لو تـوافر القـرب المكـاني نسبيا. فالأيسر مثلا أن أتصل بجاري تليفونيا بدلا مـن زيارته وما قد تتكلفه تلك الزيارة مـن جهـد ووقـت لكلينا. والأيسر بطبيعة الحال أن أبعث بخطـاب إلـى صديق أو قريب يقيم في الطرف الآخـر مـن نفـس المدينة بدلا من أن أتكلف مشقة الانتقال إليه.

خلاصة القول أن التباعد المكاني، بالإضـافة إلى التقدم التكنولوجي قد ساهما– فضلا عـن التزايـد السكاني– في تشكيل الضرورة الاجتماعية التي حتمت ظهور وانتشار الاتصال الجماهيري.

٣– تبلور ظاهرة السلطة المركزية

ويبقى عامل ثالث، لعله أهـم العوامـل التـي تضافرت لتشكيل الضرورة الاجتماعيـة لبـروز دور الاتصال الجماهيري، وهو تبلـور ظـاهرة السـلطة المركزية، لقد تطورت الجماعة البشرية من الأشـكال القبلية البسيطة العدد، والمحدودة المكان، إلى أشـكال أكثر تركيبا وتعقيدا. ولسنا بصدد التعـرض تفصـيلا لمسار هذا التطور عبر التاريخ البشري، فما يعنينا في هذا الصدد هو التوقف قليلا أمام تطور ظاهرة القيادة، من قيادة القبيلة إلى قيادة الأمة أو الدولة، والدور الذي تلعبه العملية الاتصالية بالنسبة للشكل الحديث للدولـة المركزية المعاصرة.

لقد أصبحت الدولة المركزية الحديثة في حاجة إلى نوع جديد من أنواع الاتصال. أصـبحت تحتـاج نوعا من أنواع الاتصال يضمن وصول الرسالة مـن المركز إلى جماهير الدولة في نفس لحظـة إرسـالها. نوعا يضمن التحكم في مضمون هذه الرسالة المركزية بحيث تكفل الحد الأدنى المطلوب من تشـكيل الـوعي الجماهيري المشترك، وتكفل كذلك تأكيـد اسـتمرارية

صورة السلطة المركزية لدى الجماهير. ولم يكن مـن قبيل المصادفة – والأمر كذلك – أن يطلق على هـذا العصر "عصر ثورة الاتصالات" فهو ولا ريب عصر بلوغ السلطة المركزية أوجها في المجتمعات المتقدمـة والمتخلفة على حد سواء.

ولسنا في حاجة إلى سوق الأدلة، واستعراض نتائج البحوث المتخصصة للتدليل على جوهرية الدور الذي تلعبه وسائل الاتصال الجماهيري بالنسبة لكيـان الدولة المركزية المعاصرة. يكفينا أن ننظر إلـى مـا يجري حولنا في العالم المعاصر ليتضح لنا أن السيطرة المادية علـى مقـر الإرسـال المركـزي للإذاعـة والتليفزيون في أية دولة معاصرة لا تقل أهمية بحـال عن السيطرة على مقر الحكم ذاته، وأن اخـتلال هـذه السيطرة إنما يعني مباشرة اهتزاز للسلطة المركزيـة للدولة.

ولا تقتصر تلك الظاهرة علـى نسـق الدولـة فحسب، بل إنها تشمل أيضا كافة أنسـاق التنظيمـات المركزية المعاصرة كالأحزاب والنقابات إلى آخـره.

فكل نسق تنظيمي مركزي يحرص كل الحرص علـى "تأمين" أداة الاتصال الجماهيري الخاصة به، ويعتبـر أن تهديدها تهديدا مباشرا لكيانه.

ترى هل يعني ذلك كله أننا بصدد ظاهرة ذبول الشكل القديم مـن أشـكال الاتصـال، أي الاتصـال الشخصـي، وحلـول الشـكل الجديـد أي الاتصـال الجماهيري محله؟ إن الأمر ليس كذلك على الإطلاق.

الاتصال الشخصي في المجتمعات المعاصرة

الاتصال الجمـاهيري هـو الأداة الأساسـية للمركز أو للقيادة أو للسلطة فـي التعامـل الاتصـالي بالجماهير، ولكن ماذا عن دور الاتصال الشخصي في إطار هذه العلاقة؟ إن تعبيرات "السلطة" أو " المركـز" أو "القيادة".. إلى آخره، بل وأيضا تعبير "الجمـاهير"، كلها تعبيرات مجردة. ولو حاولنا أن نتعمق في تحليل مدلول هذه التعبيرات لاتضح لنا أنها جميعا تعبر عـن مجموعات من الأفراد تتبـاين مـن حيـث أحجامهـا النسبية، وكذلك من حيث مواقعها في بناء القوة والتأثير

داخل المجتمع، ولكنها في النهايـة مجموعـات مـن الأفراد.

وفي الحقيقة فـإن أفـراد جماعـات السـلطة يمارسون كافة أشكال الاتصال الشخصي بين بعضـهم البعض. يتحادثون ويتناقشون ويتفاعلون... إلى آخـره كأفراد ينتمون إلى جماعة، وفي حدود ما تسـمح بـه إمكانات الاتصال الشخصي. ومن ناحية أخـرى فـإن أفراد جماعات الجمهور يمارسون نفس أشكال الاتصال الشخصي فيما بينهم كـأفراد ينتمـون إلـى مختلـف الجماعات الأسرية والمهنية والترفيهية.. إلـى آخـره. وتظل قنوات الاتصال الجماهيري هي السـبيل لنقـل محصلة الاتصالات الشخصية بين أفـراد المركـز أو السلطة إلى الجماهير.

خلاصة القول إذن أننا لا نستطيع أن نتصـور إمكانية إنجاز أي اتصال جماهيري مهما كان مسـتوى كفاءته دون أن تسبقه شبكة من الاتصالات الشخصـية بين أفراد مخططيه، يتوصلون من خلالها إلى تحديـد مضمونه وشكله وتفاصيله إلى آخره. بل إننا نسـتطيع

أن نمضي إلى القول بأن مستوى نجـاح أي اتصـال جماهيري إنما يتوقف بدرجة أو بأخرى علـى مـدى كفاءة الاتصالات الشخصية التخطيطية التي سبقته.

هذا من ناحية دور الاتصال الشخصـي فـي إنجاز الاتصال الجماهيري المركزي، فماذا عن عملية تلقي رسالة ذلـك الاتصـال الجمـاهيري؟ إن هـدف الاتصال الجماهيري أيا كان مضمونه هو إحداث تأثير معين في اتجاهات الجمهور المتلقي أو ما يطلق عليـه "تشكيل وعي الجمهور". وغني عن البيان أن إحـداث مثل هذا التأثير يقتضي ابتـداء أن يصـدق الجمهـور المتلقي تلك الرسالة الموجهة إليه، وإلا فإنها لن تحدث تأثيرها المرجو، بل لعلها تحدث تأثيرا سلبيا معاكسـا، ويحرص صناع رسائل الاتصال الجماهيري المتطورة على بذل كـل الجهـد وتسـخير كافـة الإمكانـات التكنولوجية لكي تكون رسائلهم أكثر إقناعا وأشد قابلية للتصديق. بل إننا لا نجاوز الحقيقة كثيرا إذا ما قررنـا أن أخطر التحديات التي يواجهها الاتصال الجماهيري في العالم المعاصر تتمثل في أمرين:

الأمر الأول:

هو التطوير التكنولوجي لوسائل الإرسال بحيث يتسع مداها وتزيد سرعتها ويسهل استقبالها.

والأمر الثاني:

هو تطوير أساليب الإقناع وضمان المصـداقية ومن ثم تحقيق التأثير المطلوب على المتلقين.

ومصدر هذا التحدي فيما نـرى أن الرسـالة الجماهيرية يتلقاها الأفراد عادة في جماعات، ويكـون مرجعهم الأساسي في تصديقها أو عدم تصـديقها هـو شبكة اتصالاتهم الشخصية المتبادلة داخل جماعاتهم.

ولكي يتضح ما نعنيه، فلننظر إلى مجموعة من الأفراد يلتفون حـول جهـاز التليفزيـون أو الراديـو يستقبلون برنامجا يمس مشكلة تهمهـم. كيـف يكـون استقبالهم لهذا البرنامج؟ إنهم لا يستقبلونه صامتين. بل إنهم عادة ما يعلقون عليه، بل ويديرون حوله نقاشـا، أي يمارسون شكلا من أشكال الاتصـال الشخصـي. ونكون محصلة تلك التعليقات والمناقشـات المتبادلـة

تحديد مدى مصداقية الرسالة بالنسبة لهم وبالتالي درجة تأثرهم بها إيجابيا أو سلبيا.

الاتصال الشخصي بين "التلقائية" و " التخطيط"

لعله أصبح واضحا مما سبق أن البشر جميعـا أيا كانت مواقعهم أو أعمارهم أو انتماءاتهم يمارسـون الاتصال إشباعا لحاجة بشرية أصيلة لـديهم، ولـذلك فإنهم يمارسونه عادة بشكل تلقائي غيـر مقصـود أو مخطط سلفا. ومع تطـور علـوم الاتصـال اتجهـت اهتمامات المتخصصين لدراسة خصائص هذا النشـاط التلقائي.

ولعل أهم ما توصلت إليه هذه الدراسات فيمـا يتعلق بموضوعنا ما يلي:

أولا:

للاتصال الشخصي الغلبة في مجمل صـياغة ومعارف البشر. فمن خلاله تتشكل الاتجاهات الأساسية للأفراد منذ طفولتهم في إطار الأسرة، ثم فـي إطـار المدرسة وهي الاتجاهات التي تصبح أكثـر مقاومـة للتعديل بعد ذلك.

ثانيا:

جماعات الاتصال الشخصي التلقائية، هي التي تقوم– وبشكل تلقائي أيضا– بتصفية مضمون رسـائل الاتصال الجماهيري. بمعنى تقييمها والحكم عليها ومن ثم تصديقها والتأثر بها إيجابا، أو تكذيبها والتأثر بهـا سلبا.

ثالثا:

يتميز الاتصال الشخصي بأنه الأكثر مرونـة بحيث يمكن تعديل الرسالة فورا ووفقا لمقتضيات الحال لتصبح أكثر إقناعا وقابلية للتصديق وذلك من خـلال التفاعل المتبادل بين المرسل والمتلقي.

رابعا:

يتميـز الاتصـال الشخصـي بأنـه الأكثـر استمرارية، بمعنى أن المرسل يستطيع أن يظـل وراء رسالته؛ مكررا إياها، ومعدلا فـي مضـمونها، كلمـا

أتيحت له الظروف المناسبة والوقت الملائم دون التزام بتوقيت مسبق قد لا يكون هو التوقيت المثالي.

خامسا:

يتميز الاتصال الشخصي بما يتيحه للمرسل من إمكانية رصد ومتابعة ما تحدثه رسالته من تعديل في الاتجاهات بل وفي السلوك الفعلي أيضا في كثير من الأحيان.

سادسا:

إن الاتصال الشخصي التلقائي هو الأكثر انتشارا حيث إنه يشمل أفراد المجتمع جميعا، كما أنه يشمل أوقات صحوهم كلها. أما الاتصال الجماهيري فمهما بلغ اتساع جمهوره فإنه يستحيل علميا أن يشمل أفراد المجتمع جميعا وطيلة الوقت.

سابعا:

يتميز الاتصال الشخصي بأنه بحكم طبيعته يضمن وصول الرسالة إلى المستقبل فالمرسل يتوقف تلقائيا عن الإرسال إذا انفض من حوله المستقبلون، كما أن لديه من الوسائل ما يمكنه من إثارة انتباههم إذا ما

لاحظ انصرافهم عنه. وشيئا من ذلك لا يمكن ضـمانه بالنسبة للاتصال الجماهيري.

ثامنا:

إن الإنسان بطبيعته أميل إلى تبني ما يعتقد أنه شارك شخصيا في إنجازه، كما أنه أميـل إلـى نقـد وتمحيص ما يتلقاه جاهزا خاصة إذا ما كان موجها إليه من السلطة. وبالتالي فإن تأثير الاتصـال الشخصـي الناجح على تعديل الاتجاهات يكون أكثر عمقا وثباتا.

تاسعا:

يتميز الاتصال الشخصي بذلك التبادل المستمر والسريع للأدوار والمواقع بين المرسـل والمسـتقبل. فخلال أغلب المناقشات أو التفاعلات التلقائية يصـعب أن نتصور مرسلا يداوم الإرسال طيلة وقت الاتصال، ومستقبلا يداوم التلقي طيلة ذلك الوقت.

عاشرا:

تشير وقائع التـاريخ الاجتمـاعي والسياسـي للشعوب إلى أن الدعوات الاجتماعية الكبرى التي لعبت دورا حاسما في مسار التطور الفكـري والاجتمـاعي

للبشر قد بدأت وقويت وازدهرت من خـلال عمليـات الاتصال الشخصي التي قام بها الداعية الرائد. ولا يبدأ دور الاتصال الجماهيري عادة إلا بعد أن يستتب الأمر لمثل هذه الدعوات أي بعد أن تـتمكن مـن السـيطرة الفعلية على أجهزة الاتصال الجماهيري.

لعل تلك الخصائص هي أهم ما يعنينا في هـذا المقام من مميزات الاتصال الشخصي والتي اسـتوقفت اهتمام العاملين في مجال الاتصال الجماهيري. ومن ثم بدأت الدراسات والبحوث والتجارب تتجه إلى توظيف الاتصال الشخصي بميزاته السابق الإشارة إليها لتحقيق الأهداف التي يسعى إليها الاتصال الجماهيري. ومـن هنا بدأت صورة جديدة من صور الاتصال الشخصـي نستطيع أن نطلق عليها الاتصال الشخصي العمدي أو المخطط.

ويتمثل جوهر ذلك الاتصال الشخصي المخطط في تهيئة داعية مدرب كفء يتـولى القيـام بعمليـة الاتصال الشخصي لتحقيق هدف اتصالي محدد سـلفا. ولما كان هذا النوع من أنواع الاتصال الشخصي يتميز

بالتخطيط المسبق، فقد كان طبيعيـا أن يشـمل هـذا التخطيط حسابا لسلبياته أو لحـدود إمكاناتـه بالنسـبة للأهداف الموضوعة له.

ونستطيع أن نلخص أهم ما أسفرت عنه تلـك "الحسابات" فيما يلي:

أولا:

إن الاتصال الشخصي المخطـط يعـد أعلـى وسائل الاتصال تكلفة إذا ما وضعنا في الاعتبار حجم جمهور المتلقين. ولعل هذا هو ما يفسر أن الحمـلات الإعلامية التي تستخدم الاتصال الشخصـي لا تعتمـد عليه وحده، كما أنها توجه عادة إلى مجموعات بعينها من الأفراد الأشد تأثيرا على غيرهم، أي قادة الـرأي، أو إلى الأفراد الأشد مقاومة للتغيير.

ثانيا:

يتميز الاتصال الشخصي المخطط بما يمكن أن نطلق عليه "التمركز حول الداعية"، بعبارة أخرى فـإن الداعية في إطار هذا النوع من الاتصال يتخذ وبشـكل أساسي موقع المرسل أو لنقل "صاحب الرسـالة". قـد

يتبادل النقاش مع المتلقين، يستمع إلـيهم ويحـاورهم، ولكنه أبدا لا ينبغي له أن يتخلى عن موقعه كمرسـل وإلا أصبحت عملية الاتصال عملية تلقائية خالصة أي فقدت خاصيتها المخططة. وقد تتعدد أشكال الاتصـال الشخصي المخطط وتتباين من الندوة إلـى الزيـارات المنزلية إلى المقابلات الشخصية بأنواعها المختلفة إلى غير ذلك من أشكال، ولكنها جميعا تعتمد فـي النهايـة على الداعية، فعليه يتوقف نجاح البرنامج الاتصالي في تحقيق أهدافه، وإليه يرجع إخفاق هذا البرنامج وإهدار كل ما بذل من جهد في تخطيطه وإعداده. بل إن هـذا الإخفاق – إذا ما حدث – فإنه يمثل في حد ذاته عقبـة قد تعوق أية جهود اتصالية جديدة في هـذا المجـال. ولعلنا نتساءل: وهل تعد هذه الخاصية، أي "التمركـز حول الداعية" ضـمن حـدود أو مخـاطر الاتصـال الشخصي المخطط؟ وعلى أي أساس؟.

إن الاتصال الشخصي يتميز عن غيـره مـن أنواع الاتصال كما سبق أن أشرنا بخاصـية التفاعـل المتبادل بين الداعية والجمهور. وذلك يعني أن الداعية

يكون في متناول الجمهور بنفس القدر الذي يكون فيـه الجمهور في متناول الداعية، ولعل أول التساؤلات التي يطرحها الجمهور على نفسه بل وقد يطرحهـا علـى الداعية هو ذلك التساؤل التقليدي: ترى هـل الداعيـة شخصيا مقتنع بمضمون الرسالة التي يـدعونا إليهـا؟ وهل هو ملتزم بهذا المضمون فعـلا؟ أم إنـه مجـرد حامل رسالة محترم؟

وفي هذه المواقف تتعرض مصداقية الداعيـة وبالتالي مصداقية الرسالة التي يحملها للاختبار قـولا وفعلا.

الاتصال الشخصي والعلاقات الإنسانية

لعله مما يستوقف المتأمل في لغتنا العربيـة أن تعبير "الاتصال" مشتق من الفعـل "وصـل". ويشـير مختار الصحاح في هذا الصدد إلى أن تعبير وصل إليه وصولا أي بلغه، وأن الوصل ضد الهجران.. والمتأمل للغتنا اليومية قد لا تفوتـه دلالـة كلمـة "الوصـال". الاتصال إذن بمعناه اللغوي، ووفقا لاستخدامه في لغتنا

اليومية إنما يعني نوعا من العلاقة الإنسانية الحميمـة، المباشرة، والمتبادلة.

والمتأمل لتطـور العلاقـات الإنسـانية فـي المجتمعات الحديثة قد يلحظ أنها بحكم تعقـد الحيـاة، وزيادة التخصصات وتعمقهـا، فضـلا عـن تطـور التكنولوجيا الحديثة سواء في المباني أو التنظيمـات أو وسائل الاتصال، كل ذلك يدفع أبناء تلـك المجتمعـات إلى مزيد من العزلة والتقوقع. صحيح أنهم لا يكفـون عن ممارسة الاتصال الشخصي بمعناه الفني العلمـي، ولكنهم يبتعدون شيئا فشيئا عن ممارسـة المضـمون الشخصي الإنساني لهذا الاتصال.

إن الوحدة الأساسية للمجتمـع البشـري هـي الأسرة: مجموعة من الأفراد تربطهم علاقة وثيقة هي علاقة الدم فضلا عن أنهم يعيشون معا. ومن الطبيعي والأمر كذلك أن تكون الأسرة بمثابة البؤرة التي تصل فيها ممارسة الاتصال الشخصي بمضمونه الإنسـاني إلى ذروتها. ولكنا نشهد مع تطور المجتمع حضاريا أن الأسرة قد ضاق نطاقها وتقلص حجمها، وحلت الأسرة

النووية، أي الأب والأم والأبناء، محل الأسرة الممتـدة التي كانت تضم إلـى جـانبهم الأخـوال والأعمـام والأجداد.. إلى آخره. ومن ناحية أخرى فقـد ازدادت سماكة الجدران التي تفصل بين كـل أسـرة وأخـرى بفضل تطور تكنولوجيـا البنـاء وتشـييد العمـارات الضخمة الحديثة التي تضم العشرات بل المئـات مـن الشقق التي أحكم عزلها عن بعضها فنيا. وقـد كـان المتوقع منطقيا بعد ذلك كله أن تزداد حرارة التفاعلات الاتصالية الشخصية بين أفراد الأسرة بعد أن تقلـص حجمها وأقيمت الجدران السمكية بينها وبين جيرانهـا. ولكن ما حدث هو العكس تماما. فثمة جدران أشد سمكا قد ارتفعت مع التقدم الحضاري بـين أفـراد الأسـرة وبعضهم البعض، وهي جدران أشـد إحكامـا لأنهـا جدران نفسية: كل مشغول بنفسه، يلهث وراء هدفه، لا يكاد يجد وقتا لمجرد الحديث الشخصي مع بقية أفـراد الأسرة هذا إذا ما وجد في نفسه مجرد الرغبة لإقامـة مثل هذا الحديث. لقد أصبح الحديث الشخصي الحمـيم

في عديد من الأسر وخاصة في المجتمعات المتقدمـة ترفا لا يستطيعونه، بل وتزيدا لا يرون ضرورة له.

ومن واقع مشاهداتي الشخصية فإنني أستشعر أن هذه المظاهر آخذة في الانتشار في بلادنا كمصاحب لطبيعة نمط التطور الحضاري الغربي، إن العديد مـن الأبناء والأزواج والزوجات يحسـون فـي لحظـات استبصارهم بإلحاح تلك الحاجة الإنسـانية للاتصـال والتي أشرنا إليها في صدر هذا المقـال. ولا يجـدون حولهم من يستطيع إشباع حاجتهم تلك. فليس ثمة مـن لديه الاستعداد أو الرغبة أو حتى الوقت ليضيعه فـي "دردشة" يبدو ألا هدف لها، بل ولا حتى الاستماع إلى مثل هذه "الدردشة". فإذا ما اضـطر محرجـا، تقبـل الموقف متململا ناظرا في ساعته، أو متثائبا راغبا في إشباع حاجته للنوم باعتبارها أيضا ضـمن الحاجـات الإنسانية الأساسية. فإذا لم يصل إلى هدفه بالتململ أو التثاؤب فلا بأس من إبداء الاستخفاف والسخرية مـن مثل هذا "الكلام الفارغ" الذي لا يعدو أن يكون مضيعة للوقت الثمين الذي ينبغي أن يستغل فيما يفيد. ولا يكون

أمام صاحبنا الذي يعاني من العطش الاتصالي، والذي جرؤ على التعبير عنه في لحظة استبصار شـجاعة إلا أحد أمرين: إما أن يعود إلى قوقعته من جديـد، أو أن يعاود البحث – إذا ما غلبه إلحـاح الحاجـة – عـن شخص يتحدث معه حتى ولو كان غريبا. إن نسـبة لا يستهان بها من المترددين على عياداتنا النفسية ليسـوا مرضى بالمعنى الفني الدقيق، وليسوا كذلك مجرد أفراد مدللين يبحثون عن تسلية. إنهم في أغلب الأحيان ليسوا سوى أولئك التعساء المتألمين الذين يعانون من مرض الحضارة الغربية الحديثة: "الإحساس بالعزلة أو بعبارة أخرى" الجوع الاتصالي".

إن التقدم الحضاري الغربي قد أفرز ظـاهرة العزلة، ولكنه أفرز معها علاجها ذا الطـابع الغربـي كذلك، إن العديد من أنماط العلاج النفسي الحديثـة لا تعدو أن تكون تشجيعا للفرد على الخروج من قوقعتـه الانعزالية والاستمتاع بالتعبير اللفظي بـل والجسـدي أحيانا عن انفعالاته ولكن داخل الجدران السميكة للعيادة النفسية، فلعله حين يعود من جديد إلى قوقعتـه يظـل

محتفظا بتلك الذكريات الجميلة التي عاشها خلال خبرة خروجه المؤقت منها، ويظل محتفظا إلى جانب ذلـك بتوافقه مع نمط الحياة الانعزالـي الـذي يطالبـه بـه المجتمع الحديث.

ولعلنا نتساءل بعد ذلك كله: هل من مخـرج؟ هل من سبيل للتقدم الحضاري دون التردي في هـوة الانعزالية؟ هل من سبيل للارتفاع بقيمـة العمـل دون التردي في هوة الإدمان الشكلي للعمل؟ هل من سـبيل للارتفاع بقيمة العقلانية دون التردي في هوة الاتجـاه العملي المتطرف؟ وأخيرا هل ثمة ما يمنع حقـا مـن الجمع بين "الإشـباع الاتصـالي الطبيعـي" و"التقـدم الحضاري"؟.

الفصل السابع

سيكولوجية متلقي الرسالة

سيكولوجية متلقي الرسالة

مقدمة :

موضوعنا هو سيكلوجية المستقبل لرسائل الاتصال الجماهيري المرئية والمسموعة. وإذا كان الفارق بين تعبيري المستقبل (بفتح الباء)، والمستقبل (بكسر الباء) يبدو فارقا كبيرا، فإن الأمر ليس كذلك تماما بالنسبة لموضوعنا. فثمة ما يجمع بين المصطلحين: إن كلاهما مجهول، وكلاهما أيضا يلزم السعي لمعرفته، أو بعبارة أخرى لا يمكن قبول الجهل به دون مجازفة بالغة. فالإنسان – بل الكائنات الحية بعامة – لا يستطيع حياة دون قدر يزيد أو يقل من معرفة بالمستقبل أو تعرف عليه. وكذلك القائم بالاتصال.

ولعلنا لو كنا بصدد الحديث عن الاتصال الشخصي لاختلف الأمر تماما، ولما كان لمثل هذه المقابلة مكان. فسمة الاتصال الشخصي أن يكون مستقبل الرسالة الإعلامية معروفا لمرسلها، وبالتالي يستطيع المرسل أن يقوم بتصميم رسالته الإعلامية

بحيث تتطابق مع خصائص المرسلة إليه. بل إنه – أي المرسل– يستطيع أن يغير ويبدل في شكل ومضـمون هذه الرسالة أثناء عملية الاتصال، وفقا لتفسيره لما يراه من استجابات تصدر عن مسـتقبل الرسـالة. بـل إن المرسل يستطيع – إذا ما لاحظ انصراف المستقبل عن استقبال رسالته لسـبب أو لآخـر– أن يتوقـف عـن الإرسال مؤقتا، إلى أن يـتمكن مـن اسـتعادة انتبـاه المستقبل من جديد.

وبالمقابل فإن سمة الاتصال الجماهيري، هـي غياب مستقبل الرسالة عن مرسلها غيابا يكاد أن يكون تاما. فعلى المستوى الفيزيقي لا يكون مستقبل الرسالة متواجدا عادة في موقع الإرسال، بل قد تفصـله عنـه آلاف الأميال. صحيح أن الأمر قد يكون كذلك بالنسبة للاتصال البريدى أو التليفوني، حيث يقتضى ذلك النوع من الاتصال ابتعاد المرسل عن المستقبل ابتعادا مكانيا. ولكن الغياب يكـون مختلفـا فـي حالـة الاتصـال الجماهيري.

إن غيـاب المسـتقبل فـي حالـة الاتصـال الجماهيري لا يقتصر على الغياب المكـاني فحسـب، رغم أهمية هذا النوع مـن الغيـاب بالنسـبة لعمليـة التواصل بين المرسل والمستقبل، فالغياب فـي حالتنـا هذه يكون غيابا معلوماتيا أيضـا. فالمرسـل لا يكـاد يعرف شيئا يقينيا. بل إنه لا يستطيع حتى أن يعرف ما إذا كان ذلك المستقبل المجهول قد تلقى رسالته بالفعـل أم لا. وإذا لم يكن قد تلقى الرسالة فهـل كـان ذلـك امتناعا منه عن تلقيها؟ أم جهلا منه بموعدها؟ أم لعدم ملائمة موعدها له؟ أم كان ذلك بسبب إعاقة تكنولوجية تتعلق بأجهزة الإرسال، أو أجهزة الإستقبال، أو بمدى ملائمة العوامل الجوية؟ وغني عن البيان أن كلا مـن تلك الأسباب يتطلب لتلافيه اتخاذ خطوات وإجـراءات تختلف عن نظيرتها بالنسبة لبقية الأسباب.

وإذا ما كانت الرسالة قد تم استقبالها، فمن ذلك الذي استقبلها؟ قد يكون طفلا أو شابا أو كهلا، قد تكون امرأة وقد يكون رجلا، قد يكون غنيا أو فقيرا، ريفيا أو حضريا، نوبيا أو بحراويـا أو صـعيديا، مغربيـا أو

سعوديا أو فلسطينيا، مقيما أو مغتربا، مسلما أو مسيحيا أو يهوديا أو حتى ملحدا. إن لكل من تلـك الصـفات المجهولة أهميتها البالغة فيما يتعلق بخصائص الرسالة الإعلامية الملائمة سواء من حيث الشكل أو المضمون. حتى إن رسالة معينة قد تكون ملائمة تماما لفئة مـن المستقبلين وتكون نفس الرسالة بالغة الغموض أو مثيرة للملل، أو حتى للاستفزاز بالنسبة لفئات أخـرى مـن المستقبلين.

كل ذلك وغيره أمور يستحيل علـى المرسـل معرفتها بشكل يقيني، ومباشر، ومستمر. تـرى هـل يمكن له أن يستغنى عن مثل تلك المعرفة، ثم يسـتمر في إرساله مؤملا أن يكون ذلك الإرسال إرسالا فعالا؟ بل هل يستطيع المرسل ابتداء ومهما كانـت قدراتـه الفنية أن يشرع في بث رسائله إلـى هـذا المسـتقبل المجهول؟

إن التعرف على المستقبل يعد ضرورة حيـاة بالنسبة للبشر. وكذلك فإن التعرف على المستقبل يعـد ضرورة حياة بالنسبة للرسالة الإعلاميـة مـن حيـث

فاعليتها، وبالنسبة للمرسل أيضا من حيث اسـتمرارية كفاءته. فكلما تزايد حجم المعرفة المتاحة عن المرسل إليه، وكلما ازدادت دقتها، ازدادت بالتالى فعالية التأثير الذي تحدثه لدى ذلك المستقبل. ومن ناحية أخرى، فإن إحساس المرسل بأن ثمة من يتلقى رسائله يعد شـرطا أساسيا لقيامه بالإرسال، كمـا أن تزايـد المعلومـات المتوافرة لديه عن المستقبل، يرفع من قدرتـه علـى التجويد. ولذلك فإنه لا يوجد البتة من يرسل رسالة إلى لا أحد، أيا كان المرسل، وأيا كان محتـوى الرسـالة، وأيا كانت نوعيـة الاتصـال. وحتـى فـي حـالات الاضطراب النفسي الشديدة، حين يبدو لنـا المـريض متحدثا إلى ذلك الـ لا أحد، فإنه يكون في حقيقة الأمر متحدثا إلى آخر من صنع خياله. خلاصة الأمر إذن أنه لا يوجد متحدث دون مستمع، ولا مرسل دون مستقبل، وإذا ما تعذر التواجد المباشر المحدد لذلك المسـتقبل، فإننا – ولكى نتمكن من الإرسال– نفتـرض وجـوده افتراضا، بل وقد نصطنع له من الخصائص والصفات

ما يقترب أو يبتعد عن الحقيقة وفقا للقدر المتاح لنا من المعلومات.

لقد ألفنا استخدام مصطلحي المرسل والمستقبل. وقد يبدو للوهلة الأولى أن المرسل هو الطرف الفعال، أي الذي يقوم بالعمل كله، وما على المستقبل إلا أن يستقبل، أي أنه الطرف السلبي. والأمر ليس كذلك على الإطلاق. فالمستقبل مشارك إيجابى أصيل في العملية الاتصالية، إنه لا يتخذ فحسب قرارا إيجابيا بالاستقبال. بل تتوالى قراراته الإيجابية، فيفاضل بين الاستمرار والتوقف منتهيا إلى قرار بهذا الشأن. بل إنه فضلا عن ذلك، غالبا ما يمارس خلال استقباله لرسائل الاتصال الجماهيري كافة عمليات النقد والحكم والتقييم. صحيح أنه يقوم بذلك بعيدا عن مواجهة المرسل، ولكنها نفس مشكلة المرسل الذي يبعث برسالته دون مواجهة المستقبل. وفي النهاية فتلك هي طبيعة عملية الاتصال الجماهيري بل لعلها أهم أوجه قصوره، ذلك الحاجز المادي الذي يفصل بين المرسل والمستقبل.

إن هدف أي اتصـال جمـاهيري أيـا كـان مضمونه هو إحداث تأثير معين في اتجاهات الجمهور المتلقي، أو ما يطلق عليه تشـكيل وعـي الجمهـور. وغني عن البيان أن إحداث مثل هذا التـأثير يقتضـى ابتداء أن تكون الرسالة الإعلامية في متناول الجمهور المقصود كما يقتضى أيضا أن يصدق الجمهور المتلقي تلك الرسالة الموجهة إليه، وإلا فإنها لن تحدث تأثيرها المرجو، بل إنها قد تحـدث تـأثيرا سـلبيا معاكسـا. ويحرص صناع رسائل الاتصال الجماهيري المتطورة على بذل قصارى الجهد، وتسخير كافة إمكانات العلوم التكنولوجية، وكذلك العلوم الاجتماعيـة لكـي تكـون رسائلهم أكثر إقناعا وأشد تصديقا. بل إننا لا نجـاوز الحقيقة كثيرا إذا ما قلنـا إن خطـر التحـديات التـي يواجهها الاتصال الجماهيري في العالم المعاصر تتمثل في أمرين:

الأمر الأول هو التطوير التكنولوجى لوسـائل بحيث يتسع مداها، وتزيد سرعة تدفقها، وتقل تكلفتها، ويسهل استقبالها.

الأمر الثاني هو تطوير أساليب الإقناع ورفـع درجة المصداقية، ومن ثم تحقيق التأثير المطلوب لدى المستقبلين.

وفيما يتعلق بالأمر الثاني، فإن القائمين علـى أمور الاتصال الجمـاهيري، قـد ابتكـروا ومـازالوا يبتكرون العديد من الأساليب في محاولات دؤوبة لسـد تلك الفجوة بين المرسل وجمهور المستقبلين. ويـدخل في هذا النطـاق، الإعـلام ببحـوث اسـتطلاع آراء الجمهور في الرسائل الإعلامية الموجهة إليهم. وكذلك الحرص على زيادة معدل الاشتراك الجمـاهيري فـي البرامج التليفزيونية والإذاعية... إلى آخره.

المستقبل.... وطوفان الرسائل الحسية

يتلقى الجهاز العصبي الإنساني في كل لحظـة آلاف الآلاف من الإشارات الحسـية المتنوعـة بـين البصرية، والشمية، والتذوقية، واللمسية. وتتنوع كذلك مصادر تلك الإشارات الحسية، فمنها الحشوي الداخلي، ومنها الوارد من البيئة الخارجية. وإذا ما أضفنا إلـى ذلك كله تلك الإشارات ذات الطابع الحسي والصـادرة

عن أحلام النوم وأحلام اليقظة والتي قد لا تكون وثيقة الصلة بالعالم الموضوعي، وإذا ما أضفنا إلـى ذلـك أيضا حقيقة أن تدفق تلك الإشارات الحسية يبدأ بالفعل قبل أن يولد الطفل ويستمر دون توقف ولو للحظة حتى نهاية حياته، لاتضح لنا أي طوفان حسي ذلـك الـذي يتعرض له الجهاز العصبي الإنساني. ولاتضـح لنـا كذلك أن رسائل الاتصال الجماهيري تمثل جانبا فحسب من تلك الرسائل المنهمرة على المستقبل وأنها تتعرض بالفعل لمنافسة ضارية.

وفي داخل الجهاز العصبي، وعلى قمته المخ، يتم تصنيف وتجميع هذه الإشارات الحسـية لتكتسـب معنى أي لتصبح معلومات يتم التصرف السلوكي على أساس ما تعنيه. بعبارة أخرى فإن الإنسان لا يتصرف استجابة لمجرد تلقيه إشارة حسـية معينـة، بـل إنـه يتصرف وفقا لتفسيره لتلك الإشارة، أي وفقا لمعناهـا. ولكن ترى كيف تتحول الإشارات الحسية إلى معان أي إلى معلومات؟

إن تحويل الإشارات الحسية إلى معلومات ذات معنى، أمر لا يتم آليا، بل إنه يتوقف على عـدد مـن العوامل، لعل أهمها:

(١) المعلومات السابقة

إن كافة المواقف، والخبرات التي يتعرض لها الفرد يتم تخزينها وفقا لنظـام محكـم بحيـث يمكـن استدعاؤها عند الحاجة. وتلعـب الخبـرات السـابقة المتعلقة بنفس الإشارة أو بنفس تلك المجموعة المعينـة من الإشارات دورا هاما في تفسيرها. فالإشارة التـي سبق أن تلقاها الإنسان وأثارت لديه خبرة معينة، سوف تستثير لديه في حالة تكرارها، نفس الشعور بـالخبرة السابقة. ومن ثم فسوف تدفع في اتجاه التصرف بمـا يتناسب مع الخبرة القديمة. بعبارة أخرى فإن المعنـى يتوقف بدرجة كبيرة على طبيعة السمعة التي سـبق أن اكتسبتها الإشارة الحسية المعينة.

إن مدفع الإفطار، وأجـراس الكنـائس، وآذان الصلاة، والموسيقى المميزة لنشرات الأخبار، وتراتيل الإنجيل، وتلاوة القرآن، وصفارات الإنـذار، لا تـتم

الاستجابة لها باعتبارها مجرد إشارات صوتية، رغـم أنها جميعا من الناحية الفيزيقية ليست إلا كذلك، بل تتم الاستجابة لها وفقا لمدلولها، أي وفقا لمعناها، أي وفقـا لسمعتها السابقة لدى المسـتقبل. ولـذلك قـد تتبـاين استجابات الأفراد حيال نفس الإشارة، تبعـا لمعناهـا الخاص بكل فرد منهم.

وغني عن البيان أن تلـك السـمعة السـابقة للإشارة الحسية، تكاد تستعصي على التعديل، ولـذلك يطلق عليها أهل الاختصاص فـي العلـوم النفسـية، مصطلح الصورة الذهنية الجامدة.

(٢) الدافعية

للإنسان دوافع شتى تدفعه صـوب تصـرفات بعينها، مثل الجوع، والعطش، والخـوف، والجـنس، والمكانة الاجتماعية، وتحقيق الذات إلى آخره. وكلمـا ازداد إلحاح دافع معين طلبا للإشباع، كلما ازدادت شدة دفعه للفرد صوب التصرفات التي تؤدي إلى إشـباعه. وعادة ما يتجسد ذلك في أمرين:

أ - أن يبحث الفـرد عـن الإشـارات التـي ارتبطت من خلال خبراته السابقة بإشباع ذلك الـدافع بالذات، وبالتالى فإنه يرهـف حواسـه لتلقـي تلـك الإشارات بشكل خاص.

ب - أن تُلقى شدة إلحاح الدافع بظلالها علـى عملية تفسيره للإرشادات الحسية بشكل عام، بحيث إن تفسيراته لشتى الإشارات المتباينة تتخذ معـان تـرتبط سلبا أو إيجابا بذلك الدافع.

إن رؤية السراب باعتباره ماء، ليست خـداع بصر فحسب، بل إنها تعبير عن شدة الظمأ، أي إلحاح دافع العطش. وكذلك فإن تفسير صوت حفيف الأشجار ليلا بأن لصا يختبئ في الحديقة، ليس مجـرد خـداع سمعي فحسب، بل إنه تعبير عن إلحاح دافع الخوف.

(٣) مجمل الموقف الراهن

يستحيل أن يتلقى المرء في ظـروف الحيـاة المعتادة إشارة واحدة منفردة. بل إنه يتلقى فـي كـل لحظة ما يمكن أن نطلق عليه موقفـا مزدحمـا مـن الإشارات، تتداخل فيه الإشارات البصرية، والسـمعية،

واللمسية، والشمية، والتذوقية. كما تتدخل فيه الإشارات الواردة من مختلف المصادر، أي الحشوية والخارجية. ويتوقف معنى الإشارة الحسـية، ومـن ثـم طبيعـة الاستجابة السلوكية لها، على نوعية الإشارات المحيطة بها، أي على معنى الموقف الإجمـالى. ومـن ناحيـة أخرى فإن معنى الموقف الإجمالى قد يتغير كلية بتغير يطرأ على إشارة واحدة من الإشارات المكونة له.

إن رؤية حيوان مفترس، وسماع زئيره، لأمر كفيل بإثارة الرعب. ولكن إضافة القضبان الحديدية إلى مقدمة المنظر المرئي، يحول الموقف بأكمله من موقف مثير للرعب إلى موقف قد يتسلى به حتـى الأطفـال الصغار. فإذا ما غاب عن هـذا الموقـف الإدراكـي الجديد منظر القفل الحديدى الذي يغلـق بـاب ذلـك الحيوان المفترس، عاد الموقف إلى إثارة الرعب مـن جديد. فإذا ما وسع الرائى من مجال إبصاره لتدخل فيه رؤية إطار خشبي يحيط بمكونات الموقف جميعا تحول الأمر إلى مجرد مشاهدة فيلم تليفزيوني مثلا.

(٤) القيم والمعايير

يقوم المجتمع مـن خـلال عمليـات التنشـئة الاجتماعية لأبنائه بتزويـدهم بمجموعـة مـن القـيم والمعايير التي توجه سلوكهم وتصرفاتهم. ولما كانـت الأسرة هي أهم المؤسسات الاجتماعية التـي تتـولى عمليات التنشئة الاجتماعية وخاصة بالنسبة للصـغار، فإنه لمن الطبيعى أن تختلف وتتباين تلك القيم والمعايير من جماعة إلى أخرى داخل نفس المجتمع فضلا عـن تباينها بطبيعة الحال من مجتمع لآخر. وما يعنينا فـي هذا المقام هو تأثير تلك القيم والمعايير علـى تفسـير الفرد للمؤشرات الحسية التي يتعرض لها.

إن الاستجابة الطبيعية للمتألم هي الابتعاد عـن مصدر الألم، والاستجابة الطبيعية للجائع هي الاقتراب من الطعام، كما أن الاستجابة الطبيعية للشـبعان هـي عدم الاقتراب من الطعام، أي اللامبالاة.

إن الطفل يتصرف تلقائيا عندما يقوم الطبيـب بحقنه بمصل التطعيم مثلا. إنه يصرخ، ويسحب ذراعه بعيدا، بل وقد يحاول الفرار. تلـك هـي الاسـتجابة الطبيعية. ولننظر إلى طفلنا وقد كبر وأصبح راشـدا،

حين يضطر لخلع أحد أضراسه مثلا متعرضـا لألـم يفوق كثيرا ألم التطعيم القديم. أتراه يصرخ ويحـاول الفرار؟. ترى ما الذي قد تغير ؟. لقد تعلم صاحبنا أنه لا يجوز للكبير أن يترك لتلقائيته العنان في التعبير عن ألمه. لقد اكتسب معايير الكبار.

تلك هي بعض – وليس كل – العوامل التـي تحكم تحويل الإشارات الحسية إلى معلومات يمكـن أن يتصرف الفرد وفقا لمعناها.

المستقبل..... مشاهدا.... ومستمعا

يقضي الإنسان جانبا كبيرا من حياته مشاهدا، سواء في يقظته أو في منامه كما يقضي حياتـه كلهـا مستمعا. وإذا كانت مشاهدة الأحلام تتم بعيدا عن إرادة المشاهد، فإن تلقي الرسالة التليفزيونية سـلوك إرادى تماما. يستطيع الفرد أن يسمح، أو لا يسمح بوصـول الرسالة إليه، بمجرد ضغطة بسيطة على زر صغير.

وكذلك الحال بالنسبة للاسـتماع، صـحيح أن المرء لا يستطيع بإرادته أن يمتنع عن سماع الأصوات المحيطة به، فضلا عن تلك الموجهة إليه قصدا. ولكن

استماعه إلى المذياع يتوقف إلى حد كبير على إرادته. ففى مقدوره أن يتلقى الرسالة الإذاعية لو شاء، وفـي مقدوره أيضا أن يمتنع عن تلقيها إذا ما قـرر ذلـك. ولذلك فلعله من الملائم أن نتساءل: ترى لمـاذا نقـدم على فتح أجهزة الاستقبال؟

إن الإقدام على فتح جهاز الاستقبال يعد الشرط السلوكي الأول للبدء في عملية الاتصال الجمـاهيري، وذلك بصرف النظر عن الاستمرار في استقبال الرسالة أو الانصراف عن استقبالها، وبصرف النظر أيضا عن درجة وطبيعة التأثير الـذي يمكـن أن تحدثـه تلـك الرسالة.

لو سألنا أنفسنا لماذا نتجه إلى جهاز الاستقبال ونديـر زر التشغيل لوجدنا أن الإجابـات قـد تتعـدد وتتباين، ولعل أهم أنواع تلك الإجابات يمكن تصـنيفها على الوجه التالى:

أ- العادة

في كثير من استطلاعات الرأي تجيب نسـبة كبيرة بأنهم إنما يفتحون أجهزة الاستقبال بحكم العادة.

بمعنى أنهم في حقيقة الأمر لا يسعون لتلقـي رسـالة بعينها. وغالبا ما يلاحظ بالنسبة لهؤلاء أنهم نادرا مـا يقتربون من مفاتيح تغيير الموجات، أو البحـث عـن المحطات.

ب- الملل والحدة

كثير منا يفتح جهاز الاستقبال بدافع الإحساس بالملل، بحثا عن تغيير. مجرد تغيير. أو بدافع الضيق بالوحدة وبحثا عن الونسة، حتى لو كانت مجرد ونسة مصطنعة. والملاحظ أن هؤلاء قد يميلون كثيرا إلـى تحريك مؤشر الموجات ولكن دون هدف محـدد بـل لمجرد مقاومة الملل والوحدة، وبحثـا عـن التغييـر والونسة.

جـ- الفضول والمجاراة

ليس صحيحا أن الجميع بدون استثناء مولعون باسـتقبال رسـائل الاتصـال الجمـاهيري المرئيـة والمسموعة، فللكثيرين هوايـاتهم واهتمامـاتهم التـي تستحوذ على الجانب الأعظم من وقتهم. ولكنا مع ذلك يندر أن نجد حتى من بين هؤلاء من لم تمتد يده قـط

للمذياع أو للتليفزيون ليفتحه. وغالبا ما يكـون ذلـك نتيجة أنهم قد سمعوا من الآخرين، أو قرأوا في الجرائد أن ثمة برنامجا متميزا، أو مثيرا للجدل، فسـعوا إلـى استقباله فضولا ومجاراة. ثم قد يعودون بعد ذلك إلـى سيرتهم الأولى، أو أن تنجح محطة الإرسال في ضمهم إلى جمهورها.

د- الإقدام القصدي

ثمة من نستطيع أن نطلـق عليـه المسـتقبل المحترف. إنه ذلك المستمع أو المشـاهد الـذي يفـتح جهاز الاستقبال عامدا متعمدا وفـي أوقـات محـددة بالذات، ولاستقبال برامج بعينها دون غيرها. وعادة ما تكون اختيارات مثل هذا المستقبل قد تحددت عبر فترة زمنية طويلة نسبيا، بحيث يصعب تغييرها.

هـ- الاستقبال الإجبارى

صحيح أننا قد أشرنا إلـى أن تلقـي رسـائل الاتصال الجماهيري يتوقف إلى حد كبير علـى إرادة المستقبل. ولكنا كثيرا ما نتلقى تلك الرسائل مجبـرين.

جار يرفع صوت المذياع فنشاركه الاستماع إلـى مـا اختاره مجبرين. زيارة لأسرة صديقة، قد تجبرنا على مشاهدة ما يشاهدون. الابن أو الزوج أو الزوجة مولع بمتابعة برنامج معين، وضيق المكان يجبر الباقين على المشاهدة أو الاستماع.. إلى آخره.

ديناميات الاستقبال

ثمة نمطين أساسيين لاستقبال رسائل الاتصال الجماهيري : النمط الفردي، والنمط الجماعي.

لقد أفرز التقدم الحضـاري الغربـي – فيمـا أفرز– ظاهرة العزلة. ولقد يلاحـظ المتأمـل لتطـور العلاقات الإنسانية في المجتمعات الحديثـة، أن تلـك المجتمعات تدفع بأبنائها إلى مزيد من العزلة والتقوقـع الفردي، ويرجع المفكرون الغربيون تلك الظاهرة إلـى تعقد الحياة، وسرعتها، وزيادة التخصصات وتعمقهـا، فضلا عن تطور التكنولوجيا الحديثة سواء في المباني أو التنظيمات أو وسائل الاتصال. ولذلك فـإن الـنمط الغالب لاستقبال رسائل الاتصال الجماهيري في إطـار تلك الحضارة هو النمط الفردي. أن تسمع وحيـدا وأن

ترى وحيدا. وقد يكون ذلك أمرا مغريا فـي مجتمـع يعاني من الضوضاء، بل والاستقبال الجبري للبـرامج التليفزيونية والإذاعية. وإن لم يكن الأمر كذلك تمامـا من حيث مقتضيات الصـحة النفسـية. إن للضـجيج أضراره بطبيعة الحال، ولكن للعزلة مخاطرهـا دون جدال.

وعلى أية حال فإن نمط الاستقبال الفردي لـم يصبح بعد النمط الشائع في بلادنا. والأمـر لا يرجـع فيما نرى إلى العامل الاقتصـادي وحـده، فـالأجهزة التكنولوجية التي تتيح للفرد أن يستمع للمذياع وحيـدا وسط الجماعة، لم تلق رواجا كبيرا رغـم توافرهـا. وفيما يبدو فإن الأمر قد يكون متعلقا بعنصر أصيل من عناصر طابعنا القومي، ومازال يقاوم العزلة والفردية.

إن النمط الأكثر انتشارا في بلادنـا لاسـتقبال رسائل الاتصال الجماهيري هو النمط الجماعي. ثمـة جماعات تستمع معا إلـى الإذاعـة، أو تشـاهد معـا التليفزيون. ونستطيع أن نلاحظ تلك الظاهرة في بعض المقاهى والنوادي خاصة فـي أوقـات المباريـات أو

المسلسلات أو غير ذلـك، حتـى إن الـبعض يقـرر صراحة أنه لا يستطيع أن يستمتع بمتابعة مباريات كرة القدم دون صحبة تشاركه المتابعة حتى لـو لـم يكـن يعرف أحدا منهم معرفة سابقة. وذلـك فضـلا عـن الاستقبال الجماعى الأسري ولعله الأوسـع انتشـارا، والذي سوف نتناوله بشيء من التفصيل بعد قليل.

ترى ماذا يعني ذلك الاستقبال الجماعي؟ إنـه يعني أولا أن ثمة جماعة قد اتفقـت علـى الاسـتقبال مشاهدة أو استماعا. وهو يعنى ثانيا أن تلك الجماعة قد اتفقت أيضا على اختيار ما سوف تشـاهده أو تسـتمع إليه. فكيف يتم ذلك؟

لعلنا لا نجد صعوبة كبيرة في استنتاج دينامية الاتفاق في حالات النوادي أو المقاهي. فالقرار يصدر عادة عن المسئول الذي قد يكون صاحب المقهـى، أو أحد مديرى النادي، والذى يضع في اعتباره تفضيلات غالبية الرواد. ولا يكون أمام الرافضين إلا أن ينسحبوا في صمت.

أما بالنسبة للاستقبال الأسري الجماعي، فـإن الأمر يختلف كثيرا. فجهاز الاستقبال وخاصة في حالة التليفزيون يكون عادة ملكية عامة للأسرة، شأنه شـأن مائدة الطعام على سبيل المثال. ومن ثم فإن كل فـرد من أفراد الأسرة يرى لنفسـه حقـا فـي اسـتخدامه بالصورة التي ترضيه. ويحدث كثيرا بطبيعة الحال أن تتباين آراء أفراد الأسرة فيما ينبغي الاستماع إليـه أو مشاهدته. ترى كيف يتم حسم هذا الموقف؟

إن الأمر يتوقف عادة على نمط التفاعل السائد في الأسرة، والذى يختلف من أسرة لأخرى. قد نجـد في أسرة معينة حرصا على تغليب رأى الأغلبية. وقد نجد أسرة أخرى تغلـب رأي الأكبـر سـنا، تـوقيرا واحتراما. أو تغلب رأي الأصغر سنا، عطفا وتـدليلا. أو تخضع لرأي الأعلى صوتا والأسلط لسانا، إيثـارا للسلامة. أو تغلب رأي الضيف، مجاملـة وتأدبـا. أو تغلب رأي من يعول الأسرة اقتصاديا، واعترافا بفضله أو تخوفا من غضـبه. أو لعلهـا تغلـب رأي الأم، أو الذكر، أو الأنثى، أو المريض، أو العائد من السـفر...

إلى آخر تلك الاحتمالات، ولكل احتمال منها مبرراتـه بطبيعة الحال.

ويبقى سؤال، ماذا عن الأقلية، أي أولئك الذين لم ينته الأمر إلى ما كانوا يرجون؟ الاحتمالات عديـدة أيضا، والأمر يتوقف أيضا علـى طبيعـة العلاقـات السائدة بين أفراد الأسرة، إلى جانب الخصائص النفسية المميزة لكل فرد. وعلى أية حـال فثمـة احتمـالات رئيسية ثلاثة. الاحتمال الأول، أن ينسحب المعترض، تاركا للجماعة ممارسة اختيارها كما تشـاء، مكتفيـا بالانسحاب. والاحتمال الثاني، أن يبقـى المعتـرض، مختارا أو مضطرا، مستسلما فـي صـمت، مشـاركا الجماعة في استقبال الرسالة التي اختارتها، بـل وقـد يندمج في المتابعة بعد قليل، متخليا عن رأيـه القـديم. والاحتمال الثالث، أن يبقى المعترض أيضـا، ولكنـه يستمر في محاولة دفع الجماعة إلى تغييـر قرارهـا، بالإلحاح أحيانا، وبتسخيف ما يتابعونه أحيانا أخـرى، ولكنه في النهاية يظل متواجدا فـي إطـار مجموعـة المتابعة.

عودة إلى المرسل

إن الجمهـــور الـــذي يســـتهدفه الاتصـــال الجماهيري، جمهور غفير، متعدد الخصائص، متبـاين الأذواق. وبدا أن الحل هو الاهتمام بما يطلـق عليـه البرامج الطائفية فثمة برامج للأطفال، وأخرى للمرأة، وثالثة للعمال.. إلى آخره. ولكل أن يسـتقبل الرسـالة التي تم إعدادها خصيصا له.

ولكن المشكلة هي أن الاتصـال الجمـاهيري بحكم طبيعته لا يسمح بتلك الخصوصية التي يستطيعها الاتصال الشخصي. إن رسالة الاتصال الجماهيري لا تستطيع أن تصل إلى أصحابها همسا. صـحيح أنهـا رسالة تحمل اسم وعنوان المرسلة إليه، ولكنها رسـالة مفتوحة متاحة للجميع. فإذا ما وضعنا فـي الاعتبـار مدى انتشار ظاهرة الاستقبال الجماعي التـي أشـرنا إليها، وخاصة على المستوى الأسرى، اتضح لنا مدى تعقد هذه المشكلة وكذلك مدى أهميتها.

ولعله قد أصبح جليـا أنـه لا متحـدث دون مستمع، ولا مرسل دون مستقبل. وأن القـائم بعمليـة

الاتصال الجماهيري ينبغي أن يحصـل أكبـر قـدر مستطاع من التعرف على الملامح الأساسية المميـزة لمن يرسل إليه برسائله. وقد تبدو المهمة بسيطة للوهلة الأولى، مادام المرسل ينتمي لنفس المجتمع الذي ينتمي إليه المستقبل، حيث يظن المرسل آنـذاك أن انتمائـه لمجتمع معين يضعه تلقائيا في موقع العارف بـدقائق الخصائص النفسية المميزة لأبناء هذا المجتمع. والأمر ليس على هذه الصورة تماما.

صحيح أن انتماء الفرد لمجتمع معين يكفل لـه قدرا من المعرفة بهذا المجتمع. وقد يتفاوت هذا القدر، كما وكيفا، تبعا لعمق انتماء الفرد، وخصوبة خبراتـه، واتساع ثقافته العامة، فضلا عن طبيعـة اهتماماتـه. ولكن ذلك كله يظل محدودا بطبيعة الموقع الاجتماعي الذي يشغله المرء في مجتمعه. إن ثمة مبحثا يكـاد أن يقوم بذاته بين العلوم الإنسانية، وهو بحوث ودراسات الطابع القومي، أو شخصية الجماعة. مبحث أصبح له علماؤه، ومنهجياته، وإنجازاته أيضا. ولم يعد مستغربا في عالم اليوم أن نجد عالما أجنبيا متخصصا، يعـرف

عن دقائق الطابع القومي لجماعة معينة، ما قد يفـوق بكثير ما يعرفه العامة من أبنائها عن الطابع القـومي لجماعتهم، حتى ولو لم يكن قد سبقت له زيـارة هـذا المجتمع مطلقا. ولذا فإن الاعتمـاد علـى الدراسـات العلمية المتخصصة في مجال شخصية الجماعة، أصبح أمرا لا غنى عنه لصياغة رسالة إعلامية متميزة سواء كانت موجهة للخارج أو للداخل أو حتى لإقليم معـين بالتحديد.

الفصل الثامن

علم النفس والسياسة

علم النفس والسياسة

لم يعد ثمة مجال من مجالات الحياة المعاصرة بعيدا عن إسهامات وتطبيقات علم النفس. ورغم ذلـك فإن الذهن ينصرف عادة عنـد الحـديث عـن تلـك التطبيقات إلى الأمراض النفسية وفنون علاجهـا، وإذا ما اتسع نطاق الحديث فإنه قد يلمـس تطبيقـات علـم النفس في مجالات كالتربيـة والتعلـيم، والصـناعة، والإعلام، وما إلى ذلك من مجالات قد تدخل في مجال السياسة الداخلية. ونادرا ما يتسع المفهوم ليشمل قضايا السياسة الخارجية.

وفي حقيقة الأمر فـإن فـروع علـم الـنفس المعاصر التي أصبحت تتجاوز الخمسين فرعا، لكـل منها إسهام يزيد أو يقل في قضايا الصـراع الـدولي والسياسة الخارجية. ونستطيع أن نشير علـى سـبيل المثال لا الحصر إلى بعض ما يمكن أن يقدمـه فـرع

واحد من فروع علم النفس، وهو علم النفس السياسي، في هذا المجال.

علم النفس السياسي ببساطة هو ذلك الفرع من فروع علم النفس الذي يقع على منطقة التماس بين علم النفس، والسياسة على المستويين النظري والتطبيقي، إنه ذلك الفرع من فروع علم النفس الـذي يتفاعـل مـع السياسة أخذا وعطاء. ينقل من السياسة لبقية فروع علم النفس الأرضية التاريخية السياسية اللازمة لفهم وتفسير نشأة وتطور وذبول مختلـف النظريـات والتطبيقـات النفسية، باعتبار أن تلك النظريات والتطبيقات جميعـا إنما تنبثق في سياق اجتماعي تاريخي سياسي. وينقـل إلى السياسة كافة التقنيات والنظريات النفسـية التـي تساعد الساسة على تفسير الظواهر السياسية، وتنفيـذ الخطط السياسية في الحرب والسلم على السواء.

إن لعلم النفس السياسي دورا في تزويد صاحب القرار بما يلزمه من بيانات موضوعية تتعلق باتجاهات الرأي العام المحلي والعالمي، الراهنة والمتوقعة، بحيث يضمن للقرار السياسي أكبر قدر ممكـن مـن التقبـل

والتأثير. كذلك فإن لعلم النفس السياسي دورا في تزويد المفاوض بما يلزمه من معلومات عن فنيات التفاوض، وسمات الطرف الآخر التي تؤثر في أسلوبه التفاوضي، واتجاهات الجماعات الضاغطة حيال الموضوع محل التفاوض إلى آخره. ويلعب علم النفس السياسي أيضا دورا أساسيا في مجال إدارة الأزمات الدولية بما يتيحه لصاحب القرار من معلومات تتعلق برؤية الجماهير في الداخل والخارج لطبيعة الأزمة، وتوقعاتهم لمسارها، مما يسهم في ترشيد قرارات إدارتها.

ولقد كان لي شرف المشاركة ضمن أعضاء الوفد المصري في مؤتمر مدريد للسلام، والذى كنت فيه المتخصص الوحيد في علم النفس بين أعضاء الوفود جميعا، ومنذ ذلك الحين وثمة تساؤل يوجه إلي كثيرا: ترى ما هي علاقة علم النفس بقضايا الصراع العربي الاسرائيلي؟ ورغم أن الكثير من تلك التساؤلات كان يحمل طابعا استفساريا خالصا، فإن قدرا لا يستهان به منها كان يحمل نبرة عتاب قد تصل إلى

الاستنكار. وإذا كانت الأسئلة الاستفسارية تشير إلـى قصور نتحمل جميعا مسئوليته في توفير القدر الـلازم من المعلومات عن طبيعة علـم الـنفس ودوره فـي مجالات السياسة الخارجية، فإن التسـاؤلات المعاتبـة تشير إلى أن ثمة تصورات خاطئـة عـن دور علـم النفس، أو لنقل عن موقف علماء النفس مـن قضـايا الصراع. وسوف نحاول في هذه السطور إلقاء الضوء على بعض التصورات.

أولا:

ثمة تصور خاطئ مؤداه أن علم النفس لـيس سوى تيار فلسفي، أو أنه مازال على أحسن الأحـوال فرعا من فروع الفلسفة. ومن ثمة فمـن الطبيعـي أن نتوقع منه موقفا موحدا متسـقا مـن قضـايا الكـون. والحقيقة أن علم النفس– شأنه شأن العلوم جميعا – لـم يعد منذ زمن بعيد جدا واحدا من التيارات الفلسفية التي ينبغي أن يكون لها موقف محدد من قضايا مثل العنف والحرب والدين والجنس إلى آخره. بل إن علماء النفس يتباينون من حيث توجهاتهم الفكرية ومن ثم من حيـث

توظيفهم لعلمهم. إن من بين المتخصصين فـي علـم النفس من كرسوا أنفسهم لخدمة قوى الشر والتعصـب والعدوان موظفين علمهـم فـي خدمـة النازيـة، أو المكارثية، أو الستالينية، أو الصـهيونية إلـى آخـره، ومنهم أيضا من دفعوا من أرزاقهم، ومن حريتهم، بـل ومن قدموا حياتهم استشهادا في سـبيل قـوى الخيـر والعدل والحرية، موظفين علمهم في خدمـة حركـات التحرر أينما كان موقعها. وإذا كان أبناء الفريق الأول قد وجدوا لأنفسهم مكانا في العديـد مـن التنظيمـات الحكومية الرسمية، فإن أبناء الفريق الثاني قد أقـاموا لأنفسهم عشرات التجمعات غير الحكومية التي تعبـر عن أهدافهم. ولعل أحـدث تلـك التجمعـات جماعـة اختارت لنفسها اسم جماعة علم الـنفس الراديكـالي، والتى تضم وهي مازالت فـي بدايـة الطريـق ١٦٣ عضوا يحملون جنسيات ثلاثة وعشرين دولة من بينها مصر. وتشير الوثيقة الرئيسية للجماعة إلى أنها تعبـر عن علماء النفس الذين يعارضون اسـتخدامه لخدمـة سياسات القهر والاستغلال، ويسـاندون المقهـورين،

ويستخدمون معرفتهم استخداما إيجابيا للعمل من أجـل التغيير الاجتماعي اللازم لخلق مجتمع أفضل.

ثانيا:

ثمة تصور خاطئ آخر مؤداه أن الحديث عـن دور لعلم النفس في قضـايا الصـراعات القوميـة أو الدولية كالصراع العربي الإسرائيلي، إنما يعنـى أننـا بصدد الدعوة إلى اختزال تلك الصراعات إلى مجـرد صراعات نفسية، ومن ثم فإن حلها إنمـا يكمـن فـي مجرد تصحيح تلـك التصـورات الخاطئـة، وإزالـة الحواجز النفسية إلى آخر تلك التعبيرات. وحقيقة الأمر أن تيارات علم النفس جميعـا لا تتعامـل مـع كافـة الصراعات حتى تلك التي تنشب بين الأفراد باعتبارها مجرد صراعات نفسية المنشأ، بـل إن ثمـة تفرقـة واضحة بين الصراعات ذات المنشأ النفسي والتي قـد تكون لها مترتبات مادية، وتلك الصراعات ذات المنشأ المادي الاجتماعي الاقتصادي التاريخي ذات المترتبات النفسية. وتبعا لذلك تختلف مواقف علماء الـنفس مـن

تصنيف الصراع العربي الاسـرائيلي تبعـا لمواقفـه الفكرية السياسية.

ثالثا:

ثمة تصور خاطئ ثالث مؤداه أن علم الـنفس يرسخ لدى أصحابه فكرة أن التفاعل بين الجماعات – أو تطبيع تلك العلاقات– يؤدي بالضرورة إلى سـيادة المسالمة بين أفراد تلك الجماعات. وحقيقة الأمـر أن تيارات علم النفس جميعا تتفق على التفرقة بين نوعين من تأثيرات التفاعل بين الجماعات يختلفان بـاختلاف طبيعة الصراعات بين تلك الجماعات، فإذا كانت تلـك الصراعات صراعات نفسية المنشأ، فـإن مثـل ذلـك التفاعل قد يسهم في تذويب المشاعر العدوانيـة التـي تفتقد في هذه الحالة المبرر المادي، أما إذا كانت تلـك الصراعات تدور حول قضايا مادية اجتماعية اقتصادية تاريخية، فإن نتائج التفاعل بين أفراد هذه المجتمعـات يتوقف على موضوع التفاعل وطبيعة هؤلاء الأفـراد، ومن ثم فقد يؤدي مثل هذا التفاعل في كثير من الأحيان إلى رؤية صورة الآخر بشكل أكثر وضوحا مما يدعم

من مشاعر الكراهية والرفض حياله. ومرة أخرى فإن مواقف علماء النفس من قضية الأسلوب الأمثل لإدارة العلاقات العربية– الإسرائيلية تتفاوت تبعـا لـرؤيتهم لطبيعة الصراع العربي الإسرائيلي، ومواقفهم حياله.

علم النفس السياسي والمستقبل

لقد أتيحت لي فرصة حضور ومتابعة جلسات الدورة السابعة والعشرين من دورات المؤتمر الـدولي لعلم النفس التي شهدتها العاصمة السويدية سـتوكهولم في الفترة من ٢٣ –٢٨ أغسطس عام ٢٠٠٠ ولقد كان من أبرز معالم هذه الدورة تدشين مجـال جديـد مـن مجالات علم الـنفس اختـار لـه المـؤتمر عنـوان الدبلوماسية وعلم النفس. ولعله مما يستوقف النظر أن الدعوة لتدشين هذا المجال الجديد قد انبعثت من جانب الدبلوماسيين طلبا لإسهام يتوسمون في علـم الـنفس إمكانية إضافته إلى ممارستهم العمليـة فـي المجـال الدبلوماسي. ولقد افتتح جان إيلياسون وزير خارجيـة السويد أولى الجلسات التي انعقدت تدشينا لهذا المجـال الجديد تحت عنوان السيمينار التذكاري لداج همرشولد

عن الدبلوماسية وعلم النفس. وأشار إيلياسون– الـذي كان سفيرا للسويد في الولايات المتحدة، كما أنه عمـل لفترة في سفارة السويد بالقاهرة – إلـي أن ظـروف العالم الجديد هي التي تدعوه كديبلوماسي محترف إلى الدعوة لتدعيم اقتراب الدبلوماسية مـن علـم الـنفس. موضحا أن انفجار الصراعات الداخلية قد أصبح بمثابة السمة المميزة لعالم اليوم. وأن الدبلوماسـية الوقائيـة preventive diplomacy تكتسب فـي مثـل هـذا الموقف معنى جديدا يقتضي تطوير ما أطلق عليه ثقافة الوقاية culture of prevention التي ينبغي أن يتزود بها الدبلوماسي في عالم اليوم. وتشمل تلك الثقافـة – فيما يرى إيلياسون– عدة مكونات.

أولا:

إنها ينبغي أن تشمل نظما للإنذار الحضـاري المبكر بمعنى التقاط وتفسير النذر الأولى التي تنبئ بأن ثمة انفجارا متوقعا، أو علـى حـد تعبيـر إيلياسـون ضرورة توافر عيون وآذان سيكلوجية لالتقـاط تلـك النذر. ويضرب مثلا لذلك مـن واقـع خبرتـه فـي

الصومال، مستخلصا أنه كان يمكن توفير الكثير من الجهد، والخسائر البشرية، لو تمت القراءة المبكرة لنذر انفجار الصراعات دون انتظار ظهورها على شاشات التليفزيون بعد انفجارها بالفعل.

ثانيا:

إنها ينبغي أن تشمل فهما علميا متعمقا لطبيعة جذور الصراعات العرقية، والحضارية، والدينية، بحيث يمكن معالجتها بكفاءة في حال تصاعدها.

ثالثا:

إنها ينبغي أن تشمل فهما علميا لاستراتيجيات حل الصراعات كالتفاوض والوساطة والتصالح إلى آخره.

رابعا:

إنها ينبغي أن تشمل كذلك الإحاطة الدقيقة بأساليب توفير الثقة المتبادلة بين أطراف النزاع بعد إنهائه ضمانا لاستمرارية ورسوخ استقرار الأوضاع.

ويرى إيلياسون أن توافر مثـل هـذه الثقافـة للممارس الدبلوماسي لا يمكن أن تتحقـق إلا بإقامـة علاقة وثيقة بين علم النفس والدبلوماسية.

ولقد تضمنت جلسات علم النفس والدبلوماسـية التي امتدت عبر أيام المؤتمر حوارا ثريا متعمقا بـين الدبلوماسيين وعلماء النفس.

لقد أشار إيلياسون إلى الصـراعات الداخليـة باعتبارها واحدة من ملامح عالم اليوم، عـالم القـرن الحادي والعشرين. ولعلها تمثل الملمح الأقـرب إلـى اهتمامه كدبلوماسي محترف. ولكن لهذا العالم ملامـح أخرى لعلها لا تقل أهمية عن ذلك الـذي أشـار إليـه إيلياسون. وتبين هذه الملامح يقتضينا النظر سريعا إلى أهم ملامح العالم القديم فيما يتعلق بـالعلوم الإنسـانية عامة، وبعلم النفس السياسي على وجه الخصوص لكي نستطيع أن نحدد بشكل أكفأ ملامح ذلك العالم الجديد.

الملح الأول: من عالم القطبين إلى عالم القطب الواحد

لعل أهم ملمح من ملامح ذلك العـالم القـديم– فيما يتعلق بموضوعنا– يتمثل في أنه عـالم القـوتين

العظميين. فلقد عاش العالم لحقبة طويلة في ظل صراع العملاقين الكبيرين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية، وتعددت تسميات هذه الحقبة وفقا لسـماتها المميزة: حقبة اللاحرب واللاسلم، حقبة الحرب الباردة، حقبة العالم ثنائي القطبية، إلى آخره. وفي ظـل هـذه الحقبة تمكن الاتحاد السوفيتي من فرد عباءته لتحتـوي دول أوروبا الشرقية أو دول حلف وارسو، كما تولـت الولايات المتحدة الأمريكية في المقابل قيادة التحـالف الغربي أو ما يعرف بدول حلف الأطلنطي. وفي ظـل هذا المناخ بزغت فكرة مؤتمر بانـدونج عـام ١٩٥٦ بهدف بلورة موقف دول العالم الثالث حيـال صـراع القطبين العملاقين، ونستطيع أن نوجز الموقف الـذي اختارته مصر وعديد من دول باندونج فكريا وعمليـا على الوجه التالي:

على المستوى الفكـري الأيـديولوجي كـان الموقف هو الحياد أو عدم الانحياز لأي من القطبـين المتصارعين، احتفاظـا باسـتقلالية القـرار ورفضـا للتبعية. ولمـا كـان الانعـزال عـن كـلا القطبـين

المتصارعين أمرا مستحيلا فقد ألحق بتعبيـر الحيـاد صفة الإيجابية فأصبح الشعار الفكري المطـروح هـو الحياد الإيجابي.

أما على المستوى العملي فقد كان اختيار مصر وعديد من دول باندونج هو الاقتـراب مـن الطـرف الأضعف من طرفي الصـراع العـالمي الـدائر، أي الاتحاد السوفيتي السابق الذي رحب بهـذا الاختيـار وسانده عمليا. وكان كلا من الاختيار العربي والترحيب السوفيتي تعبيرا عن حقيقة سياسية سلوكية ثابتـة مـن حقائق علم النفس السياسي مؤداها أنك إذا ما سـاندت الطرف الأضعف نسبيا من طرفين متصارعين فإنـك تستطيع أن تحصل على قدر من المكاسب يفـوق مـا يمكن أن تحصل عليه إذا ما اخترت مساندة الطـرف الأقوى في الصراع الثنائي، مع مراعاة الحرص على ألا تكون جزءا مضمونا لا يتجزأ من ذلـك الطـرف. فالطرف الضعيف هو الطرف الأكثر احتياجا للبحـث عن حلفاء، ومن ثم فإنه الأكثر استعدادا لتقديم مكاسب لهؤلاء الحلفاء. ولكن عليك أن تظل حليفا فحسب دون

أن تتحول إلى جزء غير متمايز مـن منظومـة هـذا الطرف لكي لا تفقد ميزة الحصول على مكاسب منـه، وحتى تظل في نفس الوقت محافظا على ميزة القـدرة على المناورة بين الطرفين. وغني عن البيان أن عملية تحديد أي الطرفين الأقوى، وأيهما الأضـعف، كانـت بطبيعتها عملية نخبوية لا يملك إمكانية إنجازها إلا تلك النخبة الممسكة بتقاليد الأمور في دول الحياد الإيجابي. وفي نفس الوقت كان لزاما على تلك النخب أن تـروج إعلاميا لفكرة أن الطرف الذي اختارته للتحـالف هـو الطرف الأقوى في المعادلة الدولية.

وبالفعل فقد بدأت مصر عقب باندونج مباشرة في الحصول علـى الـدعم العسـكري والاقتصـادي السوفيتي، وظلت محتفظة بقدر نسبي مـن اسـتقلالية قرارها الذي تمثل في قرار السادات في النهاية بطـرد الخبراء العسكريين السوفييت قبيـل حـرب أكتـوبر ١٩٧٣.

لقد كان يبدو مطلوبا في ظل عصـر الحيـاد الإيجابي أن تسود منظومة محددة مـن القـيم تحكـم

الشارع العربي لكي يتمثل فلسفة ذلك العصر، ولسـنا بصدد بيان تفصيلاتها، وإن كنا نستطيع الإشارة إلـى ركنيها الأساسيين المتمثلين في موقع السلطة، وموقـع الآخر من تلك المنظومة القيمية:

١- فيما يتعلق بالسلطة فالثقة في قدرات ممثلي السلطة ينبغي أن تكون غير محدودة، ومن ثم فالطاعة غير المحدودة لهم، والاعتماد بالدرجة الأولى علـيهم. فسياسة الحياد الإيجابي تقوم بداية كمـا أشـرنا علـى تحديد الطرف الأقوى والطرف الأضعف من طرفـي الصراع العالمي. ومثل هذا التحديد لا يكون ثابتا، بـل إن التحالفات المبنية عليه لابد وأن تخضع لتغييـرات يتطلبها الموقف الذي قد يقتضي مثلا التلويح بإمكانيـة انتقال التحالف إلى الطرف الآخر، أو إبراز الـرفض الجماهيري للتحالف القائم، وعـادة مـا تكـون تلـك التغيرات سريعة مفاجئة لا يمكن مناقشتها والتمهيد لها جماهيريا، ومن ثم فينبغي أن تكون الجمـاهير طـوع بنان السلطة ورجالها.

٢- فيما يتعلق بصورة الآخـر فـإن الآخـر المختلف عنا لا ينبغي إلا أن يكـون عـدوا شـريرا، والآخر الذي يشبهنا لابد وأن يكون صديقا طيبـا، ولا مجال لوسط بين هذا وذاك. فتطويع الجماهير وشحنها انفعاليا في الاتجاه المطلوب لا يتأتى إلا بـإبراز مثـل هاتين الصورتين المتطرفتين، وتلك حقيقـة سـلوكية أخرى من حقائق علم النفس الاجتماعي بعامـة وعلـم النفس السياسي على وجه الخصوص.

وكان من الطبيعي والأمر كذلك أن تخضع بقية قيم المجتمع لسيادة تلك المنظومة القيمية بركنيها، بـل وأن تتولى مؤسسات المجتمع جميعـا التأكيـد علـى سيادتها. تستوي في ذلك الأسرة والمدرسة والمسـجد والكنيسة وكذلك أجهزة الإعلام على تنوعها.

ولكن ذلك العالم القديم قـد غربـت شمسـه، وانهار الاتحاد السـوفيتي، وتغيـرت معـالم اللعبـة، وانهارت التحالفات القديمة، وأصبح الحديث يدور حول نظام عالمي جديد له قطب أوحد هو الولايات المتحـدة الأمريكية التي بدأت في ترجمة ما جرى إلـى واقـع

فعلي يخدم المصالح الأمريكية وحدها وبشكل مباشـر حيث لم تعد الولايات المتحدة عمليا في نفس الحاجـة القديمة إلى الحليف الأوربي التقليدي الذي كان يمثـل بالنسبة لها خـط الـدفاع المتقـدم لمواجهـة القطـب السوفيتي. ومن ناحية أخرى فـإن الـدول الأوروبيـة خاصة بعد انهيار حائط برلين وما يمثله لم تعـد فـي نفس الحاجة القديمة للمظلة الأمريكية لحمايتهـا مـن النفوذ الشيوعي.

وبدا أن ثمة تناقض جديد، يراه البعض بمثابـة التناقض الحاكم للحقبة القادمة، وهو تناقض المصـالح الأمريكية مع المصالح الأوروبية. وعلى أية حال فلقد كان التململ الأوروبي من السيطرة الأمريكيـة علـى مقدرات أوروبا والعالم هو محور حديث متصـل فـي ردهات الملتقى الأوروبي العربي الثالث الذي انعقد في مدينة طليطلة الإسبانية من ٢٤–٢٦ نـوفمبر ١٩٩٤، والذي شرفت بتمثيل مصر فيه، والذي شـاركت فيـه للمرة الأولى فرنسا وألمانيا والسويد وبلجيكا، بعـد أن كانت المشاركة قاصرة قبل ذلك على إسبانيا. ولم تكن

الأحاديث الأوروبية في ذلك الملتقى مجرد تعبير عـن هموم أوروبية فحسب، بل امتدت لتشمل تساؤلات عن الموقف العربي من تلك الأوضاع العالميـة الجديـدة، ولقد شارك في هذه المناقشات نخبة من رموز الفكـر والسياسة الأوروبيين من بينهم رولان دوماس وزيـر الخارجية الفرنسـي الأسـبق، وروبـرت هوليسـون البليجكي رئيس قسم العلاقات الاقتصـادية الخارجيـة بالاتحاد الأوروبي، وهانز جنتر بروخ الألماني رئيس معهد بحوث السلام والأمن الأوروبـي، ورينهـارت روميل المتخصص في السياسـة الدوليـة، والسـفير إنجرام كارلسون مستشار وزارة الخارجية السـويدية، فضلا عن انطونيو مارتينكس مدير المعهـد الإسـباني للتعاون مع العالم العربي، وأنطونيـو باكوينـا أسـتاذ العلاقات السياسية الإسباني.

وكـان انطبـاعي خـلال المـؤتمر هـو أن الأوروبيين يعولون كثيرا على استمرار تلك السلسـلة من اللقاءات بهدف تنظيم وتدعيم العلاقات الأوروبيـة العربية، وبالتحديد لموازنة العلاقات الأمريكية العربية،

حيث يرى الأوروبيون بشكل عـام أن الاسـتراتيجية الأمريكية تقوم في هذا المجال على التعامل مـع كـل دولة عربيـة علـى حـدة، فـي حـين أنهـم – أي الأوروبيين– يفضلون من واقع خبرة الوحدة الأوروبية التعامل عبر استراتيجية عربية موحدة. والشكل الأمثل لإنجاز هذا النوع من التعاون هو أن يتم عبر جامعـة الدول العربية.

وتمضي الأيام، وتحمل لنـا الأنبـاء اقتراحـا محددا يطرحه المفكر الفرنسـي المعـروف روجيـه جارودي مؤداه أن الوقت قد أصبح مناسبا للدعوة إلـى عقد مؤتمر على غرار مؤتمر باندونج، تجتمع فيه دول العالم الثالث لتعيد بلورة مواقفها مـن قطبـي العـالم الجديد. ويلمح جارودي إلى أن أوروبا في حاجة لعقـد هذا المؤتمر ليشد من أزرها في محاولاتهـا مواجهـة الضغوط الأمريكية الثقافية والاقتصادية.

ترى هل دار الزمن دورته لنشهد انقسام العالم من جديد إلى قطبين، قطب يتمثل في الولايات المتحدة الأمريكية، وهو القطب الأقوى نسبيا، فـي مواجهـة

القطب الأوروبي الأضعف نسبيا والأحـوج مـن ثـم لموقف عربي واضح ومساند؟ لقد بلغ التململ مـن الهيمنة الأمريكية الطاغية على مقدرات العالم غايتـه، واتسع نطاق المتململين والمضارين ليشمل إلى جانـب الدول العربية، ودول العالم الثالث دول أوروبا واليابان بل والعديد من المثقفين حتى داخل الولايات المتحـدة ذاتها. على أية حال فإن ذلـك التنـاقض الأوروبـي ومازال في إطار الأمنيات التي لم يفقد أصحابها الأمل حتى بعد أن رأوا بأعينهم أعلام دولهم الأوروبية تخفق تحت العلم الأمريكي مدمرة العراق بعد غزو الكويت.

وإذا كانت تلك هي أبرز ملامح منظومة القـيم التي سادت المرحلة السابقة، فـإن للمرحلـة الراهنـة ملامحها التي تفرض بالتالي منظومة جديدة للقيم تسعى للتسيد في التنشئة الاجتماعية. ولعل ما نشهده حاليـا – ويضيق به الكثير منا – من مظاهر انفـلات وتمـرد الشباب، قد يكون تعبيرا عن بزوغ عفـوي لمنظومـة قيمية جديدة تفرضها التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي يشهدها مجتمعنا.

الملمح الثاني : من التحكم الإعلامـي إلـى الثـورة الاتصالية

لقد كثر الحديث عما يتصف به عالم اليوم من ثورة في مجال الاتصال، ولذلك فسوف نوجز القول في هذا الموضوع مكتفين بتأكيد أنه لم يعد فـي مقـدور المؤسسات الاجتماعية في أية بقعة من بقاع العـالم أن تحجب عن أبنائها أية معلومات تبثها أجهزة الإعـلام المحلية أو الخارجية بصرف النظر عـن موافقتهـا أو معارضتها لمضمون تلك المعلومات، تستوي في ذلـك الأسرة والمدرسة بل والمسجد والكنيسة والدولة أيضا. لقد مضى ذلك الزمن الذي كانت فيه تلك المؤسسـات الاجتماعية قادرة على إحاطة أبنائها بسياج يحول دون وصول المعلومات غير المرغوبة إلى آذانهم أو إلـى عيونهم سواء كانت تلك المؤثرات خارجية المصدر أو داخلية المصدر. أما في عـالم اليـوم فقـد أصـبحت المعلومات سواء كانت نزيهة أم مغرضـة، مرغوبـة كانت أم مرفوضة، داخلية كانت أم خارجيـة، متاحـة

لقطاعات متزايدة من الأفـراد مـن مختلـف الفئـات العمرية والاجتماعية.

وغني عن البيان أن الوضع القديم كان مريحا للمؤسسات الاجتماعية التي كانت تستطيع بمجهود أقل أن تلقن أبناءها وتنشئهم وفقا للنموذج الذي ترتضـيه، في ظل صراع يلتزم –إذا ما قام– بالحدود الداخلية لا يتعداها كثيرا. وقد كان كل ذلك متفقا تماما مع منظومة القيم السائدة.

ولكن الأمر يختلف تماما فـي ظـل الوضـع الجديد، حيث أصبح الوقوف عند حد تلقين المواطن ما يراه ممثلو السلطة طيبا وتحذيره من مغبة الإنصات أو المشاهدة لما يقدمه الآخر، أمر غير مجد عمليا، فضلا عن أنه لم يعد مستساغا قيميا في ظل عـالم يتنـادى بالانفتاح على الآخرين. ومن ناحية أخرى فلم يعد على ذلك المواطن أن يجهد نفسه بالسعي ليسمع أو ليشـاهد ما لدى الآخر، بل إن ما يبثه ذلك الآخر أصبح يخترق آذانه، ويقتحم مجال رؤيته بعـد أن تهـاوت قـدرات المؤسسات الاجتماعية التقليدية على الرقابة والتصفية.

ولم يعد أمامنا إلا تزويد أنفسنا –قبل أبنائنا– بقيم جديدة وبمهارات جديدة طال العهد بوأدنا لها.

الملح الثالث : من حقوق السلطة إلى حقوق الإنسان

المقصود بالحديث عن حقوق الإنسان هو تلـك الحقوق التي ينبغي كفالتها للإنسان الفرد في مواجهـة سلطات المؤسسات الاجتماعية التقليدية، وعلى رأسـها الدولة. وهو الأمر الذي يعد خروجا عن المألوف فـي ظل المنظومة القيمية القديمة حيث كـان قـادة تلـك المؤسسات باعتبارهم ممثلي السلطة هم المسئولون أولا وأخيرا عن تحديد كل ما يتعلق بالفرد في هذا المجال.

أما في عالم اليوم فإن الحديث يتعاظم عن دور الجمعيات الأهلية والمنظمات غير الحكومية، بما يعنيه ذلك – بل ويتطلبـه – مـن تأكيـد لـدور الأفـراد والمبادرات الفردية، وتزايد الحديث بل والفعـل فـي مجال حقوق الإنسان. وينبغي أن نلاحـظ أن الطـرح الدولي العام لقضايا الحقوق الإنسانية هذه يبرر كسـر

قاعدة استقرت طويلا، وهي قاعدة عـدم مشـروعية التدخل في الشئون الداخلية، لتحل محلها قاعـدة حـق التدخل في شئون الآخرين إذا ما انتهك هؤلاء الآخرون حقوق الإنسان. ولسنا بصدد التعرض للجـدل الـدائر حول خبث نوايا أصحاب النظام العالمي الجديـد فـي استخدامهم لذلك الحق لاقتحام الشئون الداخلية للـدول والنظم الحاكمة، بدعوى أن حقوق الإنسان لم تعد شأنا داخليا خالصا. بل إن الأخطر – فيما نرى – هو امتداد هذه القاعدة إلى مجال حقـوق الطفـل، وذلـك علـى مستويين: يتمثل المستوى الأول فـي حـق المجتمـع الدولي في مراقبة التزام الدول بمراعاة حقوق أطفالها، كما يتمثل المستوى الثاني في اتساع حق المجتمع فـي حماية حقوق أطفاله حتى ولو كانت هذه الحمايـة فـي مواجهة حق الأسرة في تنشئة أطفالها كما تريد. بعبارة أخرى فإن حق الأسرة في تنشئة أطفالها لم يعد بحـال حقا مطلقا، أو شأنا داخليا خالصا ؟

الفصل التاسع

الطفل والسياسة

الطفل والسياسة

الصراع قدر البشر منذ وجدت الحياة، ولإدارة الصراع سبل شتى لعل أبرزها سبيلين: استخدام القوة البدنية والمادية، والتفاوض وما يندرج تحته من بناء التحالفات والجبهات؟ ولكن قد يبدو للوهلة الأولى أن تعبير إدارة الصراع بما يتسم به من غلظة يبعد عن مجال الطفولة التي ألفنا أن نصفها بالرقة والضعف. وفيما نرى فإن الأمر ليس كذلك على الإطلاق، بل على العكس تماما. ولقد كان لي شخصيا حظ الممارسة العملية في مجالين من مجالات علم النفس تبدو الشقة بينهما بالغة: مجال التنشئة الاجتماعية للأطفال، ومجال التفاوض السياسي. واتضح لي من جماع الممارسة في المجالين أن الطفل يمتلك بحكم ضعفه الفيزيقي قدرة هائلة في مجال محدد من مجالات إدارة الصراع هو مجال التفاوض.

إن التفاوض هو محاولة أن تكسب إلى جانبك أولئك الذين ترى أن بيدهم تحقيق مصلحة لك، ولكنهم

لا يمنحونها لك طواعية ولا تستطيع أنت الحصول عليها عنوة لاعتبارات فيزيقية أو أخلاقية أو قانونية... إلى آخره. ولو حاول أي منا أن يكتب قائمة تتضمن ما يريده من الآخرين، لوجد أن هذه القائمة تمتد إلى ما لا نهاية، وأنها تضم قائمة بالغة التنوع والاختلافات: إجازة من العمل، زيادة في المرتب، مشتروات أفضل بأسعار أقل، إعفاءات ضريبية، الحصول على أعلى سعر لأشياء نعرضها للبيع، إلى آخره. ولا تقتصر القائمة على تلك الأمور المادية المحسوسة فحسب. نحن نريد من الآخرين كذلك العديد من الأمور المعنوية التي قد تفوق في قيمتها أحيانا الأمور المادية كالعدالة، والحرية، والحب، والأمن، والمكانة الاجتماعية وما يرتبط بها من ألقاب ونياشين وأوسمة. ذلك فضلا عن مجالات التفاوض بين ممثلي الجماعات القومية والسياسية.

خلاصة القول أن ثمة سنة من سنن الكون مؤداها أنه لا يوجد فرد يستطيع تحقيق احتياجاته جميعا بمعزل عن الآخرين، وأن الجميع في حاجة للجميع،

ومن ثم فإننا جميعا نمارس التفاوض طيلة الوقت وطيلة الحياة.

إنك لو نظرت إلى عالم البشر المحيط بك لوجدته عبارة عن مائدة مفاوضات هائلة لا حدود لها. الجميع يجلسون حولها، وكافة الموضوعات مطروحة عليها للتفاوض. وأنت طرف مشارك في هذه المفاوضات. شئت أو أبيت. تكلمت أو اكتفيت بالإيماءات أو حتى التزمت الصمت، كبيرا كنت أو صغيرا، ذكرا كنت أو أنثى، إنك تتفاوض دائما مع أفراد أسرتك. ومع رؤسائك، ومع مرؤوسيك، ومع منافسيك، ومع البائعين، ومع المشترين إلى آخره. بل إنك تتفاوض أيضا مع رموز ومؤسسات معنوية كإدارة المدرسة، وإدارة المرور، ومصلحة الضرائب، وشركات الطيران، وإدارة الكهرباء إلى آخره. وقد تكون أنت شخصيا رمزا لأي من مثل تلك المؤسسات وتتفاوض باسمها مع طرف أو أطراف أخرى.

إن حقائق علم التفاوض السياسي تؤكد أنك لا تستطيع أن تحصل من خلال المفاوضات على أكثر

مما تسمح به موازين القوى الفعلية، فمهارة التفاوض ليست قوة سحرية تمكن المفاوض الماهر من الحصول على ما يريد كاملا ولا في كل وقت. ورغم صحة تلك الحقيقة، فإنه كثيرا ما تسيطر على المفاوضين السياسيين– خاصة في بداية خبراتهم بالمجال– فكرة مؤداها أن موازين القوى الفعلية إنما تتمثل فحسب في القوى المادية. ومن ثم فإنهم يتوجسون شرا حين تضطرهم ظروفهم العملية للإقدام على التفاوض مع طرف يتفوق عليهم في مجال موازين القوى كما يفهمونها. ولذلك فإن برامج إعداد وتدريب المفاوضين لا تخلو عادة من جانب يتناول هذه القضية، قضية التفاوض من موقع اختلال موازين القوى المادية لصالح الطرف الآخر. ولعل حالة التفاوض من موقع اختلال تلك الموازين تتجسد في حالة إدارة الطفل لصراعه من أجل تحقيق رغباته.

الطفل البشري هو أضعف المخلوقات قاطبة، فهو الكائن الوحيد الذي لا توجد أمامه أية فرصة للاستمرار في الحياة إذا لم يوجد بين من يقومون عليه

ممن هم أكبر منه. إنه يولد غير مزود بأي من أدوات الحفاظ على الحياة. عاجز عن رد العدوان، عاجز كذلك حتى عن البحث عن طعامه. أنه يولد وليس لديه سوى عدد محدود من ردود الفعل الأولية البسيطة يمكن حصرها في المص والبلع والبكاء والنوم. ولكنه يولد مزودا بسلاح هائل يستطيع أن يستثمر به تلك الإمكانات المتواضعة ويتمثل ذلك السلاح في قدرته غير المحدودة على استثمار تلك الإمكانات في التعامل مع أولئك الذين بيدهم مقادير حياته. وسوف نحاول معا استيعاب مقتطفات من دروس تلك الممارسة الذكية لإدارة الصراع من خلال رصد وتحليل بعض المواقف العملية التي صادفتني خلال ممارستي في مجال التنشئة الاجتماعية للأطفال.

الموقف الأول

إن أول أسلحة الطفل يتمثل في البكاء، وغني عن البيان أنه سلاح بالغ الضعف إذا ما قورن بما لدينا نحن الكبار من أسلحة. ورغم أن البكاء يكون في البداية استجابة طبيعية تلقائية للإحساس بالألم البدني

الناجم عن الجوع أو البلل أو ما إلى ذلك، فإنه سرعان ما يتحول لدى الطفل إلى سلاح لا علاقة له البتة بأي نوع من أنواع ذلك الألم البدني، ليصبح أداة يضغط بها الطفل على الكبار لكي يحققوا له ما يريد مما لا يستطيع تحقيقه بنفسه. ولو تأملنا أطفالنا لوجدنا أنهم يطورون تلك الأداة البسيطة وينوعون في شكلها وفقا لما يقتضيه الموقف. فالبكاء يستخدم أحيانا لإزعاج من بيدهم الأمر بحيث قد يضطرون إلى تلبية المطالب إيثارا للهدوء وتخلصا من الإزعاج. وقد يستخدم البكاء أحيانا أخرى لاستدرار عطفهم مما قد يدفعهم إلى تلبية المطلب إشفاقا وحبا. وقد يستخدم البكاء في أحيان ثالثة للعتاب والتحذير من تكرار الفعل المرفوض كترك الطفل وحيدا. ونغمة البكاء تختلف من حالة لأخرى ومن موقف لآخر، فهي تقترب من الصراخ في الحالة الأولى، في حين أنها قد تكون إلى الأنين أقرب في الموقف الثاني، وهي قد لا تعدو أن تكون نهنهة في الموقف الثالث. أذكر موقفا لطفل استخدم فيه بمهارة فائقة تلك النغمات الثلاث في ثلاثة مواقف متتالية. لقد

اضطرت أمه لحمله إلى منزل جدته صباحا لكي تذهب إلى عملها. وما أن وصلا واستدارت متجهة للباب حتى انطلق صراخه احتجاجا آملا أن ينجح في إثنائها عن قرارها. ولكن لم يكن بد من أن تتركه الأم في قمة تزايد صراخه إلى أقصاه. وبعد فترة وجيزة أدرك بعدها أنه لا أمل في تراجعها عن قرارها فقد نفذته بالفعل. ولم يلبث آنذاك أن تلفت صوب جدته وتحول صراخه إلى نوع من الأنين مختلطا بكلمات تحبب للجدة مشفوعة بقائمة من طلبات الحلوى واللعب المفضلة إلى آخره. وانطلق الطفل يلعب إلى أن عادت الأم. وإذا به يعاود البكاء هذه المرة ولكنها النهنهة كما لو كان يعاتبها محذرا من تكرار ذلك.

وإذا ما حللنا هذا الموقف مستخدمين لغة التفاوض التي يعرفها الكبار لاستطعنا أن نتبين بسهولة أن الطفل في هذه السن المبكرة – سن ما قبل المدرسة – قد استوعب قيمة ما لديه من أداة الصراع، وطور تلك الأداة لتتخذ أشكالا مختلفة، واستخدام كل شكل في توقيته المناسب، فللصراخ وقت يختلف عن وقت الأنين

وللنهنهة وقتها المناسب كذلك. ومن ناحية أخرى فقد توافرت لديه المرونة الكافية للإقلاع عن استخدام سلاح لم يعد مناسبا للموقف، فلم يستمر في ممارسة شكل محدد من أشكال البكاء بعد أن أدرك بشكل واقعي عدم جدواه. بل إنه استوعب أيضا أهمية الاستفادة من إمكانية تعديل الطلبات، فلا بأس من الحصول على بعض اللعب والحلوى وحب الجدة أيضا، كثمن معقول للكف عن البكاء، ولكن تقاضيه ثمنا للتهدئة لا ينبغي أن يفهم على أنه تنازل عن المطلب الأساسي ومن هنا كانت نهنهة العتاب.

الموقف الثاني

طفلنا في هذه الحالة أكبر قليلا. يعيش في كنف والديه. الأم لا تعمل، والأب يعمل نهارا في جهة حكومية، وله عمل آخر بعد الظهر يعتمد عليه لاستكمال ما يحتاجه البيت من مصروفات. ولذلك فإنه يعود من عمله الحكومي ليتناول غذاءه بسرعة ثم يغفو لفترة محدودة حتى يستطيع الذهاب إلى عمله الثاني نشطا. وخلال هذه الفترة المحدودة ينبغي أن تحافظ

الأم بصرامة على هدوء المنزل تماما، وحين كانت تغفل عن الالتزام بذلك لسبب أو لآخر كانت تتلقى منه عتابا قد يكون حادا.

ذات يوم بدا للطفل أن سنه قد أصبح مناسبا للنزول إلى الشارع بمفرده. وبدأت مفاوضاته مع الأم منذ الصباح الباكر بعد خروج الأب للعمل وانهماك الأم في الأعمال المنزلية المعتادة. وكان الرفض قاطعا في البداية:

– إنك مازلت صغيرا

– لقد كبرت. فضلا عن أنني أرى بعيني أطفالا في مثل سني يسيرون في الشوارع بمفردهم.

– إنهم يختلفون عنا لا شأن لنا بهم. ثم إن أحدا لا يمشي في الشارع دون أن يريد شيئا محددا.

– حسنا إنني أريد شراء حلوى من البقال على الناصية.

– أطلب من والدك أن يأتيك بما تريد.

ويستمر الطفل دون ملل في تفنيد حجج الأم إلى أن تضيق به فيبدأ في البكاء احتجاجا على رفض

مطالبه. وتظل الأم عند موقفها، وبعد فترة يكف الطفل عن البكاء وينصرف إلى شأن آخر. وتظن الأم أن طفلها قد تخلى عن مطلبه. ولكنه تأجيل إلى حين.

لقد عاد الأب من عمله الصباحي، وتناول غذاءه، وبدأ غفوته التقليدية، وانصرفت الأم إلى نشاط منزلي لا يستدعي حركة ولا صوتا. وإذا بالطفل يقترب منها في هدوء، ليتبادل معها حوارا هامسا:

– أرجو يا أمي أن تسمحي لي بالنزول إلى الشارع.

– أنت تعرف أنني لا أوافق، الشارع خطر.

– لن أعبر الشارع سأسير على الرصيف إلى أن أصل إلى البقال على نفس الرصيف.

حبيبي إنني أقلق عليك ولا يمكن أن أوافقك على ذلك

– فيم القلق؟ تستطيعين أن تنظري إلي من الشباك لتراقبيني.

– قلت لا. كف عن مناقشة هذا الموضوع

ويبدأ الطفل في نشيج خافت كما لو كان نذيرا بصراخ قادم تعرف الأم مدى ما يسببه من إزعاج. وتتورط الأم في أن تعده بأنها ستفكر في الأمر، ويبادرها محتضنا إياها شاكرا لها أنها سمحت له، مطالبا إياها أن تقسم على ذلك. ولا تجد الأم القدرة على رفض هذا الحب الجارف، فتقول له إن شاء الله ويؤكد هو على التزامها بوعودها مكررا تأكيد حبه لها.

وحين يستيقظ الأب تروي له الأم ما حدث ويتفقا على عدم الاستجابة لهذا المطلب حتى لو صرخ الطفل وضاعت غفوة الأب. وكرر الطفل محاولته، وارتفع النشيج إلى بكاء، وإذا به يفاجأ بأن ثورة الأب تتجه هذه المرة إليه وليس إلى الأم. ويصمت فورا. ولكن أيضا إلى حين.

لقد أدرك الطفل أن سلاح البكاء قد فقد فعاليته. ولكنه لم ييأس. لقد لاحظ عبر سنوات عمره الصغير أن والده لا ينحني ليقبل يد أحد إلا يد الجدة، وأن أحدا لا يخاطب والده بلهجة تحمل صيغة الأمر إلا هذه الجدة. وانتهز الصغير فرصة وجوده مع جدته ليعبر

لها أولا عن حبه الشديد لها، ثم يشكو لها ما يعانيه من إصرار والده على حرمانه من متعة المشي في الشارع. وتتعاطف الجدة معه وتعده بالتدخل لدى والده.

لن نمضي طويلا في تتبع مغامرات صغيرنا في إدارته لصراعه من أجل تحقيق هدفه. ولننتقل إلى تحليل مجريات هذا الموقف مستخدمين مرة أخرى لغة التفاوض التي يعرفها الكبار.

لقد تميزت إدارة الصغير للصراع بما تطلق عليه برامج تدريب المفاوضين اختيار الوقت المناسب للتقدم بالطلبات وبدء التفاوض، ويؤكد علم التفاوض السياسي أن اختيار التوقيت المناسب يقتضي دراسة الاحتياجات الحقيقية للطرف الآخر دراسة جيدة بحيث يسهل اختيار الوقت الذي يكون فيه الطرف الآخر في أضعف حالاته بحيث يسهل ممارسة الضغط عليه. لقد اختار طفلنا وقت انشغال الأم، ووقت نوم الأب للتقدم بطلباته وممارسة ضغوطه.

وتميزت إدارة الصغير للصراع أيضا بما يعرف بفن التحالف. وقد استطاع طفلنا أن يتحالف مع

الجدة ليضغط من خلالها على الأب. بل إنه استخدم أيضا ما يعرف في فن التفاوض بأسلوب التوريط وانتزاع الالتزامات حين بادر بإعلان تفسيره لوعد الأم له بالتفكير في الموضوع، باعتباره قبول من حيث المبدأ، بل والتزام بتلبية المطلب.

لقد اكتفينا بهذين الموقفين فحسب من بين العديد من المواقف التي تكشف عن حقيقة مؤداها أن الأطفال يمارسون بالفعل مهارات إدارة الصراع بالتفاوض منذ البدايات الأولى لحياتهم. إنهم يمارسون في البداية العديد من أساليب التحالف والتفاوض، والرفض اللفظي المعلن، والاحتجاج السلبي بكافة مظاهره التي تصل بالأطفال أحيانا إلى ممارسة أشكال جنينية من العصيان المدني كرفض التحرك مع عدم تنفيذ التعليمات، وكالامتناع عن تناول الطعام إلى آخره. ولكنهم للأسف لا يستمرون. كذلك فنحن الكبار إيثارا لهدوئنا واستقرار مجتمعاتنا على ما هي عليه، ونفورا من دفع ثمن التغيير، نتكاتف لدفع أطفالنا إلى ما يتنافى مع فطرتهم التلقائية الطبيعية. الطفل بفطرته

محاور، ندفعه إلى الصمت. الطفل بفطرته متسائل، ندفعه إلى تقبل التلقين. الطفل بفطرته مفاوض فعال، ندفعه إلى الجمود العدواني. الطفل بفطرته تلقائي، ندفعه إلى التصنع والمداهنة، الطفل بفطرته ميال للمشاركة، ندفعه إلى الانطواء والتوجس من الآخرين. ولم يكن غريبا بعد ذلك، أن تؤدي تنشئتنا لأطفالنا إلى حيث لا يجد الطفل أمامه لمواجهة مواقف الحياة إلا واحدا من سبيلين لا ثالث لهما: إما التصدي بالعنف لإزالة ما يحول بينه وبين ما يريد تحقيقه، ذلك إذا ما استطاع، فإذا لم يستطع، وكانت العقبة أقوى من إمكاناته؛ لم يعد أمامه إلا السبيل الآخر وهو الاستسلام بلا شروط: هجرة فعلية، أو مرضا نفسيا، أو انطفاء سلبيا.

حول التنشئة السياسية للأطفال: حالة واقعية

الزمان:

الثلاثاء ٣٠ مايو ١٩٩٦

المكان:

أحد محلات الحلوى بالقاهرة.

الظروف السياسية:

إثر ذروة مذبحة قانا التي قام بها الجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان ضمن ما عرف بعملية عناقيد الغضب. وراح ضحية المذبحة ما يقرب من ١٠٠ مدني لبناني.

الموقف:

طفل يطلب نوعا من الحلوى على هيئة نجمة. حين جاءت الحلوى أبدى الجد ملاحظة أنها تشبه نجمة إسرائيل. تدخل الطفل قائلا أنا بكره إسرائيل يا جدو. سأل الجد ليه يا بابا أجاب لأنها وحشة... عندها بمب وبتضرب الناس. تصور الجد أنه تأثير الإعلام بطبيعة الحال، وأراد أن يتعرف على نوعية ما شاهده، فسأله:

– عرفت أزاي.

– من ماجدة.

– ماجدة مين.

– زميلتي في المدرسة (يقصد الحضانة)

– وهي عرفت إزاي؟

– باباها كان ضابط في الجيش، وإسرائيل كانت بتضربه بالبمب.

التعليق:

لعل أهم ما نخلص إليه من هذه الحالة الواقعية أن المؤسسات الرسمية سواء كانت إعلامية أو تعليمية لا تمثل المصادر الوحيدة ولا الأساسية في تشكيل صورة "الآخر" السياسية، بل إنها الخبرات الواقعية التي يتم تناقلها عبر الأجيال بعيدا عن كافة المؤسسات الرسمية، وعبر قنوات الاتصال الشخصي.

أطفالنا.. ورؤى المستقبل

قد يبدو الحديث عن الطفل العربي أمرا ميسورا بحكم أنه أصبح من أمور الحديث المألوفة – بل وأكاد أقول– المتكررة ورغم ذلك يتزايد الإحساس بأهمية أن نطرح على أنفسنا تساؤلا: ترى هل نحن على الطريق الصحيح؟ لقد بذلنا جهودا مضنية وتحركنا كثيرا كثيرا، وتغيرنا كما تغير الواقع من حولنا، وها نحن على مشارف القرن الواحد والعشرين،

والسؤال مازال يتردد. لعل الإلحاح في طرح هذا السؤال إنما يرجع إلى حقيقة موضوعية مؤداها أن مقادير أمتنا العربية خلال الربع الأول من القرن الحادي والعشرين –وهو ليس ببعيد– سوف تكون في أيدي أجيالنا الجديدة.

والإجابة على مثل هذا التساؤل ليست بالأمر اليسير فهي تعني في النهاية تقييم الاتجاه العام للجهود التي بذلت وتبذل في مجال الطفولة. والتقييم يحتاج إلى معيار نرتضيه ونتفق على صلاحيته، والمعايير في هذا الصدد تتعدد وتتباين ولعله من المناسب أن نلقي الضوء على بعض منها لنتبين مدى ملاءمته.

أولا: الاحتكام إلى الماضي. ولعل هذا المعيار هو أكثر المعايير شيوعا، وأشدها جاذبية على المستوى العملي، فليس أيسر من حصر الجهود التي بذلك وبيان تنوع أنشطتها وأعداد من شاركوا فيها وما تكلفته تلك الجهود من مال ووقت. وما قدمته من خدمات وأعداد الأطفال الذين شملتهم تلك الخدمات ثم مقارنة هذا كله بما كان عليه الحال في الماضي ولعل جاذبية هذا

المعيار إنما يرجع إلى أمرين: فهو من ناحية الشكل يمكن أن يتخذ صورة عصرية رقمية تتمثل في جداول إحصائية ومعادلات رياضية تبعث على الثقة والانبهار وفضلا عن ذلك فإن استخدام هذا المعيار يتيح فرصة أكبر للتوصل إلى نتائج متفائلة مما يخلق شعورا بالرضا وقناعة بصواب الطريق.

ورغم جاذبية هذا المعيار وشيوعه. فإنه فيما نرى– أبعد ما يكون عما نرجوه. فالتركيز على ما تحقق يهمل الاهتمام بما كان يمكن أن يتحقق. ومن ناحية أخرى فإن التركيز على الكم الذي تم إنجازه يهمل الاهتمام بالكيف الذي حققه هذا الإنجاز.

ثانيا: الاحتكام إلى الحلم: وهو الأشد جاذبية بالنسبة للساعين إلى السلطة من البعيدين –أو المبعدين– عن دائرة اتخاذ القرارات التنفيذية. والمقصود بالحلم في هذا السياق تلك الصورة النموذجية المثالية التي يتمناها المرء تعبير "المستقبل".. المستقبل نتاج للحاضر وامتداد موضوعي له. ولذلك فالحديث عن علوم المستقبل وارد ومشروع، أما الحلم

فهو مجرد تصور مثالي للمستقبل كما نود أن يكون دون تقيد حتى بالحاضر لذلك فليس غريبا أن ينتمي الحلم الاجتماعي في كثير من الأحيان إلى الماضي يحن إليه ويتمنى عودته وعادة ما يسفر الاحتكام إلى الحلم عن إدانة للواقع، وتشاؤم حيال المستقبل. ورغم ما قد يتميز به هذا الاتجاه من بريق تقدمي زائف فإنه يؤدي عمليا إلى موقف يائس عاجز عن محاولة تغيير الواقع.

ثالثا: الاحتكام إلى النموذج الغربي: وهو المعيار الشائع لدى قطاعات واسعة من مثقفي الدول النامية ويعني أن نقيس ما أنجزناه بالنسبة للطفل المصري بمقدار اقترابه أو مطابقته لما عليه الحال في الغرب.

والغرب في هذا السياق إنما يعني الغرب الرأسمالي والاشتراكي على حد سواء ولابد لنا في هذا الصدد من التفرقة بين المنجزات العلمية والأهداف الاجتماعية فليس ثمة من ينكر أن الغرب يسبقنا في كثير من مجالات الإنجاز العلمي. وليس مقبولا بأي

منطق أن نحرم أنفسنا من هذه المنجزات، بل حتى أن نتهاون في السعي لتحصيلها بصرف النظر عن الانتماءات القومية أو العرقية لأصحابها. ولكن الأهداف الاجتماعية ليست قابلة للاستيراد بأي حال من الأحوال وخاصة في مجالات الطفولة وتنشئة الأطفال.

ومكمن خطورة الاحتكام إلى النموذج الغربي في هذا الصدد يتمثل في أن أصحابه يستندون إلى ترسانة فكرية وتكنولوجية هائلة من التراث الغربي، وفي خضم التقدم الغربي العام، قد تبدو هذه الترسانة جزءا من المنجزات التي ينبغي أن ننسج على منوالها ومن ثم يختلط كل شيء بكل شيء وتتدفق على بيوتنا ومصانعنا ومعاهدنا كافة المنجزات الغربية لا فرق بين لعبة الطفل وصناعة الحديد والصلب، ومقياس الذكاء وصناعة السيارات.. إلى آخره، فكلها منجزات غربية متقدمة وهي كذلك دون شك ولا يصبح غريبا والأمر كذلك أن نجد من ينادي باستيراد آخر صيحة في تربية الطفل، بل وقد يدعو إلى إنشاء فروع للمعاهد الغربية المتخصصة في تدريب العاملين في هذا المجال. ولا

يصبح غريبا والأمر كذلك أن نحتكم حتى في مجادلاتنا العلمية المتخصصة إلى آراء وتصورات ورؤى علماء الغرب باعتبارهم مراجعنا العليا.

ترى لماذا وكيف أمكن لهذه المعايير الثلاثة– رغم تنافر منطلقاتها – أن تتعايش معا في واقعنا المعاصر؟ لماذا لم يسفر تصارعها عن سيادة أحدها أو بزوغ معيار جديد؟ وهل ثمة سبيل إلى تقدم حقيقي في مجال الطفولة دون حسم هذا الأمر؟. غني عن البيان أن تحديد الأهداف في مجال الطفولة ليس بالأمر اليسير. إن الاتفاق على تحديد ملامح الحاضر – رغم صعوبته – أيسر بكثير من الاتفاق على رؤية للمستقبل. والأهداف الاجتماعية هي محاولة للإجابة عن سؤال مؤداه ما هي طبيعة المستقبل الذي ينبغي أن نعد أطفالنا لمواجهته بل وللإسهام في تشكيله؟ والإجابة على مثل هذا السؤال الجوهري قد يسهم فيها العلم بمقدار ولكن يسهم فيها كذلك – وربما بنفس المقدار – الاختيار الاجتماعي الفكري للموقف من المستقبل. إن المعرفة العلمية قد تتيح لنا قدرا لا يستهان به من التنبؤ

بالتطورات التكنولوجية في عالم الغد، وقد تتيح لنا كذلك تصورا للتطورات المستقبلية في مجالات الموارد والبيئة والسكان. بل وقد تتيح لنا – وبقدر أقل من الحسم والدقة– عددا من الرؤى المستقبلية لتطور الصراعات الدولية والإقليمية. ولكن هذا كله ومهما بلغت دقته لا يكفي وحده لتحديد طبيعة الأهداف الاجتماعية التي نشهدها خلال تنشئة أطفالنا. فنحن مطالبون إلى جانب هذا كله بل وحتى قبل هذا كله بأن نحدد موقفا اجتماعيا فكريا من هذه التطورات المستقبلية المتوقعة. ما الذي ينبغي علينا أن نعد أطفالنا لتقبله من تلك التطورات؟ وما الذي ينبغي علينا أن نعدهم لمواجهته ورفضه والتصدي له؟ إنها قضية اختيار أيديولوجي أساسي، ومثل تلك الاختيارات الأيديولوجية تتضمن بلا شك قدرا حتميا من المخاطرة وتحمل مسئولية الاختيار. وفي مناخ فكري عالمي تسوده البراجماتية والوسيطة والتلفيقية يصبح الأكثر إغراء هو الهروب من مهمة الاختيار الفكري الاجتماعي الحاسم حيال متغيرات المستقبل بل وتحاشي

مهمة التعرف العلمي الجاد على المستقبل وبدائله المحتملة. ولعل من أهم ما يساعد على هذا الإغراء بالهرب أن ثمة غموضا يحيط بتحديد من ينبغي أن توكل إليهم هذه المهمة في مجال الطفولة، بل ويحيط كذلك بمفهوم الطفولة في حد ذاته.

أن الحديث عن الأهداف المستقبلية لأنشطتنا في مجال الطفولة يتطلب مشاركة المتخصصين باعتبارهم أصحاب الخبرة العلمية والمهتمين من أهل الفكر باعتبارهم أصحاب الرؤى الأكثر شمولا، إلى جانب الجمهور من الآباء والأمهات بل وحتى النشء باعتبارهم أصحاب المصلحة. ولكن قد يرى البعض أن ما نحن بصدده إنما هو قضية علمية خالصة ولا ينبغي أن يسمع فيها لغير رأي العلماء المتخصصين وحدهم. ويستند هؤلاء فيما يرونه إلى أن العصر الحديث إنما هو عصر التخصص العلمي. وقد يرى البعض– ونحن منهم– أن قضية الطفولة ومستقبلها تدخل في إطار القضايا العامة التي ينبغي أن يتسع تناولها لما هو أرحب من الدائرة الضيقة للعلماء المتخصصين وتستند

هذه الرؤية إلى حقيقة أن العلم مهما بلغت دقة إجراءاته ومهما تعددت تخصصات المشتغلين به إنما يفقد دلالته وجدواه إذا ما افتقد الإطار الفكري الاجتماعي ويصبح لزاما أن يكون واضحا منذ البداية طبيعة وحدود تلك المشاركة التي ندعو إليها جميعا. ولنا أن نتساءل عن هوية المتخصصين في مجال الطفولة وقد يبدو مثل هذا التساؤل للوهلة الأولى ساذجا بعض الشيء فكثير من العلماء يصفون أنفسهم أو يصفهم غيرهم بأنهم متخصصون في الطفولة بل وأننا كثيرا ما نسمع أن تعقد مشكلات الطفولة في بلادنا إنما يرجع لتدخل غير المتخصصين في تناولها، وأن الحل الجذري ينبغي أن يبدأ بأن يتولى المتخصصون الأمر برمته.

ورغم ما يبدو عليه هذا الشعار من بريق علمي جذاب بل وحتى رغم تسليمنا بصحته عموما إلا أن الأمر يقتضينا أولا أن نحدد لتلك الطفولة التي نتحدث عنها موقعا بين تصنيفات العلوم المتفق عليها. بعبارة أخرى هل ثمة علم قائم بذاته يمكن أن نطلق عليه "علم

الطفولة"؟ شأنه في ذلك شأن علوم الطب والكيمياء والنفس والهندسة وما إلى ذلك؟

إن الطفولة شأنها شأن غيرها من مجالات التطبيق لا يمكن أن تمثل علما قائما بذاته أو تخصصا علميا منفردا وإغفال مثل هذه الحقيقة البسيطة يؤدي بنا إلى تعقيدات لا حد لها. فالحديث عن متخصص في الطفولة أشبه بأن نعرف شخصا بأنه متخصص في فرع الطيران مثلا ثم نقف عند هذا الحد فلا ندري ما إذا كان صاحبنا متخصصا في هندسة الطيران أو أنه متخصص في قيادة الطائرات أو الملاحة الجوية أو حتى في السياحة أو التصوير أو ما إلى ذلك.

التنشئة الاجتماعية العربية – بين الوحدة والتعدد

أبناؤنا بين عوامل التوحيد ومحاولات التفتيت

لعل أحدا لا يماري في حقيقة لا حيلة لنا فيها، وهي أن مقادير أمتنا العربية خلال الربع الأول من القرن الحادي والعشرين – وهو ليس ببعيد – سوف تكون في أيدي أجيالنا الجديدة، وآنذاك سوف يكون

غالبية أبناء جيلنا قد تقاعدوا، أو رحلوا، أو أوشكوا، وسوف تكون مقاليد الأمور آنذاك في أيدي وعقول أولئك الذين نراهم اليوم صغارا نقوم على تنشئتهم في بيوتنا ومدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا ومساجدنا وكنائسنا إلى آخره. هؤلاء هم صناع المستقبل القريب لأمتنا العربية. ترى أي مستقبل ذلك الذي نعدهم لصناعته؟ أو بالأحرى نعدهم لمواجهته؟

الصراعات بيننا على أشدها. والصراعات الداخلية في غالبية الأقطار العربية قائمة بدرجة أو بأخرى. والتحديات الخارجية للأمة العربية تزداد شراسة وعنفا. ونحن نعبر دائما وبحق عن قناعتنا بأن المستقبل لنا. وذلك –فيما أتصور– هو حكم التاريخ والجغرافيا، بل والاقتصاد كذلك. ولكن هذه الحتمية المتفائلة لا تتحقق بعيدا عن البشر. فالبشر هم صناعها، ووقودها. يستطيعون استباق هذا المستقبل، وتيسير السبل إليه، بل والاقتراب به. كما أنهم أيضا قد يعجزون عن ذلك، ويتحولون هم أنفسهم إلى عقبة في

طريق مستقبلهم، بل قد يدفعونه بعيدا كلما اقترب منهم. ويصبحون كمن يساقون إلى الجنة بالسلاسل.

ترى كيف نعد أبناءنا حضاريا لاستباق مستقبل أمتنا العربية؟ ما هي الأنماط الفكرية التي ندربهم على رؤية العالم وأنفسهم من خلالها؟ إن مثل هذا الإعداد والتدريب يلعب دورا أساسيا في تشكيل مواقفهم وممارساتهم العملية حيال واقع أمتنا العربية حين تؤول إليهم مقاليد أمورها.

ولسنا نزعم أن بمقدورنا –ولعله ليس بمقدور غيرنا أيضا – تبين الملامح الواقعية لما سيكون عليه واقع المستقبل العربي القومي والقطري آنذاك. ولابد وأن نسلم بأن الرؤى بشأنه تتباين. رؤانا العربية تتباين، ورؤى أعدائنا تتباين أيضا. ولكن ثمة ما يجمع بين الرؤى العربية رغم تباينها. وثمة ما يجمع أيضا بين رؤى أعدائنا وإن تباينت. قد تتباين الرؤى العربية للمستقبل بين الاشتراكية والليبرالية والدينية... إلى آخره، أو تركيبة ما تجمع بينها جميعا، أو بين بعضها. وقد تتباين رؤى أعدائنا وأمانيهم أيضا. فقد يميل

بعضهم إلى الإخضاع المسلح، وقد تستهوي البعض فكرة السيطرة الاقتصادية، وقد يرى البعض أن الابتلاع الحضاري هو أفضل السبل.. إلى آخره. ولكن الرؤى العربية تبقى متفقة رغم تباينها في أمرين يؤدي أحدهما إلى الآخر: الانتماء العربي سبيلا للوحدة العربية. وتبقى رؤى الأعداء متفقة كذلك رغم تباينها في أمرين: تدعيم التجزئة سبيلا لإحكام السيطرة. نحن مطالبون إذن بإعداد أبنائنا لممارسة الانتماء والوحدة، وتحصينهم من مخاطر اللاإنتماء والتفتت.

الانتماء: حاجة إنسانية وتدريب اجتماعي

الانتماء حاجة نفسية طبيعية لدى الفرد ولكنها – شأن غيرها من الحاجات النفسية الطبيعية– لا تتحقق تلقائيا وفي كل الظروف. كما أنها لا تتخذ نمطا سلوكيا واحدا للتعبير عن نفسها، بل تتعدد تلك الأنماط اتساعا وضيقا، وكذلك تنافرا وتكاملا. فقد تؤدي تنشئة الفرد إلى وأد تلك الحاجة لديه، وكف مظاهرها. كما تؤدي تلك التنشئة إلى محاصرة تلك الحاجة وإلزامها نطاق

جماعة صغيرة مغلقة لا تتعداها. وقد تشجع التنشئة على ازدهار واتساع دوائر التعبير عن الانتماء وتكاملها. كما أنها – أي التنشئة – قد تشجع على تضارب تلك الدوائر وتناقضها.

إن الانتماء في النهاية انتماء لجماعة من البشر. قد يتسع نطاق هذه الجماعة لتصبح الشعب أو الأمة أو حتى البشرية، كما قد يضيق نطاقها لتصبح العائلة الكبيرة أو العائلة الصغيرة أو حتى أضيق من ذلك في بعض الأحيان المرضية. ومن ثم فإننا ندرب أطفالنا منذ البداية على توسيع أو تضييق حدود الجماعة التي ينتمون إليها. ولا يكون ذلك بحال من خلال التلقين والكلام والتعليمات فحسب، بل من خلال الممارسة الفعلية في المقام الأول. ممارساتنا نحن الكبار حيال الآخرين، والتي يمتصها الطفل ويتمثلها. وكذلك ممارساتنا حيال تصرفاته هو في هذا الصدد ثوابا أو عقابا. فمن خلال تلك الممارسات ننمي لدى الطفل استعدادا أوليا لتوسيع أو لتضييق نطاق النحن.

ترى من هم هؤلاء النحن؟ إنهم في النهاية جماعة من البشر. ورغم أن الأفراد يختلفون كل عن الآخر، فإن جماعة النحن ينتمون لبعضهم البعض متجاوزين اختلافاتهم الموضوعية. بعبارة أخرى فإنهم يقبلون بوجود هذه الاختلافات، ولكنهم يرون أن ثمة أوجه تشابه تجمعهم، وأن لأوجه التشابه تلك اليد الطولى.

والقبول بالاختلافات داخل جماعة النحن، لا يعني بحال تمييعها والعمل على إلغائها بحيث تصبح الجماعة كما لو كانت نسخا مكررة من فرد واحد. فمثل ذلك– فضلا عن استحالة تحقيقه عمليا– إنما هو أخطر ما يمكن أن تتعرض له عملية الانتماء التي نحن بصددها. إن قبول الاختلافات وتجاوزها في إطار جماعة النحن، إنما يعني التمييز بين مستويين من مستويات الصراع: الصراع داخل الجماعة، والصراع بين الجماعة وغيرها من الجماعات. ولكل من هذين المستويين قواعده وقوانينه، وأدواته، وحدوده أيضا. وفي نفس الوقت الذي تقوم فيه الجماعة – من خلال

عملية التنشئة الاجتماعية – بتدريب أفرادها على تقبل اختلافاتهم وتجاوزها، فإنها تدربهم أيضا على أساليب تمييز الآخرين وسبل التعامل معهم.

وتختلف عملية التنشئة الاجتماعية بين جماعة وأخرى فيما يتعلق بموضوعنا في تحديد مدى الاختلافات العرقية والتاريخية والدينية والجغرافية بل والسلوكية المسموح بها في نطاق تشكيل جماعة النحن. فقد تؤدي التنشئة الاجتماعية إلى تضييق أو توسيع ذلك المدى. كما أنها قد تؤدي إلى قصر جماعة الانتماء بشكل حاسم على توافر أو عدم توافر خاصية بعينها سواء كانت عرقية أو دينية أو غيرها ليصبح كل من توافرت فيه هذه الخاصية عضوا في جماعة الانتماء وكل من لا تتوافر فيه واحدا من الآخرين.

وتبدأ عملية التدريب على الانتماء منذ الطفولة الأولى وقد تستمر العمر بطوله. ومن ثم فإنها لا تقتصر على الأسرة وحدها، بل تشاركها فيها المدارس، ودور العبادة، والجامعات، وأجهزة الإعلام... إلى آخره.

البعد النفسي لعملية الانتماء

لا ينبغي لتخصصنا في علم النفس أن يخفي عنا حقيقة أن عملية الانتماء للأمة ليست بالعملية النفسية الخالصة، وإن كان البعد النفسي بعدا أساسيا من أبعادها. فتكوين الأمة – أيا كانت – لابد وأن تتوافر له شروط تتعلق بالمكان، وبالاقتصاد، وباللغة، ثم تكتمل هذه الشروط بالتكوين النفسي المشترك الذي يعد ركنا أساسيا، وإن لم يكن الركن الأوحد، لتكوين الأمة. ومن هنا كانت ضرورة تناولنا للبعد النفسي لعملية الانتماء.

لعل أول الحقائق التي ينبغي الإشارة إليها في هذا الصدد، حقيقة ذات طابع فيزيقي اجتماعي. فالوليد الإنساني، وبحكم تكوينه الفيزيقي، لابد وأن يعتمد في بقائه حيا على الآخرين. ولابد أيضا وأن يكون هؤلاء الآخرون – وبحكم عملية الإنجاب – من أبناء الجيل الأكبر. وما أن يشب ذلك الوليد عن الطوق، حتى تتحول تلك الضرورة الفيزيقية إلى ضرورة اجتماعية لا تقل عنها خطرا. فحتمية الاعتماد على الكبار تستمر حتى الرشد. أي حتى الاستقلال عن الأسرة متمثلا في

الحصول على رخصتي الزواج والعمل. وطوال هذه الفترة التي تطول كلما تقدم المجتمع حضاريا، لا يقتصر تمثيل الكبار على الأب والأم فحسب، بل يتسع النطاق ليشمل كافة نماذج السلطة في المجتمع: المدرس، رجل الدين، رجل الشرطة، الإعلاميين... إلى آخره. ومن خلال هؤلاء جميعا، وعبر مسيرة طويلة، يحصل الفرد في النهاية على الاعتراف بحقه في الوجود المستقل اجتماعيا واقتصاديا. أي يصبح من هؤلاء الكبار بشكل أو بآخر. وخلال ذلك يكون قد تم تدريبه الأساسي على عملية الانتماء كما صاغها الكبار.

والحقيقة الثانية في هذا الصدد، حقيقة ذات طابع نفسي خالص. فعملية التدريب على الانتماء، ليست ككثير من عمليات التدريب والتعلم التي تعتمد على أساليب نقل المعلومات المباشرة بطريقة أو بأخرى. إنها عملية اكتساب تلقائي، يتحدد تأثر الفرد بها وفقا لثلاثة عوامل رئيسية: عامل تمثل القدوة،

وعامل الخبرات الشخصية المعاشة، وعامل الخصائص الشخصية.

إن السؤالين الأساسيين اللذين يلحان على عقول الصغار في هذا الصدد وحتى يصبحوا كبارا هما من نحن ومن هم. وهم لا يطرحون عادة مثل تلك التساؤلات مباشرة، ومن ثم فإنهم لا يلتمسون إجابتها من خلال أقوال الكبار، بل من خلال رصدهم ومعايشتهم لممارسات هؤلاء الكبار لانتماءاتهم للجماعة، وتعاملهم مع الآخرين. فالكبار هم في الأغلب الأعم بمثابة القدوة التي يتمثلها الصغار، بحكم الحقائق الفيزيقية والاجتماعية. وتمثل القدوة لا يكون تمثلا للأقوال بل للممارسة. فقد نتحدث أمام صغارنا عن أبناء جماعة أخرى – أقلية كانت أو أغلبية – حديثا نتعمد أن يكون ودودا ناعما، ولكن مشاعرنا حيال أبناء تلك الجماعة كما تتضح في سلوكنا الفعلي تكشف عن نفورنا منهم، وعدائنا لهم، وتحاشينا إياهم. وفي هذه الحالة سوف يتمثل صغارنا سلوكنا الفعلي باعتباره السلوك المثالي: أن نكره هؤلاء فعلا، وأن نحبهم قولا.

أو بعبارة أخرى: أن الأقوال المعلنة بشأن هذه الجماعة ينبغي أن تكون طيبة في كل الأحوال، أما المشاعر الحقيقية والأفعال فإن أمرها يختلف. بل قد يحدث أحيانا أن نلتقي في موقف اجتماعي معين ببعض أفراد تلك الجماعة الأخرى، فنتبادل كلمات المودة والحب. فإذا ما انفض الجمع، وخلا كل فريق إلى خلصائه انتقلت الكلمات والمشاعر المعلنة من النقيض إلى النقيض. كل ذلك وصغارنا يرقبون ما يجري ويتمثلونه ويختزنونه في أعماقهم.

العامل الثاني الذي يلعب دورا أساسيا في هذا المجال، هو الخبرات الشخصية المعاشة. وهي تلك الخبرات – المقصودة أو غير المقصودة – التي يسهم تراكمها في اختبار مصداقية القدوة التي سبق للفرد أن تمثلها. ويتم ذلك من خلال التفاعل المستمر بين الفرد، وبين أفراد ينتمون لجماعته. ويؤدي مجمل تلك الخبرات إلى تثبيت أو اهتزاز ما سبق أن تمثله الفرد من خلال القدوة: هل ذلك الذي تمثله يعبر حقا عن موقف أبناء جماعته؟ وهل أبناء الجماعات الفرعية

الأخرى يدخلون في إطار جماعة الانتماء حقا؟ أصحيح أنهم يشبهوننا بأكثر مما يختلفون عنا؟ وهل يتخذون نفس مواقفنا حيال الآخرين؟ ثم هل الآخرون يتخذون منا حقا ذلك الموقف الذي نتوقعه منهم؟ وهل هم يختلفون عنا حقا بأكثر من تشابههم معنا؟ وغني عن البيان أن عملية التفاعل هذه تحدها حدود اجتماعية ونفسية عديدة. فالجماعة الأصلية كثيرا ما تفرض من القيود الاجتماعية ما يحول دون انطلاق عملية التفاعل هذه أو حتى مجرد الشروع فيها. فضلا عن أن القدوة التي سبق أن تمثلها الفرد واطمأن إليها تلعب دورا غلابا في تفسير واحتواء ما قد يبدو خارجا عن إطارها فيما يتعلق بإدراك الفرد للآخرين.

أما العامل الثالث فإنه يتمثل في عدد من الخصائص الشخصية التي تحدد قدوة الشخص على توسيع أو تضييق حدود جماعة النحن. فالحدود النظرية لجماعات الانتماء المتاحة أمام الفرد، يمكن تصورها على هيئة خط متصل تحتل طرفاه نقطتان متطرفتان: طرف يتمثل في مقولة ليس ثمة من يشبهني على

الإطلاق. إنني أختلف تماما عن الآخرين في كافة الوجوه. ويتمثل الطرف الآخر المقابل في مقولة لا فرق بيني وبين غيري مطلقا. إنني لا أستطيع أن أميز نفسي عن الآخرين. وغني عن البيان ما تمثله هاتان النقطتان المتطرفتان من دلالات في مجال الأمراض النفسية لسنا بصدد التعرض لها. ما يعنينا هو أن جماعة الانتماء تحتل بالنسبة للفرد موقعا ما بين هاتين النقطتين المتطرفتين. قد يقترب موقعها بدرجة ما من النقطة الأولى فتضيق حدودها، وقد يبتعد عن تلك النقطة فتتسع حدودها بقدر ابتعادها عنها. ويظل الجوهر دائما هو مدى قدرة الفرد على تبين وتقبل الاختلافات بين الأفكار وبعضها، وبين مختلف أشكال السلوك والمواقف الاجتماعية. وترتكز تلك القدرة على مجموعة من خصائص الشخصية التي تتباين أنماط التنشئة الاجتماعية من حيث تدعيمها لها أو إحباطها ودفعها إلى الظل. فثمة أنماط من التنشئة الاجتماعية تربى أبناءها على أن العالم بما فيه وبمن فيه إنما هو صنفان: خطأ وصواب، أسود وأبيض. ولا مجال

للتدرج بين هذا وذاك. ويمتد ذلك التصنيف القاطع ليشمل كل شيء. ابتداء من نوعيات الطعام والملابس، إلى النجاح في الدراسة والعمل، إلى المفاضلة بين الذكر والأنثى، وبين النظم الاجتماعية، والأفكار السياسية إلى آخره. فلا مجال لرؤية وجهي الموضوع في آن واحد. ولا مجال لأن يضع الفرد نفسه موضع الآخر ليتبين كيف ولماذا هو مختلف عنه؟ وما هي درجة ذلك الاختلاف؟ ويؤدي إضعاف تلك القدرة على تبين وتقبل الاختلاف عن الغير إلى أن يعجز المرء عن القبول بمقولة أنهم يختلفون عنا حقا في بعض الأوجه، ولكنهم يلتقون معنا فيما هو أهم، إنهم جزء من جماعتنا.

الآخرون.... من هم؟

لعلنا نستطيع أن نخلص مما سبق إلى أن عملية الانتماء إنما تستهدف في النهاية انتماء الفرد إلى جماعة النحن بما قد تضمه تلك الجماعة من جماعات فرعية. وذلك إنما يعني ضمنا تمايز جماعة النحن عن جماعة الآخرين. وإذا كانت الحاجة للانتماء تضرب

بجذورها كما بينا في طبيعة التكوين الفيزيقي للوليد الإنساني، وتستند في إشباعها وتنميتها إلى طبيعة التكوين الاجتماعي للأسرة وللمجتمع البشري، فإن للحاجة إلى التمايز جذورا لا تقل عن ذلك أهمية ولا خطرا. فالفرد يعي ذاته منذ البداية من خلال وعيه بتمايزه عن الطبيعة، وعن الآخرين أيضا. ومن ثم فإن عملية التنشئة الاجتماعية – أيا كان نمطها – تتضمن حتما نوعا من التدعيم لتمايز النحن عن الآخرين.

ولكن الآخرين هؤلاء ليسوا سواء بالنسبة للنحن، بل تتعدد صورهم، وتتباين الأساليب التي تدربنا عملية التنشئة الاجتماعية على اتباعها حيالهم. ولعلنا نستطيع أن نجتهد فنصف صور الآخرين، ومن ثم أساليب التعامل معهم إلى ثلاث صور رئيسية: الآخر المجهول، والآخر الصديق، والآخر العدو. وتتباين أساليب التعامل مع الآخر، وفقا لذلك التصنيف. فثمة مجموعة من الأساليب نتدرب على اتباعها حيال الآخر المجهول تتسم غالبا بطابع الاستكشاف الحذر، ومحاولة التعرف. وتهدف تلك الأساليب في النهاية إلى تصنيف

ذلك المجهول ضمن واحدة من الفئتين الباقيتين: صديق أو عدو. وثمة مجموعة أخرى من الأساليب تزودنا بها عملية التنشئة الاجتماعية للتعامل مع الآخر الصديق، وهي تتسم غالبا بطابع التعاون المتبادل، والتنافس السلمي، في إطار من الحرص على التمايز. أما بالنسبة للآخر العدو، فأساليب التعامل معه شديدة التباين، إذ يتدخل في تشكيلها طبيعة توازن القوى بين النحن وذلك الآخر العدو. وقد تجمع تلك الأساليب بين التجاهل، والمقاطعة، والملاينة، والعنف... إلى آخره.

وغني عن البيان أن اصطناعنا لمثل ذلك التصنيف لا يعني بحال أنه تصنيف جامد. فصور الآخرين التي أشرنا إليها دائمة التغير والحركة على مستوى الواقع المعاش. فقد يتحول الصديق إلى عدو، وقد يتحول أيهما إلى مجهول بل وقد ينتقل الصديق عبر مرحلة تاريخية ليصبح جزءا من مكونات النحن. خلاصة القول إن التنشئة الاجتماعية تزودنا منذ البداية بأساليب التعامل مع مختلف الصور التي يتخذها الآخر. أما عملية تصنيف الآخرين وفقا لصورهم – أو

لتصوراتنا عنهم – فهي عملية يستمر تفاعلها وتغيرها ما بقي المجتمع وما استمرت عملية التنشئة الاجتماعية.

ومن خلال تفاعل تلك الصور الثلاثة للآخر، يتشكل ما يمكن أن نطلق عليه عالم الآخرين، أي الطابع العام لمجمل صور الآخرين بالنسبة للنحن. فقد يكون ذلك العالم معاديا يكاد أن يخلو من الآخر الصديق. وقد يكون أحيانا عالما صديقا يقل فيه تواجد الآخر العدو. كما قد تغلب عليه في بعض فترات النمو النفسي أو التغير الاجتماعي كونه عالما مجهولا علينا استكشافه وتصنيفه.

ولا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أن عالم الآخرين الذي نحن بصدده، لا يتطابق بالضرورة مع الخصائص الموضوعية لأولئك الآخرين، ولا حتى مع التحليل الموضوعي لطبيعة مواقفهم من النحن سواء في الماضي أو في الحاضر. إنه عالم من الصور والتصورات تشيده عملية التنشئة الاجتماعية بهدف حماية النحن وضمان تماسكها، وليس من بأس في

سبيل بلوغ هذا الهدف من ابتعاد يزيد أو يقل عن الملامح الموضوعية للصورة.

وتتخذ هذه الفجوة بين الخصائص الموضوعية للآخرين، وبين صورتهم كما تصيغها عملية التنشئة الاجتماعية أبعادا خطيرة في عالم اليوم على وجه الخصوص. في عالم لم تعد فيه التنشئة الاجتماعية حكرا على الأسرة وحدها ولا حتى على المدرسة أيضا. في عالم تعقدت فيه العلاقات بين أقطار الأمة الواحدة، وازدادت فيه قيود الانتقال وتكاليفه رغم تطور وسائله. في مثل هذا العلم تلعب أجهزة الإعلام دورا بارزا في صناعة – أو بالأحرى اصطناع – صور الآخرين، وتشكيلها وفقا لما يراه أولي الأمر محققا لمصلحة الجماعة.

ولسنا نعني بذلك أن لأجهزة الإعلام أو لغيرها من مؤسسات التنشئة الاجتماعية مهما كانت سطوتها، يد مطلقة في تشكيل مجمل صورة الآخرين. فتلك الأجهزة والمؤسسات جميعا تخضع في هذا الصدد لأمرين أساسيين: الأمر الأول: أن ثمة أحداثا

موضوعية تعبر عن ملامح واقعية لبعض من جماعات الآخرين. وأن هذه الوقائع قد تدخل أحيانا في إطار الخبرات المباشرة المعاشة لقطاعات من أفراد المجتمع. والأمر الثاني: أن القفزة التكنولوجية الهائلة في عالم الاتصال اليوم، لم يعد متاحا معها بنفس السهولة القديمة إغلاق المجتمع على مصدر إعلامي واحد. ولذلك فإن الدور الأساسي الذي تلعبه أجهزة الإعلام لتحقيق غايتها في ظل الظروف لم يعد قاصرا على محاولة تنقية المعلومات مما يتناقض مع الصورة المطلوبة فحسب، بل أصبح هذا الدور يعتمد أساسا على تفسير ما يصعب استبعاده من معلومات، تفسيرا يخدم تلك الغاية قدر المستطاع.

تعددية النحن العربية

تتميز أمتنا العربية بالتعددية. ولسنا نقصد بالتعددية تلك الحدود الدولية التي تفصل بين كياناتنا السياسية. فأمر تلك التقسيمات، رغم أبعاده المأساوية، أمر قابل للتعديل والتغيير في النهاية. إن ما نقصده في هذا المقام هو تعدديتنا الأكثر ثباتا واستمرارية. تلك

التعددية التي ستظل قائمة ما دمنا عربا، بل ما دمنا بشرا نقيم على هذه الأرض. تعددية أوجه التكوين الإنساني العربي. تعددية أنماطنا البشرية والسلوكية والفكرية والعقائدية.

ولعله غني عن البيان أن حديثنا عن استمرارية تلك التعددية وثباتها لا يعني بحال أننا حيال ظواهر جامدة لا تتغير قط. فالتغير هو سنة الحياة، وناموس الكون. ولكن التغير لا يعني نفيا للتعددية بحال، بل لعله تدعيم وتأكيد لها، طالما كانت منابع تلك التعددية ضاربة بجذورها في أعماق الظاهرة، وليست بالوافدة عليها المتعلقة بقشورها. والحدود السياسية التي تفصل بين أجزاء العالم العربي، تنتمي إلى ذلك النوع الأخير من التعددية بحكم حداثتها النسبية على الأقل. أما تعددية التكوين الإنساني العربي التي نتحدث عنها، فظاهرة تضرب بجذورها في التاريخ العربي إلى أعماق بعيدة، فضلا عن استنادها إلى أساس من تباين البيئات الطبيعية الجغرافية في عالمنا العربي.

فالأمة العربية تضم أتباع رسالات سماوية متعددة، ومذاهب شتى. والديانة – بطبيعة الحال – ليست مجرد عقيدة فكرية، أو يقين داخلي. إنها أيضا تعبير سلوكي عن تلك العقيدة، وعن ذلك اليقين. فضلا عن أنها تنظيم اجتماعي مؤسسي لمعتنقيها: يحسون بانتمائهم إليه، وانتسابهم له. بعبارة أخرى فإن النحن الدينية العربية تتسم بالتعددية.

وتضم الأمة العربية كذلك أبناء سلالات بشرية متعددة. تتباين خصائصهم البدنية وألوان بشرتهم تباينا كبيرا. ورغم أن الخصائص الجسدية لا تؤثر فيزيقيا وبشكل مباشر على السلوك، فإن الموقف الذي يتخذه المجتمع حيال التقسيم السلالي يمكن أن يجعل لتلك المظاهر تأثيرا حاسما على صياغة السلوك، بل والوعي وكذلك. بعبارة أخرى فإن النحن السلالية العربية تتسم بالتعددية كذلك.

والأمة العربية تضم العديد أيضا من التيارات الفكرية، والأحزاب السياسية، التي تتباين رؤاها للحاضر والمستقبل. بل وتتباين تفسيراتها للماضي

أيضا. ومن ثم فإن النحن الفكرية العربية تتسم بالتعددية كذلك.

ولعلنا لسنا في حاجة بعد ذلك إلى الإفاضة في الحديث عن تعددية العادات العربية اليومية، والأزياء العربية المفضلة، واللهجات العربية الشائعة.. إلى آخره.

ولعلنا لسنا في حاجة بعد ذلك أيضا إلى أن نسوق الأدلة والشواهد لنؤكد أننا أمة عربية واحدة. يكفي أن نشير فحسب إلى وحدة اللغة المشتركة، ووحدة العدو المشترك، ووحدة المصير المشترك. ولدى غيرنا من المتخصصين في علوم الاقتصاد والتاريخ والسياسة ما يفيض عن الحصر في هذا المجال، مما يجعل من محاولة سردنا له تكرارا قاصرا، فما يعنينا في هذا المقام هو التكوين النفسي المشترك وتصون وحدته.

التنشئة العربية الوحدوية

إن التنشئة العربية الوحدوية – إذا ما صح التعبير – ينبغي أن تضع في اعتبارنا تعددية الواقع

العربي، بل وتعددية رؤى المستقبل العربي كذلك، وأن تأخذ على عاتقها احتواء تلك التعددية بكافة صورها، في إطار وحدوي أرحب. ولعل أهم ما ينبغي أن تستهدفه تلك التنشئة المرجوة هو غرس وتدعيم كل ما يساعد على القبول بالغريب الآخر: الآخر سلاليا، والآخر دينيا، والآخر فكريا... إلى آخره.

وتصبح تلك المهمة الوحدوية أكثر إلحاحا، إذا ما وضعنا في اعتبارنا أن استراتيجية العدو تقوم على تجزئتنا تيسيرا لسيطرته على مقدراتنا. ولا تقف استراتيجية العدو هذه بطبيعة الحال عند حدود الحاضر وما يشهده من تطاحن النحن العربية اقتصاديا وسياسيا بل وعسكريا أيضا في بعض الأحيان. فالعدو يعلم يقينا أن الحاضر لابد وأن يمضي بوقائعه وأحداثه وبرجاله أيضا. ولذلك فإنه – أي العدو – لا يدخر جهدا في محاولة أن يضمن لنفسه المستقبل أيضا، مستقبل أمتنا العربية، ساعيا في سبيل ذلك إلى إذكاء جذوة التطاحن العربي لتضرب بجذورها لأعمق أعماق التكوين النفسي لأجيالنا العربية القادمة، بحيث

تصبح تلك الأجيال مهيأة لتكريس التجزئة، بل وقادرة على تبريرها، والتنظير لها، والدفاع عنها.

ولكي يتحقق ذلك للعدو، فلابد له من تسخير ما يستطيع تسخيره من مؤسسات التنشئة الاجتماعية العربية لكي تسهم بوعي أو بغير وعي في تدعيم نمط بعينه من أنماط تلك التنشئة. نمط يقوم على دعامتين أساسيتين: الدعامة الأولى هي غرس وتدعيم الاتجاهات نحو رفض الآخر العربي، أو إخراجه من دائرة النحن العربية بطريقة أو بأخرى. فهو – أي ذلك الآخر العربي – إما غني مترف يريد استغلالنا، أو فقير شره يسعى لنهب ثرواتنا. إنه إما منحل يجترئ على مقدساتنا، أو جامد متخلف يعوقنا عن اللحاق بركب الحضارة. إنه إما مستسلم قاعد تنقصه العزيمة، أو متهور مندفع تنقصه الحكمة. إنه إما مأخوذ بالغرب تابع له، أو منكفئ على ذاته رافض للانفتاح. خلاصة القول أن ذلك الآخر العربي ليس منا إنه آخر عدو يتربص بنا. أما الدعامة الثانية المكملة للأولى فهي غرس وتدعيم الاتجاهات نحو قبول الآخر العدو أو

الآخر الغريب باعتباره الآخر الصديق والذي قد يعد أحيانا جزءا مكملا للنحن، بل أنه باعتباره الأكثر تقدما والأرقى معرفة، يمكن أن يلعب دور المثل الأعلى لتلك النحن، بل وقد يصل الأمر إلى حد اعتباره بمثابة الحامي لتلك النحن والمدافع الأكثر قوة عنها في مواجهة ذلك الآخر العربي العدو.

ثمة استراتيجيتين متعارضتين للتنشئة الاجتماعية العربية إذن: استراتيجية وحدوية تستهدف أن تتسع النحن العربية لتشمل العرب جميعا على تنوعهم، واستراتيجية تجزيئية معادية تستهدف أن تضيق حدود النحن بالنسبة لكل جماعة عربية فرعية– سلالية كانت أو فكرية أو دينية– بحيث لا تتسع لغير أبنائها، ومن ثم تتفتت النحن العربية. والهدف الذي تراهن عليه كلتا الاستراتيجيتين هو: أجيالنا القادمة. ترى أين نحن من هاتين الاستراتيجيتين؟

إن محاولة الإجابة على هذا التساؤل، والتصدي لطرح جاد للاستراتيجية العربية في مجال التنشئة الاجتماعية، أمر يقتضي تضافر جهود مجموعة

من العلماء العرب من المتخصصين في مختلف فروع العلوم الإنسانية. ولا شك أنهم سيواجهون عديدا من الصعاب والعقبات، فالطريق لمثل هذا الإنجاز ليس ممهدا بحال. بل هو طريق وعر تكتنفه تراكمات أخطائنا، ومآسى انقساماتنا. وتعرقله فضلا عن ذلك نجاحات الاستراتيجية المقابلة، استراتيجية العدو.

ولكن، ورغم كل تلك الصعاب، فليس من سبيل أمامنا إلا محاولة اقتحامها. فالخطر ليس بقاصر على جيلنا، بل إنه ليهدد أجيالنا القادمة. يهددها بالاغتراب، والانفصالية، والتفتت، والانغلاق. والوقت يجرى، ولابد من بداية لتدارك الأمر.

الفصل العاشر

سيكلوجية العنف السياسي

سيكلوجية العنف السياسي

مقدمة:

إن التحديد الدقيق لمصطلح العنف السياسي ليس بالأمر الهين. ويزداد الأمر صعوبة إذا ما حاولنا أن نلتمس تحديدا لهذا المصطلح المراوغ في إطار علم النفس، وعلى وجه التحديد، علم النفس الاجتماعي. ولنبدأ من حيث ما يثيره هذا المصطلح من معان لدى المستمع من غير الأكاديميين المتخصصين في مثل هذا الموضوع.

يختلط المصطلح في أذهان الكثيرين بمصطلحات أخرى عديدة، منها على سبيل المثال لا الحصر، التطرف، التعصب، الإرهاب، الأصولية، الفدائية، التضحية، الاستشهاد... إلى آخره. والأمر يتوقف في النهاية على هوية المتحدث وموقعه الفكري والاجتماعي. خاصة وأن صفات كالإرهاب، والتعصب، والتطرف، صفات تطلق عادة على الآخر، ونادرا ما يصف بها الفرد نفسه أو جماعته. والأمر على العكس بالنسبة لصفات كالفدائية، والاستشهاد،

فنادرا ما يطلقها فرد على آخر منتمٍ لجماعة معادية. إن تعبيري الفدائي والإرهابي –على سبيل المثال– غالبا ما يتكرر إطلاقهما على نفس الشخص في نفس الواقعة، من مصدرين مختلفين، ويكمن الفارق الوحيد في طبيعة جماعة الانتماء التي يعبر عنها كل مصدر. في حين تحتل صفة كالأصولية مثلا مكانة وسطا بحيث يمكن أن تطلق على الذات أو على الآخر، وفقا لرؤية المتكلم لدلالة المصطلح في السياق الاجتماعي المحيط به.

وعلى أية حال، فلسنا بصدد التعرض تفصيلا لتعريفات كل من تلك المصطلحات، وما يثور حول تلك التعريفات من جدل لا ينتهي. كما أننا لسنا بصدد الخوض في ذلك الركام الهائل من التفسيرات النفسية لجذور العنف أو العدوانية، وهل هي جزء أصيل من الطبيعة البشرية، تحاول عمليات التنشئة الاجتماعية تهذيبه والسيطرة عليه؟. أم أنها مكتسب بيئي يكتسبه الفرد – الذي يولد بريئا مسالما – خلال عمليات التنشئة الاجتماعية التي يتعرض لها.

ولنبدأ بمحاولة التوصل إلى تعريف أولي مبسط لمصطلح العنف: إنه سلوك ظاهر يستهدف إلحاق التدمير بالأشخاص أو الممتلكات. والمقصود بكلمة ظاهر هو أن العدوانية لكي تكون عنفا ينبغي أن يتوافر لها شرط الظهور. فثمة أنواع عديدة من العدوان يعرفها المشتغلون بعلم النفس تتميز بالخفاء والكمون، مثل مختلف أنواع المرض السيكوسوماتي، وكذلك ما تفيض به أحلام النوم، وأحلام اليقظة، من صور للعنف البالغ.

ووفقا لذلك فإن العنف خاصية بشرية طبيعية، مارسه البشر ويمارسونه منذ وجدت البشرية، سواء على المستوى الفردي، أو على المستوى الجماعي. بل إن ثمة أنواعا من العنف تعد بمثابة ضرورة حياة بالنسبة للفرد، وعليه أن يمارسها دفاعا عن حياته إذا ما تعرضت لتهديد. بل لعلنا لا نجاوز الحقيقة إذا ما قررنا أن المجتمعات جميعها – وبدون أية استثناءات – تشجع ممارسة أنواع بعينها من العنف، ليس هذا فحسب، بل وتدين من يتقاعس من أبنائها عن ممارسة

هذا العنف، موقعة عليه أنواعا شتى من العقاب، تتراوح بين التأنيب والاحتقار، إلى النفي والإعدام. والأمثلة على ذلك عديدة، وهي غنية عن البيان. هذا عن العنف بعامة فماذا عن خصائص العنف السياسي على وجه التحديد؟. لعل ذلك يقتضينا تعريفا لما نقصده بمصطلح العنف السياسي.

محاولة للتعريف من منظور علم النفس

تتعدد تعريفات مصطلح العنف السياسي وتتباين، وفقا لتباين المنطلقات النظرية، والتخصصات العلمية، التي تحاول التعريف. وما دمنا نتناول الموضوع من زاوية علم النفس بعامة، وعلم النفس الاجتماعي على وجه التحديد، فقد كان لزاما علينا الإسهام في هذه المحاولات.

العنف السياسي، نوع من أنواع العنف الداخلي، التي تدور حول السلطة ويتميز بالرمزية، والجماعية، والإيثارية، والإعلانية.

ولنقف قليلا أمام عناصر هذا التعريف المقترح:

أولا: العنف السياسي نوع من أنواع العنف الداخلي

يتميز العنف السياسي بأنه عنف تتداخل الحدود بين أطراف، أي أنه يجرى بين أطراف ثمة ما يجمع بينها، إنه عنف داخلي بهذا المعنى المحدد. ويتمثل ذلك الخيط الجامع بين أطراف العنف السياسي في كون أطرافه جميعا يستظلون بمظلة سلطة سياسية واحدة. يتمرد عليها البعض، ويتمسك بها البعض. يرفضها البعض مشككا في شرعيتها، وقد يدافع البعض عن تلك الشرعية إلى حد التقديس.

وبالإضافة إلى ذلك الخيط الأساسي الذي يجمع بين الأطراف المتصارعة جميعا، فإن تلك الأطراف قد تتشارك أيضا، في أحد، أو بعض، أو كل العديد من العناصر الأخرى مثل: الدين، التقاليد، التكوين النفسي، العرق.... الخ.

خلاصة القول أن أطراف العنف السياسي تمارس عنفها داخل إطار ما يجمع بينها. ولعل ذلك ما هو أهم ما يميزه عن الحرب بمعناها المعروف، والتي يمكن أن تكون بالمقابل عنفا خارجيا، بل لعل وجود هذا الإطار في حد ذاته هو ما يبرر خطورة ظاهرة العنف السياسي، كما أنه يمثل أيضا المدخل الصحيح لتناوله.

ثانيا: العنف السياسي، عنف يدور حول السلطة

العنف السياسي، عنف يتعلق –في جوهره– بالسلطة ورموزها. ومن ثم فإنه يتخذ مسارين أساسيين:

(١) مسار موجه إلى الممسكين بالسلطة، يمارسه أصحابه، بهدف انتزاعها من بين أيديهم، أو بهدف مشاركتهم في الإمساك بها.

(٢) مسار موجه من رموز السلطة إلى من ينازعونهم إياها، بهدف الاستمرار في الإمساك بها وإحكام قبضتهم عليها.

وغني عن البيان أننا إذا ما كنا بصدد الحديث عن عنف سياسي، فلابد لنا من توجيه الاهتمام إلى كلا المسارين معا، فكلاهما لا غنى عنه لتواجد عنف سياسي بالمعنى الصحيح. فغياب عنف رموز السلطة، وهو أمر غير وارد، يحول الأمر في النهاية إلى عملية استيلاء سلمي على مقاليد الأمور. كما أن التغييب العمدي لهذا الجانب من جوانب العنف، يحول تماما دون الرؤية الصحيحة لطبيعة الظاهرة.

خلاصة القول أن العنف السياسي هو عنف متبادل بالضرورة. وبذلك فهو يختلف عن أغلب الأنواع الأخرى من العنف، حيث يتمايز فيها بوضوح دور الضحية عن دور المعتدى.

ثالثا: العنف السياسي عنف يتميز بالرمزية.

تستهدف غالبية أنواع العنف إيقاع الأذى بشخص محدد، أو بممتلكات هذا الشخص بالتحديد. أما العنف السياسي، فإنه ينتمي إلى تلك الأنواع من العنف التي

لا تستهدف أشخاص لذواتهم، بل تستهدفهم لصفاتهم

الاجتماعية، أو الفكرية، أو الدينية، أو العرقية. إنه – أي العنف السياسي– لا يستهدف أشخاصا بل رموزا. ومن يمارسونه إذ يوجهونه إلى أشخاص، فإنهم لا يوجهونه إليهم بصفتهم العيانية، بل باعتبارهم رموز تعبر عن الآخر المرفوض. ولذلك فليس من المستغرب أن تتجه رصاصات العنف السياسي إلى ضحية لا تربطها بمن أطلق الرصاص أية علاقة شخصية، بل قد لا يكون لأحدهما معرفة بالآخر إلا رمزا. ونستطيع أن نرصد لهذه الخاصية عددا من النتائج لعل أهمها:

(١) ما دام العنف السياسي موجه أساسا إلى الفرد بصفته الرمزية، أي باعتباره ممثلا لجماعة، فإن انتفاء هذه الصفة يخفف من درجة العنف الموجه إليه، وإن لم يكن يعني بالضرورة انتهاء التهديد تماما. ففي بعض الأحيان يوجه العنف إلى رموز بعد أن فقدت مواقعها. وانتفت بالتالي صفتها التمثيلية، بحيث يبدو الأمر للوهلة الأولى كما لو كان انتقاما شخصيا فحسب. ولكن نظرة متعمقة قد توضح أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق. فالعنف في هذه الحالة أيضا إنما

يكون بمثابة رسالة إلى الآخرين مؤداها لا تقيموا حساباتكم على أن التنحي في التوقيت المناسب يمكن أن يخرجكم من دائرة الانتقام. إنه – أيضا – عنف بمثابة رسالة موجهة إلى رموز قائمة.

(ب) يتفاوت الثقل الرمزي للفرد، وفقا لموقعه داخل الجماعة. فرئيس الجماعة له ثقل رمزي يفوق نظيره بالنسبة للأتباع، والمرءوسين، ولا غرو، فهو رمز للجماعة برمتها. وطالما أن العنف السياسي يستهدف الأفراد بصفاتهم التمثيلية، فلنا أن نتوقع تناسب العنف السياسي الموجه للفرد تناسبا طرديا مع تزايد ثقله التمثيلي.

(جـ) العنف السياسي– كما قدمنا– عنف لا شخصي، بل إنه عنف موجه إلى جماعة معينة. وبالتالي فإنه لا يقتصر على الممثلين الرسميين للجماعة المستهدفة، بل يوجه أيضا إلى جمهور تلك الجماعة بدرجة أو بأخرى.

والتعرف على الممثلين الرسميين للجماعة المستهدفة قد لا يمثل مشكلة كبيرة، فهم يحرصون من

جانبهم على إبراز مظاهر تميزهم، وذلك لأسباب عديدة، لعل منها أن يتمكن جمهورهم من التعرف عليهم. أما بالنسبة للتعرف على جمهور تلك الجماعة لتمييزهم عن جمهور جماعة النحن، فإنه يقتضى تكريس ما يمكن أن نطلق عليه تعبير العلامات الظاهرة للانتماء. ونقصد بذلك التعبير تلك الخصائص المرئية أو المسموعة التي يمكن من خلالها تبين انتماء الفرد إلى جماعة معينة دون غيرها.

وتتعدد تلك العلامات وتتباين. فمنها ما يتعلق بالخصائص البدنية الموروث منها أو المصطنع، ومنها ما يتعلق باللهجة وطريقة النطق، ومنها ما يتعلق بالملابس، ومنها ما يتعلق بالعادات.

إن الوجه الأحمر، والأنف المعقوف، والبشرة السوداء، والشعر الأصفر، والعيون المائلة... إلى آخره؛ وكذلك اللحية، وطريقة تصفيف الشعر، وعلامة الصلاة.... إلى آخره؛ وكذلك أيضا لثغة الراء، والعجز عن نطق بعض الحروف، والميل لإخراج الكلمات من الأنف... إلى آخره؛ وأيضا الملابس العسكرية،

والنقاب، والحجاب، والعقال، والقبعة، والملابس الرياضية، والكوفية، والعقال.... إلى آخره؛ وكذلك طريقة السير، وعادات التدخين وأسلوب التحية... إلى آخره؛ هذه كلها مجرد نماذج لعلامات تستخدم لتمييز انتماءات الأفراد، ولقد لعبت بالفعل، ومازالت تلعب دورا حاسما في تحديد أفراد الجمهور المستهدفين للعنف السياسي.

وغني عن البيان أن تلك الخصائص تتدرج من حيث مدى استطاعة الفرد التخلي عنها وتغييرها. ففي حين يستحيل تعديل الخصائص البدنية الموروثة، إلا بتدخلات جراحية فردية باهظة التكاليف، فإنه من اليسير تماما تغيير نمط الملابس، أو تغيير طريقة تصفيف الشعر، أو حتى طريقة المشي... إلى آخر أساليب التنكر المعروفة.

رابعا: العنف السياسي عنف يتميز بالجماعية

العنف السياسي، عنف يغلب عليه الطابع الجماعي. ولا يعني ذلك أن التنفيذ الفعلي لوقائع العنف السياسي يكون جماعيا دائما، وإن كان الأمر كذلك

بالفعل في أغلب الأحيان. بل إن بعض أحداث العنف السياسي تفيض بالعديد من ألوان البطولات الفردية الفذة. ولكن المقصود هو أن يمارس العنف السياسي، حتى لو كان ينفذ العمل وحده، فإنه إنما يفعل ذلك باعتباره ممثلا لجماعته، معبرا عن توجهاتها، مستهديا بقيمها. بل إنه يندر، في هذا المجال أن نجد عملا فرديا خالصا لم يسبقه تخطيط جماعي، سواء كان ذلك، استطلاعا، أو تدريبا، أو تمويلا، أو تمويها... الخ.

خامسا : العنف السياسي عنف يتسم بالإيثارية

إنه عنف توجهه وتحركه أفكار، ودوافع، تتجاوز –في صورتها المعلنة على الأقل – المصالح الفردية المباشرة لمن يمارسونه من كلا الجانبين. إن الصالح العام، هو اللافتة المعلنة الأساسية والمتكررة، التي ترفعها أطراف العنف السياسي جميعا. ولا يعني ذلك بحال أنها مجرد لافتة خاو من أي معنى.

إن جماعات العنف السياسي، إنما تمارس عنفها سعيا إلى تحقيق هدف يتجاوز بالضرورة المصالح المادية المباشرة لأفرادها كأفراد. وإلا لما

استطعنا تفسيرا مقنعا لإقدام أبناء هذه الجماعات المتصارعة على تعريض حياتهم لأخطار محققة، رغم أنه في مقدورهم تلافي ذلك لو تخلوا علنا عن انتماءاتهم. ترى لماذا لا يقدمون على ذلك؟ صحيح أنهم قد يعاقبون من قبل جماعاتهم، وقد يكون ذلك العقاب شديدا. ولكن هل يعادل ذلك تعرضهم المباشر للموت؟

إن ذلك لا يعني بطبيعة الحال إغفال الدافع الاقتصادي، بل إن ثمة نوعا متميزا من أنواع العنف السياسي، يقوم أساسا على الدافع الاقتصادي. ولكن ما نعنيه في هذا السياق هو أن مطلب تحسين الأوضاع المعيشية، يكون في هذه الحالة منصبا على تحسين تلك الأوضاع بالنسبة لجماعة الانتماء ككل، وإلا لكنا حيال لون من ألوان العنف الإجرامي كالسرقة، أو النهب مثلا.

ويكفى أن نشير في هذا الصدد، إلى أنه من أقسى الاتهامات المتبادلة بين ممارسي العنف السياسي، سواء كانوا من المنتمين للسلطة، أو من المتمردين

عليها، هو الاتهام بأن ممارسي العنف إنما يمارسه لأنه يتقاضى عن ذلك أجرا.

سادسا: العنف السياسي يتسم بالإعلانية

ليس من المألوف أن يسعى المرء باختياره لإعلان مسئوليته عن عمل قام به، وهو يعرف مقدما أنه بإعلانه هذا، إنما يعرض نفسه لأذى قد يصل إلى حد الموت. ولذلك فإن أصحاب السلوك العدواني، لا يعترفون بما فعلوا إلا مضطرين. ويستثنى من تلك القاعدة، على سبيل الحصر، عنف الثأر، والشرف، والحرب، وكذلك العنف السياسي.

إن إطراف العنف السياسي، يتسارعون للإعلان عن مسئوليتهم عن أفعالهم، بل إننا قد نشهد فردين، أو جهتين، أو تنظيمين، يتنافسان منافسة شديدة في نسبة عمل من أعمال العنف السياسي إلى أحدهما.

أنواع العنف السياسي:

ليس ثمة عنف سياسي خالص مجرد. بل لابد له من مضمون أشد قربا من الوعي المباشر لجماهير الممارسين لهذا النوع من العنف. فالعنف السياسي،

بالمعنى الذي أشرنا إليه، أي بمعنى السعي للاستيلاء على السلطة، يقتضي وجود مبرر لهذا السعي، ونستطيع – وفقا لذلك – أن نصنف العنف السياسي تبعا لمبرراته أو لدوافعه.

ولا يعني ذلك بطبيعة الحال، أن لكل واقعة عنف سياسي دافع واحد فحسب، يستبعد بالضرورة تأثير بقية الدوافع. كما أنه لا يعني أيضا أن المبرر المعلن لواقعة العنف السياسي هو بالضرورة الدافع الحقيقي.

ونستطيع – وفقا لما تقدم – أن نميز بين أنواع عديدة للعنف، لعل أهمها:

(ا) العنف السياسي القومي:

وفيه تتمايز الجماعات الممارسة للعنف السياسي تمايزا قوميا، حيث تكون السلطة في يد ممثلي قومية معينة، في حين ينتمي من ينازعونها تلك السلطة إلى قومية أخرى مختلفة. والصورة الأكثر شيوعا لهذا النوع من العنف في بلادنا قد تمثلت في كافة حركات

التحرير، والمقاومة الشعبية للمحتل والتي شهدتها غالبية بلدان المنطقة، من مصر، إلى الجزائر، ومازالت تشهدها الأرض الفلسطينية المحتلة.

في تلك الحالات، وفي مثيلاتها، يكون العنف السياسي متبادلا بين جماعتين، تنتمي كل منهما إلى قومية مختلفة، وبالتالي، فإنهما تختلفان من حيث اللغة، أو العادات، أو التقاليد، أو التاريخ، أو العقيدة الدينية، أو المستوى الاقتصادي، أو الملامح البشرية، أو في بعض، أو كل ما سبق. ولكنهما تقفان على نفس بقعة الأرض، وتخضعان عمليا لنفس السلطة السياسية. ومن هنا كان العنف السياسي.

وينبغي ألا يغيب عنا أن هذا النوع من العنف السياسي، رغم طابعه القومي الأساسي، لا تغيب عن ممارساته الأبعاد الاقتصادية، أو الدينية، أو حتى العرقية، طالما كان لها مكان. ولكن تلك الأبعاد لا تمثل بحال، الطابع الأساسي المميز لهذه النوعية من العنف السياسي.

صحيح أن ممارسيه من المطالبين بالسلطة، قد يبرزون مدى عمق الفروق الاقتصادية، التي تميزهم عن الجماعة الممسكة بالسلطة. وصحيح كذلك أنهم قد يركزون الضوء على ما تعانيه جماعتهم من قهر ديني. ولكنهم يعلقون حل كافة تلك القضايا على حل القضية الأساسية لعنفهم السياسي، وهي القضية القومية. ومن ناحية أخرى فقد تلجأ الجماعة القومية الممسكة بالسلطة، إلى تهميش الطابع القومي للعنف، بالتركيز مثلا على تحسين الأحوال المعيشية للجماعة المقابلة، أو إبداء قدر كبير من الاحترام لرموزهم العقائدية، ولممارساتهم الدينية.

(ب) العنف السياسي الاقتصادي:

يعد تنظيم إشباع الحاجات الاقتصادية للأفراد من أهم الأدوار التي تضطلع بها السلطة أيا كانت نوعيتها، وأيا كان وضعها. ومن ثم فإن اختلال هذا التنظيم يعد بمثابة المصدر الرئيسي للعنف السياسي الاقتصادي. والعنف السياسي الاقتصادي، بهذا المعنى،

عنف تتبادله جماعتان أو أكثر ينتمون لنفس المجتمع تاريخيا، وليس سياسيا فحسب.

ويكون الهدف النهائي للعنف السياسي الاقتصادي، وهو تغيير النظام الذي تتبعه السلطة لإشباع احتياجات المواطنين. وتكون قناعة ممارسيه من الساعين للاستيلاء على السلطة، هو أنه لا سبيل لتحقيق ذلك إلا بإزاحة الممسكين بزمام السلطة عن مواقعهم.

ولعل الفارق الأساسي، بين هذا النوع من العنف السياسي الاقتصادي، والنوع الذي سبقت الإشارة إليه، أي العنف السياسي القومي، هو أن ممارسي العنف في الحالة الأولى، لا يسعون، بل ولا حتى يتصورن إمكانية الفصل المكاني بين الطرفين المتصارعين. بل إنهم لا يتصورون استبعاد الطرف الآخر نهائيا من حياتهم، ففي ذلك نهاية فعلية لتلك الحياة. إنهم باختصار، ليسوا دعاة استقلال عن الآخر– كما هو الحال بالنسبة للعنف القومي – بل إنهم دعاة مساواة مع ذلك الآخر، قد يقدمون على استبعاد ممثليه،

ولكن لا حياة لهم بدون جماهير أولئك الممثلين. وينطبق ذلك بطبيعة الحال على جانبي الصراع على حد سواء، أصحاب السلطة، والساعين للاستيلاء عليها.

ويعد هذا النوع من أنواع العنف، الأكثر قابلية لاتخاذ صورة الهبات التلقائية التي سرعان ما يمكن السيطرة عليها، بشيء من العنف المضاد، وشيء من المكاسب الاقتصادية العاجلة. ورغم أن هذه الهبات العنيفة تترك عادة بعضا من الندوب النفسية في نسيج العلاقة بالسلطة، إلا أن تلك الندوب نادرا ما تبلغ من العمق ما تبلغه تلك التي تخلفها ممارسات العنف القومي مثلا. والتفسير النفسي لتلك المفارقة واضح جلي، وهو يستند إلى أمرين:

الأمر الأول هو أن الأطراف التي تبادلت العنف السياسي الاقتصادي، تظل متعايشة معا بعد انتهاء ممارستها للعنف، أيا كانت نتيجة تلك الممارسة، مما يتيح لكل طرف تعديل صورته لدى الطرف الآخر، من خلال ممارسات الحياة اليومية. في حين أن ذلك أمر لا محل له بالنسبة للعنف السياسي القومي،

حيث يؤدي المزيد من المعايشة، إلى مزيد من الاحتكاك، فإلى مزيد من العنف وهكذا. وحيث تتمثل نهاية الصراع في انفصال الجماعتين المتصارعين مكانيا وبالتالى تعذر – ولا نقول استحالة – تعديل صورة كل طرف لدى الآخر.

الأمر الثاني هو أن شاغلي المواقع الاقتصادية عرضة لتغيير مواقعهم الطبقية وبالتالي تعديل مواقفهم من السلطة بناء على ذلك. ومن ثم فإنهم كرموز لفئة اقتصادية معينة يفقدون مصداقيتهم، ويحل محلهم غيرهم، بفعل الحراك الاجتماعي صعودا أو هبوطا.

وينبغي ألا يغيب عن الأذهان في هذا الصدد، أنه في بعض المجتمعات تظل أسرا بعينها تحتكر الثراء والسلطة معا، وتتوارثهما عبر الزمن. وقد يظل الأمر كذلك لأجيال طويلة، بل إنه قد تمضى تلك الأجيال دون أن تشهد تلك المجتمعات شيئا من العنف الاقتصادي السياسي المتوقع. وقد يرجع ذلك إلى الحجم الكبير نسبيا من المكاسب الاقتصادية التي ينعم بها جمهور تلك المجتمعات، فضلا عن إحكام قبضة

السلطة، ولجوئها فورا إلى أقصى درجات العنف المضاد لدى أية بادرة – ولو على مستوى الفكر – تشوبها شائبة التململ الاقتصادي.

وفضلا عن ذلك فإن التضخيم من شأن تهديد خارجي ذي طابع قومي، أو دينى، أو حتى اختلاق مثل هذا التهديد، أمر كفيل باستبعاد احتمالات العنف السياسي الاقتصادي ولو إلى حين.

(جـ) العنف السياسي الديني

ولعله العنف الأعلى ضجيجا في عالم اليوم، ومن ثم في منطقتنا أيضا. ومن المفهوم، أن أطراف العنف السياسي الديني لابد وأن تكون مستظلة بعلم واحد، أي منتمية لدولة واحدة، يستهدف الصراع سلطتها، وإلا تحول العنف السياسي الديني، إلى حرب دينية شأن الحروب الصليبية على سبيل المثال.

ويتخذ العنف السياسي الديني بعامة واحدة من الصور التالية:

الصورة الأولى هي ما يمكن أن نطلق عليه العنف السياسي المذهبي، وفيه تنتمي الجماعات

المتصارعة إلى دين واحد أساسي، ثم هم يتباينون من حيث انتسابهم لمذهب دون آخر من مذاهب ذلك الدين. فالصراعات مشهودة بين البروتستانت والكاثوليك، على سبيل المثال، في إطار الدين المسيحي. وهي كذلك مشهودة بين الشيعة والسنة، على سبيل المثال، في إطار الدين الإسلامي. وفي هذه الحالة تلتقي تلك الجماعات المتصارعة جميعا على قمة هذا الدين، أو على رمزه الأعلى، ثم إنها تختلف، بين جماعة ممسكة بالسلطة وأخرى تسعى إليها، على ما دون ذلك بدرجة أو بأخرى. وبطبيعة الحال فإن كلٌ يرى الدين الصحيح متمثلا في المذهب الذي ينتمي إليه.

الصورة الثانية وهي ما يمكن أن نطلق عليه العنف السياسي الديني الداخلي، بمعنى أنه يدور في هذه الحالة بين جماعات تتفق في الانتماء لنفس الدين، ولنفس المذهب أيضا. ومع ذلك يظل الصراع على السلطة مستعرا، حيث ترى الجماعة الراغبة في انتزاع السلطة، أن أولئك الممسكين بها قد خرجوا على

صحيح الدين والمذهب معا، في حين يرى هؤلاء أنهم هم الملتزمون بالدين التزاما صحيحا.

الصورة الثالثة وهو العنف السياسي الديني الموجه من جماعة دينية إلى جماعة دينية أيضا، ولكنها تنتمي لدين مختلف. ويدور هذا العنف أيضا، شأن غيره، حول السلطة، وإن كان دور السلطة في هذا النوع من العنف قد يكون مستخفيا، أو بالأحرى محاولا أن يستخفي.

ولعله مما ينبغي أن يستوقف النظر، أن مثل هذا النوع من أنواع العنف، رغم توجيهه إلى جماعة مختلفة دينيا، فإن مثل تلك الجماعة قد لا تكون مستهدفة لذاتها، بل لكونها تعيش في كنف السلطة التي يستهدفها العنف أساسا، وأن هذه السلطة المستهدفة، ملتزمة بحماية هذه الجماعة الدينية. بعبارة أخرى فإن هذا النوع من أنواع العنف السياسي قد يكون مجرد ستار لنوع آخر من أنواع العنف التي سبقت الإشارة إليها.

إن ما أشرنا إليه من أنواع لمضامين العنف السياسي، قد اقتصر على المضمون القومي، والمضمون الاقتصادي، والمضمون الديني. ولا يعنى ذلك أن تلك هي كافة أنواع، أو صور العنف السياسي. فثمة أنواع أخرى، كالعنف العرقي مثلا، لم نتعرض لها، دون أن يعني ذلك تقليلا من أهميتها، ولكنه ضيق الحيز المتاح مساحة وزمانا، وأخذا بأن الأهم بالنسبة لمنطقتنا ينبغي أن يسبق المهم.

كذلك فإن هناك قطاعا كاملا من أنواع العنف السياسي لم نعرض له بحال، رغم أنه قد لا يقل أهمية عما تعرضنا له، إن لم يزد. وأعني بذلك، العنف السياسي الجماهيري التلقائي. وعلى أية حال فقد سبق أن أتيح لي إنجاز بحث تحت عنوان ديناميات العنف الجماهيري في إطار الخصائص النفسية والتاريخية للشخصية المصرية، وذلك ضمن دراسة أشمل صدرت عن المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، في يوليو ١٩٧٦، تحت عنوان العنف التلقائي الجماهيري

في المجتمع المصري. ولا يبدو لي أن بعد الشقة الزمانية قد غير كثيرا مما انتهيت إليه في هذا البحث.

العنف السياسي.. صراع بين متشابهين

قد يبدو للوهلة الأولى أنه كلما قل التشابه بين أطراف الصراع، أي كلما أصبح العنف خارجيا، كلما ازداد ضراوة. وبالمقابل، فكلما كان تبادل العنف بين أطراف ثمة ما يجمع بينها، كلما خفت وطأته.

وقد يكون ذلك صحيحا إذا ما كنا بصدد المقارنة بين نوعيات الأسلحة، أو شمولية الدمار، أو نظامية الجيوش...الخ، فلا سبيل للمقارنة بالفعل بين القنبلة الذرية، أو الطائرات المتطورة، وبين الحجارة، أو المدى، أو القنابل اليدوية، أو حتى المدافع الرشاشة.

ولكن الأمر يختلف تماما من وجهة النظر النفسية. فكلما توثقت أواصر القربى، واتسعت الأرضية المشتركة بين الأطراف المتصارعة، كلما كان الصراع أشد شراسة، وأصعب حلا، وأعمق جذورا، وأكثر تعرضا للعودة إلى الاندلاع من جديد مرات ومرات.

ولقد سبق أن تعرضنا لكون العنف السياسي يقتضي نوعا من التداخل بين أطرافه. وفي حقيقة الأمر، فإن هذا التداخل لا يقتصر على الجوانب المادية، أو الفكرية وحدها، بل يمتد ليصبح تشابها، قد يصل إلى حد التطابق، من الناحية النفسية، بين طرفي الصراع. ونعني بالناحية النفسية في هذا السياق، ملامح الصورة الذهنية لدى كل طرف عن الطرف الآخر. ولعل من أبرز أوجه ذلك التطابق ما يلي:

(١) إن الآخر إما عميل مأجور، أو ساذج جاهل. فليس من المنطقي، أن يوجد شخص عاقل نزيه، يمكن أن يقبل بتلك الترهات التي يقول بها الجانب الآخر.

(٢) لم يعد الحوار مع الآخر مجديا. لقد استنزفنا معه كافة إمكانيات الحوار. إنه لا يفهم إلا لغة القوة. إنه البادئ بالعدوان. إن التفاهم معه لا يعني سوى الضعف والتخاذل.

(٣) الآخر هو الخارج على الأصول الصحيحة: الشرعية القانونية، الإسلام الصحيح، الاشتراكية

الصحيحة، المسيحية الأرثوذكسية... إلخ. المهم، أنه هو الخارج دوما عن الأصول، ونحن الملتزمون دوما بتلك الأصول.

(٤) الآخر لا يمثل إلا أقلية، أما الغالبية، فإنها تتعاطف معنا بكل تأكيد. وأية مؤشرات تشير إلى غير ذلك فإنها – أيا كانت – مجرد زيف.

(٥) مهما قال الآخر، أو حتى فعل، لكي يوهمنا بأنه قد تغير، فإنه يظل في جوهره كما هو.

(٦) الآخر يريد لنا الاغتراب عن الواقع، اندفاعا إلى مستقبل غريب عنا، أو انسحابا إلى ماض سحيق لم تعد لنا علاقة به.

(٧) لا ينبغي أن نفرق في مواجهتنا لهم بين المفكرين والمنفذين، أو بين الموافقين والمعارضين في صفوفهم، فكلهم أعداء. بل ولعل ما يبدونه من تنوع في المواقف ليس سوى نوع من الخديعة.

(٨) ينبغي أن ننقي صفوفنا من أولئك المتخاذلين الذين يدعون إلى حوار مع أعدائنا. إنهم إما سذج

مضللون، أو عملاء مندسون، أو ضعاف ترعبهم المواجهة الشاملة.

استراتيجيات مواجهة العنف السياسي: نظرة تقييمية

إن ظاهرة العنف السياسي، قديمة قدم ظاهرة السلطة. ومن ثم فالتاريخ مليء باستراتيجيات اتبعتها السلطات لمقاومة موجات العنف السياسي، وكذلك فإن السجل حافل باستراتيجيات اتبعها ممارسو العنف السياسي لتحقيق غاياتهم. وتفاوتت تلك الاستراتيجيات جميعا بين الإخفاق تارة، والنجاح أخرى.

ولو نظرنا إلى تلك الاستراتيجيات نظرة شاملة، لوجدنا أن أشدها رواجا هي ما يمكن أن تسمى باستراتيجية المواجهة الشاملة. وتقوم تلك الاستراتيجية – المتبادلة بطبيعة الحال – على مسلمات صراع المتشابهين، والتي أشرنا إليها آنفا. وتنتهي ممارسة هذه الاستراتيجية عمليا، إلى مواجهة شاملة بين الطرفين. ويعنينا من شمولية هذه المواجهة، أنها تشمل تشجيع توجيه الضربات إلى المفكرين والمنفذين في صفوف العدو دون تفرقة.

وليس من شك في أن يد الدولة هي الأثقل على المدى المنظور على الأقل. ومن ثم فإن تراجع موجة العنف السياسي، أمر متوقع ومفهوم. دون أن يعني ذلك بطبيعة الحال أنه تراجع منظم، كتراجع الجيوش النظامية.

ولكن تبقى عدة تساؤلات:

أولا: وماذا عن الأفكار؟ إن تلك الاستراتيجية تقوم على أن الأفكار تولد أفعالا فهل يمكن لهذه الاستراتيجية، أو حتى لغيرها أن تقضى على فكرة مهما كانت سخافتها؟

إن المؤسسات، والنظم، والتنظيمات، لابد وأن تنتهي يوما، بل ويمكن إنهاؤها، وتستمر بعدها الحياة، فلكل فعل نهاية. أما الأفكار فإنها تتجدد وتتطور. وقد تجمد وتنغلق. وقد يعلو صراخها. وقد يخفت همسها. ولكنها أبدا لا تموت حتى ولو مات أصحابها. تستوي في ذلك أسخف الأفكار، وأروعها: النازية، الشيوعية، الداروينية، الصهيونية، الاشتراكية،... الخ. إن الأفعال ترتبط بحياة أصحابها وتنتهي بموتهم. وكذلك

المؤسسات تنتهي بانتهاء الحاجة إليها، أو بتدهور أدائها. أما الأفكار فما دامت قد خرجت من أفواه أصحابها أو من أقلامهم فإنها تظل باقية ولو مختزنة.

ثانيا: هل صحيح أن ثمة تطابق بين التطرف والعنف السياسي؟ وهل صحيح أن إطلاق التعبير العلني عن الأفكار المتطرفة يمكن أن يؤدي تلقائيا إلى تزايد موجة العنف السياسي؟

ليس ثمة ما يؤكد في إطار علم النفس الاجتماعي، أن التعصب أو التطرف الفكري، مهما بلغت درجته، يمكن أن يؤدي تلقائيا إلى ممارسة عنف من أي نوع. صحيح أن كل ذلك إنما يؤدى إلى العديد من التشوهات الانفعالية والفكرية، ومنها على سبيل المثال: الكراهية للآخر، والنفور منه، بل وتمني اختفائه من الوجود. وكذلك العجز الفكري عن رؤية الجانب الآخر من الصورة، ومن ثم العجز عن الرؤية الموضوعية.

إن مثل هؤلاء المتطرفين المتعصبين، قد تفيض أحلام نومهم، بل وأحلام يقظتهم أيضا برؤى

بالغة العنف والدموية. ولكن شيئا من ذلك – رغم خطورته – لا يؤدي وحده إلى ممارستهم الفعلية للعنف. إن تحول الأفكار والانفعالات إلى ممارسات سلوكية، يتطلب أن يتوافر إلى جانبها العديد من الخصائص والسمات النفسية والاجتماعية والموقفية. فكراهية الآخر مهما بلغت شدتها لا تكفى وحدها للتنبؤ بممارسة العنف حيال هذا الآخر، بل إنها قد تؤدي عمليا إلى الانسحاب كلية من مواجهة هذا الآخر المكروه.

وفضلا عن ذلك، فإن حقائق التاريخ، البعيدة والقريبة، تؤكد ما نذهب إليه. فالتطرف الفكري، والتعصب المذهبي، كثيرا ما يؤديا، على المستوى السلوكي، إلى أقصى درجات السلبية، بل وحتى الاستسلام. ونستطيع أن نشير على سبيل المثال، إلى جماعات الطرق الصوفية الإسلامية، أو إلى نظام الرهبنة المسيحي. ولو اقتربنا قليلا من مجال الممارسات السياسية المعاصرة، لوجدنا في شعار مقاطعة الإسرائيليين، خير تعبير عملي عما نقول. لقد

أدت تلك المقاطعة عمليا إلى كفالة أقصى درجات الأمن الشخصي لأولئك الإسرائيليين.

خلاصة القول، إن محاولة القضاء على الأفكار بدعوى اجتثاث الجذور الفكرية للعنف، أو للعنف المضاد، ليست سوى أوهام تدحضها حائق العلم والتاريخ معا. فحين تحاول السلطة ذلك، فإنها لا تنجح، في المدى البعيد في القضاء على أي من الفكر أو السلوك وكذلك فحين يحاول المتمردون على السلطة، توجيه رصاصاتهم إلى من يعتبرونهم بمثابة رموزها الفكرية، فإنهم يغامرون بتعريض مجمل مسعاهم للانتكاس.

وماذا بعد....؟

إن مهمة تقديم وصفة جاهزة للتخلص من آلام العنف السياسي، إذا لم تكن مستحيلة، فإنها تخرج قطعا عن حدود التخصص الدقيق في علم النفس. ولكن لو حاولنا الامتداد برؤى هذا العلم إلى ما يخرج عن تلك الحدود الدقيقة، فلعل لي أن أقول، إن الحل الأنسب قد يكمن في تبني شعارين محوريين:

الشعار الأول: رصاصة مقابل رصاصة، وفكرة مقابل فكرة

ويعني ذلك الدعوة إلى التفرقة بين الفكر والسلوك. بين العنف والتعصب. ومواجهة كل بما يناسبه. إن إدانة الدعوة لمواجهة الفكرة بالرصاصة، لا تقل أهمية عن إدانة الدعوة لموجهة الرصاص بمجرد الحوار.

الشعار الثاني: لا حدود للحرية الفكرية

ويعني ذلك الدعوة إلى القبول بحق الأفكار جميعا في التعبير عن نفسها، مهما كانت درجة الاختلاف معها، أو النفور منها، بما يتضمنه ذلك القبول من تسليم واع، بما سوف ينجم عنه من فوضى فكرية. إن فوضى الأفكار أقل ضررا من إرهاب العنف. وضجيج الكلمات، مهما كان ما يسببه من إزعاج، أهون كثيرا، من صوت لعلعة الرصاص.

ولكن ذلك كله في النهاية ليس سوى مجرد شعارات، ينقصها الكثير من الصقل والتطوير. فضلا عن أنها مجرد أفكار، بل وانفعالات، تحتاج إلى الكثير

لتتحول إلى نمط سلوكي. هذا إذا ما كان لها أن تتحول في هذا الاتجاه أصلا.

الفصل الحادي عشر

سيكلوجية العنف الجماهيري

سيكلوجية العنف الجماهيري

حكاية هذا البحث

شهدت مصر في السبعينات ظاهرة استوقفت نظر المسئولين والمهتمين بالعلوم الاجتماعية على حد سواء. وتمثلت تلك الظاهرة فيما أطلقت عليه السلطات تعبير الأحداث المؤسفة، وهي أحداث عنف تشتعل فجأة إثر شرارة سلوكية صغيرة. وما كان يستوقف النظر بشكل خاص في تلك الظاهرة أن المشاركين في تلك الأحداث المؤسفة لم تثبت التحقيقات انضمامهم لأية تنظيمات سياسية أو عصابات إجرامية. إنهم مواطنون عاديون مسالمون، ولكن ما أن يشهدوا شرارة العنف هذه – حتى ولو لم تمسهم – إلا ويندفعون للمشاركة في ممارسة العنف الموجه إلى رموز السلطة.

وفي ١٩٧٤/٣/١٣ بعثت وزارة الداخلية إلى المركز القومي للبحوث الاجتماعية نص تأشيرة للسيد ممدوح سالم نائب رئيس الوزراء وزير الداخلية وقتئذ نصها: أوافق على الاتصال بالدكتور/ أحمد محمد

خليفة لتحليل ظاهرة العنف والشغب التي تحدث من وقت لآخر كظاهرة سلوكية للجماهير يمكن علاجها بوسائل وإمكانيات الدولة الثقافية والتعليمية والإعلامية لنصل إلى الصيغة السليمة للتنمية الاجتماعية التي نتطلع إليها.

وبناء على ذلك فقد تشكل فريق للبحث على الوجه التالي:

- دكتور صلاح عبد المتعال الخبير الاجتماعي بالمركز مشرفا على الفريق.
- دكتور قدري حفني مدرس علم النفس بجامعة عين شمس.
- دكتور عبد الحليم محمود مدرس علم النفس بجامعة القاهرة.
- الأستاذ علي ليلة الباحث الاجتماعي بالمركز.
- الأستاذ عدنان زيدان الباحث القانوني بالمركز.
- العميد إبراهيم الفحام من وزارة الداخلية.
- العميد سيد حجاج من وزارة الداخلية.

وقد بدأت اجتماعات هيئة البحث في الثلاثاء ١٩٧٤/٥/١٢ تحت إشراف الدكتور صلاح عبد المتعال الذي استمر مشرفا على البحث حتى سفره للخارج في أكتوبر ١٩٧٤، ثم توليت مهمة الإشراف حتى مايو ١٩٧٥ حين بدا للدكتور أحمد خليفة رئيس المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية آنذاك أن يتولى بنفسه الإشراف على البحث وتعييني نائبا له. وظل الوضع كذلك إلى أن انتهينا من البحث وقمت بتسليم تقريره النهائي في يوليو ١٩٧٦. وقد فوجئت عند طباعة البحث باختفاء اسم الدكتور صلاح عبد المتعال من قائمة أسماء هيئة البحث التي تصدرت التقرير، وهو أمر غير مألوف.

ونظرا لتباين المنطلقات النظرية والإيديولوجية لأفراد فريق هيئة البحث، فقد تم الاتفاق على أن نعمل معا في انتقاء وتحديد المادة الواقعية التي ستخضع للتحليل، ثم يكتب كل منا تقريرا منفصلا يقوم فيه من وجهة نظره بتحليل المادة الواقعية التي تم تجميعها بمشاركة الجميع. وصدرت الدراسة عام ١٩٧٦ تحت

عنوان العنف التلقائي الجماهيري في المجتمع المصري وتمثل إسهامي الذي تضمنته الدراسة في محاولة بحثية بعنوان ديناميات العنف الجماهيري في إطار الخصائص النفسية والتاريخية للشخصية المصرية.

ولعله من الملابسات الملفتة التي أحاطت بالبحث إنه إثر إنجازه مباشرة اندلعت أحداث يناير ١٩٧٧ الشهيرة، فبدا الأمر كما لو كانت نتائج البحث محاولة لتفسير تلك الأحداث. ولعله لهذا السبب أيضا فقد فرض المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية تقييدا على تداول البحث مما اقتضى منى شخصيا التقدم بطلب مكتوب للحصول على خمسة نسخ من البحث للتقدم بها للترقية لدرجة أستاذ مساعد عام ١٩٧٩.

مجال البحث

استهدف هذا البحث دراسة نوع محدد من أنواع العنف استرعى اهتمام السلطات فضلا عما أثاره من اهتمام لدى قطاعات واسعة من الجماهير وخاصة

على المستوى الإعلامي وكذلك بين المتخصصين في العلوم الاجتماعية.

ولكي لا يختلط هذا النوع من أنواع العنف بغيره من أنماط الممارسات العنيفة التي قد نشهدها في مجتمعنا، وقد تشير إليها الدراسات في مجتمعات أخرى، فقد استقر رأي هيئة البحث على تبني تعريف يحدد على المستوى النفسي نوعية العنف الذي تستهدفه الدراسة. وكان هذا التعريف:-

"العنف المقصود هو سلوك بدني جماعي تلقائي مؤقت يتسم بالعدوانية الصريحة التي تستهدف إلحاق تدمير النماذج البشرية والمادية للسلطة"

وبذلك فإن هذا التعريف يستبعد عن قصد أنواعا عديدة من العنف الموجه للسلطة قد لا تقل أهمية – إذا لم تزد – عن النوع موضع البحث. فهو يستبعد مثلا العنف اللفظي بمختلف أنواعه من النكات إلى السباب الصريح. وهو يستبعد أيضا كافة أنواع العنف الفردي التي قد يمارسها شخص بمفرده ضد نموذج من نماذج السلطة وهو يستبعد كذلك كافة أنواع العنف

المخطط سياسيا كان أو دينيا أو عنصريا. واستبعاد هذه الأنماط جميعا – رغم أهميتها – قد تم استجابة لما ارتأته وزارة الداخلية من أهمية لهذا النوع بالذات من أنواع العنف كنقطة بداية – على الأقل لسلسة أخرى من البحوث.

اختيار الحالات موضع التحليل

قام السادة ممثلو الجانب الشرطي في هيئة البحث بتزويد الهيئة بما استقر عليه رأيهم من قضايا عنف تمثل بأقصى درجة نوع العنف الذي تستهدفه الدراسة وقد بلغت خمس قضايا، بالإضافة إلى قضايا ثلاث توافرت لكل منها مقومات اندلاع العنف ورغم ذلك فلم تؤد أحداثها إلى عنف جماهيري من أي نوع، وذلك لإتاحة الفرصة للمقارنة العلمية. وكانت مادة

التحليل التي أمكن إتاحتها للبحث عبارة من ملفات تلك القضايا.

وتمثلت تلك القضايا فيما يلي:

١- قضية سمنود ١٩٧٤/٩/١٣

خلاف زوجي بين زوجة ريفية متزوجة من خارج بلدتها وأهل زوجها المجند الغائب عن المنزل أسفر عن طرد الزوجة من منزل الزوجية. تدخلت الشرطة لتنفيذ قرار النيابة بتسليم الزوجة منقولات منزلها، وبدأ المشاحنات من هذا الموقف ثم تفاقمت لتشكل عنفا تلقائيا جماهيريا موجها للسلطة شارك فيه ما يقرب من ٤٠٠ مواطن.

٢- قضية السيدة زينب ١٩٧٣/٢/٢٧

توفى أحد المحتجزين بقسم السيدة زينب بعد خروجه منه بيومين واتهمت عائلته أحد ضباط الشرطة بالقسم بضربه مما تسبب في موته وهو ما نفاه تقرير الطبيب الشرعي. وأثناء تشييع جنازة المتوفى ومرور الجنازة بالقسم حدث اشتباك لم يلبث أن تفاقم ليشكل

عنفا تلقائيا جماهيريا موجها للسلطة شارك فيه ما يقرب من ٥٠٠ مواطن وأدى إلى مصرع ثلاثة مواطنين.

٣- قضية الجيزة ١٩٧٤/٤/١٥

مشاجرة في حديقة الحيوان بين مواطن مدني وأحد جنود القوات المسلحة أدت إلى سقوط الجندي مصابا بجرح سطحي وصادف ذلك وصول فوج من جنود القوات المسلحة في طريقهم إلى خارج الحديقة فشاهدوا زميلهم الجريح وحدث الاشتباك الذي تطور أيضا ليشكل عنفا جماهيريا موجها للسلطة.

٤- قضية العتبة ١٩٧٤/٢/٢٨

مشاجرة بين أمين شرطة وعريف من القوات المسلحة أثناء نزول الأول من الأتوبيس أدت إلى إصابة الجندي بجرح سطحي وبدأت على أثر ذلك المشاحنات بين الجمهور وأمناء الشرطة مشكلة عنفا تلقائيا جماهيريا موجها للسلطة شارك فيه ما يقرب من ٦٠٠ مواطن.

٥- قضية بلبيس ١٩٧٢/٤/١١

إحدى لجان الإصلاح الزراعي تقوم بمهمة لها فتتعرض لاعتداء أهالي إحدى العزب اعتقادا مـنهم أن اللجنة ستقوم بعمل يضر بمصالحهم. وكان ذلك عنفـا جماهيريا موجها للسلطة شارك فيـه حـوالي عشـرة أشخاص.

٦- قضية اللبان

قام بعض أفراد شرطة اللبان باحتجاز وتعذيب أحد المواطنين مما أدى إلى مصرعه. ولم يؤد ذلك إلى أي نوع من أنواع العنف.

٧- قضية منيا البصل ١٩٧٤/٤/٢٣

قامت قوة من البوليس بمحاولة إلقـاء القـبض على أحد الهاربين من الخطرين على الأمـن وأثنـاء محاولته الهرب والاعتداء على القـوة حـدث تبـادل إطلاق بعض الأعيرة النارية مما أسفر عـن مصـرع الهارب. ولم يؤد ذلك إلى أي من أنواع العنف.

٨- قضية روض الفرج

قامت قوة من البوليس للقبض على عدد مـن المتهمين في قضية سرقة فاعتدوا على القوة بالضرب

وأحدثوا ببعض أفرادها عدة إصابات. ولم يؤد ذلك إلى عنف جماهيري تلقائي.

المنهج

إن مناهج البحث العلمي بعامة يمكن أن تنقسم إلى نوعين أساسين:

المنهج الوصفي بتفرعاته من ناحية، والمـنهج التجريبيي بتفرعاته من ناحية أخرى، ويندرج بحثنا من حيث المنهج ضمن البحـوث الوصـفية. إلا أن تلـك البحوث يمكن أن تنقسم بدورها من حيث الأسلوب إلى فرعين متمايزين، يضم الفرع الأول تلك البحوث التي تعتمد على الأسلوب الكمي الإحصائي. ويضم الفـرع الثاني تلك البحوث التي تعتمد على الأسلوب الإكلينكي أو أسلوب دراسة الحالة. والفروق بـين الأسـلوبين – وكلاهما وصفي – فروق عديـدة تشـمل المنطلقـات النظرية الأساسية، وطرق تحليل وتفسير البيانات. إلى آخره. وقد اقتضت طبيعة المادة المتاحة للتحليـل فـي هذا التقرير استبعاد الأسلوب الكمي الإحصائي وذلـك لعدة مبررات لعل أهمها أن القضايا موضع التحليل لا

يمكن اعتبارها عينة ممثلة إحصائيا لإحـداث العنـف التلقائي الجماهيري الموجه للساطة. فاختيار العينـات الممثلة إحصائيا له من الأساليب والشروط ما لا يتوافر بحال لهذه النخبة من القضايا التي اختيـرت كنمـاذج فحسب.

وافتقاد شرط تمثيلية العينة يجعل الاعتماد على تحليل بياناتها تحليلا إحصائيا – مهما بلغت دقـة هـذا التحليل – لغوا لا طائل وراءه. والتزاما بهذا المنهج تم تحليل كل من القضايا موضع البحث تحلـيلا متعمقـا موحدا باستخدام استمارة تحليل بيانات صـممت لهـذا الغرض، ويقوم هذا التقرير على مجمـل الاتجاهـات العامة التي تضمنتها استمارات تحليل البيانات.

الاتجاهات العامة للنتائج

أولا: الفقراء والعنف

إن كافة من شاركوا في إحداث العنـف فـي المدينة كانوا من العمال والحرفيين والطلاب ويتضمن الجدول رقم (١) على سـبيل المثـال تحلـيلا لمهـن المتهمين في "قضية السيدة زينب" وهي القضية التـي شهدت أشد درجات العنف مـن بـين القضـايا التـي خضعت للتحليل سواء من حيث عدد المشاركين فيها أو من حيث سقوط ثلاثة قتلى نتيجة للاشتباكات. وذلـك يعني أن من شاركوا في أحداث العنـف أقـرب إلـى الفئات الفقيرة، وكذلك الحال بالنسبة لأحـداث العنـف التي خضعت للتحليل فـي الريـف فقـد كـان كافـة المشاركين فيها من فقراء الريف.

والقضية التي تطرح نفسها على الفور في هذا الصدد هي: ترى هل لكل طبقة عنفهـا المتميـز؟ أي هناك ما يمكن أن نطلق عليه عنف الفقراء في مقابل ما يمكن أن نطلق عليه "عنف الأغنياء"؟ وهل لكـل مـن هذين النوعين من العنف خصائصـه المتميـزة؟ أم أن

العنف سمة تختص بها طبقات اجتماعية دون غيرهـا، ومن ثم فإنه يكون – في حالتنا – لصيقا بـالفقراء دون غيرهم. على أية حال فإن حدود البحث الحالي وطبيعة المادة التي يقوم عليها لا تسمح بالتصدي لمثـل هـذه التساؤلات الهامة التي ينبغي دون شك أن تفـرد لهـا بحوث أخرى تقوم على الاستقصاء والمقارنة. إلا أننـا نستطيع رغم ذلك أن نخلص في حدود هذا البحث إلى نتيجة محددة مؤداها أن العنف التلقـائي الجمـاهيري الموجه للسلطة في بلادنا هو عنف يمارسه الفقراء دون غيرهم ولعل "جماهيرية" هذا العنف قد حـددت منـذ البداية انتماءه الطبقي. وتبقى بعد ذلك قضية تفسير هذه السمة المميزة. لماذا يميل الفقراء في مجتمعنـا وفـي المرحلة التاريخية التي انتقيت منها مادة البحـث إلـى ممارسة هذا النوع من العنف التلقائي؟ ترى هل هـي سمة عامة على المستوى الحضاري تشـمل مجتمعنـا ضمن غيره من المجتمعات؟ وهل هي سمة عامة أيضا –على المستوى التاريخي تسم مراحل المجتمع جميعا؟

إن نظرة إلى تراث علم النفس الغربـي الـذي تناول مشكلات العنف قد تضع أيـدينا علـى مـدخل للإجابة على هذين السؤالين. والإسهامات النفسية فـي هذا الصدد تمثل كما هائلا. ولقد حظي الطلاب – كفئة اجتماعية – بقدر كبير من الدراسات النفسية المتعلقـة بالعنف. إلا أن كثيرا من تلك الدراسات لم يرجع العنف الطلابي إلى كون الطلبة يمثلون فئـة اجتماعيـة لهـا خصائصها المتميزة في المجتمع الغربي، مرجعا إيـاه إلى خصائص نفسية معينة تميز ممارس العنف من بين الطلاب عن غيرهم، واكتفى البعض بإرجاعه إلى مـا يسمى بصراع الأجيال.

إن سمة العنف الطلابي في المجتمع الغربي قد تبدو مدعمة لقضية مناقضة لقضيتنا تمامـا. فأولئـك الطلاب الذين يمارسون عنفا تلقائيا جماهيريا موجهـا للسلطة ينتمون في الأغلب لتلك الطبقات القادرة علـى تحمل أعباء التعليم الجامعي المالية، فهم بعامة أقـرب اجتماعيا إلى الأغنياء. فضلا عن ذلك فـإن ونبـورن وجـانس Winborn.B.B.and D.G.Jansen فـي

مقالتيهما يشيران ضمنا إلى أن الطلاب الذين يمارسون العنف ينحدرون من أسر أرقى تعليما من أسر أولئـك الذين لا يمارسون العنف. وليس من شك في أن التعليم يعد مؤشرا لا بأس به على الانتماء الطبقي خاصة في المجتمع الرأسمالي الغربي.

ويتأكد هذا التباين أيضا وبشكل أوضـح فـي مقال نشره لويس جوليان وست، وجيمس د. آلن عـام ١٩٦٨ West, L.H.and J.R. Allen واختـارا لـه عنوانا بالغ الدلالة هو "الاحتجاجات الثلاثـة: الأحمـر والأسود والأخضر". ويستهلان مقالهما بأن الاحتجـاج كان – ومازال – سمة شبابية على مر العصور إلا أنه "يتضمن عناصر ثابتة لا ترتبط بعصر معين وعناصر أخرى تعكس أهم المشـكلات المعاصـرة". ويمضـي المقال مميزا بين أنماط ثلاثة من الاحتجاجات تصطرع في المجتمع الأمريكي هي الاحتجاج الأحمر أو احتجاج اليسار الجديد. والاحتجاج الأسود أو احتجاج الزنـوج. والاحتجاج الأخضر أو احتجاج الهيبز. وأهم ما يعنينا في هذا المثال هو إشارته إلى أنه رغم اتفاق أصـحاب

الاحتجاجات جميعا على مناهضة السـلطة الأمريكيـة القائمة إلا أن " ما يجمع بين تلك الاحتجاجات إنما هو من قبيل التشابه السطحي، بينما تضـرب الاختلافـات بجذورها عميقا. فالاحتجاج الأحمر احتجاج سياسـي، ونظري، وعقلاني، وراديكالي، والاحتجـاج الأسـود احتجاج اقتصادي، واجتماعي، وعنصري، وعنيـف، والاحتجاج الأخضـر احتجـاج حضـاري، ودينـي وروحاني، يقوم على السلبية الفارماكولوجية".

لعل مثل هذا التصنيف يقترب إلى حد ما مـن قضيتنا المطروحة، أي العنـف التلقـائي الجمـاهيري المتجه للسلطة. إن ذلك العنف يتخذ في الغرب – وفي الولايات المتحدة على وجه التحديد – أنماطـا ثلاثـة نستطيع أن نختزلها وفقا لمنظورنا إلى نمطين:

أ) نمط يضم أولئك الأرقى ثقافـة، والأرقـى بالتالي من حيث المكانة الاجتماعية الاقتصادية، ويقوم احتجاج هؤلاء على رفض القيم الحضـارية والثقافيـة والسياسية القائمة. ونستطيع أن ندرج في هـذا الـنمط أصحاب اليسار الجديد والهيبيز.

ب) نمط يضم أولئك الأدنـى ثقافـة ومكانـة اجتماعية. ويتمثل هذا النمط في الزنوج الـذين يشـير إليهم مقال وست وآلن بقوله "يرى السـود فـي عـالم الرجل الأبيض بما يتميز به من وفرة وممتلكات مادية قمة المنى الحضاري. إنهم أساسا لا يرفضون قيم هذه الحضارة. إن ما يهدفون إليه هو نصيبهم العادل منها، أي الفرصة لكي يصبحوا جزءا حقيقيا منها".

ويبدو للوهلة الأولى أن نمـط العنـف الـذي يستهدف بحثنا دراسته أقرب إلى عنف الزنوج الفقراء في المجتمع الأمريكي منه إلى عنف الهيبيز واليسـار الجديد باعتبار أننا في الحالتين حيال عنـف يمارسـه الفقراء. ولكن الفروق تبدو أيضا عديدة وصارخة بـين العنف الزنجي وبين نماذج ممارسي العنف المصريين الذين تعرض لهم البحث. يكفي أن ثمة فارقا عنصـريا بين الزنوج والبيض في المجتمع الأمريكي فضلا عـن أن طبيعة المشكلات الاجتماعية التي يواجهها المجتمع الأمريكي تختلف اختلافا جذريا عن طبيعة المشـكلات

الاجتماعية التي يواجهها مجتمع نام كالمجتمع المصري.

إن عالم النفس الهندي ساجوتا داس جوبتا Dasgupta. Sugata يتناول مباشرة في مقال له نشر عام ١٩٧١ قضية العنف في الدول النامية مقررا أن العنف في الدول النامية يعد نتاجا للمساعي التنموية، بحيث يبدو للوهلة الأولى أنه أمر لا يمكن تجنبه، ويفصل داس جوبتا ما يعنيه مستشهدا بالهند حيث تركزت مغانم التحرر بالتنمية في أيدي قطاعات معينة من السكان ازدادت غنى وبالتالي ازدادت الفجوة بينها وبين الفقراء الذين يتضاعف إحساسهم بالمرارة كلما رأوا بأعينهم اتساع هذه الفجوة. ومن ثم يصحح داس جوبتا مقولته الأولى مقررا "أن العنف لا يبدو بذلك نتاجا للنمو بقدر ما هو نتاج للنمو غير الصحي".

وبرغم اتفاقنا مع ما يذهب إليه داس جوبتا في مقاله إلا أن المشكلة مازالت قائمة على المستوى النفسي، إذ كيف يمكن أن نفسر اندلاع العنف في المجتمعات النامية لأسباب تبدو ضعيفة الصلة أو بعيدة

تماما عن مشكلات التنمية غير الصحية وما تخلفه من فجوة بين الأغنياء والفقراء؟ وما هـي طبيعـة البنـاء السيكولوجي المصاحب لمشكلات التنمية هذه؟

لقد نشر توماس ج. كراوفورد وموارى ناديتش Crawford. T.J. and M.Naditch عـام ١٩٧٠ مقالا حاولا فيه طـرح تفسـير شـامل لسـيكولوجية الاحتجاج الاجتماعي. ويطرح المقال تصورا نظريـا لمراحل أربعة يتم من خلالها تطـور أو تطـوير أي مجتمع إنساني من مستوى إلى مستوى آخر.

وتتميز المرحلة الأولى بأن المجتمـع يكـون خلالها مجتمعا تقليديا Traditional ويتصـف البنـاء النفسي المصاحب لهذه المرحلـة بالرضـاء القـدري Contsnt fatalism أي رضاء الأفراد عـن أنفسـهم وإيمـانهم بـأنهم لا يملكـون تغييـرا لظـروفهم أو لمصائرهم، ويتسم سلوك الأفراد فـي هـذه المرحلـة بالسلبية والاستلام.

أما في المرحلة الثانية فيصبح المجتمع غيـر مستقر unstable ويتصف البناء النفسـي المصـاحب

لهذه المرحلة بالتذمر القدري discontent faltalism حيث يفتقد الأفراد رضاءهم عن أوضـاعهم ولكـنهم يشعرون بعجزهم من تغيير هذه الأوضـاع، ويتسـم سلوك الأفراد في هذه المرحلة بأنه سـلوك تعبيـري expressive ويقرر المقال أن هذه المرحلـة تتميـز بشعور بالإحباط النسبي وإنها أكثر المراحل الأربعـة تعاسة للفـرد وأكثرهـا خطـورة وتهديـدا للنظـام الاجتماعي. وبعبارة بسيطة، فإن الفرد في هذه المرحلة يدرك أن ثمة فجوة هائلة تفصل بين رغباته وإنجازاته. ويشعر أنه عاجز عن إنجاز أي شيء يقلل مـن هـذه الفجوة.. ونعتقد أن سيادة هذه الحالـة النفسـية تميـز المجتمعات غير المسـتقرة. ولكـي نوضـح طبيعـة الاستجابات للتذمر القدري، والتي تتميز بكونها غيـر مؤدية للهدف، فقد استخدمنا مصطلح السلوك التعبيري expressive behavior بهدف أن نصـف السـلوك المتوقع، رغم أن مصـطلح السـلوك المتفجـر be-expressive havior قد يبدو الأصـلح. إلا أن مـن لديه أهدافا قوية ملحة ولكنه لا يدرك السبل لبلوغ هذه

الأهداف قد يستجيب بيأس ولا مبالاة، كمـا أنـه قـد يستجيب باندفاعات عنيفة، مـدمرة، وغيـر متوقعـة تستأثر بما يبدو أحداثا تافهة".

أما في المرحلة الثالثة فيتسـم المجتمـع بأنـه مجتمع انتقالي transitional ويتصف البناء النفسـي المصاحب لهذه المرحلة بالتذمر الفعـال discontent activism ويتسم سلوك الأفراد في هذه المرحلة بأنـه سلوك وسائلي instrumental وفي هذه المرحلة أيضا تكون ثمة فجوة كبيرة بين الرغبات والمنجزات. ورغم أن الأفراد يشعرون في هذه الحالة بإحباط نسبي فـإنهم يتوقعون أن يتمكنوا من ممارسة الأفعال التي تساعدهم على تحقيق أهدافهم. ولا يعني ذلك خلو تلك المرحلـة من احتمالات الاضطراب الاجتماعي والعنف بـل إن التنبؤ بشكل الاستجابة المتوقعة فـي هـذه الظـروف تتوقف على عوامل عديدة أهمها أساسا مدى ما يتيحـه المجتمع من سبل مشروعة ومعلنة أمام الأفراد لبلـوغ أهدافهم دون تهديد للنظام السياسي القائم. أما إذا لم تتح تلك السبل فإن السلوك الوسائلي المتوقع سوف يكـون

أقرب إلى الثورية منه إلى الإصلاحية. وعلى أية حال فإن الثورات التي قد تميز هذه المرحلة "تختلف تمامـا عن اضطرابات التذمر القـدري الخاصـة بالمرحلـة السابقة من حيث إنها تكون في مرحلتنا هذه مخططـة وهادفة.."

أما المرحلة الرابعة والأخيـرة ففيهـا يكـون المجتمع مجتمعا مستقرا stable ويتصف البناء النفسي المصاحب لهذه المرحلة بالرضـا الفعـال content activism حيث ينخفض مسـتوى الإحبـاط النسـبي ويتسم سلوك الأفراد في هذه المرحلـة بأنـه سـلوك استجابي reactive.

ويتضح من التخطيط السابق – إذا مـا سـلمنا بصحته– أن نمط العنف الذي تستهدفه الدراسة أقـرب إلى ذلك الذي تضمنته المرحلة الثانيـة مـن مراحـل التخطيط المشار إليه، أعني مرحلـة المجتمـع غيـر المستقر. فهو عنف تدميري يندلع فجأة دون توقع نتيجة لأحداث لا تتناسب مع ضخامته، ثم يختفى فجأة أيضـا ليحل محله اليأس أو اللامبالاة. وعلى أية حال فإننا لا

نهدف بدراستنا للعنف أن نصل إلى تشـخيص لمـدى استقرار المجتمع في المرحلة الراهنة فذلك أمر يخرج تماما عن نطاق هذه الدراسة السيكولوجية. وإن كنا لا نستطيع بحال تجاهل الجـذور الاجتماعيـة للظـاهرة موضع الدراسة.

لقد اتضح من دراسة وست وآلن West, L.J. and J.R. Allen وكذلك من دراسة كرافورد وناديتش Crawford. T.J. and M. Naditch وأيضـا مـن دراسة داس جوبتا Das- gupta, Sugata أن العنف التلقائي بالذات يكون أساسا نتاجا لما يسمى بالحرمـان النسبي. والاهتمام بظاهرة الحرمـان النسـبي لـيس بالاهتمام الجديد في مجال علم النفس. فقد أشار ستاوفر وزملائه Stouffer, S.A. etal عام ١٩٤٩ إلـى أن أهم محددات الرضا أو التذمر ليس بحـال المسـتوى المطلق أو الموضوعي للإنجاز أو للحرمان بـل إنـه مستوى الإنجاز أو الحرمان بالنسبة للمسـتوى الـذي يحدده الأفراد لتقييم أنفسهم.

كذلك فقد أشار دافيز Davies, James C. في مقال نشر عام ١٩٦٢ إلى أن الثورات تسـبقها عـادة فترة من النمو الاجتماعي تؤدي إلى ارتفـاع مسـتوى الطموح يليها فجأة انهيار حاد يـؤدي إلـى انخفـاض مستوى القدرة على الإنجاز.

كذلك فقد أورد آبرل Aberle, D. في مقال له نشر عام ١٩٦٥ مثالا يوضح مـا يعنيـه بمصـطلح الحرمان النسبي. أن قبيلة الصيد أو الرعي قد تمضـي ثلاث أيامها لا تجد طعاما ومع ذلك لا يحس أفرادها إلا بقدر ضئيل من الحرمان النسبي إذ أنهم لا يتوقعون – في مثل ظروفهم – الحصول على مزيد من الطعـام. ومن ناحية أخرى فإن صاحب الملايين العديدة إذا مـا فقد جانبا كبيرا من ثروته ولم يبق له سوى ملايين قليلة قد يشعر بقدر هائل من الحرمان النسبي.

كذلك فقد أشار فايرابند وفايرابند Feirabend. Ivo K. and Rosalind I. Feirabend في دراسـة لهما نشرت عام ١٩٦٦ إلى أن ثمة رباط وثيـق بـين الاضطرابات السياسية والاجتماعية الداخلية، واتسـاع

الفجوة بين محكات ارتفاع مستوى الطموح كالتحضـر ومعرفة القراءة والكتابة ومحكـات الإنجـاز الفعلـي كالدخل القومي العام وعدد الصحف وأجهزة الراديـو وعدد السعرات الحرارية التي يستهلكها الفرد كذلك.

وقد نشر أتوكيرنر وزملائه Kenner. Otto et. al. عام ١٩٦٨ تقريرا عن أحداث العنف الزنجـي في الولايات المتحدة الأمريكية أشـاروا فيـه إلـى أن الزنجي الذي يمارس العنف إنما يمارسه لأنه يشعر في أعماقه أنه يستحق عملا أفضل، وأن ما يحـول دونـه والوصول إلى هذا العمل ليس نقصا فـي تدريبـه أو قدرته أو طموحه. ويتفق ذلك بدرجة أو بأخرى مع ما انتهى إليه آخـرون مثـل Pettigrew, Thomas F. ممن تعرضوا لدراسة العنف الزنجي فـي الولايـات الأمريكية.

ثانيا: النساء والعنف

كان كافة المشتركين في أحداث العنـف التـي وقعت في القاهرة من الذكور في حين شاركت النسـاء

في تلك الأحداث التي وقعت بالريف. ويمكن أن يعـد هذا مؤشرا لعدة أمور أهمها:

١- أن مشاركة المرأة الريفية للرجل مشاركة حقيقية في مجال العمل، وكذلك في تحمل المسـئوليات الفعلية في الأسرة تمتد إلى المشاركة في التعـدي لمـا يعتبر تهديدا للأسرة ولمصدر الرزق، ويتفق ذلك مـع ما انتهينا إليه في بحث لنا نشـر عـام ١٩٧٤ عـن التكوين السيكولوجي للفلاح المصري.

٢- إن التضامن الأسري في الريـف لا يـدع مجالا كبيرا للتمايز بين الرجال والنساء خاصـة فـي المواقف العصيبة.

ثالثا: الشباب والعنف

كان غالبية المشاركين في أحـداث العنـف - وخاصة تلك التي وقعت في المدينـة- مـن الشـباب. وتتفق هذه السمة تماما مع التفسير الذي أشـرنا إليـه والذي يرجع أحداث العنف أساسا إلـى زيـادة حجـم الحرمان النسبي. فإذا كان الفقراء بعامة هـم الأكثـر إحساسا بالحرمان النسبي في المجتمعات النامية، فـإن

شباب هؤلاء الفقراء هم بدورهم الأكثر إحساسا بهـذا الحرمان. فالشباب بحكم أعمارهم أشـد تطلعـا إلـى المستقبل وانشغالا بقضاياه، ومن ثم فمن الطبيعـي أن يكون مستويات طموحهم أعلى من مستويات طمـوح الكبار. ومن هنا فإن الفجوة بين مسـتويات الطمـوح المرتفعة وإمكانيات الإنجاز المتواضعة – أي مسـتوى الإحساس بالحرمان النسبي– تكون لديهم أكبر منها لدى الكبار. ذلك بالإضافة إلى ما تزودهم به أعمارهم مـن خصائص نفسية تجعلهم أكثر انفعالا، وأقل قدرة علـى إخفاء مظاهر غضبهم.

رابعا: سيكولوجيا الإنكار

إن كافة من مثلوا أمام النيابة أو أمام ضـابط الشرطة خـلال التحقيقـات أو أمـام القضـاء أثنـاء المحاكمة، وسواء كانوا من الريف أو مـن الحضـر، وسواء كانوا شهودا أو متهمين الجميع دون استثناء قد أنكروا تماما أنه قد صدر منهم أي سلوك عنيف ولـو حتى على سبيل الدفاع عن النفس. وجميـع المتهمـين وبلا استثناء أيضا – قد قرروا أن القبض عليهم قد تـم

بمحض الصدفة وأنهم لا يعرفون له تفسيرا. كمـا أن الغالبية العظمى من الشهود سواء كانوا من المصـابين أو من المتضررين ماديا قد قـرروا أنـه لـيس فـي استطاعتهم التعرف على من مارسوا أحداث العنـف. والجميع برغم ذلك يقررون أن أحداث العنف قد وقعت بالفعل. ولقد امتدت هذه السمة لتشمل رجال الشـرطة أنفسهم حين واجهوا نوعا من الاتهام باستخدامهم العنف مع أحد المواطنين مما أدى إلى مصرعه كما حدث في " قضية السيدة زينب"، و "قضية اللبان" حيث تلخـص الموقف في الإنكار التام دون محاولة تفسير السبب في توجيه الاتهام إليهم.

بل إنه حتى في حالة لجوء الشرطة إلى إطلاق الرصاص على المتجمهرين في "قضية السيدة زينـب" مما أدى إلى مصرع بعضهم، لم تسفر التحقيقات عـن تحديد دقيق للضابط المسئول الـذي أصـدر أوامـره، بإطلاق الرصاص رغم أن إصدار مثل هذا الأمر كان يمكن تبريره بسهولة فيما يبدو.

ولعلنا نستطيع أن نستخلص من هذا الموقـف المتناقض عددا من المؤشرات أهمها:

١- التشكك الدائم في نوايا السلطة سواء مـن رجال الشرطة أو حتى من رجال النيابة والنظر إلـى الجميع باعتبار أنهم يضمرون شرا ويبحثون عن أدلـة للإدانة وليس على الإطلاق باعتبارهم يبحثـون عـن الحقيقة والعدل. وبالتالي فإن ممثلي السلطة لن تقـنعهم أية مبررات مهما كانت منطقية ولذلك فإن الإنكار مهما كانت لا منطقيته هو الأسلم دائما. ولسنا بصدد تقصي جذور هذا التشكك في نوايا السلطة، وإن كنـا نراهـا تضرب بعيدا في تاريخ الإنسان المصري إلى حد أنها تبدو لنا كما لو كانت واحدة من سمات الطابع القـومي المصري.

٢- حرص المرء على عـدم الوشـاية بأحـد للسلطة حتى ولو كان معتديا، وحتى لو تسبب عدوانـه في إلحاق الضرر بالمرء نفسه. ويتفق هذا تماما مـع المؤشر السابق، فالتشكك في نوايـا السـلطة يـؤدي بالضرورة إلى تصنيف ممثليها في فئة " الآخرين" أو "

الغرباء" وبالتالي لا ينبغي لنا نحن مهما كانت عداوتنا لبعضنا البعض أن نسلم واحدا منا إلى هؤلاء الآخرين الذين يضمرون لنا جميعا شرا. ويبدو كما لو أن هـذا الموقف أيضا يستند إلى خاصية نفسية عميقة الجـذور لدى المصريين تتمثل في إدانتهم الأخلاقية لمن يشـي بالمخطئ أو المعتدى إلى السلطة حتى ولو كانت سلطة الوالد أو المدرس.

٣- الحرص على إيثار السلامة وعدم الدخول في تعقيدات مع ممثلي السـلطة. أو بعبـارة أخـرى الحرص على أن تكون العلاقة بممثلي السـلطة فـي أضيق حيز ممكن، ومن ثم ينبغي السعي لاختصـارها زمنيا. والسبيل الأسلم لتحقيق ذلك هو أن يبدو المـرء في صورة من لا يعرف ومن ثم تنتهي العلاقـة مـع ممثلي السلطة في أسرع وقت ممكـن. ويتفـق هـذا الموقف بدوره تماما مع بقية المؤشرات السابقة فلـيس من دافع لتوثيق العلاقة مع هؤلاء "الآخـرين" الـذين يضمرون الشر والضرر.

٤- الإنكار أمام ممثلي السلطة هو موقف يعد نتاجا مباشرا للعوامل السابقة بالإضافة إلى أنه يعنـي على المستوى السيكولوجي القيمي أن مثل هذا السلوك لا يعد "كذبا" رغم أنه كذلك، ولا يعد "جبنا" رغم أنـه كذلك. بل إنه أقرب إلى أن يعتبر نوعا من " الحرص" و "المهارة". ومن ثم فإنه إذا لم يمثل قيمة مرغوبة فإنه قطعا لا ينتمي إلى قيمة مدانة أخلاقيا.

٥- عدم الإقدام على التعرض للسلطة إلا فـي حالة توافر الحد الأدنى من ضمان ألا يصيب المـرء ضررا من جراء ذلك. وتعـد جماهيريـة العنـف أو جماعيته نوعا من هذا الضمان. وينقلب الموقف إلـى النقيض في حالة المواجهة المباشرة لنفس السلطة فـي موقع الاتهام وهنا يتضـح الوجـه التلقـائي للعنـف الجماهيري باعتباره عنفا اندفاعيا غير مخطط وبالتالي فإن هذا التحول المفاجئ في الموقف من السلطة يصبح مبررا تماما على عكس ما هو متوقع في حالة العنـف المخطط حيث يكون لدى المشاركين فيـه مبـرراتهم المنطقية المقنعة لهم بالإقدام عليه.

خامسا: تلافي العنف

يمكن تلافي العنف عندما يشرع ممثلو السلطة وبسرعة في تعديل صورتهم لـدى الجمهـور، ذلـك بالإضافة بطبيعة الحال إلـى العديـد مـن العوامـل الأخرى. ولقد اتضح ذلك تماما فـي "قضـية اللبـان" فبالإضافة إلى عوامل عديدة أسـهمت فـي تخفيـف احتمالات انفجار العنف كانت المسارعة بإلقاء القـبض فورا على المأمور المتهم بالقتل عاملا هاما في تفـادى احتمالات انفجار الموقف.

خاتمة

لم تستطع المادة المحددة والمحدودة التي قـام هذا التقرير على تحليلها أن تدعنا نقترب مما يمكن أن يسمى بالخصائص النفسية الفردية المميـزة لممـارس العنف التلقائي. وعلى أية حال فالتساؤل مازال قائمـا، هل ثمة ما يميز العنف على المستوى النفسي الفـردي الخالص؟ أو بعبارة أخرى هل توجد خصائص نفسـية بعينها تجعل صاحبها دون غيره أكثر استعدادا لممارسة العنف وإقداما عليه؟ ورغم تسليمنا بمشروعية التصدي

بالبحث العلمي لمثل هذا التساؤل إلا أن لنا رأيا نظريا في مدى أهمية هذا التصدي؛ فمن ناحية إذا ما سـلمنا بأن ثمة استعدادا فرديا نفسيا لممارسة العنـف، فـإن العنف في هذه الحالة سوف يكون عنفـا فرديـا، أمـا العنف الجماهيري فنتصور أن جذوره لابد وأن تكمـن فيما يمكن أن يسمى "شخصية الجماعة" وهي في هـذه الحالة جذور وثيقة الصلة بما يجـرى فـي المجتمـع وأساسا بديناميات عملية التنشئة الاجتماعية. ومن ناحية أخرى فإن خاصية الحرمان النسبي التي نراها بمثابـة المحور السيكولوجي لممارسات العنـف الجمـاهيري التلقائي، بل والتي قد تكون المحور كذلك لممارسـات عنيفة أخرى، هذه الخاصية لا تعد فيما نرى خاصـية نفسية فردية خالصة بل إنها مرتبطة ارتباطـا وثيقـا بطبيعة الظروف الاجتماعية والمرحلة التاريخية التـي يمر بها مجتمع معين.

ثمة تساؤل أخير يفرض نفسه دائما على مثـل هذا النوع من البحـوث التطبيقيـة.... ومـاذا بعـد؟ أو..... وما العمل؟ وعادة ما تتخذ إجابة الباحث على

مثل هذه التساؤلات شكل "النصائح أو التوصيات" ذات الصبغة العملية المباشرة التي تكفـل القضـاء علـى المشكلة موضع البحث. والمشكلة في بحثنا هي "العنف التلقائي الموجه ضد نمـاذج مـن السـلطة". وسـرد "النصائح" أو "التوصيات" في هذا المجال بالتحديد أمـر تكتنفه صعاب عدة يرجع بعضها إلى العنف فـي حـد ذاته، ويرجع بعضها الآخر إلى تلقائية هـذا العنـف، ويرجع البعض الثالث إلى توجه هذا العنـف التلقـائي صوب السلطة ونماذجها.

أولا: العنف خاصية بشرية طبيعيـة، مارسـه ويمارسه البشر منذ وجدوا، سـواء علـى المسـتوى الفردي أو على المستوى الاجتماعي. وثمة أنواع مـن العنف يحض المجتمع على ممارستها بل ويـدين مـن يحجم عن هذه الممارسة مهما كانت دوافعه كالتصـدي عنفا للعدو الفردي أو الجماعي أو القومي. تلك أمثلـة لأنواع من العنف الفردي والاجتماعي يقوم المجتمـع بتنشئة أفراده على ممارسته ودفعهـم بكافـة أسـاليب الثواب والعقاب إلى هذه الممارسة. ومـن هنـا فـإن

صعوبة إبداء النصح كختام تقليدي لبحث في العنف إنما يرجع إلى أن المطلوب حقيقة ليس القضاء على العنف بل ترشيده، أي توجيهه وجهة معينة ثم تدعيم هذا التوجيه.

ثانيا: لقد تركز البحث على نوع محدد من أنواع العنف هو العنف التلقائي. والسمة الأساسية لمثل هذا النوع من العنف هي أنه عنف غير متوقع سواء من جانب المشاركين فيه أو الموجه إليهم. عنف ينفجر فجأة لأسباب "تافهة" بمعنى أنه ليس ضروريا أن تؤدي هذه الأسباب إلى العنف كلما تكررت. ومن هنا فإن أسباب العنف "التلقائي" لا تكمن حقيقة في الموقف المباشر الذي انفجرت فيه ممارسة العنف بل إنها تكون نتيجة لتراكمات تاريخية تتم خارج هذا الموقف. ومن هنا فإن الترشيد الصحيح لهذا النوع من العنف لا يمكن أن يتأتى من خلال نصائح جزئية تنصب على تحسين أساليب معالجة الموقف المباشر، بل ينبغي أن تمتد إلى الجذور العميقة التي تقع حتما خارج حدود هذا الموقف المباشر، بعبارة أخرى فإن " التوصيات أو النصائح

"التي يمكن التوصل إليها في هذا الصدد سوف يغلـب عليها بالضرورة الطابع الاستراتيجي ومن ثم فقـد لا تبدو مشبعة لمن يبحث عن حل جاهز سريع.

نستطيع أن نخلص من ذلك إلـى أن ترشـيد العنف التلقائي موضع البحث لا يمكـن أن يتـأتى إلا بمواجهة جذوره التي تتمثل في أمرين متكاملين:

١- الحرمان النسبي، أو بتعبيـر أبسـط " الإحسـاس بالظلم الاجتماعي".

٢- عدم وجود قنوات طبيعيـة للتعبيـر عـن هـذا الإحساس.

والتصدي لهذه الأسباب بشـكل واقعـي يتطلـب العمل على عدة محاور متوازية:

أ) تقليل التفاوت بين الطبقات الاجتماعية.

ب) تكثيف الإعلام بما يتم إنجازه من خطوات في سبيل هذا التقليل.

ج) تدعيم فكرة القبول بالاختلاف "السلمي" مع السلطة على كافة المستويات.

د) تدعيم الفكر العقلاني.

وليس من شك في أن كلا من هـذه المحـاور يمكـن تفصيله أو ترجمته إلى خطوات تنفيذية عديدة ومتشابكة لا يتسع المقام بطبيعة الحال للخوض فيها تفصيلا.

جدول رقم (١)

توزيع المتهمين بالمشاركة في أحداث قضية السيدة زينب وفقا للمهنة

المهنة	العدد
عامل	٦
جندي	١٢
طالب	١
بائع متجول	١
جزار	١
بقال	١
طعمجي	٢
فران	١
فراش	١
ترزي	٢
نقاش	٢
قهوجي	١
خضري	١
سباك	١
لحام	٢
جزمجي	٢
منجد	٢
ميكانيكي	١

سروجي فحام غير مبين	١ ٢ ٦
المجموع	٥١

جدول رقم (٢)

توزيع المتهمون بالمشاركة في أحداث قضية السيدة زينب وفقا للسن

السن	**العدد**
من ١٤ سنة إلى أقل من ١٨ من ١٨ سنة إلى اقل من ٢٢ من ٢٢ سنة إلى اقل من ٢٦ ٢٦ سنة فأكثر غير مبين	٢١ ١٣ ١٣ ١ ٣
المجموع	٥١

المراجع الأجنبية

Aberle, D., "Note on relative deprivation theory as applied to Millinarian and other cult movements", In William A. Lessa and Evon E. Vogt (eds), Reader in comparative re-ligion, (٢D., ed.), Harper & Row, ١٩٦٥.

Alker, H.A. "Aquasi-paranoid feature of student's extreme attitudes against colonialism" Behavioral Science. ١٦ (٣). ١٩٧١: ٢١٨-٢٢٧.

Block J.H. "Rebellion re- examined: The role of identification and alienation". Paper pre-sented at the Foundayions Fund For Research In Psychiatry conference on Adaptation to change: Puerto Rico: June ١٩٦٨: Unpublished.

Block. N. Haan. And M.B.Smith "Acitivism and apathy in contempotary adolescents". In J.F.Adams (ed.) Understanding adolescence: Current developments in ad-olescent psychology, Allen & Bacon ١٩٦٨.

Block. N. Haan. And M.B.Smith " Socialization correlates of student activism": J. Social Issues ٢٥ (٤) ١٩٦٩ ١٤٣-١٧٧.

Dasgupta. Sugata, "Violence, development, and tension "International J. of group ten- sions, I (٢), ١٩٧١, ١١٤-١٢٣.

Davies, James C., "Toward a theory a theory of revolution" , Amer. Sociol. Review, ٢٦:٥-١٩, ١٩٦٢.

Feirabend, Ivo K. and Rosalind I. Feirabend, "aggressive behavior within politics ١٩٤٨-١٩٦٢, A cross national study" J. conflict Resolution. ١٠: ٢٤٩-٢٧١, ١٩٦٦.

Gerchwender, J.a. "social structure the Negro revol and examination of some hypoth-esis", Social Forces ٤٣: ٢٤٨-٢٥٦, ١٩٦٤.

Kerner, Otto et. al. Report of the National advisory commission on civil disorders, Bantam Books, ١٩٦٨ P. ١٢٩.

Kerpelman L.C. "Student political activism and ideology". J. Counseling Psychology, ١٦ (١): ١٩٦٩; ٨-١٣.

Pettigrew, Thomes F. "actual gains and psychological Iosses the negro American protest". J. negro Education, ٣٢: ٤٩٣-٥٠٦, ١٩٦٣.

Pettigrew, Thomas F. Aprofile of the Negro American, Van Nostrand, ١٩٦٤.

Stouffer, S.A. etal. The American soldier, Vol. I, Princeton Univ. Press, ١٩٤٩.

Watts. W.A., Steve Lynch; and David Whittaker, Alienation and activism in today'S col-lege-age youth: socialization patterns and current family

relationsgips:. J. Counseling Psychology, ١٦ (١) ١-٧.

West, L.J. and J.R. Allen "Three rebellions: Red black, and green" , The Dynamics of Dissent, Grune & Stratton, Inc., ١٩٦٨, ٩٩-١١٩.

Whittaker D, and William A. Watts. "Personality characteristics of a nonconformist youth subculture: A study of the Berkeley non-student". J.Social Issues. ٢٥ (٢). ١٩٦٩ ٦٥-٨٩.

Winborn. B.B. and D.G. Jansen "Personality characteristics of campus social – political action leaders", J.Counseling Psychology, ١٤ (٦) ١٩٦٧, ٥٠٩-٥١٣.

Winborn. B.B, and "Profile of social- political action leaders" The Journal of College Stu- dent Personal, January ١٩٦٩, ٧-١١.

المراجع العربية

– قدري حفني؛ حول التكـوين السـيكولوجي للفـلاح المصري، دراسات سكانية (دورية شهرية تصدر عن المجلس الأعلى لتنظـيم الأسـرة والسـكان)، أبريـل ١٩٧٤.

– انظر تعريفنا لشخصية الجماعة وحـدودها: قـدري حفني، دراسة في الشخصية الإسرائيلية/ الاشـكنازيم، جامعة عين شمس ١٩٧٥.

الفصل الثاني عشر

الصناعة ومقاومة التغيير

الصناعة والتغيير... لماذا؟

مقاومة التغيير... لماذا؟

التغير سنة من سنن الحياة. لا شيء يبقى على حاله. الكون في حالة تغير مستمر. والتغيير هو إحداث تغير مقصود. بمعنى أن نقدم عامدين على تغيير ما هو كائن بالفعل إلى الحالة التي نريدها. وإذا كان التغير ظاهرة طبيعية، لا دخل فيها لإرادات البشر، فإن التغيير فعل مقصود ولذلك فهو ظاهرة بشرية. وإذا كان التغير أمر يصعب مقاومته، أو بعبارة أخرى فإن مقاومته محكوم عليها بالإخفاق في النهاية، فإن مقاومة التغيير كرد فعل طبيعي لمحاولة إحداث التغير، تتميز بأن نتيجتها تتراوح بين النجاح والإخفاق. وتتوقف تلك النتيجة على عديد من العوامل سوف نعرض لها في حينها. ويكفي أن نشير حاليا إلى أمور ثلاثة تمهيدية:

أولا: إن مقاومة التغيير تتخذ صورا متدرجة، قد تقف عند حد التعبير عن الامتعاض بالكلمة أو حتى بالإشارة، وقد تصل إلى حد أقصى صور الاحتجاج عنفا وتدميرا. ويرتبط هذا التدرج بمدى أهمية السلوك

المطلوب تغييره بالنسبة للفرد، وكذلك بطبيعة العلاقات بين الفرد وبين قوى التغيير.

ثانيا: ليس كل سعي للتغيير خيـر وفضـيلة، وليست كل مقاومة للتغيير شر ورذيلة. – فمن الجـائز أن يكون التغيير، تغييرا إلى الأسوأ، ومن ثـم ينبغـي مقاومته. ومن المحتمل – وهو الأكثـر شـيوعا – أن يكون التغيير إلى الأفضل، ومن ثم ينبغي مساندته.

ثالثا: يرتبط الموقف حيال التغيير، برؤية الفرد لطبيعة ذلك التغيير، وقد لا تتماثل تلك الرؤية بالنسـبة لأفراد الجماعة الواحدة جميعا. إن نظاما جديدا للتعلـيم أو للأجور أو للضرائب، قد يرى فيه الـبعض خيـرا كثيرا، وقد يراه البعض شرا خالصا.

يغلب على البشر بعامة الميـل إلـى مقاومـة التغيير. فما من فكرة جديدة أو اقتراح جديد إلا ووجـد من يتعرض له بالنقد ويتصدى له بالمقاومـة، مهمـا كانت تلك الفكرة لامعة أو كان ذلك الاقتـراح مفيـدا. ولكن إلى أي حد يستمر ذلك النقـد وتلـك المقاومـة؟ يتوقف الأمر في النهاية على مـدى إحسـاس الفـرد

بالحاجة لذلك الجديد، ثم ما تستغرقه التجربة الأولى له. ولو لم نضع ذلك التحفظ في اعتبارنـا، وتصـورنا أن مقاومة الجديد حتى النهاية أمر حتمي لا مهرب منـه، فإننا لن نستطيع أن نفسر آنذاك كيف أن مجمل محصلة قبول الجديد تفوق حصيلة محـاولات مقاومتـه علـى مستوى تاريخ المجتمعات البشرية. وعلى سبيل المثال فإن الصورة الشائعة عن الفلاح المصري تبرز أنه من أكثر الشرائح ميلا للتمسك بالقديم ومقاومـة الجديـد. ويستند ذلك التصور إلى تمسك الفلاح بعاداتـه فيمـا يتعلق مثلا ببرامج تنظيم الأسرة، وارتـداء الملابـس الأفرنجية، وأسلوب تصميم المنازل.. إلى آخره. ولكنه – أي ذلك التصور– يعجز عن تفسير إقـدام الفـلاح المصري على اسـتخدام الآلات الزراعيـة الحديثـة، واقتناء الأدوات الكهربية، والتدافع على طلب العـلاج بأحدث الأساليب.

إن الموقف من الجديد موقف انتقائي نسـبي، ولا ينفي ذلك ميل الفرد إلى التشكك فيمـا لا يعـرف. ومثل هذا التشكك يمكن النظر إليه باعتباره دليلا على

التعقل والرشد، فقبول الجديد دون اختبار أو تفحـص موقف مرضي يهدد كيان الفرد والمجتمع علـى حـد سواء. خلاصة القول إن التشكك في الجديد قد يكـون ظاهرة صحية، إذا ما انتهى ذلك التشكك بـالفرد إلـى قبول الجديد النافع ورفض الجديد الضار. أمـا إذا مـا اتخذ الفرد – أو اتخذت الجماعة – موقفا مبدئيا برفض ذلك الجديد رغم ما يحمله من مزايا، لمجرد التمسـك بالقديم على ما به من مثالب، فإننا نكون آنذاك حيـال موقف نموذجي من مواقف "مقاومة التغييـر"، وهـي مواقف كثيرا ما نلقاها في حياتنا اليومية.

مقاومة التغيير... بين الجمود والملل

أن نظرة فاحصة إلى تصرفاتنا فـي الحيـاة، كفيلة بأن تضع أيدينا على حقيقة أن ثمة صراع يـدور داخل كل فرد بين قوى تدفعه إلى التمرد على ما آلفـه واعتاده، وقوى أخرى تدفع به إلى التمسك بالمـألوف والمعتاد. ونستطيع أن نطلـق علـى القـوى الأولـى "الملل"، وعلى القوى الثانية "الجمود". إن تغيير المـرء لمكان نومه المعتاد، أو لجلسته المعتادة أثناء العمل، أو

لنمطه المعتاد في ارتداء الملابس.. إلى آخره، قد يثير لدى البعض قدرا هائلا من القلق. ومن ناحية أخـرى فإن الاستمرار على وتيرة واحدة في المذاكرة أو العمل أو حتى الترفيه، قد يثير لدى الكثيرين قدرا هائلا مـن الضيق.

وتختلف محصـلة الصـراع بـين "الملـل"، والجمود، بتباين الأفراد والمواقف. فمنا من لا يطيقون الاستمرار على وتيرة واحـدة فـي معظـم مجـالات حياتهم. يتطرفون في إحساسهم بالملل ورغبتهم الغلابة في تغيير ما ألفوه واعتادوا عليه. يميلون إلى التنقل من مكان لآخر، ومن عمل لآخر، ويميلون أيضا إلى تغيير تنظيم الأثاث في منازلهم، واستبداله كلمـا اسـتطاعوا ذلك. نجدهم يبحثون عن الجديد، ويقبلون عليه بحماس شديد، ثم لا يلبث حماسهم أن يخفت، وينتـابهم الملـل مرة أخرى، فيعاودون البحث عن جديد وهكذا.

ومن ناحية أخرى، فمنا كذلك من لا يطيقـون أن يطرأ أي تغيير مهما كان طفيفا على ما اعتادوه أو على ما يتوقعونه من البيئة المحيطة بهم. نجدهم شديدو

التمسك بما ألفوه من ألوان الطعام والملابس والأثـاث. شديدو النفور من أي تغيير يطرأ على ما يحيط بهـم. يصيبهم أرق شديد إذا ما اضطروا لتغيير أماكن نومهم المعتادة. ويستغرقون وقتا طويلا لكي يألفوا الجديد إذا ما فرضته عليهم الظروف، بل ويظل حنيـنهم للقـديم قائما.

وبطبيعة الحال فإن البشر لا ينقسـمون إلـى هذين النمطين المتطرفين فحسب، بل تتدرج مـواقعهم بين هذا وذاك، ويبقى المتطرفون أقلية فـي النهايـة، ولذلك حكمة بالغة. فالتطرف في كلا الاتجاهين كفيـل بتدمير عملية التنشئة الاجتماعية، فضلا عـن تهديـد عملية التكيف تهديـدا خطيـرا. إن عمليـة التنشـئة الاجتماعية تقوم في جوهرها على إكساب الفرد أنماطا محددة من السلوك، وهي عملية تستمر طالما استمرت الحياة، وتشارك فيها العديد من المؤسسات الاجتماعية كالأسرة، ودور العبادة، وأجهزة الإعلام.. إلى آخـره. والمطلوب لكي تنجح هذه العملية الحيويـة أن يتـوافر لدى الفرد قدر "معقول" من التمسك بما تعلمه والـدفاع

عنه فذلك هو ما يضمن استمرارية التراث، والمطلوب منه أيضا أن يتوافر لديه قدر "معقول" مـن الاسـتعداد للتخلي عما تعلمه في سبيل اكتساب وتعلم الجديد الذي يقتضيه تطور عملية التنشئة الاجتماعية.

فإذا ما زاد التمسك بالقديم عن الحد "المعقـول" توقف الفرد عند ما اكتسبه في مراحل نموه الأولـى، عاجزا عن تطويره، رافضا لاكتساب الجديـد. ومـن ناحية أخرى، فإنه إذا ما قل ذلك التمسك عـن الحـد "المعقول"، وأصبح الفرد طاردا لما اكتسبه من عادات، متخلصا منها أولا بأول، منفتحا على الجديد دون تميز، انعدمت لديه آنذاك خاصية التراكم ومن ثم أصبح عمليا لا يتعلم شيئا.

ولا يقتصر أثر التطرف في أي مـن هـذين الاتجاهين علـى تجميـد أو تـدمير عمليـة التنشـئة الاجتماعية، بل إنه يحمل تهديدا خطيرا لعملية التكيف وهي العملية الحيوية لاستمرارية حياة الفرد. إن المرء لا يستطيع مهما بلغت قدراته أن يجمد البيئة من حوله على الأوضاع التي ألفها. فهناك حدود دائما لا يستطيع

المرء أن يتجاوزها. ويقوم جوهر عملية التكيف على قدرة المرء على مواءمة نفسه مع مقتضيات البيئة المحيطة به، فإذا ما اختلت هذه القدرة، تهدد وجود المرء خطرا أساسيا: إما أن تضيق به بيئته المتغيرة، فتطرده منها، وإما أن يضيق هو ببيئته المستقرة فينعزل عنها. والأمثلة في مجال المصنع عديدة تفوق الحصر، نكتفي منها بإشارة إلى نموذجين: النموذج الأول هو ما نشهده في كثير من الأحيان من تمسك بعض العاملين بأنماط محددة من أساليب أداء العمل، تجاوزتها اتجاهات التطوير في المؤسسة. وقد يصل الأمر بمثل هؤلاء إلى حد الفصل من وظائفهم. والنموذج الثاني هو ميل كثير من العاملين إلى تكرار تغيير أعمالهم، واستبدال مؤسساتهم بمؤسسات أخرى. إنها ظاهرة "العامل غير المستقر"، وغني عن البيان ما تتضمنه تلك الظاهرة من سلبيات مادية واجتماعية تنعكس على الفرد في النهاية.

خلاصة القول إن التطرف في مقاومة التغيير يهدد الإنتاجية ويدفع بالمؤسسة إلى اتخاذ القرارات

التي تضمن استمرارية العمل، في حين أن التطرف في الإحساس بالملل يدفع بالأفراد إلى ترك أعمـالهم دون حاجة إلى أن تتخذ المؤسسة أية قرارات. ولذلك فـإن الظاهرة الجديرة بالدراسة بالنسبة لمجـال العلاقـات الإنسانية في الصناعة، هي ظاهرة مقاومـة التغييـر، وهي الظاهرة التي تـرتبط بمـا يطلـق عليـه أهـل الاختصاص في علم النفس تعبير "الجمود السلوكي".

الجمود.. ومقاومة التغيير

للجمود أصول بعيدة في التاريخ البشري. لقـد أورد جورج سارتون في مؤلفه الموسـوعي الشـهير "تاريخ العلم". وهو بصدد تناول الإبداع الحسابي عنـد السومريين، وبعد أن أوضح كيف أن نظامهم العـددي كان نظاما سـتينيا ولـيس عشـريا، يـورد الـنص التالي:"..... وكان استعمالهم مقلـوب الأعـداد شـيئا معتادا مألوفا، بحيث عقدوا حسـاباتهم بسـببه بعـض الأحيان بدون أن تكون هناك حاجة إلى ذلك التعقيـد،

فقالوا مثلا أن ثلث سـتة أذرع هـو ٦ × ٢٠ = ١٢٠ ÷٦٠= ذراعين...." ويمضى سـارتون موضـحا أن هناك بالتأكيد ما جعل السومريون ينسون الطرق السهلة في بعض الأحايين.

وليس المثال الـذي أورده سـارتون بالمثـال الوحيد في هذه الصدد. إن القادة العسكريين في الحرب العالمية الأولى قد اسـتمروا فـي الهجـوم بالمشـاة المتقدمين على خنادق العـدو، بعـد أن أدى ظهـور المدفعية إلى جعل ذلك الأسلوب أمرا انتحاريا، ورغـم ذلك فقد استمر استخدامه وتحمل ما يؤدي إليـه مـن خسائر فادحة لسنوات دون أن يبدو ما يـدل علـى أن القادة المسئولين يحاولون اتخاذ موقف أفضـل حيـال المعارك.

إن الكثيرين يسلكون بهذه الطريق على وجـه التحديد، بحيث يبدو أنهم غير منتبهين إلى أن الموقـف الذي مازال يلقى منهم نفس الاستجابة قد تغيرت بعض جوانبه الهامة، بحيث لم تعد تلك الاستجابة مناسبة له. ترى لماذا يتمسك الناس بسلوك معين حتى ولو لم يعد

ذلك السلوك ذا جدوى؟ لماذا يستمرون في اتباع أنماط السلوك التي اعتادوها حتى حين تتاح لهم أنماطا أخرى أكثر كفاءة؟

ولعل نظرة إلـى أهـم التعريفـات الشـائعة لمصطلح "الجمود" توضح ما يعنيه ذلك المصطلح لدى من تناوله من المتخصصين بالبحث والدراسة. وأكثـر تلك التعريفات شيوعا وعمومية هو تعريف الجمود بأنه " الاستمرار في سلوك لم يعد مناسبا للموقف الـراهن" أو بأنه "الميل إلى الاستمرار في استجابة معينة حتـى حين يصبح ذلك الفعل غير مناسب، أي العجز الفعلـي عن تغيير الأفعال وفقا لتغير الظروف" أو بأنه "الميـل للاستمرار في اتباع خط واحد من التفكير بعد أن يكف ذلك الخط عن المساعدة في التوصل إلـى الإجابـات الصحيحة".

وإلى جانب ذلك، فإن ثمـة تعريفـات تـربط بوضوح بين الجمود وعملية التعلم، باعتبار أن الجمود هو "... ذلك العامل العام الذي يعرقل التعلم على عكس المرونة". أو بأنه "... الميل لمقاومـة أي تحريـف أو

تغيير لاستجابة متعلمة سابقا، في الوقت الذي تغيـرت فيه الظروف التي كانت فيهـا تلـك الاسـتجابة هـي الاستجابة المناسبة". أو بأنه "استمرار الفرد في سـلوك معين لا يؤدي إلى التوافق نتيجـة للانتقـال السـلبي للتدريب من خبرة تعليمية سابقة". أو بأنه " عدم القدرة على تغيير نمط سلوكي معين إذا مـا تغيـر الموقـف الخارجي، وعدم القدرة على إيجاد حل جديـد، وذلـك بتأثير من التدريب السابق".

بل إن ثمة تعريفات تميل إلى إرجـاع الميـل للجمود إلى جذور فسيولوجية، فالعـالم الفسـيولوجى الشهير بافلوف يعرف الجمود أو ما يطلق عليه تعبيـر المداومة بأنه "التكرار القهري لنفس المقطع أو الجملـة نتيجة لاضطراب معين في منـاطق القشـرة المخيـة المتصلة بوظيفة الكلام". كذلك فإن ثمـة تعريفـات لا تميل إلى النظر إلـى الجمـود باعتبـاره سـمة – أو مجموعة من السمات – لها قدر معين من الثبات لـدى كل فرد، بل باعتباره "... وسيلة دفاعية، وبالتالي فـإن المرء لا يلجأ إليه إلا في المواقف التي تتطلب ذلك".

مقاومة التغيير ومتغيرات الشخصية

لعلنا نستطيع أن نخرج مما سبق بأن مصطلح "الجمود" كمصطلح نفسي يمكن أن يعد معادلا لمصطلح "مقاومة التغيير" وهو المصطلح الأكثر انتشـارا فـي مجال العلاقات الإنسانية ولذلك فإننا نستطيع أن نستفيد من تراث علم النفس في إلقاء الضـوء علـى علاقـة مقاومة التغيير بعدد من متغيرات الشخصية لعل أهمها:

أ) التوتر النفسي

والمقصود بالتوتر النفسي تلك الحالة الانفعالية الناجمة عن عدم إشباع الحاجـات أو إعاقـة السـلوك المتجه نحو الهدف. وتشير نتائج العديد مـن البحـوث النفسية في هذا الصدد إلى أن الجمود يتزايـد بتزايـد التوتر النفسي، وهي علاقـة يمكـن فهمهـا منطقيـا. فالشخص الأميل للجمود، يستشعر التـوتر حيـال أي تغيير يطرأ على الوسط المحيط به. ولما كان العالم في حالة تغير دائم، فإنه – أي هذا الشخص– يكون أقرب إلى التوتر النفسي دائما.

ب) عدم التوافق

تشير نتائج العديد من البحوث النفسية إلى أنـه في كثير من الأحيان يصبح دافع المرء إلى مطاوعـة النموذج المفروض لدوره في الحياة بالغ الشـدة، كمـا يصبح ذلك النموذج بالغ الجمود بحيث يصبح للوسـيلة أهمية أكبر بكثير من أهمية النتائج. ويؤدي ذلك النقص في مرونة السلوك والتفكير، إلى عدم التوافق.

مجالات التغيير في المؤسسات الإنتاجية

تعد مشكلة مقاومة التغيير من أهم المشـكلات التي تواجه عملية الإنتاج بشقيها التكنولوجي والبشري. ولو نظرنا إلى مظاهر التغيير الذي يجـري فـي أي مؤسسة صناعية آخذة بأسباب التطور، لوجدنا أن تلك المظاهر تكاد تشمل كافة المجالات، مما يضاعف مـن أهمية مشكلة مقاومة التغيير. ونستطيع أن نشـير فـي عجالة إلى أبرز المجالات التي يحدث فيها ذلك التغير.

أولا: الآلات والمعدات التكنولوجية

إن الجانب التكنولوجي في الصـناعة، جانـب سريع التطور، والمؤسسة الصناعية الحديثة لا تستطيع أن تتخلف عن مجاراة تلك التطورات التكنولوجية التي

تستهدف زيادة الإنتاج وتطويره. وإدخال مثـل تلـك التكنولوجيا الحديثة يتطلب بطبيعة الحال تعديل أساليب العمل المعتادة مما يقتضي تطبيق البـرامج التدريبيـة اللازمة لتدريب العاملين على تلك الأساليب.

ثانيا: الحراك المهني ودوران العمالة

يقصد بالحراك المهني ظاهرة تغيـر مواقـع الأفراد العاملين داخل المؤسسة من خلال قرارات النقل أو الترقية. كما يقصد بدوران العمالة ظاهرة الاستغناء والتعيين بالنسبة للعاملين في المؤسسة. ويترتب علـى هاتين الظاهرتين تغير الأشخاص الذين يتعامل معهـم العامل سواء كانوا من رؤسائه أو من مرؤسيه. وسواء كان ذلك بسبب تحركه هو من موقعه داخل المصنع أو إلى خارجه، أو بسبب تغير مرءوسـيه بفعـل دوران العمالة أو تغير رؤسائه بفعل الحراك المهني.

ثالثـا: تطـوير البنـاء التنظيمـي الرسـمي للمؤسسة

لقد أصبح تنظيم العمـل علمـا لـه أصـوله ونظرياته وقواعده. ولـذلك فإنـه كثيـرا مـا تلجـأ

المؤسسات الصناعية بين حين وآخر إلى إعادة النظـر في بنائها التنظيمي بما يشمله مـن إعـادة توصـيف الأعمال والوظائف أي إعادة تحديـد مسـئوليات كـل موظف أو عامل بما قد يعنيه ذلك من إضافة مسئوليات جديدة إلى الوظيفة، أو نزع بعض المسئوليات منهـا، وإسنادها إلى وظيفة أخرى، أو استحداث وظيفة جديدة لها مسئولياتها.. إلى آخره. وتتضمن إعادة النظر فـي البناء التنظيمي أيضا إعادة ترتيـب الوظـائف أو مـا يعرف بإعادة الهيكلة الوظيفية ويقصد بها إعادة النظر في أمرين:

أ) التدريج الهرمي للوظائف: من يرأس من؟

ب) شبكات الاتصال الرسمي في المؤسسـة: من يبلغ من؟

رابعا: نظم الحوافز والأجور والإجازات

تلجأ المؤسسات الصناعية من حين إلى آخـر إلى إعادة النظر في النظم التي تتبعها فيما يتعلق بأجور العاملين وحوافزهم وما يـرتبط بهـا مـن إجـازات وتوقيتات للعمل. وتتعدد الدوافع التي تدفع بالمؤسسـة

إلى مثل تلك القرارات. قد تكون الرغبة في زيادة التحفيز لزيادة الإنتاج. وقد تكون الرغبة في تقليل المصروفات لزيادة الأرباح أو لتقليل الخسائر. وقد تكون الرغبة في تأكيد العدالة بحيث يتناسب الأجر مع الجهد المبذول. وقد تكون الرغبة في مراعاة مستوى الأجور في بقية المؤسسات المشابهة في ضوء تغير تكاليف المعيشة.. إلى آخره.

أسباب مقاومة التغيير من وجهة نظر العاملين

سبق أن أشرنا إلى أن الموقف من التغيير يتوقف على رؤية الفرد لطبيعة ذلك التغيير، وأن رؤى الأفراد في هذا الصدد قد تتباين تباينا كبيرا. وسوف نحاول فيما يلي أن نلخص أهم ما انتهت إليه الدراسات التي حاولت أن تستطلع آراء العاملين في عديد من المؤسسات الصناعية في أسباب مقاومة التغيير.

١- النفور من عملية إعادة التكيف من جديد

إن إعادة التكيف عملية مؤلمة بالنسبة لهم، فضلا عن أنها تحتاج منهم إلى وقت طويل. وغالبا ما يكون الفرد واعيا بتوافر هذه الخاصية لديه من خلال

تاريخه الشخصي السابق، فهي سمة تكاد تكون عامـة على مستوى الفرد، بمعنى أنهـا تظهـر فـي أغلـب مجالات حياته، فهو يميل عادة إلى التمسك بعاداته في النوم والطعام بل وحتى في الترفيه.

٢- التخوف من البطالة:

فالصورة النمطية التقليدية للتقدم التكنولوجي أو للأخذ بالأساليب العلمية في الإدارة، ترتبط في الأذهان بالاتجاه إلى الاستغناء عن أعداد متزايدة من العاملين. وترجع ضرورة هذه النظرة إلى تـاريخ بعيـد، فقـد ارتبطت في بدايات هذا القرن بجهود تايلور في مجال إعادة تنظيم أداء العمل. كما أن لهذه النظرة ما يدعمها في الوقت الحالي حيث تتجه تطـويرات التكنولوجيـا عامة إلى تقليل الحاجة إلى الجهد البشري.

٣- النفور من نقد الماضي

إن تطوير أي مجال من مجالات النشاط فـي المؤسسة، يحمل بصورة قد تكون غير مباشرة نقدا لما كان قائما، وإبرازا لسلبياته وعيوبه، وإلا لما كان هناك مبرر أصلا لإحداث التغيير. ومقاومو التغيير يتصفون

بحنينهم الغلاب للماضي، وتمسكهم به، ونفورهم مـن أي نقد مهما كان ضروريا لسلبياته. إنهـم يعتبـرون الماضي شيئا مقدسـا لا يجـوز المسـاس بـه. وأن التعرض له إنما هو تعرض لهم شخصيا ولذلك نجدهم حتى بعد حدوث التغيير بالفعل، لا يكفون عن التـذكير بنعيم الأيام الخوالي.

٤- التخوف من زيادة ساعات العمل

إن مجرد الإعلان عن نية الإدارة فـي إعـادة النظر في نظام العمل، يدفع البعض فورا إلى التوجس من الاتجاه إلى زيادة ساعات العمل، أو بعبارة أخـرى تخفيض الأجر المدفوع عن ساعة العمل الفعلية. ورغم أن ذلك نادرا ما يحدث حيث إن قوانين العمل الدوليـة تحدد حدا أقصى لساعات العمـل اليوميـة المعتـادة، وتحتم صرف أجر متميز عن ساعات العمل الإضافية، فرغم ذلك يظل التخوف قائما.

٥- التمسك بالعلاقات الاجتماعية القائمة

إن إجراءات إعادة ترتيب الوظائف تجعل من المحتم أن تتغير شبكة العلاقات الاجتماعيـة المتبادلـة

بين العاملين، سواء على المستوى الرأسـي أو علـى المستوى الأفقي. بمعنى أن المرء قد يجد نفسه مسئولا عن مرءوسين جدد غير أولئك الذين عرفهم وعرفـوه وألفوا التعامل معا. أو قد يجد نفسه مرءوسـا لـرئيس جديد لا يكاد يعرف عنه شيئا، وليست لديـه توقعـات كافية لتوجهاته وردود أفعاله، أو قد يجد نفسه محاطـا بزملاء جدد لا يعرفهم وعليه أن يتفاعـل معهـم. إن العمل ليس مجرد أداء حركات بدنية حيال آلة صـماء فحسب، بل إنه في المقـام الأول عمليـة اجتماعيـة. وسهولة التعامل مع أفراد جدد وإقامة علاقات معهـم، فضلا عن سهولة ذبول العلاقات القديمة أمور تختلـف من فرد لآخر. ومقاومو التغيير يتصفون بأن مثل تلك العمليات لا تجري لديهم بيسر، بل يجدون فيها عنتـا كبيرا. إنهم يتصفون عادة بالوفاء المبالغ فيه للأصدقاء والجيران والزملاء القدامى، وبالنفور المبالغ فيه أيضا من المعارف الجدد المجهولين لديهم. ولذلك فإنهم قـد يبادرون هؤلاء الجدد بالنقد ولا يملون مـن معـاودة

محاولاتهم للعودة إلى مـواقعهم القديمـة بطريقـة أو بأخرى.

٦- النفور من موقف التدريب

إن تطوير الآلات والماكينات والمعـدات فـي المصنع يتطلب في أغلب الأحيان تدريب العاملين على أساليب التعامل مع تلك التكنولوجيا الجديـدة، وكـذلك التدريب على وسائل وإجـراءات الأمـن الصـناعي المرتبطة بذلك التطور التكنولوجي. ويحمـل الموقـف التدريبي الكثير من خصائص وسمات الموقف التعليمي التقليدي التي تحمل بدورها بصمات العلاقة الأسـرية التقليدية بين الأب والأبناء، حيث كانت الأسـرة تقـوم بالوظيفة التعليمية قبل ظهور المدرسة كمؤسسة تعليمية حديثة. بعبارة أخرى فإن الموقف التـدريبي بالنسـبة للفرد موقف يحمل الكثير من الملامح الطفولية. ومـن ثم فإنه يمثل بالنسبة للراشد إذا ما كان متدربا، ارتدادا أو نكوصا بدرجة أو بأخرى إلى موقف طفلي. ولا شك أن هذه الملامح الطفولية تزداد حدة ووضوحا إذا مـا كان المدرب أصغر سنا من المتدرب وهو ما يحـدث

بالفعل في كثير من الأحيان. وفي هذه الحالـة يـزداد الفرد رفضا ونفورا من الموقف التدريبي، بل ويـزداد إحساسا بالخوف من خوض تجربته. ولذلك فقد يجد من الأسلم له مقاومة ذلك التغيير المقترح الذي سوف يؤدي به حتما إلى "معاناة" مثل هذا الموقف التدريبي المؤلم.

٧- التخوف من تنزيل المرتبة الوظيفية

ورغم ندرة مثل تلك القرارات، حيث لا تقع إلا في حالة توقيع عقوبة على العامل، إلا أن ذلك التخوف لا يرتبط بالضرورة بصدور قرار صـريح يتضـمن تنزيل مرتبة العامل عقابا له. بل إنه في هذه الحالـة، أي في حالة العقاب بالتنزيل، قد لا نجد مقاومة للتغيير بالشكل التقليدي. إن ما يحدث عادة هـو أن العـاملين يقومون – فيما بينهم وبين بعضهم البعض – بتـدريج الأعمال التي يقومون بها هرميا، حتى ولـو كانـت متساوية من حيث المرتبة الوظيفية الرسمية. وهو مـا يمكن أن تطلق عليه "الترتيب غير الرسمي للوظائف"، أو بعبارة أخرى مدى الأهمية الاجتماعية للوظيفة مـن وجهة نظر العاملين. ولا ترتبط تلك الأهمية بالضرورة

بالعائد المادي لها. ولذلك فإنه حين تطـور المؤسسـة بنائها التنظيمي، ويقوم تبعا لذلك بإعادة تسمية بعـض الوظائف، أو إعادة توزيع بعض الواجبات، أو إعـادة تسكين بعض العاملين في مواقـع موازيـة لمـواقعهم الأولى، فإن إعدادا من هؤلاء العاملين الـذين مسـهم التغيير قد يبدون قدرا كبيرا من التوجس خشية أن يؤثر هذا التغيير على مرتبتهم الوظيفية بهذا المعنـى الـذي أشرنا إليه.

٨- الاتجاه السلبي نحو من يصدرون قرارات التغيير

يصعب أن نفصل الموقف حيال أي قرار عـن الموقف المسبق حيال متخذ هذا القرار. إن قرارا قـد يكون عادلا، إذا ما صدر من شخص تتسـم صـورته لدى العاملين بالظلم أو بالتعسـف، فـإن عديـدا مـن العاملين قد يتخذون موقفا سلبيا متشككا حيال القرار في البداية على الأقل. بل إن البعض قد يظل ملتزما بهـذا الموقف السلبي المتشكك لفترة قد تطول كثيرا، كما لو كان يقول "لابد أن لهذا القرار خبئ لم يتضح بعـد... علينا أن ننتظر ونأخذ حذرنا!!". ويرتبط بذلك الموقف

السلبي المتعلق بالجهة التي أصدرت القرار، أن يكـون ذلك القرار صادرا من شخص لا ينظر إليه العـاملون باعتباره جزءا من مؤسستهم. كان يكون القرار صادرا بناء على دراسة قام بها مكتـب استشـاري أو خبيـر أجنبي أو ما إلى ذلك. في هذه الحالة نتوقـع مقاومـة أولية للقرار بصرف النظـر عـن مضـمونه. "إنهـم غرباء... مهما كانت خبرتهم فهم لا يحسون بنـا ولا يعرفون مشاكلنا الحقيقية!!".

٩- التخوف من رفع معدلات الإنتاج

ويكون هذا التخوف واردا بإلحاح إذا ما كـان الأجر مرتبطا بالإنتاج، أو " بالقطعة"، ففي هذه الحالـة يكون الفرد مستحقا لأجرة في حالة بلوغ إنتاجه حـدا معينا، أو ما يسمى بمعدل الإنتاج أو متوسط الإنتـاج. وحين تفكر الإدارة في تعديل نظام الأجور، فإن مـن أول الأمور التي تثير قلق العاملين وتدفعهم إلى التهيؤ لرفض التغيير ومقاومته، هو ذلك التخوف مـن رفـع معدلات الإنتاج، فهي تعني بالفعل تخفـيض الأجـور عمليا. وعادة ما تتخذ مقاومة التغيير في هذا الصـدد

صورة جماعية، حيث يتفق العاملون فيما بينهم على تثبيت معدلات الإنتاج وإلزام بعضهم البعض بعدم تجاوزها أيا كانت الضغوط.

١٠- التخوف من الاستغناء عن مهارات معينة

ولا يعني ذلك مطلقا الاستغناء عن الفرد نفسه، بل أنه يعني بالتحديد أنه مع التطوير التكنولوجي قد تصبح بعض المهام التفصيلية التي كان يقوم بها العامل لا لزوم لها. فإذا ما كانت تلك المهام وما تتطلبه من مهارات مصدر فخر واعتزاز للعامل، ومصدر صيت له، لإتقانه أدائها، فإن الاستغناء عنها سوف يؤدي بلا شك إلى إحساسه بتدني مكانته الاجتماعية المهنية. أن عاملا مشهورا بمهارته مثلا في سرعة التعرف على أي عطل يصيب الآلة، وسرعة تحديد مكانه، ومن ثم تيسير إصلاحه في أقرب وقت، مثل هذا العامل المتميز، سوف يحس بالمرارة دون شك إذا ما استورد المصنع آلة تقوم تلقائيا بالإفصاح عن موقع العطل الذي يطرأ عليها، بل لعلها تتنبأ مقدما بهذا العطل

معلنة عن قرب حدوثه لإتاحة فرصة كافية للاستعداد لتلافيه، بل لعلها أيضا وكما يحدث في الآلات الحديثة المبرمجة تقوم ذاتيا بعمليات الإصلاح والتصحيح. إن مثل ذلك العامل سوف يجد من الأنسب له أن يبادر بمقاومة إدخال هذه الآلة أصلا، مركزا على ما يمكن أن تحمله من سلبيات.

١١- التخوف من تزايد التخصص

أن الاتجاه العام للتغيير والتطوير ينحو صوب مزيد من التخصص ونظرا لأهمية التخوف من هذا التيار العام فإنه يستحق منا وقفة متأنية. إن الاتجاه الحديث في تقسيم العمل هو تقسيم العملية الإنتاجية الواحدة التي كان يقوم بها من قبل شخص بمفرده إلى عدد من العمليات الجزئية التي يقوم بكل شخص منفرد أو أشخاص منفردون. وثمة مثال يشهد على هذا النوع من تقسيم العمل، ضربه عالم الاقتصاد الشهير آدم سميث منذ حوالي القرنين من الزمان، متخذا مادته من صناعة الدبابيس. فقد لاحظ أن العامل الذي لم يتخصص في هذه الحرفة ومن ثم لا يستعين بالآلات

المستخدمة فيها يصنع بالكاد دبوسا واحدا فـي اليـوم. ولكن هذه الحرفة قد قسمت في عهد آدم سـميث إلـى عدد من العمليات الجزئية التي يمكن ملاحظتها حتـى في الورشة البدائية الصغيرة الحجم. فثمة رجل يسحب السلك الذي يصنع منه الدبوس، وآخر يقوم بتسـويته. وثالث يقطعه، ورابع يشحذ سـنه، وخـامس يسـوي الموضع الذي يوضع فيه رأس الدبوس. أمـا الـرأس نفسه فيحتاج إلى عمليتين أو ثلاث عمليـات مسـتقلة، وهناك بعد ذلك من يتولى تبيض الدبوس ومـن يقـوم بوضعه في الورقة وهكذا. وعلى هـذا النحـو تنقسـم صناعة الدبوس إلى ثمان عشرة عملية متميزة. ويقـدم آدم سميث نتائج ملاحظته لورشة من هذا النوع، كـان يعمل فيها عشرة رجال فقط حيث كان منهم من يقـوم بأكثر من عملية واحدة، ويصنعون يوميا اثنتي عشـر رطلا من الدبابيس، كل رطل يتكون من حوالي أربعة آلاف دبوس في المتوسط.

على أن مزايا تقسيم العمل لا تقتصر على تلك الحالة التي يتعاون فيها عدد العمل تحت سقف واحـد

لإنجاز أجزاء مختلفة من عملية واحدة وهو ما يعـرف بأسلوب خطوط الإنتاج. فقد لاحظ آدم سميث أن هؤلاء العمال لا يتجمعون على هذا النحو في مكان واحـد إلا لأن الدبابيس نفسها ضئيلة الأهمية، ولا يطلبها النـاس إلا بأعداد قليلة. أما لو كانت الدبابيس عظيمة الخطر، يحتاج كل إنسان إلى عدد كبير منها يوميا، لكان تقسيم العمل فيها قد اتسع وامتد بحيث تصبح كل عملية مـن العمليات الثماني عشرة السابقة صناعة مستقلة قائمـة بذاتها.

ونستطيع أن نضرب مثالا علـى ذلـك مـن صناعة الملابس. ففي المجتمعات البدائية حيـث تقـل أعداد البشر، وكذلك تقـل احتياجـاتهم إلـى ملابـس متنوعة، تدخل صناعة الملابس بكافة مراحلها ضـمن الواجبات المعتادة لربة المنزل. ابتداء من تربية الأغنام إلى جز الصوف، إلى غزله على المغزل اليدوي، ثـم نسجه فصباغته فحياكته. أما في المجتمعات المتقدمـة فكل من هذه العمليات تصبح صناعة مسـتقلة: تربيـة الأغنام، غزل الصـوف، نسـج الصـوف، صـباغة

الصوف، حياكة الملابس. وتنقسم كل صناعة من هـذه الصناعات بدورها إلى عشرات العمليات التي تتكامـل فيما بينها سواء تحت سقف المصنع الواحـد، أو فـي مصانع متعددة كل منها يقوم بعملية على المادة الخـام ثم يسلمها للمصنع التالي له.

لقد لعب تقسيم العمل دورا أساسيا في زيـادة الإنتاج سواء على المستوى الفردي أو على المسـتوى القومي أو الاجتماعي. ولعلنا نستطيع أن نعرض لأهم مزايا تقسيم العمل فيما يتعلق بزيادة الإنتاج على الوجه التالي:

لعل أول النتائج الإيجابية المترتبة على تقسـيم العمل تتمثل في زيادة مهارة العامل نتيجة لتخصصـه في القيام بعملية محدودة يتعود على تكرارها وبالتـالي تقل أخطاؤه إلى الحد الأدنى ومن ثم تتحسـن نوعيـة الإنتاج.

والنتيجة الثانية لتقسيم العمل تتمثل في تـوفير الوقت الضائع الذي يقضيه العامل في الانتقـال مـن عملية جزئية معينة إلى عملية جزئية أخـرى تختلـف

عنها، بكل ما يتطلبه ذلك من تغيير في المكـان وفـي الأدوات المستخدمة في العمل. والأهم من ذلـك فيمـا يتعلق بتوفير الوقت الضائع أن الإنسان يحتاج عادة في كل مرة يبدأ فيها عملا جديدا إلى فترة من الوقت يطلق عليها تعبير " فترة الحمو" أو " فترة التسـخين" يبلـغ بعدها أداء الفرد لعمله إلى قمتـه، وتتكـرر فتـرات التسخين هذه مع كل نقلة يقوم بها العامل مـن عمـل جزئي إلى عمل جزئي جديد.

أما النتيجة الثالثة، ولعلها النتيجة الأهم لتقسـيم العمل تتمثل في إمكانية اتساع نطاق اسـتخدام الآلات. لقد كان من الصعب بل من المستحيل أن يفكر الإنسان في إمكانية تصميم آلة تحل محل عامل يقـوم بمفـرده بكافة العمليات الجزئية اللازمة لإنتاج سلعة معينة من الألف إلى الياء. فلكي تستطيع الآلـة أن تقـوم مقـام الإنسان كان ينبغي أن تبسط العملية التي تقوم بها إلـى الحد الذي تستطيع أن تتناوله، أي أن تتحول إلى عملية جزئية روتينية لا تحتاج إلى التصرف أو أعمال قدرات التقدير والحكم مما لا يستطيعه إلا العقل البشرى. ولـم

يكن لذلك أن يحدث إلا بتقسيم العملية الإنتاجية المعقدة إلى عدد كبير من العمليـات البسـيطة. ولعلـه ممـا يستوقف النظر أن تركيز العامـل علـى أداء عمليـة جزئية محددة أدعى إلى انشغال فكره بها وإلى اكتشافه لوجه تحسين أدائها. ومن المعروف في تاريخ الصناعة أن عددا كبيرا من الاختراعات الميكانيكية كان نتيجـة لاقتراحات تقـدم بهـا العمـال القـائمون بالعمليـات الإنتاجية، نتيجة لممارستهم للعمل، ومعرفتهم بخبايـاه، وكذلك سعيا لما يمكن أن يحققه تطـوير الآلات مـن تخفيف للجهد البدني الذي يتطلبه العمل.

وإذا كانت تلك هي أهم مزايا تقسـيم العمـل بالنسـبة لقضية تطوير الإنتاج، فإن الأمر لا يخلو من سـلبيات يمكن أن نعرضها على الوجه التالي:

لقد وصل تقسيم العمل إلى نهاياتـه المنطقيـة باستخدام نظام خط الإنتاج المتحرك، ووفقا لهذا النظام يجلس العامل – أو يقف – أمام حزام ميكانيكي ضخم، يتحرك ويحمل الناتج الذي يجري تصـنيعه، وعنـدما يصبح هذا الناتج غير المكتمل في مواجهتـه تقتصـر

مهمة العامل على أداء حركة واحدة صغيرة وسريعة لا تتغير: دق مسمار مثلا، أو لف صـامولة، أو تثبيـت صمام. ويصبح على العامل أن يضبط حركتـه وفقـا لسرعة الحزام ووضع الناتج غير المكتمل أمامه. لقـد أدى هذا النظام القائم على الدراسة العملية الدقيقة لكـل جزئية من جزئيات العمل، ولنوع الحركة المطلوبة من العامل، ولنوعية الآلة أو الأداة الملائمة لها، وللـزمن الذي تستغرقه، قد أدى كل ذلك إلى زيادة ضخمة فـي الإنتاج، ولكنه أدى من جهة أخرى إلى تدهور مـروع في مهارة العمل. فأي مهارة تلك التـي يتطلبهـا دق مسمار أو لف صامولة، أو تثبيت صمام؟ لقد أصـبح العمال – من حيث العمل الذي يقومون به – أقرب إلى الآلات البشرية الملحقة بالآلات الميكانيكية التي يعملون عليها. ومن هنا يمكن القول أن تقسيم العمل الذي ساعد على ازدهار المواهب والقدرات الابتكارية في مراحله الأولى، قد تحول في النهاية إلى عائق يحول دون ذلك الازدهار. ولم يقتصر الأمر على تدهور المهارة الفنية

للعمال بل امتد التأثير ليشمل جـوهر البنـاء النفسـي للإنسان وذلك على الوجه التالي:

أولا: إن الأصل التاريخي للعمل الإنساني هـو قيام الإنسان بصنع ما هو في حاجة إليه، ومع مسـار التطور فلقد قام الإنسان الفرد بصنع ما تحتاجه أسرته ثم قبيلته أو قريته، ثم بصنع مـا يحتاجـه الآخـرون ليبادلهم إياه بما يحتاجه هو. وهكذا إلى أن بلغ اتسـاع تلك الشقة أقصاه حيث أصبحت العلاقة بين ما يصنعه الإنسان وما يشعر بالاحتياج إليه في حكـم المنعدمـة. وبذلك تحول العمل من مجال يحقق فيه الإنسان ذاتيته إلى مجال لنفي تلك الذاتية.

ثانيا: أدت كثافة الأيدي العاملـة التـي تقـوم بصناعة نفس الشيء في نفس المكان – أي التي تعمل في المصنع– إلى استحالة أن يحدد المرء ما أدى إليـه جهده هو كفرد بالتحديد. وذلك يعكس ما كان يكلفه لـه الشكل الحرفي للصناعة حيث كان فـي اسـتطاعته – وبسهولة أن يقول "أنا صنعت هذا الشيء".

ثالثا: أدت طبيعة التوزيع الرأسمالي للإنتـاج إلى تأكيد جديد لشعور الإنسان بالعزلـة بينـه وبـين إنتاجه، بحيث أصبح من الجائز في تلـك الحقبـة أن تقضي البرودة على أحد عمال مناجم الفحم مثلا لأنه لم يجد ما يشتري به فحما لأنه متعطل، وذلك نظرا لزيادة إنتاج الفحم مما أدى إلى كساد سوقه.

رابعا: أدى ما تميزت به تلك الحقبة من فائض في العمالة إلى إذكاء روح المنافسة الفردية، وما ترتب على ذلك من انعزال الإنسان عن الآخرين مـن أبنـاء مجتمعه، وفي نفس الوقت إلى إذكـاء شـعور المـرء بتفاهة شأنه كفرد وأنه ليس أكثر من زر صغير في آلة مهولة.

ولو شئنا أن نجمل تلك الخصائص الأربـع – في عبارة واحدة، لما وجدنا أنسب من القول بأن العمل قد أصبح مغتربا. ورغم مـا يثيـره تعريـف كلمـة الاغتراب من صعاب، ورغم تعدد ما اتخذته من معان، فإننا لم نجد كلمة أنسب في هذا المقام. ونحن لا نعنـي هنا الاغتراب بوصفه قضية فلسفية، بل بوصفه ظاهرة

اجتماعية ذات شقين: شقها الأول عزلة الإنسان عـن نفسه وعما يحيط به، وشقها الثـاني إسـقاط القـوى الاجتماعية للإنسان على قوة خارجية تتصف بـالبطش والجبروت ولا يملك أمامها سوى الخضوع الـذليل أو الضياع الكامل.

١٢- الاستياء من عدم المشاركة

إن المرء يكون أكثر تقبلا لمـا شـارك فـي تقريره، وأكثر التزاما بما شارك في مناقشته والتوصل إليه. ولذلك فإن كثيرا من خطـط وبـرامج التغييـر الممتازة من حيث مضمونها تلقى قـدرا هـائلا مـن المقاومة بسبب أنه قد تم إعدادها على أيدي الخبـراء والمختصين، ثم إقرارها من قبل أصحاب القرار، ثـم وجد العاملون أنفسهم مطالبين بمجرد تقبلها والالتـزام بها. إن الموقف المتوقع منهم في هذه الحالـة سـوف يكون أقرب إلى المقاومة ومحاولة البحث عن ثغـرات أو سلبيات ينفذون منها إلى مقاومة ذلك الجديد الذي لم يستشاروا بشأنه، ولم يشاركوا في صنعه.

ولعله من الطبيعي – وإن لم يكن صحيا – أن يكون الخبراء الفنيون أقل اهتماما من غيرهم بالعوامل الاجتماعية أو الآثار الاجتماعية للتغيير. فوظيفتهم الأساسية تتركز غالبا حول تخصص محدود مثل الهندسة أو حسابات التكاليف أو تحليل الوظائف أو الكيمياء، أو ما إلى ذلك. ومعظم قراراتهم تتطلب إجراء تغييرات في أسلوب أداء الآخرين لأعمالهم، وغالبا ما تغيب عنهم طبيعة المشكلات الاجتماعية التي قد تنجم عن تنفيذ قراراتهم وتوصياتهم. إنهم مقتنعون تماما –بحكم تخصصاتهم العلمية – بصحة الجانب الفني من التغيير المطلوب ولذلك فإنهم ينظرون إلى أي معارضة لما توصلوا إليه باعتبارها صادرة عن مشاغبين أو جهلة.

١٣- النظر إلى التغيير باعتباره في صالح الإدارة فقط

إن قرارات التغيير تصدر حتما عن الإدارة حتى تصبح ممكنة التنفيذ. وتقبل مثل هذه القرارات يرتبط بصورة الإدارة لدى العاملين. فإذا لم تهتم

الإدارة اهتماما كافيا بتوضيح صورتها في هذا الصدد، فإن العاملين غالبا ما يتجهون إلى تصور أن أي تغيير مطلوب إنما هو في صـالح الإدارة، متنـاقض مـع مصالحهم هم ".... وإلا فما الذي يدفع بهم إلى إحداثه.. إنهم لا يهتمون بنا إلى هذا الحد... إلى حد إحداث كل تلك التغييرات من أجلنا نحن!!.

١٤- التخوف من تغيير مكان العمل

يحدث كثيرا فـي المؤسسـات الكبيـرة ذات الفروع المتعددة، أن يترتب على إعادة النظر في البناء التنظيمي للمؤسسة، وإعادة تسكين العاملين في مواقعهم من الخريطة التنظيمية الجديدة، أن يتطلب الأمر انتقال مقر عمل العامل من مكان إلى آخـر، ربمـا داخـل المصنع أو إلى أحد الفروع الأخرى.. ولهـذا الأمـر مترتباته النفسية والمادية.

فعلى المستوى النفسي، وكما سبق أن أشـرنا، توجد رابطة انفعالية عميقة بين الإنسان والمكان الـذي ألفه، بحيث أن اضطراره للتخلي عن هذا المكان بشكل دائم يثير لديه قدرا من القلـق وعـدم الارتيـاح. ولا

يتعارض ذلك مطلقا مع السعي إلى تغيير المكان مؤقتا كنوع من الترويح.

أما على المستوى المادي فإن تغيير الموقع الجغرافي للعمل، بمعنى الانتقال من أحد فروع المؤسسة إلى فرع آخر في حي مختلف أو في مدينة أخرى فإنه قد يضيف إلى العامل النفسي عاملا ماديا آخر يتعلق بتكاليف الانتقال من وإلى الموقع الجديد، ومواقع مدارس الأبناء، بل وسكنى الأقارب في الجوار.. إلى آخره. إن فروع الشركة أو المؤسسة قد تضمها جميعا خريطة تنظيمية واحدة، ولكن نقل العامل من نقطة على هذه الخريطة إلى نقطة أخرى، قد لا يبدو شيئا خطيرا من وجهة نظر القائم بالتغيير، ولكنه أمر بالغ الأهمية دون شك بالنسبة لمن يقع عليه ذلك التغيير.

ولذلك فقد نجد أحيانا من يرفض الترقية الوظيفية رغم ما تحمله تلك الترقية الوظيفية من مزايا مادية وأدبية، لسبب قد يغيب عن رؤية المخطط وهو الآثار المادية الاجتماعية المترتبة على تغيير المكان،

بحيث إنه يصبح من الصعب تماما أن نتفهم قرار الفرد برفض ترقيته إذا لم نضع هذه الآثار موضع الاعتبار.

١٥- الغموض

إن قرارات التغيير قد تكون بالغـة الوضـوح لدى أصحابها، أي مَن أصدروها ولكن وضوحها لدى من سيتأثرون بها قد لا يكون بنفس الدرجة. فالقرارات في النهاية عبارة عـن نصـوص محـددة المعـالم، والمفترض أن يكون لها تفسير واحد موحد، فـإذا مـا اتسمت بالغموض تعددت تفسيراتها وتباينـت بتبـاين الأفراد ومواقعهم وتكويناتهم ومواقفهم. ويـنجم عـن تباين تلك المواقف عادة اختلال تنفيذ تلك القـرارات، وبالتالي اضطراب سير العمل، مما قد يدفع في النهاية إلى تجميدها أو حتى إلغائها والتراجع عنها تماما، حتى لو كانت تلك القرارات إيجابية تماما بالنسبة للعـاملين. إن صدور قرار مثلا بزيادة أجور العاملين بنسبة مئوية معينة، قرار إيجابي دون شك. ولكن ما لـم يوضـح المقصود تحديدا بتعبير الأجر أو المرتب وهل يشـمل العلاوات والحوافز أم لا، وكذلك تحديد تـاريخ بـدء

سريان القرار، وما إذا كان يشمل عمال اليومية أم لا، إلى آخر تلك التحديات، فإن مثل هذا القرار الإيجـابي قد يثير من المشاكل ما يهدد سير العمل تهديدا خطيرا.

١٦- الصراع النفسي

ونقصد به ذلك الصراع الذي يدور داخل الفرد حيال هدف محدد يحمل جوانب إيجابية وأخرى سلبية. وغالبا ما تنتهي إجراءات التغيير إلى هذه النوعية من الأهداف التي تحمل الجانبين معا بالنسبة للعامل: زيادة الأجر وزيادة المسئوليات، أو ارتفاع المكانة الوظيفيـة وزيادة الأعباء الاجتماعية.. إلى آخـره. وفـي هـذه الحالات يجد الفرد نفسه حيال موقف يتطلب منه اتخاذ قرار حاسم: هل يقبل بالتغيير؟ أم يتصدى لمقاومتـه؟ ولكل من الموقفين مبرراته ومغرياته. وقد يسهم فـي زيادة حدة ذلك الصراع النفسـي الـداخلي ضـغوطا متعارضة من جماعات الانتماء التي ينتمي إليها الفرد. قد تشجعه الأسرة مثلا على محاولة رفـض التغييـر ومقاومته، في حين تدفعه جماعة الأصدقاء إلى قبـول التغيير والحماس له... إلى آخره. ويؤدي استمرار هذا

الصراع من الناحية العملية إلى اتخاذ موقـف سـلبي حيال التغيير.

١٧- نمط التنشئة الاجتماعية السائد

تتباين المجتمعات بين المحافظـة والتحـرر، وتتباين بالتالي أنماط التنشئة الاجتماعية التي تسود تلك المجتمعات بين التشجيع على التغيير والتشجيع علـى مقاومة ذلك التغيير. ثمة أنماط من التنشئة الاجتماعيـة تشجع أبناء المجتمع على تجربة الجديد والحماس لـه، وتنفرهم من الاستسلام للقديم والتمسك به. والعـاملون في أي مؤسسة هم أبناء مجتمعهم، يتأثرون بما نشـئوا عليه. ولذلك فإن مقاومة التغيير قد تشتد كثيـرا فـي بعض المجتمعات بحيث يستغرق قبول الجديـد وقتـا يفوق بكثير نظيره في مجتمعات أخرى.

إدارة التغيير

يعد مصطلح " إدارة التغيير" من المصطلحات الحديثة نسبيا، والتي شاع استخدامها في مجال العلاقات الإنسانية في الصناعة. والمقصود بالمصطلح هو كيفية التمكن من السيطرة على قوى مقاومة التغيير، وبالتالي

تيسير إحداث التغيير المطلوب في ظل ظروف مواتية، وتقوم إدارة التغيير على التسليم بأن التغير حتمي، وأن التغير ضـروري. وبالتـالي فـإن الإدارة الفعالـة لا تستطيع أن تبقى بعيدة عن تيارات التغيـر الطبيعيـة المستمرة، ولا هي تستطيع أن تكف عـن محـاولات التغيير والتطوير.

وسوف نحاول فيما يلي أن نلخص فـي نقـاط موجزة أهم قواعـد ومسـلمات "تيسـير التغييـر" أو بالأحرى "إدارة التغيير":

أولا: لا توجد وصفة واحدة جاهزة تصلح فـي كل المواقف لتيسير عملية تقبل الأفراد للتغيير، فنجاح الوصفة يتوقف على العديد من العوامل التي ينبغي أن توضع في الاعتبار عند اتخاذ قرار التغييـر أو عنـد متابعة استجابات الأفراد له. ولعـل مـن أهـم تلـك العوامل:

أ) خصائص الأفراد الذين يستهدفهم التغيير من حيـث السـن والانتمـاء الاجتمـاعي والمسـتوى الاقتصـادي.. إلـى آخـره. إن مثـل تلـك

الخصائص لا تحدد فحسب الأسـلوب الأمثـل لتوصيل رسالة التغيير، بل إنها قد تسهم أيضـا في تحديد الحجم المتوقع لمقاومة التغيير. فمـن المعروف مثلا أن الأكبر سنا أقل تقبلا للتغيير.

ب) طبيعة السلوك الذي يستهدفه التغييـر. أن تغييـر الزي الرسمي الذي يطلب من العاملين الالتزام بارتدائه، قد لا يثير من المقاومة ما يمكـن أن يثيره تعديل مواعيد العمل أو إعادة توصـيف وترتيب الوظائف مثلا. وكلما اقترب التغييـر المطلوب من سبل إشباع حاجات الأفراد، كانت المقاومـة المتوقعـة أشـد وأعنـف وأكثـر استمرارية.

جـ) تلعب درجة تماسك الجماعة دورا حاسـما فـي عملية مقاومتها للتغيير أو تقبلها له. فكلما ازداد تماسك الجماعة ازدادت قدرتها علـى مقاومـة التغيير وازدادت صعوبة تقبلها للجديد.

د) يلعب تاريخ علاقة الجماعة التي يستهدفها التغيير بالسلطة دورا حاسما في تقبل أو رفض قرارات التغيير الصادرة عن تلك السلطة.

خلاصة القول: أنه ينبغي توصيف الموقف توصيفا دقيقا قبل الاستقرار على خطة فعالة وناجحة لإدارة التغيير.

ثانيا: ينبغي أن تتضمن قرارات التغيير وبشكل واضح كافة الضوابط والضمانات الممكنة لحماية العاملين ضد أي خسارة مالية يتخوفون من حدوثها نتيجة للتغيير المطلوب، حتى لو كانت احتمالات تلك الخسارة بالغة الضآلة. وتتعدد تلك الضمانات وتتباين صورها؛ فبعض أصحاب الأعمال يقدمون تعهدات صريحة للعاملين بعدم تخفيض أجورهم نتيجة استخدام آلات أو معدات جديدة، ويقوم البعض بكفالة إعادة تدريب العاملين على أساليب العمل الجديدة على نفقة المؤسسة، أو بتأخير الاستغناء عن فائض العمالة إلى أن يستطيع دوران العمل الطبيعي امتصاص الأيدي

العاملة التي أصبحت زائدة نتيجة التغيير، أو بالتعهـد بالاحتفاظ لكل عامل بأقدمية فرضـية وفرصـة فـي الترقية بصرف النظر عن مهامه الجديدة. وبالإضـافة إلى ذلك فإن وجود نظام محكم للشكاوى يحـوز ثقـة العاملين ويكفل لهم الطمأنينة إلى أن أي خلافـات قـد تثار بشأن التعديل سوف يتم التعامـل معهـا بعدالـة وموضوعية، يمكن أن يساهم مساهمة فعالة في زيـادة تقبل العاملين لإجراءات وقرارات التغيير.

ثالثا: ينبغي كذلك أن يتضمن إعلان قـرارات التغيير وبشكل واضح أيضا ما يحققه التغيير المقتـرح من مزايا للعاملين. إن الموقف النهـائي مـن عمليـة التغيير إنما يتحدد وفقا لرؤية الفرد لمصالحه الماديـة والمعنوية، ولذلك فإن الإعلام دون مبالغة بما يحققـه الوضع الجديد المقترح من مزايا للعاملين، يؤثر تأثيرا فعالا في تيسير تقبلهم لذلك التغيير. ويمكن أن تتضمن تلك المزايا نظاما جديدا للحوافز، وتيسيرات أكبر لنظم الاتصال، إلى آخره.

رابعا: ينبغي التسليم بأنه لا يمكن ضمان تأييد "الجميع" لكل تغيير مقترح مهما كانت إيجابية هذا التغيير. ومن ثم فمن المتوقع دائما أن تتراوح مواقف الأفـراد بـين الرفض والقبول بدرجات متفاوتة. فـالأفراد يختلفـون كثيرا في استجاباتهم للتغيير ولا يمكن أن نتوقع مـنهم نفس الدرجة من التأييد لكل قرار جديد. ولـذلك فـإن الإصرار على كسب تأييد الجميع، والإلحاح في هـذا الاتجاه قد نجم عنه نتائج عكسية تمامـا، حيـث إنـه يضخم من حجم المعارضين للتغيير مما قد يؤدي إلـى اختلال ميزان القوى.

خامسا: إذا ما كان قرار التغيير قرارا صائبا، فمن المفترض أن يتزايد حجم المؤيدين له كلما مضت فترة على تطبيقه، فإذا ما حدث العكـس، أي تزايـدت أعداد المعارضين واشتدت معارضـتهم مـع مضـي الزمن، فإنه لابد من التسليم بأن ثمة خطأ ما قد حـدث ولابد من اكتشافه وتداركه. ومن الأخطاء الشائعة فـي هذا الصدد ألا يكون تطبيق مشروع التغيير متوازيا منذ البداية من حيث المزايا والتكاليف. أي أنه مـع بدايـة

تطبيق المشروع يشعر العـاملون بزيـادة تكاليفـاتهم بصورة مباشرة في حين يتأجل حصولهم على المزايـا التي يتوقعونها. ويؤدي ذلك الموقف بطبيعة الحال إلى زيادة تشكك المتشككين، ومن ثم إلـى زيـادة القـوى المعارضة للتغيير.

إن التغيير الناجح يستحسن أن تظهـر نتائجـه الإيجابية الفورية بالنسبة للأفراد قبل زهـور النتـائج الاستراتيجية. أن ما يصلح المؤسسـة عمومـا قـد لا يكون– من وجهـة نظـر العـاملين– صـالحا لهـم بالضرورة. وما هو مفيد للفرد على المدى البعيد، وقد لا تكون له جاذبية أو تأثير الفوائد العاجلة المباشرة.

سادسا: يلعب الاتصال دورا هاما في عمليـة التغيير، وكسب التأييد لها. سواء بالتمهيد للتغيير ومـا يتطلبه ذلك من نقل الرسائل المتعلقة به من الإدارة إلى العاملين، أو نقل آراء ومقترحات واستجابات العـاملين أولا بأول إلى الإدارة.

والأمر الذي قد يغيب عن رؤية القائمين علـى التغيير هو حقيقة أن المسئولين عن الاتصال هم أيضا

من العاملين في المؤسسة، ومن ثم فإنهم يخضعون لما يخضع له زملاءهم من تيارات تتعلق بمقاومة التغيير. ولذلك يرى البعض ضرورة أن تبدأ عمليـة التغييـر بمناقشة أعضاء الأقسام الخاصة بالاتصال والعلاقـات الإنسانية لكسب اقتناعهم وتأييـدهم لعمليـة التغييـر المقترحة، باعتبارهم هم الذين سـيمثلون الإدارة فـي القيام بدور الدعاة للتغيير. وما لـم يكونـوا مقتنعـين بدورهم فسوف يكون مصير جهودهم الضياع والفشل. خاصة إذا ما وضعنا في الاعتبار أن نوعية الاتصـال الفعال المساند لعمليات التغيير في المصـنع يتصـف أساسا بأنه اتصال شخصي.

سابعا: هنالك سقف للتغييـر الـذي يمكـن أن يتحمله الأفراد بصرف النظر عن مضـمونه. بعبـارة أخرى فإنه لا توجد جماعة أيـا كانـت خصائصـها ومرونتها، يمكن أن تتقبل عـددا لا نهايـة لـه مـن التغييرات المتتالية أيا كانت طبيعة تلـك التغييـرات. ولذلك فمن الضروري منع التغييـرات التافهـة غيـر الضرورية لأنها تستنفذ ذلك المخزون الطبيعـي مـن

القدرة على تحمل التغيير. وقد تلجأ الإدارة في سـبيل ذلك إلى كبح جماح أصحاب الحماس الزائد لإحـداث تغييرات متتالية دون توقف. فالأفراد يستطيعون تحمل قدر محدود فحسب من التغيير. فإذا ما غمرتهم الإدارة بتغييرات صغيرة متتالية فإنهم يصبحون أقل اسـتعدادا لتقبل التغييرات الضرورية الكبرى.

ثامنا: يتطلب التغيير عادة التخلص من بعـض العادات والأنماط السلوكية القديمة واكتسـاب بعـض العادات والأنماط السلوكية الجديدة. ومن المعروف أن التخلص من العادات القديمة أكثر صعوبة بكثيـر مـن تعلم العادات الجديدة. إن عملية التدريب علـى قيـادة السيارات مثلا تكون أيسر كثيرا إذا ما كان المتدرب لا يعرف شيئا ألبتة عن فن القيادة، في حين أنهـا تكـون بالغة الصعوبة إذا ما كان قد سبق للمتـدرب اكتسـاب بعض الأساليب الخاطئة للقيادة. ففي هذه الحالة تكـون مهمة المدرب مضاعفة، حيث يكون عليـه تخلـيص المتدرب من عاداته الخاطئة وإكسابه في الوقت نفسـه العادات الجديدة.

إن أهل الاختصاص في نظريات التعلم كثيـرا ما يؤكدون أن اكتساب العادات القديمـة يحـول دون اكتساب عادات جديدة متعارضة معها. ولذلك فإن رفع شعارات جذابة مثل "نحن بصدد خطة جديدة تماما"، أو " أننا بصدد إحداث تغييرات جذرية أساسـا فـي كـل شيء"... إلى آخره. مثل تلك الشعارات تؤدي عادة إلى نتائج سلبية تماما. فلا أحد يرغـب– بـل ولا حتـى يستطيع–أن يتقبل فكرة تغيير كل شيء. ولذلك فإنه من الأفضل إضفاء شكل مألوف على التغييـر المطلـوب للمساعدة على تقبله وتنفيذه، بحيث يبدو الجديد تطورا منطقيا لما هو قائم. وبحيث لا يحس الفرد أن مخزون خبراته السابقة قد أصبح عديم القيمة تماما.

تاسعا: إن فهم الدوافع "الحقيقية" لمن يتصدون بالمقاومة للتغيير يعد خطوة أساسية في اتجـاه تيسـير عملية التغيير. إننا نفضل عادة أن نعبر عـن رفضـنا للتغيير بطرح منطقي لسلبياته ومخـاطره وتوضـيح منطقي أيضا لميزات الوضع الراهن وفوائـده. وقـد يتضمن هذا الطرح عناصر موضوعية صحيحة، ولكن

الأمر لا يكون كذلك دائما وبصورة مطلقة. إن رفـض الجديد كما سبق أن أوضحنا يكون مشوبا عادة بشـحنة انفعالية كبيرة. ولكنا نادرا ما نصادف تعبيرا مثل "إنني أرفض الجديد لأنه يهددني نفسيا"، أو "أننـي أرفـض الجديد لأنني لا أطيق تغيير عاداتي المستقرة"... إلـى آخر تلك العبارات الأكثر صدقا، ولكنها الأقل انتشارا، والأصعب من حيث القدرة على طرحهـا بمثـل هـذا الوضوح. وإلى جانب ذلك فقد نجد حرجا أحيانا حتـى في التعبير عن استفادتنا المادية المباشرة من الوضـع الراهن. فنحن نميل في كثير من الأحيان إلى إضـفاء طابع "الموضوعية" على دوافعنا "الذاتيـة". ونفضـل الحديث – مجرد الحديث – عـن "الصـالح العـام"، باعتباره المفضل أخلاقيا واجتماعيا عـن "المصـالح الشخصية". ولذلك فإنه من الأمور بالغـة الأهميـة أن يتمكن أصحاب الدعوة للتغيير من تفهـم المحركـات الحقيقية المحركة لمقاومة التغيير الذي يـدعون إليـه، وأن يكون تخطيطهم لإدارة التغيير قائما على الـوعي بتلك المحركات الحقيقية.

الجماعة كقوة محركة للتغيير

تميل الأنساق الاجتماعية إلى مقاومة التغيير نتيجة لتوازنها ذاتيا، وبالتالي نفورها مما قد يخل بهذا التوازن. كما أن الأفراد في نسق اجتماعي معين يميلون إلى مقاومة التغيير بأنواعه المختلفة، لما يتطلبه ذلك التغيير من تكوين عادات جديدة، وكف عادات قديمة. ونخلص من ذلك إلى أن ثمة مبدأ عاما يتلخص في أن الناس وأنساقهم الاجتماعية يميلون عموما إلى مقاومة التغيير في المنظمات. ولذلك تفيض الكتب المتخصصة في جميع أنحاء العالم بالحديث عن مشكلة مقاومة المديرين للطرق الجديدة في الإدارة، والتي إذا ما استخدمت فإنها قد تساعد بقية العاملين في المؤسسة على تقبل التغيير بدرجة أكبر. بعبارة أخرى فإن أحدا لا يكاد يستثنى من قدر ما من مقاومة التغيير.

ورغم أن البشر جميعا يميلون إلى مقاومة التغيير، فإن هذا الميل يقابله ميلهم إلى اكتساب خبرات جديدة، والاستفادة من المزايا التي قد تصحب التغيير. إن الناس لا يقاومون كل أنواع التغيير، فبعضها

مطلوب مرغوب من جانـب العـاملين جميعـا ودون استثناء، وهو ما يكون اسـتجابة لمطـالبهم. فزيـادة الأجور والإجازات مثلا هي مطالب تكاد تكون ثابتـة للعاملين جميعا، والاستجابة لتلك المطالب تعني تغييرا لما هو قائم. ولكنه تغيير يسـتحيل أن يلقـى مقاومـة بطبيعة الحال. وثمة نوع آخر من التغييرات يمكـن أن يوصف بالتفاهة أو السطحية أو الروتينية مـن حيـث استثارته للمقاومة، وقد سبق أن أشرنا إلى مثـال مـن ذلك النوع من التغييرات حين تحدثنا عن تغيير نمـط الزي الذي ينبغي أن يرتديه العاملون أثناء تواجدهم في المصنع. فمقاومة مثل هذا النوع من التغييـر تكـون صغيرة إلى درجة قد لا يـتمكن غيـر الخبيـر مـن ملاحظتها. وثمة نوع ثالث من التغييـرات –سـبق أن أشرنا إليه أيضا– يستثير أكبر قدر ممكن من الـرفض والمقاومة، بحيث يعتمد نجاحه علـى مهـارة الإدارة وقدرتها على تخفيض مقاومة التغيير إلى أدنـى حـد ممكن.

ورغم حقيقة أن الإدارة هي العامل الأساسـي في التغيير، فإن العاملين من أبناء المؤسسة هم الـذين يحددون في النهاية ما إذا كان ذلك القـرار بـالتغيير يمكن أن يتحول إلى واقع فعلي أم لا. إنهم الذين يسـند إليهم القيام بالتغيير فعلا، ومن ثم فإن تقـبلهم للتغييـر ومساندتهم له يعد أمرا حاسما. ولذلك فإن إدارة التغيير ينبغي أن تعتمد على الجماعة نفسها لأحـداث التغييـر المطلوب. ومثل ذلك الاعتماد على الجماعـة يتطلـب الإحاطة بعدد من المبادئ لعل أهمها:

أولا: ثمة عبارة شهيرة لعالم النفس الاجتماعي الشهير كيرت ليفين، يقول فيها "إن الفجوة الطبيعية بين المدرس والتلميذ، أو بين الطبيب والمريض، أو بـين الإخصائي الاجتماعي والجمهور.. قد تكون من بـين أسباب رفض ما يبدونه من نصح بالتغيير... ". وذلـك يعني أنه كلما ضاقت الفجوة بـين صـاحب القـرار بالتغيير (أي الإدارة) وبين الذين يستهدفهم التغيير (أي العاملين) كلما كان ذلك أدعى لنجاح عملية التغيير. أن نقابات العمال قد تطلب أحيانا من أعضـائها الالتـزام

بأنماط من السلوك قد يجدون عنتا في الالتزام بها، ومع ذلك فإنهم يلتزمون، في حين أن الإدارة حـين تطلـب منهم الالتزام بنمط سلوكي قد لا يكلفهم نفس القدر من المشقة فإنهم يميلون إلى التمـرد. ومـن بـين أبـرز الأسباب التي يمكن أن تفسر هذه الظاهرة التـي تبـدو للوهلة الأولى متناقضة، أن طلب التغيير قد صدر فـي الحالة الأولى ممن يراهم العاملون جزءا من جماعتهم، ومن ثم وجب الالتزام به بصرف النظر عـن مـدى صوابه، وبصرف النظر أيضا عما يسببه تنفيـذه مـن معاناة مادية. أما في الحالة الثانية فإن طلب التغيير قد صدر ممن يراهم العاملون ممثلين لجماعة أخرى قـد تتناقض مصالحها مع مصالحهم، ولذلك فالحذر واجب، والتشكك مطلوب، بل والرفض وارد أيضا.

خلاصة القول إذن أنه كلما ازداد إحساس أبناء المؤسسة جميعا من عاملين ومديرين بأنهم ينتمون إلى كيان واحد لا غنى لبعضـهم عـن الـبعض، ازدادت إمكانية تقبل التغيير وقلت احتمالات مقاومته.

ثانيا: ليست كل الجماعات سواء من حيث إمكانية إلزامها لأعضائها وتأثيرها عليهم. فكلما ازدادت الجماعة تماسكا، ازداد تأثيرها على أعضائها. ولكن مثل هذا التأثير قد يكون سلبيا وقد يكون إيجابيا فيما يتعلق بالموقف من التغيير، إذا ما كانت المطالبة بالتغيير صادرة من خارج الجماعة، حيث يتوقف الأمر على رؤية قادة هذه الجماعة لأبعاد التغيير المطلوب.

ثالثا: كلما ارتفعت مكانة الفرد في عيون أعضاء الجماعة، كلما كان أكثر تأثيرا في إحداث التغيير أو في مقاومته على حد سواء. ولما كان ارتفاع المكانة في هذا الصدد لا يرتبط بالضرورة بارتفاع الموقع الذي يشغله الفرد في البناء التنظيمي الرسمي للمؤسسة، فإنه من الضروري للإدارة الساعية للتغيير أن تكون على دراية بطبيعة التنظيم غير الرسمي القائم في المؤسسة، بحيث تركز جهودها على إقناع قادته وكسبهم إلى صف التغيير المنشود.

التدريب على إدارة التغيير

حين نستخدم مصطلح "التدريب" فـإن الـذهن ينصرف عادة إلى تلك المهارات المرتبطـة مباشـرة بإتقان أداء العمل، والتي تختلف بالضرورة من مهنـة إلى أخرى، ومن وظيفة إلـى غيرهـا. ولـذلك فـإن مصطلحات التدريب على مهارات التفاعل الاجتماعي، أو التفاوض، أو العلاقات الإنسانية... إلى آخره تبـدو مصطلحات غريبة إلى حد ما. ويرجع ذلك فيما نـرى إلى تأثير تلك النظرة القديمة التي سادت طويلا والتـي تعتبر أن مثل تلك المهارات إنما هي هبات ولاديـة لا علاقة لها بالاكتساب أو بالتدريب.

وفي الحقيقة فإن التدريب على مختلف جوانب العلاقات الإنسانية –ومن بينها التـدريب علـى إدارة التغيير –ليس بالأمر الميسور. إنه تدريب على شـيء غير ملموس، فضلا عن أنه كثيرا مـا يثيـر مقاومـة عنيفة لدى المتدربين نظرا لأنه يحمل إلـيهم رسـالة ضمنية مؤداها "أنكم تتعاملون بطريقة خاطئـة" وهـي رسالة لا يمكن تحاشيها، إلا أنه لا يمكن تقبلها بسهولة.

فقد يكون مقبولا بدرجة أو بأخرى أن يسلم المرء بـأن مهارته في قيادة السيارة تحتاج إلى مزيد من التدريب، أو أنه في حاجة إلى التدريب على استخدام الكمبيوتر، أو حتى ممارسة نوع من أنواع الرياضة. إلا أن الأمر يختلف كثيرا إذا ما كان على الفرد أن يواجه نفسه بأنه يحتاج إلى تدريب لكي يحسن التعامل مـع الآخـرين، فنحن جميعا أميل إلى الاعتقاد بأننا نعامـل الآخـرين كأفضل ما تكون المعاملة، وإذا كان ثمة مشاكل فهـم مصدرها، أو الظروف، أو أي شيء فيما عدا معاملتنا نحن لهم. أنه أمر يتطلب من المدرب حنكـة خاصـة وخبرة طويلة لكي يدير برنامجا تدريبيا ناجحـا فـي العلاقات الإنسانية.

ومن ناحية أخرى فإن التـدريب فـي مجـال العلاقات الإنسانية، لا يمكن أن يقتصر بحـال علـى الجانب المعرفـي أو تزويـد المتـدرب بكميـة مـن المعلومات ثم اختبار مدى استيعابه لها. أنـه تـدريب يعتمد في المقام الأول على تنمية الخبرة، خبرة الفـرد بنفسه، وخبرته في التعامل مع الآخـرين. أن إهمـال

التركيز على مواجهة الفرد لنفسه كجزء أساسـي مـن مكونات مثل هذا التدريب أشبه بمحاولة طلاء حـائط جديد دون الاهتمام بإزالة الطلاء القديم أولا وإجـراء عمليات التنظيف الفردية اللازمة.

وبالإضافة إلى ذلك فثمة صعوبة ثالثـة تعقـد الأمر بالنسبة للتدريب في مجال العلاقات الإنسانية. إن المتدرب في غير ذلك من المجالات يعود من التدريب وقد اكتسب مهارة جديدة تجعله يحس بـالتمييز بـين زملائه، والأهم من ذلك أن زملاءه يعترفون له بـذلك التميز ويلجئون إليه للاستزادة مـن علمـه وخبرتـه. يصدق ذلك علـى اجتيـاز دورات التـدريب علـى الكمبيـوتر أو قيـادة السـيارات أو تشـغيل الآلات الحديثة... إلى آخر مجالات التدريب فيما عدا التدريب على العلاقات الإنسانية. فبعد أن يجتاز المتدرب دورة التدريب بنجاح يعود إلى موقع عمله متوقعا أن يلقـاه زملاءه ورؤساءه ومرءوسيه بالترحيب والتقدير. ولكن شيئا من ذلك لا يحدث عادة. أن مرءوسيه يميلون إلى مقاومة أي تغييرات في أسلوبه فـي التعامـل معهـم،

فلديهم توقعات معينة لدوره، وعندما لا تتفق هذه التوقعات مع سلوكه الفعلي فإنهم يصابون بالحيرة والارتباك ويمارسون ضغوطهم عليه للعودة إلى أسلوبه القديم الذي ألفوه منه. ومن ناحية أخرى فإن محاولته للتغيير قد لا تلقى هوى لدى رؤسائه، مرددين: "أنه يريد تعديل الكون..." ومن ثم فإنهم قد يرون فيه إنسانا متعاليا مغرورا مثيرا للاضطراب. وتنتهي تلك السلسلة من الإحباطات بالمتدرب إلى أن يفضل العودة إلى أسلوبه القديم، ملقيا وراء ظهره بكل ما تدرب عليه في قاعة التدريب.

ولذلك فإن نجاح التدريب على العلاقات الإنسانية يتطلب أولا اقتناع قيادات المؤسسة بجدوى هذا النوع من التدريب، ومن ثم مساندة المتدرب الذي اجتاز التدريب على ممارسة ما تدرب عليه. وبدون ذلك فإن ما يتكلفه التدريب من جهد بشري وتكلفة مالية واستنزاف للوقت يفقد مبرره تماما.

أساليب التدريب على إدارة التغيير

توجد طرق عديدة للتدريب على إدارة التغيير، وتتفاوت هذه الطرق من حيث فاعليتها تبعـا لطبيعـة الموقف التدريبي. ويقوم ذلك الموقف التـدريبي مـن الناحية العملية على أركان ستة هي:

١- هيئة التدريب

٢- المتدربين

٣- المادة أو الخبرة موضوع التدريب

٤- الأساليب والوسائل التدريبية

٥- الظروف الطبيعية المادية

٦- الإطار التاريخي الاجتماعي

ولكل من هذه الأركان دوره في نجاح العمليـة التدريبية، كما أنها تتداخل وتتفاعل جميعا فـي تحديـد نوعية الأسلوب الأمثل للتدريب. وعلى أية حال فإننـا نستطيع أن نعرض بإيجاز لأهم الوسائل المتبعـة فـي برامج التدريب على إدارة التغيير.

أولا: طرق التدريب التقليدية

أ) المحاضرات والمناقشات

وهي أساليب مازالت تستخدم على نطاق واسع، وقد تعد ضمن أكثر الأساليب فعالية إذا كان الأمر متعلقا بشق المعلومات. ولذلك فإنها يندر أن يعتمد عليها بشكل أساسي في مجال التدريب على إدارة التغيير، وإن لم يكن ثمة بأس في أن يتضمن البرنامج في نهايته محاضرة قصيرة تليها مناقشة مستفيضة لتبين أثر التدريب.

ب) الحلقات النقاشية

وتستخدم طريقة الحلقات النقاشية في تدريب جماعة صغيرة حيث يقوم أعضاؤها بإجراء مناقشات مشتركة حول خبرة تعرضت لها الجماعة. وتتكون الجماعة التدريبية في هذه الحالة من عدد يتراوح بين عشرة وعشرين فردا على الأكثر، حتى تتاح الفرصة لاشتراك كل الأعضاء في كل جلسة تدريبية. ومن الممكن خلال البرنامج التدريبي أن تنقسم الجماعة أحيانا إلى مجموعات صغيرة ثلاثية أو خماسية لإتاحة الفرصة لتفاعل أكبر بين الأفراد.

جـ) الحالات

وتعتمد هذه الطريقة على المناقشة الجماعيـة لمواقف حياتية تتطلب اتخاذ قـرارات، ومـن خـلال المناقشة المتعمقـة يكتسـب المتـدربون المهـارات المطلوبة. وتلائم هذه الطريقة إلى حـد كبيـر مجـال التدريب على إدارة التغيير. حيث تقوم هيئة التـدريب بتصميم حالات تستهدف إثارة قضايا مقاومة التغييـر والمواقف المتباينة حيالها.

ثانيا: التدريب بالخبرة المباشرة

وهو ذلك النوع من التدريب الذي يعايش فيـه المتدربون أنفسهم من خلال تفاعلهم المتبادل الخبـرات التي يدور حولها التدريب. أي أنهم يمرون فعليا خلال التدريب بخبرة التغيير ومقاومته، ويكتشـفون أنفسـهم وهم يقاومون التغيير. ويندرج تحت هذه النوعية مـن التدريب الأساليب التالية:

أ) تمثيل الأدوار

وهو تمثيل بدون سيناريو مسبق، وفيـه يقـوم اثنان أو أكثر مـن المتـدربين بتمثيـل الأدوار التـي

يتضمنها موقف واقعي من مواقف إدارة التغيير. كـأن يقوم أحدهم بتمثيل دور المدير الحريص على استقرار العمل وعدم المغامرة بإدخال أية تغييرات عليه مـادام الإنتاج مرضيا، ويقـوم الآخـر بتمثيـل دور مـدير العلاقات الإنسانية الذي يحاول إقناع المدير بضـرورة إدخال تغييرات على نظم العمل بحيث ترتفـع الـروح المعنوية للعاملين ومن ثم تزيد من الكفـاءة الإنتاجيـة للمؤسسة، ويلاحظ بقية المتدربين الآخرين مـا يـدور ويقومون بنقده ومناقشته.

ولما كان الناس يلعبـون أدوارا مختلفـة فـي حياتهم الواقعية، فإن لهم خبرة ما بمثل هذا النوع مـن الفنون. وبدرجة بسيطة من الخيال يستطيعون الانطلاق وإسقاط ما في أنفسهم علـى الأدوار التـي يقومـون بتمثيلها. ولما كان المدير يقوم واقعيا بتمثيل العديد من الأدوار فمن المتوقع أن تكون لديه درجة عاليـة مـن الوعي بطبيعة لعب الأدوار. ويستطيع المدير من خلال تمثيل أدوار بعض الذين يعمل معهم أن يصبح واعيـا بما يعنيه كل دور لكل منهم.

وعموما، فإن المتدرب يستطيع من خلال تمثيل الأدوار أن يوسع من نطاق خبرته المعاشة، حيث يتاح له خلال التمثيل اختيار أكثر من بديل سلوكي واحد في حين أنه في مواقف الحياة العملية لا يستطيع عـادة إلا تجربة اختيار واحد عمليا، وبمجرد ممارسته تنتفي بقية الاختيارات أو البدائل. بل إن الفـرد يسـتطيع خـلال ساعتين مثلا من تمثيل الأدوار يتعرف على عدد مـن البدائل المختلفة لإدارة التغيير قد تفوق مـا يمكـن أن يتعرض له في الحياة الواقعية خلال شهور طويلة. كما يمكن من خلال مناقشة تلك البدائل وتقويمها أن يتبـين ما لكل منها من أوجه ضعف وأوجه قوة.

غير أن لطريقة تمثيل الأدوار نقاط ضـعفها، فهي الأكثر كلفة، والأكثر استنزافا للوقت، فضلا عـن أنها تتطلب مدربين ذوى خبرة هائلة بحيث يستطيعون الحيلولة دون تحول الطريقة عن أهدافها. كـذلك فقـد تثير هذه الطريقة اعتراضا لـدى بعـض المتـدربين باعتبارها مدخلا طفوليا لمعالجة مشكلات جادة، فضلا عن أن بعضهم قد يحس بالحرج ويتردد في الاشتراك

في التمثيل، كما أنه قد يحدث العكـس أيضـا حينمـا يتصور بعض المتدربين أن تقييمهم في التدريب يتوقف على إتقانهم للتمثيل فيوجهون اهتمامهم الأكبـر إلـى الأداء التمثيلي والتظاهر دون اهتمام مواز بالمشكلات قيد البحث. وعلى أية حال فإن مثل هذه العقبات غالبـا ما تتلاشى تماما إذا ما وجد المـدرب الكـفء الـذي يستطيع إدارة المجموعة إدارة ناجحة.

ب) تدريب الحساسية

يعتبر تدريب الحساسية أكثر طـرق التـدريب إثارة للجدل، وهو نوع من التـدريب لا يتضـمن أي تمثيل للأدوار، بل يقوم فيه الأفـراد بلعـب أدوارهـم الحقيقية في الحياة، إلا أن البيئة المحيطة بهـم أثنـاء التدريب تشجعهم على إمعان النظر والتفكير في أنفسهم وتصرفاتهم. ويهدف تدريب الحساسية إلـى مسـاعدة الأفراد على فهم أنفسهم وفهم الآخرين والتبصـر فـي عمليات التفاعل الاحتمالي المتبادلة.

ورغم أنـه توجـد صـور عديـدة لتـدريب الحساسية، إلا أنه ثمة عناصـر ضـرورية وأساسـية

لضمان فعالية ذلك النوع من التدريب. ومن أهم تلـك العناصر، التركيز على العمليات بأكثر مـن التركيـز على المحتوى، بمعنى أن المتدربين يتعلمون بالممارسة الفعلية وإطلاق المشاعر بدلا من تلقينهم ما يجب عليهم أن يتعلموه. ومن العناصر الهامة أيضا –والتي كانـت مصدرا لإثارة قدر كبير من الجدل– أن هذا النوع من التدريب لابد وأن يتضمن قدرا من الإحباط الضروري حتى يضطر المتدرب للإفصاح عن انفعالاته الدفينـة ومن ثم يستطيع الاستفادة من خبراته.

وفي المراحل الأولى المبكرة لتطور تـدريب الحساسية كان التركيز على الفرد، حيث كان التـدريب يستهدف في المقام الأول تغيير الفرد داخليـا بحيـث يستطيع الاستجابة بطريقة أفضل للمواقف الإنسانية، إلا أنه لم يلبث أن أصبح التركيز على هدفين فـي نفـس الوقت، الهدف الأول هو الفرد، والهدف الثـاني هـو التنظيم الاجتماعي لجماعة العمل. وذلك بعد أن اتضح أن العلاقة بين الفرد وذلك التنظيم علاقة تفاعل متبادل، ومن ثم فإن الفرد إذا ما تغير سوف يجد من الصـعب

الاحتفاظ بتصرفاته الجديدة التي تعلمها ما لم يتم تعديل التنظيم الاجتماعي لجماعة العمل بحيث يجـد سـلوكه الجديد تقبلا وترحيبا.

ورغم أن من مروا بنجـاح بخبـرة تـدريب الحساسية، يعلنون أنهم قد استفادوا بما لا يقدر بـثمن من هذه الخبرة، وأنهم قد أصبحوا بالفعل أكثر هـدوءا واتزانا وقدرة على تفهم دوافعهم وانفعالاتهم والسيطرة عليها، فإن هذا التدريب قد لقي ومازال يلقى الكثير من الانتقادات العنيفة لعل أهمها:

أن من يخوض غمار هذا النوع من التـدريب ينبغي ألا يكون عصـابيا أو ممـن يعـانون مـن أي اضطراب نفسي، أي أن تدريب الحساسـية لابـد وأن يقتصر على أولئك القادرين على تحمل التوتر والقلـق الناجم عن مواجهتهم لأنفسهم مـن خـلال مواجهـة الآخرين لهم. ولقد حدث بالفعل أن أصيب عـدد مـن المشاركين في تدريبات الحساسية بانهيـارات نفسـية شديدة أدت بهم في بعض الحالات إلـى حـالات مـن الطلاق بل ومن محاولات الانتحار.

ومن ناحية أخرى فإن بعض المعترضين على هذا النوع من التدريب يستندون في اعتراضاتهم إلـى أنه لا يجوز إلزام أي من العاملين بالانتظام في دوراته كما يحدث في دورات التدريب الأخرى التـي يكـون اجتيازها شرط للترقية بل وللاسـتمرار فـي العمـل أحيانا. أما بالنسبة لتدريب الحساسية فإن المعترضـين يرون فيه نوعا من انتهاك الحرية الشخصـية حيـث يضطر المتدرب إلى تعرية دخيلة نفسه أمام الآخرين، وهو أمر –إذا ما تم– ينبغي أن يتم برغبته الكاملة دون أي ضغوط مباشرة أو غير مباشرة. ويعني ذلك أنه لا يجوز أن يتميز من اجتازوا تـدريب الحساسـية عـن غيرهم من الزملاء بأي حال من الأحوال باعتبـار أن ذلك إنما يعني ضغطا غير مباشـر علـى الآخـرين للالتحاق بذلك النوع من الدورات التدريبية.

والاعتراض الثالث اعتراض منهجـي عملـي يطرح تساؤلا مؤداه: هل مواجهة مشكلة مثل مقاومـة التغيير تتطلب بالضرورة مديرا أكثر حساسية؟ ويـرى أصحاب هذا الاعتراض أن المدير الأكثر حساسية قـد

لا يكون بالضرورة أكثر كفاءة، أو حتى أكثـر رضـا عن عمله، بل إنه قد يكون في بعض الأحيان عـاجزا عن اتخاذ القرارات الواقعية الحاسمة نظرا لحساسـيته الفائقة هذه.

ورغم كل تلك الاعتراضات، فإن كثيـرا مـن المؤسسات التي جربت برامج تدريب الحساسية تـرى أنها كانت ناجحة، وأنها قد أدت بالفعل إلـى إحـداث تغييرات إيجابية في الاتجاهات والسلوك.

جـ) التنمية التنظيمية

وهي نوع من برامج التدريب المتكاملة التـي ظهرت في الستينات. وهي تعـد بمثابـة اسـتراتيجية تدريبية تشمل كافة العاملين في المؤسسة. وتهدف إلى تغيير المدركات، وأنماط التفكير، والاتجاهـات، وقـيم العمل، والأبنية التنظيمية، أي باختصار كل ما يتضمنه مجتمع المصنع، وذلك لكي تستطيع المؤسسة أن تتكيف وتتعايش مع معدل التغيير المتزايد في عالم الصناعة.

وترجع أصول التنمية التنظيمية أساسـا إلـى سببين رئيسيين:

١- إن نظام الإدارة في المؤسسات الصـناعية لم يؤد إلى تدعيم التدريب بالدرجة الكافية، وخاصة في مجال التدريب المتعلق بمهارات العلاقات الإنسـانية. وقد أدى ذلك إلى صعوبة انتقال أثر التدريب من قاعة الدراسة إلى بيئة العمل وهـو الهـدف الرئيسـي لأي برنامج تدريبي. ومن ثم لم يكن بد من محاولة إحداث تغيير شامل في المؤسسة ككل.

٢- إن مجالات التغير لا حد لهـا، ومعدلاتـه متفاوتة إلى حد كبير. ويتطلب ذلـك مـن المؤسسـة الصناعية أن تكون على مستوى رفيع من الكفاءة كـي تستطيع الاستجابة للتغير بطريقة أكثر تناسقا وكفايـة. ولا يمكن أن يتحقق ذلك بصورة مرضية إلا من خلال برنامج شامل للتدريب يتضـمن القـدرة علـى حـل المشكلات وتنميـة المهـارات الاتصـالية وتحسـين ديناميات الجماعة، مما يؤدى في النهاية إلـى تنميـة القدرة العامة للعاملين في المنطقة على تقبل التغيير.

وتتميز التنمية التنظيمية بالخصـائص العامـة التالية:

أ) تعتبر التنمية التنظيمية استراتيجية تعليمية تسعى إلى إحداث تغيير مخطط.

ب) ينبغي أن ترتبط التنمية التنظيمية بالمشكلات الحقيقية في المنظمة أكثر من ارتباطها بحالات نظرية تناقش في قاعات الدراسة.

جـ) تعتمد التنمية التنظيمية –شأن بقية أنواع التدريب الحديثة– على التعلم من خلال المعايشة الفعلية للخبرة وليس عن طريق التلقين.

د) يتطلب تطبيق التنمية التنظيمية ضرورة الاعتماد على هيئات تدريبية متخصصة من خارج المنظمة المراد تنميتها. وذلك بحيث لا تكون هيئة التدريب جزءا من بنية تلك المنظمة حتى يمكن النظر إليها كجهة محايدة.

هـ) يتطلب نجاح التنمية التنظيمية ضرورة الاتفاق الأولي المشترك على الأهداف والوسائل، وذلك لضمان إقامة العلاقات التعاونية اللازمة المعتمدة على الثقة المتبادلة بين جهة التدريب والعاملين في المؤسسة.

و) تقوم التنمية التنظيمية علـى التسـليم بـأن تطوير العلاقات الإنسانية هو جوهر نجـاح العمليـة الإنتاجية.

ورغم أن طريقة التـدريب الأساسـية التـي تستخدم عادة في برامج التنمية التنظيمية هي تـدريب الحساسية، فإنها تشمل إلى جانب ذلـك النـوع مـن التدريب تركيزا على بناء الجماعات في علاقات حقيقية في حين يركز تدريب الحساسية على بيئـة التـدريب فحسب. هذا بالإضافة إلى أن التنمية التنظيمية تعتبـر عملية تجديد طويلة المدى في حين أن تدريب الحساسية برنامج قصير الأجل. ومن ناحية أخرى فـإن التنميـة التنظيمية تشمل المؤسسة ككل، في حين تتعامل برامج تدريب الحساسية مع جزء واحد فقـط مـن العـاملين بالمؤسسة.

التحليل عبر التفاعلي

أصدر الطبيب النفسي الشهير إريك بيرن عام ١٩٦٤ كتابا ذاع صيته منذ ذلـك الوقـت بعنـوان " مباريات يلعبها الناس".. وتقوم نظرية ايريك بيرن على

افتراض مؤداه أن شخصية كل فرد تتكون أساسا من: طفل، وراشد، ووالد. ويطلق على هذه المكونات حالات "الأنا": "أنا الوالد"، "أنا الراشد" و"أنا الطفل". ويتفاعل الأفراد مع بعضهم البعض عبر هذه الحالات للأنا. وقد أصبح التحليل عبر التفاعلي أداة من الأدوات الأساسية التي تعتمد عليها برامج التدريب القائمة على التعلم بالخبرة المباشرة. وسوف نتناول فيما يلي بالإيجاز تحليلا لكل من حالات الأنا الثلاث:

أولا: حالة "أنا الوالد"

تشمل حالة "أنا الوالد" على مجمل أنماط السلوك التي اكتسبها الفرد من الشخصيات الوالدية التي عايشها في حياته، وغني عن البيان أن الوالدية تشمل في هذا السياق نماذج الأب ونماذج الأم على حد سواء. وقد يتصف هذا السلوك المكتسب بالتحيز والتعصبي والعدوانية، كما أنه قد يتصف بالعطف والحنان والحماية. ونظرا لأن خبرات الأفراد مع النماذج الوالدية تختلف باختلاف تلك النماذج واقعيا، فإنه من الطبيعي أن نتوقع لكل فرد حالة "أنا الوالد" تختلف

تماما عن نظيرتها لدى فرد آخر. فالفرد الـذي تـأثر بشخصية والدية متعصبة ضد سلالة معينـة، أو لـون معين، أو دين معين، أو حتى مهنة معينة، قد يكتشـف خلال التدريب أنه يتعصب بنفس الطريقة عندما يكون في حالة "أنا الوالد". وكذلك الفرد الذي تأثر بشخصـية والدية تمثل إلى إعطاء النصح وتسعد برعاية الآخرين ومساندتهم في أوقات الشدة فقد يكتشف أنه يسلك بنفس الطريقة عندما يكون في حالة "أنا الوالد".

إن جذور تكوين حالة "أنا الوالد " تمتـد إلـى الطفولة المبكرة، حيث يشرع الأطفال في تقليد آبـائهم فيلعبون دور الأب الناقد موجهين نقدهم إلى لعـبهم أو حيواناتهم الأليفة أو إخوتهم الأصـغر مـنهم. بـنفس الطريقة التي يوبخهم بها آباؤهم أو أمهاتهم. وبالمثـل فإنهم قد يلعبون دور الوالد العطوف الراعي معبـرين عن حنانهم ورعايتهم تجاه نفس الأشياء والأشـخاص وبنفس أساليب الحنان والرعاية التي يتلقوها من آبائهم أو أمهاتهم.

ورغم تعدد النماذج الوالدية التي يتعامل معها الطفل في حياته الواقعية فإنه في النهاية يستدمج عددا محدودا من تلك الشخصيات، وهو ما يطلق عليه أريك بيرن عملية الاحتواء. والشخصية الوالدية المحتواه لا تكون بالضرورة هي شخصية الأب أو الأم، بل قد تكون شخصية زوج الأم، أم زوجة الأب، أو الجد، أو الجدة، أو المربية، أو الأخ الكبير، أو الأخت الكبرى... وهكذا. وتخضع عملية اختبار تلك الشخصيات المنتقاة لشبكة بالغة التعقيد من العوامل المتشابكة لسنا بصدد التعرض لها.

ولعله مما يثير الاهتمام فيما يتعلق بحالة "أنا الوالد"، إنها تتضمن في داخلها الأوجه الثلاثة الأصلية لحالات الأنا. فكل شخصية والدية واقعية عاشها الطفل تتضمن حالات الأنا الثلاث: "أنا الوالد" و"أنا الراشد" و"أنا الطفل"، وكان الطفل يتعامل مع هذه الحالات الثلاث أو الأدوار الثلاثة خلال تفاعله مع الشخصيات الوالدية الواقعية. فالوالد قد يلاعب الطفل ويشاغبه من خلال حالة "أنا الطفل"، كما أنه كثيرا ما ينصحه

ويوجهه أو ينتقده ويوبخه من خلال حالة "أنا الوالـد"، وأحيانا أخرى يناقشه وينصت إليه من خلال حالة "أنـا الراشد". فضلا عن أن الأمر لا يقتصر على التفاعـل المباشر بين الوالد والطفل بل إنه يشمل أيضـا رؤيـة الطفل للوالد وهو يتعامل مع الآخرين عبر حالات الأنا الثلاث. وحين يحتوي الطفل الشخصية الوالديـة فإنـه يحتويها بحالاتها الثلاث الأساسية. وهذا يعنى أن المرء قد يقلد –دون أن يشعر– حالة معينة من حالات الأنـا التي تميز الشخصية الوالدية التـي احتواهـا. بعبـارة أخرى فإنه قد يعبر عن طفولة تلك الشخصية الوالديـة فيهوى الملاكمة مثلا كما كان يهواها الأب، كما أنه قد يعبر عن رشد تلك الشخصـية فيسـعى للتفـوق فـي الهندسة مثلا، بالإضافة إلى أنه قد يعبر أيضـا عـن والدية تلك الشخصية فيظهر تعاطفـه مـع الآخـرين ومواساته لهم في الشدائد.

وبالتالي فلو تصورنا أن الفـرد قـد احتـوى شخصية أباه وأمه مثلا بالنسبة له حالة "أنا الوالد" فـإن هذه الحالة تتكون بدورها من حالات ست هي:

١- حالة "أنا الوالد" للأب.

٢- حالة "أنا الوالد" للأم.

٣- حالة "أنا الراشد" للأب.

٤- حالة "أنا الرائد" للأم.

٥- حالة "أنا الطفل" للأب.

٦- حالة "أنا الطفل" للأم.

والمفترض أن حالة " أنا الوالـد" بتركيباتهـا المختلفة هي الحالة التي تضمن انتقال التراث السلوكي عبر الأجيال حتى بالنسبة للتفاصيل الدقيقة.

وحيث يتعامل الفرد مع الآخرين مـن خـلال حالة "أنا الوالد" فإنه غالبا ما يستخدم نفس الإيمـاءات ونبرات الصوت التي كانـت تسـتخدمها الشخصـية الوالدية خلال تعاملها مع حالات الأنا الـثلاث لـذلك الآخر. بعبارة أخرى فإن الفرد من خلال حالـة "أنـا الوالد" قد يوجه رسالة إلى حالة "أنا الطفل" لدى الآخر فيؤنبه ويوبخه ويوجهه وينصحه، كما لو كـان ذلـك الآخر طفلا بصرف النظر عن عمره الحقيقي بطبيعـة الحال. وفي أحيان أخرى قد يوجه الفرد من خلال حالة

"أنا الوالد" رسائله إلى حالة "أنا الراشد" لـدى الآخـر محاولا نصحه دون إلحاح. وفضلا عـن ذلـك فقـد يتعامل الفرد من خلال حالة "أنا الراشد" مع حالة "أنـا الوالد" أيضا لدى الآخر، وهكذا.

ولا يقتصر تأثير حالة "أنا الوالد" على التفاعل مع الآخرين، بل إنها تمارس تأثيرهـا أيضـا علـى مستوى التفاعل الداخلي، أي داخل الفرد نفسه، فـالفرد يستمر عادة في استرجاع الرسائل التي سبق أن تلقاها من الشخصيات الوالدية التي احتواها وهو ما يمكن أن يطلق عليه "صوت الضمير"، حيث يغلب علـى هـذه الرسائل عادة طـابع النصـح والإرشـاد والتوجيـه والتحذير... إلى آخره.

ثانيا: حالة "أنا الراشد"

ولا ترتبط هذه الحال –فيما يرى اريك بيرن– بعمر الفرد، وهي تعبر عن التفكير الرشيد على أساس من الحقائق الموضوعية وما يتضمنه ذلك التفكير مـن قدرات نقدية وتنظيم للمعلومات واتخاذ للقرارات... إلى آخره. إن ما نلحظه أحيانا من محاولات يعبـر عنهـا

الفرد صراحة تفصح عن إدراكه لما اكتسبه من سلبيات عن والده وسعيه للتخلص من تلك السلبيات إنما يكـون تعبيرا عن حالة "أنا الراشد" لديه. وكذلك حـين يقـرأ الفرد كتابا، أو يحـل معضـلة رياضـية، أو يخطـط لمشروع، أو يمارس عملا منتجا، فإنه في كـل هـذه الأحوال إنما يتصرف غالبا عبر حالة "أنـا الراشـد". ويكون لحالة "أنا الراشد" السيطرة في غالبية حـالات الحياة الواقعية، فمن خلالهـا يقـوم الفـرد بتجميـع المعلومات وتخزينها وفقا للخبرات السابقة، كما يقـوم باستعادة المناسب من تلك الخبرات للاستفادة منه فـي الموقف الراهن بعد تقدير كافة الاحتمالات الممكنة.

وفي نفس الوقت الذي يتعامل فيه الفرد عبـر حالة "أنا الراشد" مع العالم الخارجي، فإنه يتفاعل عبر هذه الحالة داخليا، إذ تمارس حالة "أنا الراشد" تأثيرهـا على حالة "أنا الطفل" فتحد مـن انـدفاعاتها وتؤجـل الاستجابة لمطالبها وفقا لما يقتضيه الموقف الـواقعي، ومن ناحية أخرى فإنها تمارس تأثيرها أيضا على حالة "أنا الوالد" لتحد من تزمتهـا وتخفـف مـن صـرامة

توجيهاتها بحيث تصبح متلائمة مع متطلبات الموقـف الواقعي.

إن حالة "أنا الراشد" هي بمثابة المايسترو الذي يتولى التنسيق بين قوى ثلاث هي الموقف الواقعي من ناحية، و "أنا الطفل" من ناحية أخرى، و "أنا الوالد" من ناحية ثالثة. ولذلك فإن كفاءة حالة "أنا الراشـد" تتـأثر تأثر كبيرا بحجم المعلومات التي تتوافر لـدى الفـرد ومدى واقعيتها ودقتها، فضلا عن تأثرها بمـدى قـوة وإلحاح حالتي "أنا الطفل" من ناحية، و "أنا الوالد" مـن ناحية أخرى.

قد يستيقظ الفرد من نومه مثلا فتلح عليه حالة "أنا الطفل" في ألا يـذهب إلـى العمـل وأن يسـتمتع بالاسترخاء والتحرر من القيود، في حين توبخه حالـة "أنا الوالد" مذكرة إياه بقدسية احترام قيمة العمل وبأنـه ينبغي أن يكون نموذجا يحتذى في الالتزام بهذه القيمة، وأن تسيبه سوف يخل بصورته أمام أطفالـه... إلـى آخره. أما حالة "أنا الراشـد" فيكـون عليهـا إبـراز الأضرار الواقعية المترتبة على الانقطاع عـن العمـل

سواء من الناحيـة الماليـة أو الناحيـة الاجتماعيـة، وموازنتها بما يعنيه الاستمتاع بالاسترخاء والتحـرر. والاستعانة في سبيل ذلك بمخزون الخبـرات السـابقة للفرد وما يعرفه عن خبرات للآخرين من زملائه فـي هذا الصدد، وبناء على كل ذلك يتم اتخاذ القرار.

وبطبيعة الحال فإن مثل ذلك الحل الرشـيد لا يحدث في كل الأحوال وبالنسبة لكل الأفراد. قد نجـد فردا خضعت لديه حالة "أنا الراشد" خضوعا تاما لحالة "أنا الطفل" فإذا به يستغرق في أحلام اليقظة، مسـتمتعا بالحلول الخيالية التي لا تحدث أبدا، غير قـادر علـى الاستفادة من خبرات الآخرين أو حتى من خبراته هـو الشخصية، أميل للاستهتار واللامبالاة، عـاجزا عـن تحمل المسئولية. ويطلق ايريك بيرن على هذه الظاهرة تعبيرا بالغ الدلالة وهو "فساد حالـة أنـا الراشـد" أو تلوثها. وقد يكون مصدر تلوث حالة "أنا الراشد" هـو سيطرة حالة "أنا الوالد" إذا ما كانت ملامح هذه الحالـة تتسم بالتعصب والتطرف والأنانية مثلا.

وتستهدف بعض البرامج التدريبية إزالة مثـل ذلك التلوث لحالة "أنا الراشد" بتشجيع الفرد على إعادة إدراك اعتقاداته وآرائه إزاء حالة "أنا الوالـد" وكـذلك مشاعر وتخييلات حالة "أنا الطفـل" ومراجعتهـا فـي ضوء الواقع.

ثالثا: حالة "أنا الطفل"

وتتضمن حالة "أنا الطفل" كل ما ولـد الطفـل مزودا به من سلوك تلقائي فطرى، وكل ما تعلمه الفرد خلال طفولته من أساليب لإشباع حاجاته والتعبير عـن مشاعره. وتتضمن حالة "أنا الطفل" إلى جانـب ذلـك مخزون التدريبات والخبرات المكتسبة خـلال طفولـة الفرد والتي تؤثر بعد ذلك في سلوكه اللاحق. ويتضح ذلك بشكل خاص فيما يعرف بمخاوف الطفولة. فالطفل الذي عانى خلال طفولته من تأثير موقف مفزع آثـار رعبه من كلب شرس مثلا، فإنه عادة سوف يستشـعر نوعا من الاضطراب إذا ما صادف فيمـا بعـد كلبـا ضخما يقترب منه وكان هو في حالـة "أنـا الطفـل". وعموما فإن تصرفات الأفراد عبر حالة "أنـا الطفـل"

تكون تكرارا لنفس التصرفات التي سبق أن اتبعوها في طفولتهم وأثبتت جدواها. فالفرد الذي تعلم في طفولتـه أن الإلحاح والإصرار هو السبيل الأمثل للحصول على مطالبه سوف يكون أكثر تمسكا بهذا الأسلوب عن فرد آخر تعلم في طفولته أيضا أن الإلحاح أمر مهين وأنـه قد يؤدي إلى حرمانه مما سبق أن اكتسبه بالفعل.

ويفضل ايريك بيرن تقسيم حالة "أنا الطفل" إلى مكونات ثلاث يطلق عليها التسميات التالية:

١- "الطفل الطبيعي" هو ذلـك الجـزء الحـر الطليق الذي لا يعترف بقيـد أو رقيـب. إنهـا حالـة الرضيع بما يميزها من تلقائية وحب للاستطلاع. إنـه يفعل أي شيء يريد أن يفعله وفورا دون التفكير فـي العواقب. إنه لا يفكر إلا فيما يريد، ويتوقع الاسـتجابة الفورية لطلباته، وينظر إلى التأجيل باعتبـاره رفضـا وإلى الاختفاء باعتباره فقدانا نهائيا.

٢- "الشاطر الصغير" وهو ذلك الجزء الطفولي الماهر في كل فرد. إنه تلك المهارة التلقائية التي قـد تتجلى في بعض المواقـف دون تـدريب مسـبق. إن

الأطفال قد يبدون من الفطنة والمهارة في سن مبكـرة جدا ما يمكنهم من تطويع الآخرين للاستجابة لمطالبهم من خلال الضغط عليهم انفعاليا. إن الفرد الذي يتمكن مثلا من خلال تعبيرات جسمية معينة –كالإغمـاء أو البكاء مثلا– أن يدفع بشخص آخر إلى أقصى درجات الأسف والألم والندم والاستجابة فورا لمطالبه، إنما هو يتصرف من حالة "أنا الشاطر الصغير".

٣– "الطفل المتكيف" وهو ذلـك الجـزء مـن الطفل الذي يتضمن ما تعلمه من أساليب وعادات تكفل له التكيف مع متطلبـات الآخـرين مثـل الاسـتخدام المناسب لكلمتي "شكرا" و "من فضلك"، أو الانسـحاب من المواقف المتوترة لكي يجنب نفسه التعرض للنقـد، أو الانصياع والطاعة العمياء للشخصيات الوالدية إلـى آخره. وتنعكس مثل هذه التصرفات على سلوك الفـرد عندما يكبر ويواجه الحياة العملية.

إن حالة "أنا الطفل" تنشط عادة عندما يستشعر الفرد ضعفا كأن يكون جائعا، أو مريضا، أو متعبا، أو قلقا، أو خائفا... إلى آخره. في مثل تلك المواقف تكون

حالة "أنا الطفل" في حاجة لإشباع فـوري، وإلا تفـاقم إحساس الفرد بعدم الارتياح.

ولعله مما يستوقف النظـر أنـه فـي بعـض المواقف التي يفتقد فيها الفرد وجود آخر يقوم بإشـباع احتياجاته المرتبطة بحالة "أنا الطفل" لديه فإنه قد يقـوم بإشباعها ذاتيا سواء من خلال حالة "أنا الراشد" أو "أنا الوالد". فقد يحس المرء مثلا بخوف شديد من تواجـده في الظلام وحيدا، أو بقلق شديد وهو ينتظـر وحيـدا نتيجة الامتحان، أو بحاجة ملحة للتعـاطف والمسـاندة وهو مريض وحيد... إلى آخره. في مثل هذه المواقف قد نجد الفرد من خلال حالة "أنـا الراشـد" يمـارس عمليات الإشباع الضرورية اللازمة لحالة "أنا الطفـل" لديه. قد يردد لنفسه مثلا. ليس مـن مبـرر إطلاقـا للخوف من الظلام. لقد سـبق أن انقطعـت الكهربـاء مرات عديدة دون أن يحـدث شـيء " أو "أن نتيجـة الامتحان تكون عادة تعبيرا عن الجهد الذي بذل، وهي على أية حال وأيا كانت ليست نهايـة الحيـاة. ثـم إن الاستسلام للقلق لن يؤثر على النتيجة بأي حال، فلأكن

واقعيا ولأكف عن هذا القلق المدمر" أو "إن لكل مرض علاج، والعلاج لكي يحدث تأثيره سوف يستغرق وقتا، لابد إذن من الانتظار دون توتر".

وقد تصدر رسائل الإشباع كذلك عبر حالة "أنا الوالد" فإذا بالمرء يردد لنفسه " لا ينبغي الخوف مـن الظلام، إنك لم تعد طفلا، ماذا تركت للصغار إذن"، أو "إنك على الأرجح سوف تنجح، فقد بذلك جهدا لا بأس به، اطمئن" أو " إن حالتك ليست خطيرة، إنه مـرض بسيط عابر سرعان ما ينتهي، إنك بالتأكيد في طريقك للشفاء".

إننا جميعا خلال ممارساتنا لحياتنـا الواقعيـة ننتقل عادة بين حالات الأنا وفقا لاحتياجاتنا واحتياجات الآخر، ووفقا كذلك لطبيعة المواقف التي نمر بها. وقد يجد البعض صعوبة في الانتقال بين "حالات الأنا" حيث يجمدون على إحدى الحالات دون الانتقال إلى غيرها، حتى لو اقتضى الموقف ذلك، فيصبحون في حالة "أنـا الوالد" أو "أنا الطفل" أو "أنا الراشد" بشكل دائم.